بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية

جمعه ووثق نصوصه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

المجلد الأول

دار ابن الجوزي

جميع الحقوق محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الأولى

ربيع الثاني ١٤١٤هـ
١٩٩٣م

دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية
الدمام : شارع ابن خلدون - ت : ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب ٢٩٨٢، - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة - ت، ٥٨٢٣١٢٢
الرياض - ت : ٤٣٥١٠٠٢
جده - ت : ٦٥١٦٥٤٩

الرئاسة العامة لشئون المسجد الحرام والمسجد النبوي
وكالة الرئاسة لشئون المسجد النبوي الشريف
مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب: ٢٧٩٩٦
تاريخ التسجيل: ٨ / ٢ / ١٤١٧هـ

بدائع التفسير

الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

« إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى » .

الإهـــداء

إلى إمام أهل السنة والجماعة الذي خالط حبه قلبي وبصرني الله به طريقي سيدي الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه

تقــديم

الحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له والصلاة والسلام على سيد ولد آدم أجمعين رسوله الخاتم الداعي له.

وبعــد :

فمما لا شك فيه ولا يجحده إلا ميت القلب مظلم العقل غائب أو مغيَّب الوعي، أن بشائر النور قد هلَّت وشمس الشريعة قد أشرقت وحدائقها أثمرت شبابًا صالحًا انتبهوا من سبات طويل أريد بهم ، وليل مظلم أحاطهم ، وشهوة خالطت قلوبهم ، وسكرة ألَمَّتْ بعقولهم .

انتبهوا على صوت صحوة ، أن هلموا إلى ربكم ، فقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، هذه اليقظة هي عودة حميدة مباركة إلى دينهم . الذي هو حصنهم المنيع ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام :١٥٣] فرارًا إلى ربهم سبحانه الذي حثهم بقوله : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الذاريات : ٥٠] ففروا خوفًا وطمعًا وهاجروا إليه شوقًا وحبًّا،وَلِمَ لا وهو حبيبهم وخالقهم وهاديهم إلى صراط مستقيم بإذنه ، فهو حسبهم ونعم الوكيل ، بيده الخير ، ففي رحمته سعة لهم ، وفي فضله ملجأ لهم ، فأيقنوا بفضل الله أن هذه الحياة لجة ، فاتخذوا صالح الأعمال سفنًا لينجوا من عذاب ربهم ، إنهم فتية آمنوا بربهم وسط غابة الكفر والإلحاد ، وانقادوا طائعين لنبيهم صلى الله عليه وسلم فارين من طواغيت الإنس والجن أعوان الشيطان ، متبصرين بهدي سلف الأمة الصالح الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه .

ولكن ... هل تأتي الرياح بما تشتهي السفن ؟ ليس دائمًا ، بل الأصل أن سفينة المؤمن لا بد أن تتخبطها أمواج البلاء والمحن وأعاصير الأعداء من المنافقين

والفساق وإخوانهم من صنوف الأعداء ، حتى يصل إلى ربه راضيًا مرضيًّا ، هذه سنن الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

[البقرة : ٢١٤] .

نعم إنها سنن الله تعالى، الامتحان والتمحيص حتى يميزَ الله الخبيث من الطيب ، والعاقبة للمتقين ، إذًا فلا مفر من الاستعانة بالله وحسن التوكل عليه مع الأخذ بالأسباب الصحيحة الشرعية . والتعاون على البر والتقوى ، ونبذ الخلاف وهجر التعصب، والقيام لوجه الله تعالى قومة لا يُبتغى بها سواه وحده لا شريك لـه، لا رياء ولا سمعة ولا رياسة إنما ابتغاء وجه الله تعالى ، وجماع الأمر قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]. فهم غرس الله تعالى الذي يغرسه لهذا الدين ، هذه اليقظة التي أزعجت الشرق والغرب ، فأعدوا لها عدة هي واهية وحشدوا لها حشودًا عاتية ، ومكروا ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، ويكيدون ويكيد كيدًا سبحانه وهو الله الغالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

لكن لا بد لهذه العودة الحميدة إلى صراط الله المستقيم من منهج صحيح سليم ، ووعي وتدبر عميق صادق مخلص . وهذا إنما يتم بصحة المنهج الذي يتفرع عند العمل الصائب والدعوة الصحيحة . ومما لا يختلف عليه اثنان من عقلاء المسلمين ونبهاء المؤمنين وأتقياء الصالحين أن المنهج ليس بجديد مخترع أو ملفق مصطنع أو قديم منغلق .

بل المنهج واضح كضوء الشمس في الظهيرة لا يخفى إلا على الأعمى ولا يغيب إلا عن المنافق ، هذا المنهج هو « كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه

وسلم بمفهوم السلف الصالح رضي الله عنهم » . شريعة وعقيدة ، أخلاقًا وسلوكًا ، فكرًا وعملًا ، هذا المنهج هو الميزان بين الخير والشر ، والفرقان بين الحق والباطل .

كما قال إمام أهل السنة سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه : « أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم ، وترك البدع ... » في وصية أقل ما تُصان به أن تكتب بالذهب . (طبقات الحنابلة : ٢٤١/١) . هذا المنهج الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد ، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات ، من ظلمات الظلم إلى نور العدل ، من ظلمات الحكم الجاهلي البهائمي إلى نور الحكم القرآني الرباني ، فلا ولن ينصلح حالنا إلا بما صلح به حال أوّلنا وهم آباؤنا وقدوتنا ، كما قال الإمام مالك : « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما أصلح بها أولها » .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

ونحن نقول هذا لكل « فرزدق » أراد أن يفتخر علينا بغيرهم وينزع من قلوبنا اتباعهم فعمله هذا ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ [آل عمران : ١١٧] ، الصرُّ : البرد الشديد ، أو ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩].

فكيف نقابل الله تعالى ونحن نتبع غير سبيل المؤمنين ، كيف نقابله ونحن نرضى بغيرهم قدوة ومثلًا ومنارًا متبعًا ، هيهات هيهات .

وما فسره ابن القيم رحمه الله تعالى ، والمجموع في « بدائع التفسير » ، ما هو إلا صورة من الصور التي قرب بها العلماء المنهج الصحيح تقريبًا سليمًا سهلًا . حتى يتيسر للمسلمين العمل المبني على علم صحيح ، وهو خير دليل على قوة المنهج الإسلامي وسلامته من كل عطب ونقائه من كل شائبة ، وسترى أيها

القارىء الكريم كيف أن القرآن كلام الرحمن ، شريعة الإسلام، أنزله رب العالمين ليكون هو المنهج المتبع والكتاب المهيمن .

لتتم للصحوة المباركة خطوات النجاح وتكلل بالفلاح ، ويعم الصلاح ، فلا مفر من التمسك بهذا المنهج .

وصاحب هذ التفسير إمامنا ابن القيم غني عن أن يقال عنه كذا وكذا ... من قصائد المدح ، فالشاهد عليه قلمه وهو المبين عن فكره ، فإليك أخي المسلم وأختي المسلمة هذا البستان ، فإن لمست ناعمًا من زهوره أو شممت طيبًا من ريحانه فاشكر الله تعالى على ما يسر ووفق، أما إن أصابتك شوكة فاعلم أن كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فاستغفروا الله لي وللمسلمين .

الباب الأول

قصة الكتاب

من حين أراد الله تعالى لهذه الصحوة المباركة أن تشرق شمسها ، ونحن نرى مشايخنا وأساتذتنا يحثوننا على قراءة -وإن استطعنا حفظ- كتب عالم جليل ورع صادق هو الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى[١]، فأنت في بستان « فوائده » تتنقل بين زهوره اليانعة النافعة ثم مع حصن « إغاثة اللهفان » يحوطك بسياج الخير الحامية لك من الشر. وبالأدلة والبراهين في « إعلام الموقعين » ترى الحق ساطعًا، والاتباع واضحًا ، والتقليد والمقلد مفلسًا .... فكل عمل من أعماله رحمه الله تعالى حدائق يانعة الثمار ، وأنهار عذبة المياه ، وليس مع الثمر والماء جوع أو عطش .

فكنا نقرأ كتبه رحمه الله تعالى مرات، خاصة المتعلق بالأخلاق « كالفوائد » و « المدارج » و « الإغاثة » و « عدة الصابرين » : على سبيل المثال ، فكانت نعم المعين على سلوك الطريق - الذي نسأل الله تعالى أن يكون مستقيمًا وأن يثيبنا عليه .

وكثيرًا ما كنا نُنصح أن ندون ما نقرؤه في هيئة جذاذة بطاقة فيسهل الوصول إلى المعلومة المرادة في بحث أو محاضرة أو خطبة .

وكان أكثر ما يشغلني في هذا الأمر كتب التفسير والحديث - لانشغالي بهما كثيرًا وحبي الجارف للتفسير وعلوم القرآن،وحاجتي لهما في الخطابة وغيرها من بحث أو عمل أبتغيه .

وكان الإعجاب الشديد بابن القيم رحمه الله تعالى والاعتماد على كتبه دافعًا لموضوع الفهرسة لكتبه وهذا الأمر أخذ يتدافع في نفسي أكثر من خمس سنوات

---

(١) أما شيخه شيخ الإسلام « ابن تيمية » رحمه الله تعالى فهو أمة وحده .

بين البداية والاستمرار والانقطاع . حتى كان توفيق الله وتيسيره إلى البداية الجادة لفهرسة كتبه رحمه الله تعالى فهرسًا « ألف بائيا » ليبسر على القارىء أو الباحث الرجوع متى شاء إلى ما يريده من كتبه بطريقة سهلة ميسرة بعون الله تعالى .

فمثلًا : موضوع : (التوكل الصحيح وثمرته).

- زاد المعاد (٢/٣٦٣ و ٤٤٤) .
- مدارج السالكين (١/٧٥ و ٨١) .
- إغاثة اللهفان (١/٢٧ و ٣٤ و ٣٥ و ٢١٤) .

وهذا على سبيل المثال .

وفي الخطوات الأولى لهذه الفهرسة كنت أظن الأمر سهلًا ، ولكن بالنظر إلى اثنين وثلاثين كتابًا لابن القيم ، تحتوي على خمسين (٥٠) مجلدًا في المتوسط لاختلاف الطبعات ، وهذه بدورها حوت أكثر من ثلاثة وثلاثين ألف صفحة في المتوسط أيضًا فعليك بتصور هذا العمل ، كيف يكون ؟.

وفي أثناء ذلك – وهذا من توفيق الله – عنَّ لي : لماذا لا أجمع ما فسره الإمام ابن القيم من آيات الذكر الحكيم ، وهو ما نبه عليه كثير من العلماء كما سيأتي.

فقمت بعون الله تعالى بفهرسة ما سلف ذكره في أكثر من خمسين ألف بطاقة فهرسة . وفي أحيان كثيرة تُفهرس الصفحة الواحدة في أكثر من ثمان بطاقات ، فتجد فيها كلامًا مثلًا عن الإخلاص والصدق ... إلخ .

تسأل ما فائدة هذه الفهرسة ، وعلاقتها بالتفسير ؟

قلت : إن هذه الفهرسة تعين في البحث الموضوعي للناظر في مؤلفات الإمام رحمه الله تعالى ، وهذه الفهرسة بهذه الطريقة تجعل اقتناص التفسير من بين الصفحات بل السطور ، أمرًا يسيرًا إلى حد ما ؛ لأن هذه الفهرسة تتم بتأنٍ وتؤدة ، مما يمكن من عدم تفلت شيء من المراد عمله . وليس لكتاب حد الكمال إلا كتاب الكبير المتعال .

ومـن ذا الذي مـا ساء قـط ومـن لــه الحسنـى فقــط

وما لا يدرك كله ، لا يترك جله . ولكن هذه طاقتي ، وجهدي اليسير من حال عبد حقير ، إن لم يستره ربه ويغفر الله له فالقبر أولى به . ونعوذ بالله أن تكون النار مثوى له . فكل الرجاء أن يتقبل الله تعالى ويدخلنا جنته برحمته .

وسأزيد الأمر تفصيلًا عند الكلام عن بدائع التفسير إن شاء الله .

الباب الثاني

التفسيرُ وأمنية ابن القيم

هناك سؤال ملح وهو : هل لابن القيم تفسير للقرآن مستقل ؟ .

لا ، ولا شك في ذلك ، وما شاع مما يسمى « التفسير القيم » فهو ليس من جمعه بهذا النسق ، إنما من صنع بعض المعاصرين في أوساط هذا القرن العشرين ، كما سيأتي .

ولكن ابن القيم رحمه الله تعالى تمنى تفسير القرآن الكريم ، ترى ذلك في مواضع من كتبه ، يقول رحمه الله تعالى في بدائع الفوائد : (١٤١/١ - ١٤٢) . عقب كلامه عن سورة «الكافرون»: «فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ، ومقصودها وبديع نظمها من غير استعانة بتفسير ، ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه ، بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه ، والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ، ولبالغت في استحسانها ، وعسى الله المانُّ بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب ، وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط ، وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس والله المرجو إتمام نعمته » .

رحمك الله يا ابن القيم ، وأثابك الله بحسن نيتك ، ونسأل الله أن يجعل فائدة ما جمعناه مما فرقته أنت في ميزان حسناتنا وحسناتك ، وحسبك أن الأمة **تترحم عليك بعد هذه القرون ، وألا يحرمنا أيضًا من ثوابه سبحانه وتعالى . فالمرء على قدر نيته يثاب ، وأنت رحمك الله تعالى مما نفع الله بك الناس ، وفي هذا فليتنافس المتنافسون .**

إذًا ! فابن القيم رحمه الله تعالى لم يصنع تفسيرًا مع أمنيته لذلك .

الباب الثالث

التفسير القيم

١ـ هذا العمل - كما مر - ليس من صنع ابن القيم نفسه ، « إنما جمعه الأستاذ الشيخ العلامة محمد أويس الندوي ، خريج ندوة العلماء من (تكرام ، ضلع لكهنؤ) من البلاد الهندية بذل فيه جهدًا مشكورًا ، قرأ المطبوع من مؤلفات الإمام الحافظ شمس الدين ابن القيم ، ثم استخرج منها هذه المجموعة القيمة من التفسير وهي وإن كانت لم تستوعب تفسير القرآن كله »[1].

وقد نقل فضيلة الشيخ العلامة « بكر عبد الله أبو زيد » عن الأستاذ محمد بهجت البيطار «ثناءه على هذا الجمع ، ونبه على مواضع فاتت الجامع ، وتمنى لو حصل التتبع الدقيق ، والتقصي الأنيق لمباحث ابن القيم في ذلك » من كتابه « ابن القيم حياته وآثاره وموارده » (٢٣٢) .

٢ـ وهذا العمل المتميز الفريد قد شابته بعض لمسات الخلل التي لا يخلو منها عمل بشر ، من ذلك :

أ ـ عدم استيعابه لجميع السور التي تكلم عن بعض آياتها ابن القيم ، وهذا إما لعدم تيسر كل ما طبع تحت يديه أو لعدم استيعابه لكل ما فسره في نفس المرجع ، كما سيأتي . والسور التي ذكرها هي سبعون سورة وهي :

١ ـ الفاتحة	٢ ـ البقرة	٣ ـ آل عمران .
٤ ـ النساء	٥ ـ المائدة	٦ ـ الأنعام .
٧ ـ الأعراف	٨ ـ الأنفال	٩ ـ التوبة
١٠ـ يونس	١١ـ هود	١٢ـ يوسف .

(١) من مقدمة التفسير القيم ص (٣) بقلم مراجعه ومحققه الشيخ محمد حامد الفقي رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية رحمه الله تعالى .

١٣ـ الرعد ١٤ـ إبراهيم ١٥ـ الحجر .
١٦ـ النحل ١٧ـ الإسراء ١٨ـ الكهف .
١٩ـ مريم ٢٠ـ طه ٢١ـ الأنبياء .
٢٢ـ الحج ٢٣ـ المؤمنون ٢٤ـ النور .
٢٥ـ الفرقان ٢٦ـ الشعراء ٢٧ـ النمل .
٢٨ـ القصص ٢٩ـ العنكبوت ٣٠ـ الروم .
٣١ـ سبأ ٣٢ـ فاطر ٣٣ـ يسٓ .
٣٤ـ الصافات ٣٥ـ صٓ ٣٦ـ الزمر .
٣٧ـ غافر ٣٨ـ فصلت ٣٩ـ الشورى .
٤٠ـ الدخان ٤١ـ الجاثية ٤٢ـ الأحقاف .
٤٣ـ محمد ٤٤ـ الحجرات ٤٥ـ قٓ .
٤٦ـ الذاريات ٤٧ـ الطور ٤٨ـ النجم .
٤٩ـ الرحمن ٥٠ـ الواقعة ٥١ـ الحديد .
٥٢ـ المجادلة ٥٣ـ الصف ٥٤ـ الجمعة .
٥٥ـ المنافقون ٥٦ـ التحريم ٥٧ـ نٓ .
٥٨ـ المزمل ٥٩ـ المدثر ٦٠ـ القيامة .
٦١ـ النبأ ٦٢ـ المطففين ٦٣ـ الانشقاق .
٦٤ـ الطارق ٦٥ـ الشمس ٦٦ـ الضحى .
٦٧ـ التكاثر ٦٨ـ الكافرون ٦٩ـ الفلق .
٧٠ـ الناس .

أما السور التي لم يذكر منها شيئًا فهي :

١ ـ لقمان ٢ ـ السجدة ٣ ـ الأحزاب .
٤ ـ الزخرف ٥ ـ الفتح ٦ ـ القمر .
٧ ـ الحشر ٨ ـ الممتحنة ٩ ـ التغابن .
١٠ـ الطلاق ١١ـ الملك ١٢ـ الحاقة .

١٣ـ المعارج	١٤ـ نوح	١٥ـ الجن .
١٦ـ الإنسان	١٧ـ المرسلات	١٨ـ النازعات .
١٩ـ عبس	٢٠ـ التكوير	٢١ـ الانفطار .
٢٢ـ البروج	٢٣ـ الأعلى	٢٤ـ الغاشية .
٢٥ـ الفجر	٢٦ـ البلد	٢٧ـ الليل .
٢٨ـ الشرح	٢٩ـ التين	٣٠ـ العلق .
٣١ـ البينة	٣٢ـ الزلزلة	٣٣ـ العاديات .
٣٤ـ العصر	٣٥ـ الهمزة .	٣٦ـ الإخلاص .

حصر للسور التي لم أستطع الوقوف على شيء من تفسيرها مما تحت يدي من مؤلفاته المطبوعة :

١ ـ القدر	٢ ـ القارعة	٣ ـ الفيل .
٤ ـ قريش	٥ ـ الكوثر .	

والله تعالى الموفق .

ب ـ عدم استيفاء الكلام عن آيات السورة الواحدة في نفس المرجع ، مثال ذلك : سورة البقرة .

ــ هناك (٤) مواضع – على سبيل المثال – زائدة عما ذكره من شفاء العليل وهي الآيات (٦ و ٣٠ و ٢٢٥ و ٢٥٠) .

ــ ومن أعلام الموقعين الآيات رقم (٦٥و١٠٤و١٤٣و١٨٢و١٨٩و٢٢٥و٢٣٥ و ٢٨٣ ...) وهكذا سائر المراجع . **فسورة البقرة وحدها لها ما يقرب من سبعين موضعًا زائدًا عما ذكره .**

جـ ـ عدم تخريجه للأحاديث ، سواء الجامع أو المصحح رحمهما الله تعالى . عدا بعض الأحاديث اليسيرة المعدودة مثلًا عند الآية (٢٦) من سورة آل عمران ومع هذا ترى المحقق – الشيخ الفقي – رحمه الله تعالى بدلًا من ذلك ينقد ابن القيم دون دليل علمي غالبًا ، فيقول مثلًا بعد استشهاد ابن القيم بحديث صحيح: « ما

درجة هذه الأحاديث من الصحة ؟ فليس كل ما قيل حديثًا يكون حديثًا » !!! هكذا !؟ (تفسير سورة الناس ص ٥٧٨) . وهو حديث صحيح كما هو مبين في موضعه من « بدائع التفسير » .

د ـ تكلف المحقق في الرد والنقد لابن القيم دون تحقيق أو تروٍّ ، وهذا لعله ناشىء من تحامل الشيخ الفقي- رحمه الله تعالى – بشدة على أدعياء التصوف ، فيؤدي به هذا في أحيان كثيرة إلى إنكار بعض الثابت الصحيح ، والمبالغة في رفضه بما لا يحسن .

مثلًا : قال ابن القيم في تفسير سورة الفاتحة (٩٠) فيمن قدم طاعة أحد من الأهل أو الأقارب على طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . إلخ يقول: « ... لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظنًا منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول ، فيطيعه ويحاكم إليه ويتلقى أقواله كذلك فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك » اهـ.

فأنت ترى أن هذا المشتبه عليه يظن أن ما قدمه هو الموافق لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وليس كذلك في الحقيقة ، ولكن هذا معذور ، وهذا هو الحق والله أعلم . فيعقب الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى بقوله : « المتبع لنصوص الكتاب والسنة بتدبر : لا يجد فيها ما يعذر هؤلاء ، ...» إلخ ، نفس الصفحة . فلو نظرت في باقي كلامه ترى من التعنت والتكلف الواضح . فهو يضع هذا المشتبه عليه بمنزلة المكابر والمعاند المصر . وهذه سمة غالبة في كثير من تعليقاته رحمه الله تعالى ، والإنصاف أقرب الطرق إلى الحق ، ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] وهذا كله لا ينقص من قدر ما قام به هذا الرجل في نشر العلم وكتبه ومراجعه الكبرى وتأسيسه لجماعة تعمل لنشر الفكر السلفي ، رحمه الله تعالى . وانظر أيضًا ص (١٠٦) من « التفسير القيم » لبيان طريقة الشيخ في النقد وانظر في ذلك أيضًا مدارج السالكين (٣٩/٢) .

هـ ـ معالجة التصحيفات والتحريفات قدر الاستطاعة .

الباب الرابع
بدائع التفسير

١ـ مر بك من قبل الخطوات الأول في بناء هذا العمل ، وخطوات الفهرسة وضرورتها في إنشائه . وكان من الضروري بالقطع حصر مؤلفات ابن القيم الثابتة النسبة له دون المنحول أو المشكوك النسبة له . وهذا سيأتي الكلام عنه في مؤلفاته رحمه الله تعالى .

فقمت بتجميع ما يتعلق بكل سورة على حدة حسب ترتيب الآيات ، وهذا في أكثر من خمسة آلاف صفحة « فلسكاب » . وهذا كله وسط ظروف ألمت بي في بداية العمل كادت أن تنهيه قبل أن يبدأ لولا فضل الله تعالى ورحمته ، وهو ما يتعلق بأهلي حفظها الله حين أصابهم حادثة سيارة مما تطلب علاجًا أكثر من ثلاث سنوات، والحمد لله الذي ببركة كتابه رفع الله عنا الكثير، فالحمد لله على كل حال، وأسأل الله أن يتم لها الشفاء التام والعافية الكاملة مع وافر الأجر والثواب.

ولكن هذا لم يمنع من الاستمرار خاصة بعد تشجيع من مشايخنا وأساتذتنا والأصدقاء الأوفياء ، وبيانهم لأهمية هذا العمل وضرورة إخراجه لما سوف ييسره لإظهار منهج ابن القيم رحمه الله تعالى في التعامل مع القرآن الكريم تفسيرًا ولغة وأحكامًا ، وهو فهم عالم كبير من علماء الأمة الكبار .

٢ـ بعد مرحلة الفهرسة والتدوين المنظم ، كان لابد من ضبط النص بقدر المستطاع ، وتصحيحه ليكون كما أراد صانعه أو أقرب ما يكون ، وصعوبة هذا الأمر تمثلت في عدم الحصول على مخطوطات المطبوع من مؤلفاته وطبع معظم كتبه بل جلها على مخطوطات لا تتوفر بيسر ولا بمشقة ، فضلًا على عدم بيان الطابع لمصدر مخطوطاته في كثير من الأحايين . عدا بعض المؤلفات التي طبعت حديثًا والتي حصلت على بعضها في نصف المشوار والآخر قرب نهايته كما

سأوضح في التعليق على مؤلفاته رحمه الله تعالى .

وكثير من المطبوع - خاصة القديم - من مؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى لا تكاد تخلو صفحة من تحريف أو تصحيف وأوضح مثال لذلك : « شفاء العليل » و « مفتاح دار السعادة » .

فأرجو أن أكون قد وفقت ، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها .

ومما يؤسف له أن كثيرًا من كتبه طبعت مرارًا دون النظر في هذا الأمر - وهو التصحيف والتحريف فضلًا عن عدم التحقيق - وما هي إلا تجارة ولكنها خاسرة .

٣ـ قمت بتخريج الأحاديث تخريجًا مراعيًا ألا يكون طويلًا مملًا أو قصيرًا مخلًا بحيث يسهل على القارىء معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف بأيسر طريق وأسهله ، مبتعدًا عن الحشو والتطويل الذي نفَّر كثيرًا من القراء الذين يجب أن يكون لهم نصيب وافر من المعرفة والثقافة الإسلامية ، وبالتالي اتباع المنهج الإسلامي بدلًا مما يلقى لهم من فتات الأفكار الشاردة ، والمبادىء الواهية التي تتزيا في صورة جميلة مزينة ، وعبارة مسمومة شيقة ميسرة مغرية . ولا ننسى كم بعد المسلمون عن المنهل الصافي والمنبع العذب على مدار ما يقرب من قرنين ، مما أثر في اتباع كثير من دول الإسلام لشرائع الكفر بدلًا من شرائع الرحمن .

فبناء قاعدة عريضة بين المسلمين يتطلب إبلاغهم الدين الحق في صورته الصحيحة بعبارة سهلة ، لا أن نزيدهم لبسًا على لبسهم وانغلاقًا على انغلاقهم ، أو ما أريد بهم من ذلك بالعمد والقصد .

فلا يعقل أن يُخرج حديث رواه الشيخان والأربعة مثلًا في خمسين صفحة وذكر أكثر من عشرين طريقًا له مهما كانت الأسباب ، حتى لو كانت مقبولة ، فهذا ينتفع به المتخصص في هذا المجال بعينه ، وهم قلة لا عموم الباحثين فضلًا عن القراء الذين - كما سبق - يجب الاهتمام بهم والوصول إليهم ، وإلا فالمؤلف يؤلف لنفسه . وهذا يدلل عليه واقع المسلمين الآن ، وما تفرضه الضرورة ، والمُشاهَد من أحوالنا يغني عن أقوالنا ، فقد يكون « الترف العلمي » ولنسمِّه

« الاسترسال البحثي » إن جاز التعبير له وقت وظروف ليس مجالها الآن . فإن الغريق لا تخيره في وسيلة النجاة ، والمريض كذلك ، فلكل مقام مقال ، فنحن نطالب أنفسنا والآخرين بالعودة للشرع الحنيف من عقيدة وعبادة وسلوك بالمنهج السابق بيانه في أول المقدمة . فلا يعقل والحال كما سبق أن نجعل وسيلة الاتصال مليئة بالأوحال والهضاب والعقبات ، بل لا بد من تمهيد الأرض لزرع يثمر وثمر ينفع ويفيد .

فالمنهج الذي سلكته في التحقيق هو :

١- إذا كانت الرواية عند الشيخين اكتفيت بهما ، ولو كانت عند غيرهما إلا لفائدة هامة أو ضرورة ملحة وهذا هو الغالب .

٢- فيما عدا ما رواه الشيخان رحمهما الله تعالى أبين درجة الحديث صحة أو ضعفًا ، إلا أن يكون فاتني نزر يسير .

٣- إذا كان الحديث عند البخاري في أكثر من موضع أذكر الموضع الذي شرحه فيه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح ، لمن أراد المزيد من فقه الحديث .

٤- الالتزام بكلام العلماء الفحول أئمة هذا الشأن في بيان حال الحديث من القدامى والمعاصرين ، أمثال العالم الجليل ، والمحدث الحافظ النحرير ، ابن حجر رحمه الله تعالى ، أو العراقي أو الهيثمي إذا وافقه غيرُه غالبًا .

ومن المعاصرين الشيخ العلامة أحمد شاكر رحمه الله تعالى خاتمة محدثي مصر ومحقق الكتب العظام والتحقيقات الجسام .

ثم بخاتمة علماء هذا الشأن وشمس هذا العلم وممهد الطريق، فرس البحث والتحقيق فضيلة الإمام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني حفظه الله تعالى ، وزاده

عافية وصحة وبارك فيه فالجميع عالة عليه ، فقد نفع الله به المسلمين نفعًا لا ينكره إلا مكابر ، وعن الحق نافر ، وكان إخراجه لصحيح الكتب الستة بمثابة المسك في الختام ، مع أمانينا أن لا يكون ذلك مسك الختام ، بل يتبعه بأعمال عظام وفوائد جسام ، بفضل الواحد المنان ، اللهم آمين .

٥- وابن القيم رحمه الله تعالى يعد من العلماء المدققين في علم الحديث رواية ودراية ، وهذا ستراه كثيرًا في تفسيره ، وفي فهرس أحاديث مؤلفاته ، أسأل الله تيسير إخراجه .

وهو في هذا يختلف عن كثير من الفقهاء الذين لا يعتنون بالتدقيق في تخريج الحديث بل نسبته بالمرة إلى أي مصدر . وقد يذكرون قولًا على أنه حديث ، أو يذكرون الأحاديث بالمعنى غالبًا .

أما ابن القيم رحمه الله فيذكر الحديث مخرجًا ، وبلفظه غالبًا ، إلا أنه يخالف ذلك أحيانًا بما قد يسبب حيرة للقارىء ، فمثلًا :

أ - حديث رقم (٢) ص (٥٣٣) من سورة البقرة ونصه كما ذكره ،(كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : « يا حي يا قيوم ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك »). ولم أجده بهذا اللفظ ، ولكنه جاء مفرقًا في عدة أحاديث .

١- جاء قوله : « يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » حديث واحد .
رواه الترمذي - الصحيح - (١٧٢/٣) في الدعوات ، باب : (٩٩) .
وحسنه الألباني .
ورواه الحاكم (٥٠٩/١) .

٢- وأما قوله : « يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت » .

فقد رواه الإمام أحمد في مواضع منها (٣/١٢٠) .

وكذا أبو داود – الصحيح – (١/٢٧٩) في الصلاة ، أبواب الوتر ، باب : الدعاء .

ورواه الترمذي – الصحيح – (٢/٣٢٩) ورواه غيرهم كلهم من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلًا يقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والإكرام . فقال : « لقد سأل الله باسمه الأعظم ... » الحديث. وصححه الألباني وراجع رقم (٢) (١/٤٩٢) آل عمران .

٣ـ أما قوله : « أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك » .

فقد رواه الإمام أحمد رضي الله عنه من حديث أبي بكرة « دعوات المكروب : اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كلَه لا إله إلا أنت » .

ورواه أبو داود – الصحيح – (٣/٩٥٩) في الأدب ، باب : ما يقول إذا أصبح، وقال في آخره « وبعضهم يزيد على بعض » . وحسنه الألباني .

هذا ما تبين لي وما توفيقي إلا بالله . والله أعلم .

ب ـ التعليق على ما ذكره (٢/٤٢٢) رقم (١) من سورة هود .

١ـ هذا حديث منكر .

ووقع في سنده « قطن بن الحباب » والصواب « قطري الخشاب » ذكره ابن حبان في الثقات (٧/٣٤٦) . وابن أبي حاتم (٧/١٤٨) وقال : « روى عن (عبد الوارث مولى أنس ...) وقال أبي : لا بأس به » .

ـــ لكن « عبد الوارث » ضعفه الدارقطني .

وقال الترمذي عن البخاري : منكر الحديث . ميزان الاعتدال (٢/٦٧٨).

ـــ والحديث رواه البيهقي في الشعب رقم (٦٨٠٨) .

ـــ وذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/٤٠٧) .

جـ ـ حديث رقم (١) (٥ /٢٧٣) من سورة التين « يا معشر الأنصار .... » .

ـــ رواه البخاري (٧/٦٤٤) في المغازي ، غزوة الطائف .

ـــ ومسلم (٣/١٠٤) في الزكاة ، باب : إعطاء المؤلفة قلوبهم .

من حديث عبد الله بن زيد .

د ـ قوله (قال لرسول الله : « أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت ... »)**حديث لم** أقف عليه رقم (٢) (٥ /٣١٥) .

هـ ـ قول ابن القيم « .. هذا حديث غني عن الإسناد فالقرآن والسنة شاهدان بصدقه» أي ككلام صحيح المعنى غير أنه لا ينسب للنبي ﷺ ، فليس كل متن وافق غيره في الصحة متناً يستغنى عن النظر في سنده ، بل لا بد من النظر والتمحيص وهذه ميزة ديننا ، وخاصة أن الآيات في فضل الإخلاص لا تحصى ، والأحاديث لا تخفى ، والله أعلم .

٦ – ترجمت لنزر يسير من الأعلام لضرورة أو لفائدة ، ولم أسترسل في ذلك لشهرتهم ، فالشمس في وضح النهار لا تحتاج لدليل ولا برهان .

٧ـ عزوت الأقوال قدر استطاعتي لأصحابها أو مصادرها مع مشقة في ذلك لموسوعية ابن القيم رحمه الله تعالى ، واتساع مصادره ، فهي بين تفاسير ، وعلوم قرآنية ، وقراءات ، وكتب السنة ، والسيرة ، واللغة .... إلخ . كما سيأتي عند الكلام على مؤلفاته .

٨ـ أحيانًا كثيرة يفسر ابن القيم الآية الواحدة في أكثر من موضع انظر مثلًا الآية رقم (٣٦) من سورة القيامة . قد تظن أن هذا تكرار بل في كل زيادة فائدة ولو بكلمة . وقد فرقت غالبًا بين تلك المواضع بعبارة [وقال رحمه الله تعالى] غالبًا .

٩ـ أما تخريج الآبيات الشعرية فقد ظُلمت للظروف السابق ذكرها فخرجت يسيرًا منها مع الوعد بإتمامها ولو في آخر الكتاب مستقلة أو في طبعة أخرى إن شاء الله تعالى .

الباب الخامس

ترجمة الإمام ابن القيم

١ـ الإمام الشيخ المفسر اللغوي ، الفقيه الأصولي ، العارف ، الموسوعي ، شيخ الإسلام ، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز بن مكي زين الدين الزرعي ثم الدمشقي الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية .

من ص(١٧) « ابن القيم » لبكر أبو زيد .

ولد رحمه الله تعالى سنة (٦٩١هـ)وتوفي رحمه الله تعالى سنة (٧٥١هـ)[١] .

٢ـ نشأ رحمه الله تعالى في بيت علم ودين ، فأبوه – رحمهما الله تعالى – شيخ صالح عابد ، كان قيم المدرسة الجوزية ، ومن الصالحين الزاهدين .

أخذ ابن القيم عن أبيه الفرائض ، ووجوده بجوار أبيه في جو المدرسة الجوزية يسمع ويرى الأقوال والأخلاق الحميدة من أهل العلم ؛ كان له عظيم الأثر في تخلقه بمكارم الأخلاق ، والتعبد الصحيح والزهد القويم ، مع ما أكرمه الله به من فراسة نادرة وفطنة وذكاء ، مع ما عاصره من صفات وأخلاق العلماء لا شك نتج عنها مزيج فكري وسلوكي على درجة كبيرة من السمو والنبل .

يقول ابن رجب من « الذيل» (٤٤٨/٢) : « كان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد ، وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتألُّهٍ ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار ، والافتقار إلى الله تعالى ، والانكسار له ، والاطراح بين يديه على عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك » اهـ . وبمثل هذا – أخي القارىء – ينشأ العلماء الربانيون فما كان نتيجة هذا السلوك مع الله تعالى ، يقول ابن

---

(١) ليست هذه ترجمة بالمعنى الحرفي المشاع ، إنما هي قطفات وثمار من حياته المباركة ، تُكون صورةً موضحةً للقارىء عن ابن القيم رحمه الله تعالى ، أما ترجمته فلها مؤلفات مستقلة سأذكرها بعد قليل إن شاء الله تعالى .

رجب - تلميذه - « ولا رأيت أوسع منه علمًا ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ، ولكن لم أر في معناه مثله ... » اهـ .

٣- ويقول صديقه وتلميذه ابن كثير رحمه الله تعالى : « ... سمع الحديث واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعددة ، ولا سيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ ، فأخذ عنه علمًا جمًّا ، مع ما سلف له من الاشتغال ، فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلًا ونهارًا ، وكثرة الابتهال ، وكان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ، ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ، وكنت من أصحب الناس له وأحب الناس إليه ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة ، يطيلها جدًّا ، ويمد ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان ، فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك ، رحمه الله تعالى » اهـ. البداية والنهاية (٦٥٧/٧) .

ما شاء الله .... أرأيت أخي القارئ ثمرة التربية المستقيمة والنشأة القويمة : علم نافع ، وسلوك صالح ، وخلق عال ، وسمت حسن ، فجعل الله له ذكرًا حسنًا ، وسيرة عطرة .

وهكذا يجب أن يكون طالب العلم على هذا النهج ، فقارن بين ذلك وبين أدعياء العلم يتكلمون لغته ويلبسون زيَّه - في ظنهم - ثم تراهم يصدون عن نشر الحق والفضيلة تحت مسميات باطلة وأقوال حق أريد بها باطل ، تارة تحت مسمى « يسر الإسلام » ولا يقصدون إلا الترخُّص الجاف ، وتضييع أمر الله بمنع نشره وإقامته ، وهكذا .... فلا عجب إذًا أن يلوم من هذا حاله على الشباب تمسكه بالدين والخلق المستقيم ، وهل رأيت على مر تاريخ الإسلام عالمًا أو نصف عالم أفتى أن « النقاب » مثلًا ليس من الإسلام ؟! إي والله هكذا !!! هل رأيت من يحارب المتمسك ويترك المتفلت المتهتك ، فأصبح دعاة التوحيد والاستقامة متشددين متزمتين متطرفين هكذا !!! و ﴿ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ ﴾ [الروم : ٤]

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١]

وإذا لم نقارن بين أخلاق علماء الأمة الصالحين وسيرتهم العطرة – أمثال عالمنا ابن القيم رحمه الله – وبين علماء العصر ؛ ليستبين سبيل المجرمين وأدعياء العلم والدين ، فلا فائدة من ترجمتهم ، أو ذكر سيرتهم والله أعلم .

٤ـ أما مشايخه – رحمهم الله – فكثيرون ، نحيلك توفيرًا لوقتك لكتاب الأستاذ العلامة الشيخ « بكر أبو زيد » حفظه الله تعالى « ابن القيم حياته وآثاره وموارده » (١٦١ – ١٨٣) .

٥ـ ولكن هل يطيب الكلام عن مشايخه أو يحسن ذلك دون ذكر الإمام الكبير المجدد شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد السلام .... ابن تيمية رضي الله عنه .

فقد لازمه كما مر ، إلى وفاته رحمهما الله تعالى ، وأثَّر ابنُ تيمية في ابن القيم رحمهما الله تعالى كأثر الماء في البذر ، والشمس في الإنبات ، وقد لا أبالغ إن قلت : والروح في الجسد ، وهذا ظاهر واضح عند كل من ترجم له رحمه الله تعالى .

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى له أثر عظيم على الأمة كلها في وقته ، فهو المحارب بسيفه وقلمه ولسانه ، ولكن .... الكلام عن ابن تيمية رحمه الله تعالى كتحصيل حاصل ، فإنني أستحي أن أترجم له ولكن .... هل تميز ابن القيم بشيء عن شيخه أم كان له كالظل !؟ .

لا شك أن شجرة ابن تيمية أثمرت ثمارًا يانعة ، أحلاها وأصفاها ابن القيم رحمه الله تعالى ، ومع هذا فقد برزت شخصية ابن القيم الاجتهادية والتأليفية بلا شك متفردة متميزة .

يقول العلامة بكر أبو زيد : « فقد اجتهد وأبدع وخالف شيخه في أشياء ، ولا يمنع الحب اتباع الحق » من ص (١٣٩ –١٥٦) . فأنت ترى في علاقة هذين الإمامين التواضع والحب والبذل من جانب شيخ الإسلام ، والوفاء والإخلاص من جانب ابن القيم .

تلمس هذا في كثرة ذكر ابن القيم شيخَ الإسلام بقوله كثيرًا : « قال لي شيخ الإسلام كذا .... ، وحكى لي كذا ... وسألته عن كذا » .

فيا لها من صحبة مباركة وزمالة نافعة .

وقد ذكره أكثر من «٥٠٠» مرة في كتبه تتبعت ذلك أثناء الفهرسة . وانظر أيضًا رقم (٣) من **الباب السادس « مكتبة ابن القيم »** .

وانظر «١٣٤» بكر أبو زيد . ويقول الشيخ بكر : « فلا غرو أن يجد ابن تيمية الأستاذ الوفاءَ من تلميذه رحمه الله تعالى وتحمله معه المحن والأذى » المصدر نفسه (١٣٦) .

٦ـ ومن المناسب عند الكلام عن هذين الإمامين ذكر بعض ما لقياه من أعدائهم ، فمنهجهما القائم على الكتاب والسنة منهج سلف الأمة ، لا بد أن يجلب عليهما عداء المقلدة والمتعصبة والجهلة ، فتعرضا للأذى : تارة بالحبس ، وتارة بالنفي ، وكان نصر الله حليفهما .

وما زال منهجهما له أعداؤه من نفس الطائفة ، وما زال الله ينصرهما بنشر علمهما وبثه بين الناس ، ويكفي أن تقارن بين ما نفع الله به الناسَ من كتبهم وعلمهم ، وما أفسد الآخرون بمداد أقلامهم ، في إفساد العقائد والشرائع والأخلاق؛ فيتبين لك بهذه المقارنة أي الفريقين أحق بالاتباع والذكر الحسن .

وانظر كتاب الأستاذ العلامة بكر أبو زيد (١٣٩) وما بعدها .

٧ـ من علامات الخير بطالب العلم أن يوفق في مشايخه ويرزق علماء أتقياء من أهل السنة والجماعة، ثم يكرمه الله تعالى بغرس حسن يعلمهم من علمه فتستمر الأرض في الإنبات والزرع في الإثمار ، فلا يخلو بذلك مكان ولا زمان من قائم بأمر الله تعالى .

وهكذا الحال مع عالمنا ابن القيم رحمه الله تعالى فشيخه ابن تيمية ، وهو شيخه الكبير وأستاذه الأول ، فكان ما كان من حال ابن القيم .

وقد لازم ابنُ القيم شيخَ الإسلام « سبعة عشر عامًا » وكان ابن القيم حينئذ في الواحدة والعشرين تقريبًا . وكان سنه عند وفاة شيخه رحمه الله تعالى « ثمانية وثلاثين » وعاش بعده « ثلاثًا وعشرين سنة » .

وأيضًا من أساتذته :

١ـ العلامة إسماعيل أبو الفداء إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن الفراء الحراني ، الفقيه الحنبلي الإمام الزاهد . شيخ المذهب توفي سنة (٧٢٩هـ) قرأ عليه الفقه ، كما في الدرر الكامنة (٤٠١/٣) ، وترجمته في ذيل طبقات الحنابلة (٤٠٨/٢) .

٢ـ وسليمان تقي الدين أبو الفضل بن حمزة بن أحمد بن عمر .... بن قدامة المقدسي قاضي القضاة ومسند الشام ، سمع الحديث ، توفي سنة (٧١٥هـ) الدرر الكامنة (٤٠٠/٣) وترجمته في الذيل (٣٦٤/٢) .

وانظر أشهر مشايخه في كتاب العلامة بكر أبو زيد (١٦١ - ١٧٨) .

تنبيه :

ذكر صاحب كتاب « منهج أهل السنة في تفسير القرآن » ص (٤٠) أن ابن قدامة قرأ عليه ابن القيم المقنع ، « وابن قدامة » إذا أطلق أريد به الشيخ الكبير موفق الدين أبا محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ، صاحب « المغني » (٥٤١-٦٢٠هـ) ، وهذا وهم من الوضوح بمكان . ولا أعرف بين مشايخ ابن القيم من أطلق عليه « ابن قدامة » والله أعلم .

وأكرمه الله بتلامذة نجباء أعلام ، منهم :

١ـ الإمام الحافظ إسماعيل عماد الدين أبو الفداء بن عمر بن كثير القرشي الشافعي ، صاحب الشيخ وكان من أحبابه ، ونقل عنه في تفسيره ، مثلًا عند الآية رقم (٣٥ و ٣٦) من البقرة ، والعجيب أن صاحب كتاب « ابن كثير ومنهجه في التفسير » لم يشر إلى ابن القيم ضمن شيوخ ابن كثير ، أو حتى أقرانه انظر ص (٤٦ -٦٩) ، وتوفي ابن كثير سنة (٧٧٤هـ) رحمه الله تعالى ، وترجمته في الدرر الكامنة (٣٧٣/١) .

وشذرات الذهب (٦/٢٣١)، وانظر البداية والنهاية (٧/٦٥٧) .

٢ـ الإمام العلامة الشيخ ابن رجب عبد الرحمن زين الدين أبو الفرج بن أحمد .... الحنبلي يقول ابن رجب : « لازمته قبل موته ، وأخذ العلم عنه خلق كثير من حياة شيخه وإلى أن مات ، وانتفعوا به ، وكان الفضلاء يعظمونه ، ويتتلمذون له ، كابن عبد الهادي وغيره ، توفي رحمه الله تعالى (٧٨٥ هـ) وترجمة ابن رجب في شذرات الذهب (٦/٣٣٩) . وانظر كوكبة من تلامذته ذكرهم العلامة الشيخ « بكر أبو زيد » (١٧٩ – ١٨٣) .

الباب السادس

مكتبة ابن القيم

١ـ إن الكتاب والشيخ بالنسبة للعالم وطالب العلم هما الماء والهواء ، لاغنى عنهما ، فهو منهوم لا يشبع ، فالكتاب كروحه ، إن فارقه كان كالميت ، فهو رفيقه وأنيسه ومعلمه ، فلطالب العلم جناحان المشايخ والكتب فبهما يحلق في سماء العلم والمعرفة ، ويسبح في بحورهما ويغوص في أعماقهما .

والكتاب والمكتبة لهما تاريخ كبير عند المسلمين فلا تجد أمة من الأمم صنفت فيها ما صنفه علماء المسلمين في شتى فروع العلم ، المتعلق بالشريعة أو حتى التطبيقي (الطب ، هندسة ، فلك ...) إلخ . ولا تخلو ترجمة عالم من ذكر مكتبته غالبًا[1] .

نعم ، الكتاب وحده لا يصنع عالمًا فاهمًا مجربًا إنما وحده يصنع صحافيًا ، وهذا ذمه العلماء .

فلا بد من التلقي عن المشايخ ، هذا حتمي ، ولكن التلقي دون المذاكرة والمراجعة والبحث والتنقيب في الكتب سرعان ما ينضب منبعه ، ويجف عطاؤه ، ويذبل زرعه ، فالكتاب وقود العقل ، ونور القلب ، وموقظ الفكر . فهو البداية والنهاية والعبرة والتجربة والتاريخ ...

٢ـ قال الإمام الكبير ابن عبد البر- رحمه الله تعالى-: وسئل أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري عن دواء للحفظ فقال: « إدمان النظر في الكتب » . جامع بيان العلم وفضله (٥٨٣) .

---

(١) وانظر بحثًا مفيدًا في الكتب والمكتبات عند المسلمين في كتاب « تاريخ الكتاب » تأليف د / الكسندر ستيبتشفيتش . (١/٢٣٣-٢٥٠) ، مترجم سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت .

وأنشد أبو عبد الله بن الأعرابي « صاحب الغريب » حين عاتبه أبو أيوب أحمد بن محمد أبي شجاع عن تأخره من زيارته وادعائه أن عنده جلساء من الأعراب ، وليس بين يديه شيء إلا الكتب يطالعها ، فقال ابن الأعرابي :

لنا جلساء ما نمل حديثهم ألباء مأمونون غيبًا ومشهدًا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وعقلًا وتأديبًا ورأيا مسددا
بلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا
فإن قلت أموات فما كنت كاذبًا وإن قلت أحياء فلست مفندا

نفس المصدر (٥٨٠) .

ويقول ابن جماعة « ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكن شراء ، وإلا فإجارة أو عارية ؛ لأنها آلة التحصيل»، تذكرة السامع والمتكلم (١٦٤) .

٣ـ من هذا الباب كان حرص إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى عظيمًا في اقتناء الكتب ، فمع ما تلقاه من العلماء ومصاحبته شيخ الإسلام ، يبين أثر الكتاب في عمله ، فهو يشكو في أكثر من موضع بُعْدَه عن كتبه ، ويبين أن هذا كتبه في سفر مرتحلًا عنها ، انظر مثلًا آخر تفسير سورة الكافرون . ولله دره حين ألف « زاد المعاد » من خمسة أجزاء وهو في سفرة سافرها .

فهو شديد الصحبة للعلماء ، شديد الصحبة للكتاب، انظر إلى أول معرفته بشيخ الإسلام ، وقد كان وقتها ابن القيم تجاوز العشرين بقليل ، وهو سن التأهل والفتوى والتأليف كيف حمل قبل هذا اللقاء من فكر تبين خطؤه يقول :

يا قوم والله العظيم نصيحة من مشفق وأخ لكم معوانِ
جربت هذا كله ووقعت من تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله من ليس تجزيه يدي ولساني
حبرٌ أتى من أرض حران فيا أهلًا بمن قد جاء من حران

النونية (١/٣٣٠)

ثم توالى فتح الله عليه بتلك الصحبة المباركة يقول ابن كثير «واقتنى من الكتب مالا يتهيأ لغيره تحصيل عُشْرِه من كتب السلف والخلف » البداية (٦٥٨/٧) .

وهذا يلاحظ في تتبع مصادره الوفيرة ، يقول الشيخ بكر أبو زيد : (كتابه « اجتماع الجيوش » يقع في خمس وثلاثين ومائة صحيفة ينقل من أكثر من مائة كتاب، و «أحكام أهل الذمة» نحوًا من ثلاثين كتابًا و «الروح» كذلك). وهكذا، بتصرف من « ابن القيم حياته، آثاره وموارده » ص (٦١) .

فلا عجب إذًا حين نرى هذا الإبداع وذاك الإشعاع من مؤلفاته ، فهي مائدة حوت من صنوف الطيبات ؛ لأنها نبتت من حلال .

الثمار

٤ـ شيخ هذا حاله كيف يكون طيب ثماره ؟ لقد بارك الله في علمه ومؤلفاته فانتفع بها معاصروه ومن بعده إلى الآن ، وإن شاء الله بعد الآن ، يقول ابن حجر : « وكل تصانيفه مرغوب فيها بين الطوائف » الدرر الكامنة (٣/٤٠٢) .

وقد نقل ابن حجر نفسه كثيرًا عنه في فتح الباري .

مثلًا : في التفسير سورة الإسراء (٨/٢٥٥) والطب (١٠/٢١٥، ٢٣٨). وسيأتي مزيد عند الكلام عن مصنفاته هذا أولًا .

ثانيًا : نشاطه العلمي والعملي :

ذكر غير واحد من مترجميه أنه بدأ في الخطابة والتدريس في حياة شيخه ، أي : وهو في العقدين الثالث والرابع من عمره ، وفي أماكن متفرقة في المدرسة الصدرية ، وغيرها فضلًا عن إمامة المدرسة الجوزية .

هذا غير الفتوى والمجادلة والمناظرة . راجع ترجمته في مصادرها كما مر . وأيضًا كتاب الشيخ بكر أبو زيد (٦٥ - ٦٩) . فأنت ترى خوضه للمعارك من أجل الحق ، ونشر العلوم النافعة ، علوم السلف الصالح . وتحمل في سبيل ذلك ما رأيناه سابقًا .

ولم يركن رحمه الله تعالى متقوقعًا ساكنًا مدعيًا أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله؛ بل أخذ يحرث أرض الواقع الخربة ويضع بذوره الطيبة ، ويسقيها ماء الفكر الصحيح ، فنبتت ثمارًا نافعة .

فهو لا ينشد مالًا أو جاهًا أو سلطانًا . ولا يؤلف لمجرد التأليف ، ويحقق لمجرد التحقيق كما نرى - من سيل جارف من كل إنسان أمسك قلمًا . فليس كل صاحب مشرط طبيبًا .

إنما ألف لبيان حق ودحض باطل ، وتوضيح مشكل وبيان مبهم، وإظهار سنة ودفع بدعة .

فهو يقلب بمحرات قلمه العقول والقلوب معًا . فتم على يديه إصلاح عظيم لا ينكره إلا من ليس له في الخير نصيب .

وهل ضاع الحق إلا حين سكت أصحابه فطلت رؤوس حيات البدع من جحورها ، تبث سمومها ومنكرها وبدعها وضلالها مجاهرة تارة ، وتحت رايات ادعاء الإسلام تارة .

ثم هذا يهادن خوفًا على وزارته ، والآخر على جامعته ، والثالث على ماله ، والرابع على نفسه . فلا عجب أن نرى حال المسلمين بما لم نسمع عنه في التاريخ ؛ لأن حال كثير من القدوة تغير وتبدل عن منهج علماء السلف رحمهم الله تعالى ، إلا فئة طيبة مباركة لا تخلو منها بقاع الأرض من نشر فضيلة ، وإظهار سنة ، ولكن الكثرة نائمة . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

بقدر يقظة العلماء تكون يقظة الأمم ، وبمقدار جهدهم ترقى وتتقدم ، فإن رقدوا ماتت هي .

فيا ليتنا نقتدي بهذا الإمام رحمه الله تعالى وإخوانه العلماء العاملين ، سلوكًا وعلمًا وعملاً ، لعل الله يأتي بالفتح أو أمر من عنده ، ولعل الله يجعل لنا مخرجًا من هذه الظلمات التي أرخت سدولها علينا فَغَيبت نور شمس الخير عنا .

فإنه دون العلم الصحيح لا مخرج؛ لأنه الحصن الذي لا تخترقه الأعداء ، والدرع الذي يصد السفهاء الذين تكاثروا على أهل الخير الأتقياء . فعلى مر القرون نرى ضعف الأمة حين لا تستسقي من منبعها ، فمنبعها لا ينضب أبدًا . إنما تستسقي الأمة الآن من بئر طحلة راكدة ، تاركة نبعها الصافي ، وتظن أنها تحسن صنعًا ، فإذا هي تحت الثرى بعد أن كانت فوق الثريا . فهيا يا رجال الحق دفاعًا عن قرآننا وسنتنا ولغتنا ، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٢١] ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨] .

هذه النبذة عن ترجمته مستفادة من :

١ـ « البداية والنهاية » لابن كثير (٧/٦٥٧) .

٢ـ « الدرر الكامنة » لابن حجر (٣/٤٠٠) .

٣ـ « ذيل طبقات الحنابلة » لابن رجب (٢/٤٤٧) .

٤ـ « شذرات الذهب » لابن العماد (٦/١٦٨) .

٥ـ « بغية الوعاة » للسيوطي (١/٦٢) .

الباب السابع

مؤلفات عن حياته وآثاره رحمه الله تعالى

حظي ابن القيم رحمه الله تعالى بدراسات وافرة قيمة ، وهي تكاد تُكَوِّن في مجموعها صورة تامة – إلى حد ما – لنشأته ومشيخته وتلامذته وبيئته ومؤلفاته .

بعضها مستفيض شمولي وبعضها مختصر ، متخصص في ناحية ما بحياته ورحلته العلمية ، وهو حريٌّ بهذا الاهتمام لما كان على يديه من التجديد بمفهومه العام الشامل لكل ما يعم نفعه ، وفائدة للدين وللناس ، تجديدًا بتصحيح العقيدة ، والاجتهاد ، والذود عن لغة القرآن ، وإحياء علومه ... إلخ (راجع ٩ – ١٠) من بكر أبو زيد .

ثم لأنه يمثل مرحلة هامة من مراحل الدعوة الإسلامية زمانًا ومكانًا .

أما الزمان فكان من أعقد وأخطر الفترات التي مرت بها الأمة المسلمة ، والتي بدأت منذ القرن الخامس . وقد أفاض الأستاذ الدكتور عبد العظيم شرف الدين في وصفها وأثرها في كتابه الضخم « ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه ... » وهي أخذت إلى ص (٦٦) .

فهذه الفترة الزمنية مليئة بل متخمة بالأحداث الجسام والمصائب العظام التي ألمت بالمسلمين مرورًا بسقوط بغداد تحت وطأة التتار ، والحروب الصليبية، وما ترتب عليه من ضعف المسلمين ووهنهم ، وهذا تاريخ لا ينسى ومآس لا تمحى ، يعرفه كل قارىء فضلًا عن كل عالم . وما أشبه اليوم بالبارحة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أما المكان فإن مسقط رأس ابن القيم «دمشق»وهي تكاد تتوسط خريطة الحروب آنذاك وبوابة المسلمين أمام أعدائهم . وفي هذه الفترة آخر القرن السابع حين قام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى قومة رجل مسلم عارف حق ربه، مدافع عن عقيدته وبني وطنه، حتى كان هو الحاكم الفعلي لدمشق، والقائد

العملي لشعبها لصد التتار الذين كانوا على أبواب دمشق عاصمة الثقافة ومنبع العلم.

ففي هذه الفترة التي كان إمامنا ابن القيم فيها لم يتجاوز العاشرة ، لا شك أنه شعر شعور أهله وحزن لحزنهم ، فقد رأى الذعر والخوف والهم بالفرار ، وسمع عن أولئك الفجار الذين يهمون باقتحام الديار . فلا شك أنه قد تأثر ، وظهر هذا التأثير في مؤلفاته التي تكاد تدور حول تعريف المسلمين بدينهم الحنيف الصحيح بعيدًا عن البدع والشطحات ، وتبصيرهم بهدي نبيهم صلى الله عليه وسلم في أبهى صورة وأندى عبارة ، وأصدقها بيان .

ومع هذه الأزمات الشديدة كثرت المدارس ، والعلماء الذين هم دائمًا وأبدًا حفاظ الشريعة،وتنوع البحث ، واهتم الولاة بهذه الناحية وراجع في ذلك البداية والنهاية من القرن الخامس إلى السابع ويستفاد من هذه المرحلة أن الأمة المسلمة مهما مرت بها عقبات ضخام وآلام جسام وسنين عجاف، يبعث الله لها من يجدد لها أمر دينها ويبث فيها روح الاجتهاد ويحيي العمل الجاد ، **أليس الصبح بقريب ؟** بلى .

فعلى العلماء النظر في حياة هذا العالم الجليل ودراسة دعوته العلمية والعملية للقيام بهذه المهمة العظيمة الضرورية الآن .

سرد لأشهر ما ألف عنه رحمه الله تعالى :

١ـ كتاب «ابن قيم الجوزية، عصره، ومنهجه، وأراؤه في الفقه، والعقائد والتصوف» للدكتور : عبد العظيم شرف الدين ، وهو في أكثر من (٥٠٠) صفحة . ط الكليات (الثانية) .

وهو مكون من مقدمة بيَّن فيها الحالة السياسية الداخلية ، والتي لها بلا شك تأثير على حياة ابن القيم رحمه الله تعالى. ثم الحالة الخارجية، ثم الحالة العلمية ودور التعليم بمصر والشام، ثم الحالة الاجتماعية ثم يقع باقي الكتاب في ثلاثة أبواب:

الباب الأول : حياته .

الباب الثاني :

الفصل الأول : أهداف ابن القيم .

الفصل الثاني : منهجه.

الفصل الثالث : الأصول التي اعتمد عليها في الاستنباط،وهي من أهم فصول الكتاب.
الباب الثالث :
الفصل الأول : العقيدة عند ابن القيم .
الفصل الثاني : التصوف عنده .

وهو كتاب عظيم النفع ومن أول وأجود ما كتب عن شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله تعالى .

٢ و ٣ـ «ابن القيم اللغوي» و «ابن القيم من آثاره العلمية» كلاهما للدكتور أحمد ماهر البقري رحمه الله تعالى .

أما الأول فهو:« ابن القيم اللغوي » وهو من ثلاثة أبواب ثم ملحقًا للكلمة المفردة عند ابن القيم .
الباب الأول : ابن القيم والحياة الفكرية في عصره وهو من فصلين :
الأول : الاتجاهات الفكرية . ومن أبرز موضوعاته : الدعوة إلى الشخصية الإسلامية وعدم قطع الوصل بين الخلف والسلف . ويبرز دور ابن تيمية رحمه الله تعالى ومؤلفاته في إظهار الدعوة السلفية والعقيدة الصحيحة (١٤) .
الفصل الثاني : لغوية ابن القيم . وهو هام جدًا كما سيأتي في التعليق على كلام الدكتور البنا عن ابن القيم .
الباب الثاني : النحو .
الباب الثالث : الدلالة . وهما دراسة مقارنة هامة للبابين عند ابن القيم ، وأتبع البابين بملحق للكلمة المفردة عند ابن القيم (شروح الألفاظ) وهو جيد جدًا ، لولا استناده كثيرًا على كتاب « الفوائد المشوق » وفي نسبته إلى ابن القيم خلاف كبير،الراجح بطلان نسبته يأتي عند الحديث عن المؤلفات .

أما كتاب « ابن القيم : من آثاره العلمية » فهو من خمسة أبواب : أهمها:
الباب الثالث : تراثه الفكري .
الفصل الأول : مؤلفات ابن القيم ، وهو يحتاج إلى ترتيب أدق مما هو عليه .
الفصل الثاني : ابن القيم والشعر .

الفصل الثالث : البحث العلمي أسلوب وأخلاق،وهو يتكلم عن أسلوب ابن القيم من حيث شواهده الشعرية، والبلاغة، وغيرها .

البـاب الرابع : اللغة والشريعة في دراسات ابن القيم ، وهو سيأتي في التعليق على كلام الدكتور البنا .

الباب الخامس : ابن القيم والمفسرون . يتكلم فيه على من تأثر بابن القيم من المعاصرين له ، والمعاصرين الآن . مع ذكر بعض الآيات من بعض السور وبيان طريقة ابن القيم في تفسيرها .

٤ـ « ابن قيم الجوزية » وهو في سلسلة « أعلام التربية في تاريخ الإسلام » للأستاذ : عبد الرحمن النحلاوي ، الأستاذ في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية . وهو كتاب جيد وجديد في بابه وهو في خمسة أبواب :

الباب الأول : ترجمة لابن القيم . وعصره ، وعلمه ، واهتماماته التربوية . وهو من ثلاثة فصول .

الباب الثاني : الاهتمام بالنسل والإنجاب وبالأجنة والأرحام .

الباب الثالث : في تربية الإنسان من المهد إلى اللحد .

الباب الرابع : بعض مبادىء التربية عند ابن القيم وأهم تطبيقاتها .

الباب الخامس : من أساليب التربية عند ابن القيم. وهذان البابان من أهم أبواب الكتاب.

وهو يُظهر جانبًا هامًا مما قام به هذا الإمام من إصلاح ، وتقويم لمجتمعه ، واهتمامه الشديد بالطفل المسلم منذ ولادته حتى وفاته ، لما للنشأة الأولى والغرس الأول من مقدمات تُرى نتائجها وثمارها عند الشباب وعند الهرم ، ولما لذلك من أثر على المجتمع إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

٥ـ «منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم» «دراسة موضوعية لجهود ابن القيم التفسيرية» د/ صبري المتولي. وهي رسالة دكتوراة،وهذه الرسالة من مقدمة وتمهيد ثم:

الباب الأول : النظرية والتطبيق .

الفصل الأول : نظرية التفسير عند ابن القيم .

الفصل الثاني : الاتجاه النقلي في التفسير .

الفصل الثالث : الاتجاه العقلي في التفسير .

الفصل الرابع : الاتجاه الصوفي في التفسير .

الباب الثاني :

الفصل الأول : مصطلحات علوم القرآن .

الفصل الثاني : مصطلحات العلوم المساعدة . ثم خاتمة وقائمة بمؤلفات ابن القيم . وهو جيد وفَّى فيه مؤلفه كثيرًا من جوانب منهج ابن القيم في التفسير ، كما سيأتي في الكلام على منهجه .

٦ـ مؤلفات الشيخ الأستاذ بكر بن عبد الله أبو زيد – حفظه الله تعالى – عن شيخ الإسلام ابن القيم ، وهي في مجموعها تكون للقارىء صورة واضحة لحياة ابن القيم ومؤلفاته وموارده وعلومه .

١ـ « التقريب لفقه ابن القيم » وهو من قسمين :

أ ـ القسم الأول : يحتوي على ترجمة ابن القيم ، الأصول ، القواعد ، مباحث الفروق والمفاضلة .

ب ـ القسم الثاني : يحتوي على الطهارة –أركان الإسلام– الجهاد . يقول الشيخ : « .... قد رأيت أن أقرب فقهه رحمه الله تعالى لأهل العلم .... فقربته مرتبًا له على كتب وأبواب « زاد المستقنع » في الفقه الحنبلي ... » (١٠/١) .

٢ - « التقريب لعلوم ابن القيم » :

وهو نفسه الكتاب السابق ، إلا أن الشيخ حفظه الله تعالى جعله في هذه الطبعة بهذا العنوان ، وهو « التقريب لعلوم ابن القيم » في التوحيد ، والحديث ، وعلوم وأصول التفسير ، والمتفرقات ، وفي اللغة ، وفي أصول الفقه وقواعده ،

ومباحث الفروق والمفاضلة ، وفقهه مرتبًا على أبواب الفقه ، وحذفت ما كان في الطبعة الأولى من ترجمته؛ لأنها أفردت بالطبع ص (٥) .

٣ـ « ابن قيم الجوزية حياته آثاره موارده » :

وهو كتاب ضخم يقع في أكثر من أربعمائة صفحة من الحجم المتوسط . وهو طبع : دار العاصمة – بالرياض – السعودية لسنة /١٤١٢ هـ. ولا يسع المقام للحديث عنه بما يستحقه في هذه العجالة السريعة إلا إنه قد كفى وشفى القارىء والباحث مايحتاجه عن هذا الإمام الجليل ، بما لا يحتاج لمزيد إلا في بعض الجوانب اليسيرة . ونحن نحيل القراء الكرام إلى هذا الكتاب في معرفة تفاصيل حياة ابن القيم، ونسبه، ومدرسته، وشيوخه ، وتلاميذه، ومؤلفاته، وموارده.. إلخ . الذي أغناني عن الاستفاضة في ذكر كثير من ذلك .

٧ـ « منهج ابن القيم في التفسير » :

تأليف الأستاذ محمد أحمد السنباطي وسيأتي الكلام عليه في باب « منهج ابن القيم في التفسير » .

وقفات

فيما يلي بيان أمرين هامين :

أحدهما : متعلق ببعض ما كتبه بعض علماء اللغة الأجلاء عن ابن القيم .

والثاني : عن الجوانب العلمية (العلوم الطبيعية) في مؤلفات ابن القيم .

أما أولًا : فقد كتب الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم البنا ، الأستاذ في كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر - في مقدمة تحقيقه الممتع لكتاب « نتائج الفِكَر » ص (٧) للإمام السهيلي ما يلي : « يعد أبو القاسم السهيلي أحد الأعلام البارزين الذين شاركوا في نهضة تراثنا الإسلامي وإنمائه ، فما من فن من فنون هذا التراث إلا وهو بين رجاله مقدّم ، وصاحب رأي فيه .

ولقد عرفت السهيلي أول الأمر - كما عرفه غيري - اسمًا يتردد في كتب النحو ، إلى أن وقع في يدي كتاب « بدائع الفوائد » لابن القيم فوجدت اسم السهيلي يتردد فيه كثيرًا ووجدت له من الآراء والاجتهادات ما حدا بي إلى البحث عن آثاره ومصنفاته ، إلى أن هُدِيت إلى هذا المخطوط « نتائج الفكر » .

وبالموازنة بين « بدائع الفوائد » وبينه تبيَّن لي أن ابن القيم قد استطاع أن يدَّعي نحو السهيلي لنفسه بتضمنه كتاب « النتائج » كتابه ، بعد أن حذف مقدمته ، وقدم وأخر ، وزاد قليلًا واختصر ، حتى ليظن القارىء أن النحو الذي يسوقه ابن القيم في كتابه من بدائعه ، والحق أنه ليس له فيه نصيب من قريب أو بعيد ، وأن البدائع المسطورة في كتابه هي « نتائج الفكر » التي نقدمها الآن لصاحبها أبي القاسم السهيلي ولقد تبين لي كذلك أنه ليس ابن القيم وحده هو الذي قام بهذا العمل ، بل سبقه إلى هذا عالم شرقي هو كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم (ت/٦٥١ هـ) وهو المعروف بابن الزملكاني .

فقد نقل في كتابه « التبيان في علم البيان ... » ثلاثة مباحث هي : سر تنكير لفظ « سلام » وتعريفه في القرآن ، والفرق بين لن ولا ، وأسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم التبيان ٥٢-٥٤ ، ٨٤، ١٤٧-١٥٣، ومن هنا ينبغي أن يعاد النظر في هذين الرجلين ، فقد نُسب إلى الأول من الآراء ما أدخله في عداد النحاة ، وإلى الثاني من الاجتهادات البلاغية ما جعل بعضهم يعده أحد أعلام فن البلاغة .... ولقد كان كشفي لهذه الحقيقة أحد البواعث على المضيَّ في دراستي لهذا الرجل .... » المقدمة (٧-٨) .

ونقول بتوفيق الله وعونه، سائليه الإنصاف والعدل في الرضا والغضب :

١- لا يخفى على أحد من أهل العلم منزلة الأستاذ الدكتور الكبير محمد إبراهيم البنا حفظه الله تعالى فهو أحد أعلام اللغة في العصر الحاضر . وهو في غنى عن إطراء أو مديح من مثلي .

٢- وكنت أتمنى أن يعقد لنا فضيلة العلامة البنا، موازنة بين ما اقتبسه ابن القيم من السهيلي أو ما ادعاه لنفسه على حد تعبير الدكتور « البنا »، أو حتى يضرب مثالًا.

٣- ولا يخفى على أحد منزلة ابن القيم اللغوية سواء في « بدائع الفوائد » أو ما نشره في ثنايا كتبه ، وهو ما شهد به الأوائل ، وجزم به المتأخرون (راجع ما كتبته في ترجمته ، وكتابات المعاصرين عن منزلة ابن القيم اللغوية) وهم - ولا شك - من العلم من هم و لم يلمح- فضلًا أن يجزم - أحدهم بما جزم به العلامة البنا مع كبير منزلته حفظه الله تعالى .

٤- وقول الدكتور « البنا » حفظه الله تعالى عن ابن القيم « ... يدَّعي نحو السهيلي لنفسه . حتى ليظن القارئ أن النحو الذي يسوقه ابن القيم في كتابه من بدائعه والحق أنه ليس له فيه نصيب من قريب أو بعيد .... » . « ومن هنا ينبغي أن يعاد النظر في هذين الرجلين - ابن القيم وابن الزملكاني - فقد نسب إلى الأول من الآراء ما أدخله في عداد النحاة ...» ص (٧) « نتائج الفكر » هذه العبارات أزعجت غير واحد من أهل العلم الذين حادثتهم في هذا الأمر وهم من المنزلة من هم وفي نفس منزلة فضيلة الدكتور وفي نفس المجال !!! وإنها عبارات قاسية

على مثل ابن القيم اللغوي البارع ، خاصة مع عدم إعطائنا مثالًا واحدًا كما حدث مع ابن الزملكاني . وأظن أن فضيلة الأستاذ الدكتور « البنا » إن رُوجع في هذا الأمر رجع .

٥ـ وابن القيم رحمه الله تعالى لم ينقل من السهيلي غافلًا ذكره كما يصنع غير واحد من مدعي العلم وأصحاب كراسيّ معروفة – حتى ننسبه إلى السرقة – بل نادرًا ما نقل عنه وأغفل ذكره، فالغالب العكس مثلًا: من «بدائع التفسير».

ــ الفاتحة (١/٢٢٨ و ٢٣٢) .
ــ البقرة (١/٣٥٠) الروض الأنف .
ــ المائدة (٢/١١٧) .
ــ يوسف (٢/٤٥٣) هامش (٢) .
ــ الإسراء (٣/ ٧١) و (٣/١١٦) .
ــ مريم (٣/١٤٨) .
ــ الأنبياء (٣/١٩٢) وهذا على سبيل المثال لا الحصر .

وهذا في سائر كتبه خاصة « بدائع الفوائد » مما لا يخفى على القارىء الفطن فهو رحمه الله تعالى لم ينقل ثم ينكر ؟ إنما ينقل ويثبت مصدره ومراجعه سواء كان باسم الكتاب أو باسم مؤلفه . وانظر موارده من كتاب « بكر أبو زيد » (٣٢٢-٣٨٩) ولي عليها إضافات أسائل الله تيسير إخراجها .

٦ـ وليس ابن القيم صاحب الخلق والأدب في العلم والعمل وهو ما شهد به له الموافق والمخالف ممن يدعي لنفسه ما ليس له « فالمتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » وسرقة المؤلفات أو الرسائل الجامعية خلق لم يعرفه قطعًا الإمام ابن القيم .

٧ـ وابن القيم ليس مقلدًا حتى في اللغة بل هو ينقل من السهيلي ويرد ويناقش ولا يسلم تسليم الأعمى ، بل يناظر مناظرة المبصر البصير ، والنابه المستنير .

وهذه صفة من صفاته تراها في فقهه وأبحاثه الحديثية والعقائدية والسلوكية ومن ثمَّ اللغوية . ولو نقل إنسان من آخر وأكثر من النقل فاتهم بالسرقة أو

الادعاء ، ما سلم من ذلك أحد ...! وانظر كتاب « ابن القيم من آثاره العلمية » (٢٢٦) للبقري .

٨ـ وليراجع القارىء الكريم ما كتبه الأستاذ الدكتور أحمد ماهر البقري رحمه الله تعالى في كتابه الممتع « ابن القيم اللغوي » خاصة الفصل الثاني « لغوية ابن القيم » وأخيرًا إن ابن القيم لا شك قد أكثر من النقل عن السهيلي كما مر من قبل ، ويذكره بالفضل يقول مثلًا : « هذا الفصل كله كلام السهيلي إلى آخره » بدائع الفوائد (٧٩/٣) و (١٩/٣ و ٥٥) ، هذا والله تعالى أعلم .

أما ثاني الوقفات

فهي المتعلقة بالأبحاث العلمية والكونية والطبية وغيرها من العلوم التجريبية مما تكلم عن بعضها ابن القيم رحمه الله تعالى وفيها بعض التأملات :

أولًا : القرآن الكريم كلام رب العالمين المنزل على قلب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم كتاب هداية وبيان ،ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه ، من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعات ، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام : صراط الله المستقيم . والقرآن مليء بالحث على التفكر والتدبر والنظر في السموات والأرض وفيما خلق الله من جبال وأنهار وبحار وأشجار وكواكب ونجوم إلى سائر مخلوقات الله تعالى جامدة أو حية . وفي أيام الذين خلوا من قبل . وهذا يكاد لا تخلو منه سورة من السور وإن غلب ذلك على السور المكية كالأنعام والنحل وغيرها ، مثلًا : يقول الله تعالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات :٢٠-٢١] وكقوله : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ الآيات (١٧-٢٠) الغاشية إلى كثيرمن الآيات التي تكلم عنها جمع من العلماء بما عرف بالتفسير العلمي .

يقول العلامة الدكتور / محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في معنى التفسير العلمي نريد بالتفسير العلمي : « التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها » « التفسير والمفسرون » (٢/٤٥٤) . وللحديث عن التفسير العلمي في القرآن ، وموقف المؤيدين منه والمعارضين ، مقام ليس هنا ، وإلا طال المقال عن

ضرورة الحال . ومن أحسن من كتب وجمعَ وحلل الآراء في هذه المسألة - مع الاختصار أيضًا- فضيلة الأستاذ الدكتور / فهد الرومي في كتابه الممتع البديع « اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر » في الفصل الثالث « المنهج العلمي التجريبي في التفسير » (٢/٥٤٥-٧٠٢) وقد رجح المؤلف حفظه الله بين الآراء بأقوال جيدة ونظرات ثاقبة (٢/٦٠٢) وأرى - والله أعلم - حسن ما ذهب إليه ، وهو عدم رفض وإنكار التفسير العلمي بشروط ضرورية للخوض فيه . ثم يقول بعد ذكره هذه الشروط : « أقول: لا رفض للتفسير العلمي مطلقًا ، ولا تأييد وتسليم له مطلقين ، بل جمعًا بين حقيقتين حقيقة قرآنية ثابتة بالنص الذي لا يقبل الشك ، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيتين ، ومن هنا كنا متفقين كما أسلفنا على أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية ، وإنما يقع التصادم عندما ندعي حقيقة علمية في الكون وهي ليست حقيقة علمية ، أو ندعي حقيقة قرآنية ، وهي ليست حقيقة قرآنية » (٢/٦٠٣) . وقد نبه الأستاذ المؤلف للفرق بين : أمرين هامين وهما : « التفسير العلمي » و « الإعجاز العلمي » . أما أولهما فهو مثار البحث والمناقشة ، وأما ثانيهما فأحسبه أمرًا مسلمًا لا جدال فيه ولا إشكال (٢/٦٠٠) اهـ.

وهي تفرقة وإن كانت لا تنكر ، لكنها قد تخفى على أجيال يلبس عليها دينها ويشوش فكرها بحجة لا مكان للدين في الحقل العلمي والمعملي المعاصر ، وتفهيمهم أن الدين هو عبادات داخل المسجد فقط ولا علاقة له بالدنيا ، ولا مكان له بالخارج . وهو لحية كثة وقميص قصير ومسبحة طويلة ... فهو - عندهم - « دروشة » فأكثر منها إن شئت أو دع . ففصلوا بين الدين والدنيا، بين القرآن والسنة، والحكم وواقع الناس . فالإعجاز العلمي كان ولا يزال وسوف يستمر إلى ميراث الله الأرض ومن عليها « ذلكم أن كتابًا أنزل قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان وعَرَضَ لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية كخلق السموات والأرض وخلق الإنسان ... ومع ذلك كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته ولم يصادم جزئية من جزئياته ، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذا بحد ذاته يعتبر

إعجازًا علميًا للقرآن . هذه النتيجة المتولدة على أن القرآن لم ولن يصادم حقيقة علمية لم أرَ بين علماء المسلمين من أنكرها لا في القديم ولا في الحديث ، وكل ما يثار من ضجة وما يسطر في الصحف ما هو إلا عن التفسير العلمي لا عن الإعجاز العلمي » (٢/٦٠٠-٦٠١) نفس المصدر .

فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية ، ولا يكون إلا ما أراد وقدر وقضى . فهو خالق كل صانع وصنعته فهو أنزل القرآن وعلمه ، وخلق الإنسان وعقله ، وقرآنه هو الدال عليه سبحانه ، وهو كتابه المقروء والكون كتابه المنظور .

فهذا كتاب بيان وهدى يدلك أن الكون له خالق واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

ونبهنا في القرآن على ما في كثير من الكون من آيات يراها الناس بين الحين والآخر ليزدادوا إيمانًا وتسليمًا حين يرون إعجاز القرآن العلمي، وهذا ينفع المؤمنين مع إيمانهم وتصديقهم أصلًا بالقرآن ، وإلا فأكثر هذه الإعجازات العلمية أُظهرت على أيدي غير مؤمنين فلم تنفعهم شيئًا وكانت حجة عليهم لا لهم . فالعبرة بالإيمان والتصديق أن القرآن حق ، ثم تأتي الآيات الكونية لنرى في أنفسنا والآفاق ما يزيدنا إيمانًا ويتبين لنا أنه الحق . والله أعلم وبه أؤمن وله أسلم وأسأله أن يتوفاني على ما توفى عليه عباده الصالحين .

ثانيًا : « ابن القيم والتفسير العلمي » بعد بيان الفرق بين التفسير العلمي ، والإعجاز العلمي للقرآن ، نستطيع أن نقف -بعون الله- على موقف ابن القيم رحمه الله تعالى من الأمرين وهو ما يأتي في الكلام على منهجه رحمه الله تعالى .

الباب الثامن
مؤلفات ابن القيم مرتبة على الحروف

مقدمــة

من المعلوم أن ابن القيم من المكثرين من التأليف ، وقد أخطأ بعض المترجمين أو الوراقين في نسبة بعض ما ليس من كتبه إليه . وهذا إن كان عن قصد ، فهو جريمة ، وخيانة للأمة . حتى قد ترى نسبة مؤَلَّفَيْن متناقضين لعالم واحد . وقد يكون لتقارب الزمن ، أو الأسلوب ، أو الاسم سبب لهذا اللبس في أحيانٍ كثيرة

ولابن القيم رحمه الله تعالى «ثمانية وتسعون» مؤلفًا، كما بين ذلك فضيلة الشيخ « بكر أبو زيد » في كتابه « ابن القيم حياته .... » ما بين ص (١٩٩-٣٠٩) . ولهذا أحيل القراء الكرام إلى هذا المبحث من الكتاب المذكور ، تجنبًا للإطالة والتكرار . وأكتفي هنا بذكر ما وصلنا من كتبه الصحيحة النسبة إليه . وأنبه مرة أخرى أنه لا يستغني باحث ، أو قارىء عما كتبه الشيخ « بكر أبو زيد » عن هذا الإمام العلم . وقد وضع الشيخ « بكر » اثنتي عشرة نقطة هامة وضرورية لدراسة مؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى . وهي :

١ ـ ذكرها مرتبة على الحروف .

٢ ـ تحرير اسم الكتاب كاملًا .

٣ ـ الإشارة إلى أوهام النقلة في ذلك .

٤ ـ الإشارة إلى عبث الوراقين ونحوهم .

٥ ـ الإشارة إلى موضع ذكره عند المؤلفين السابقين .

٦ ـ الإشارة إلى المطبوع ذكره في مؤلفات ابن القيم .

٧ ـ الإشارة إلى المطبوع منها مع بيان بعض الطبعات المعتمدة .

٨ ـ الإشارة إلى أماكن النسخ الخطية لما لم يطبع منها .

٩ ـ جعل رقمًا متسلسلًا لكتبه ليفيد المجموع العددي لها خالية من المكرر والمنسوب خطأ .

١٠ـ إذا تكرر الكتاب ذكرت كل اسم في حرفه المناسب له .

١١ـ إذا تحققت من نسبة الكتاب خطأ فلا أدخله في الرقم التسلسلي بل أميزه بعلامة .

١٢ـ بيان المباحث التي كان ابن القيم يتمنى لو أفردها بمؤلف مستقل ..

ولهذا فقد اقتصرت على ذكر ما وصلنا من مؤلفاته رحمه الله تعالى ، ومن أراد مزيدًا عن حصر مؤلفاته وغيرها من الأمور فليرجع إلى كتاب الأستاذ « بكر أبو زيد » . وقد ذكرت مؤلفاته المطبوعة مسلسلة على حروف المعجم ، مع بيان المطبوع منها والتعليق على الطبعات قدر المستطاع وبالله التوفيق .

١ـ « اجتماع الجيوش الإسلامية » :

طبع في الهند سنة (١٣١٤ هـ) وصور في دار الفكر سنة (١٤٠١ هـ) وهذه هي التي اعتمدت عليها في جمعي التفسير . ثم وصلتني نسخة جديدة طبع الرياض لسنة (١٤٠٨ هـ) بتحقيق الدكتور / عواد عبد الله المعتق . وهي تعد من أحسن كتبه المطبوعة تحقيقًا وإخراجًا . فقد طبعت على ثلاث نسخ بالإضافة إلى المطبوعة ، وهذا أمر عظيم في التحقيق . وقد قدم لها المحقق مقدمة جيدة في بيان موقف ابن القيم من الفرق، وهو الجزء الأول، ثم تحقيق الكتاب في الجزء الثاني وقد حزنت كثيرًا لعدم حصولي على هذه النسخة في بداية العمل ، خاصة أن الكتب التي جمعت التفسير هي عندي منذ أكثر من عشر سنوات . ولكن هذا العمل الجيد من الدكتور / عواد يمكن أن يختصر فيخرج القسم الأول لكتاب مستقل ، ثم الثاني وهو « الكتاب » في جزء آخر مع اختصار كثير من التراجم . وقد استفدت منها بقدر اتساع الوقت وسوف أعتمدها إن شاء الله تعالى في الطبعة الثانية للتفسير .

ــ ذكره العلامة « بكر أبو زيد » ص (٢٠١) .

٢ـ « أحكام أهل الذمة » :

طبع سنة (١٤٠١ هـ) في مجلدين ، دار القلم . بتحقيق د/ صبحي الصالح رحمه الله تعالى وقد توفي الدكتور المحقق في المحرم من سنة (١٤٠٧هـ) وهي طبعة جيدة جدًا لكن تحتاج إلى تخريج للأحاديث بشكل دقيق. وهي التي اعتمدتها في عملي.

ـــ عند « بكر أبو زيد » ص (٢٠١) .

* **أخبار النساء** . (انظر آخر الباب) .

٣ـ « إعلام الموقعين عن رب العالمين » :

طبع في مكتبة الكليات الأزهرية سنة (١٣٨٨ هـ) بتحقيق / طه عبد الرؤوف سعد . وهي تكاد تكون خالية من التصحيفات لكنها خالية أيضًا من التخريجات وطبع أيضًا في إحدى مكتبات مصر تصويرًا على طبعة الشيخ/ عبد الرحمن الوكيل. وهي مليئة بالتصحيف والسقط، وقد صححت فيها أكثر من مائتين من الأخطاء. وهنا يجدر التنبيه على خطورة إعادة طبع الكتب دون إضافة جديد عليها من تحقيق ، وتخريج ، فضلًا أن تطبع بعيوبها .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٠٩) .

٤ـ « أسماء مؤلفات ابن تيمية » :

وهي طبعة دمشق، لسنة (١٣٧٢هـ) بتحقيق الأستاذ/ صلاح الدين المنجد.

ـــ ذكره « بكر أبو زيد » ص (٢٠٨) .

٥ـ « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » :

اعتمدت على طبعة السنة المحمدية لسنة (١٣٥٨ هـ) بتحقيق الشيخ/ جامد الفقي رحمه الله تعالى . وهي طبعة جيدة غير مستوفاة تخريج الأحاديث . وقد وصلتني طبعة المكتب الإسلامي وهي من جزأين وإن شاء الله أعتمدها في الطبعة الثانية وهي جيدة جدًا .

ـــ ذكره « بكر أبو زيد » ص (٢١٨) .

٦ـ « إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » :

طبع «الكليات الأزهرية» سنة (١٣٩٦هـ) بتصحيح وتخريج العلامة/محمد جمال الدين القاسمي.

ـــ ذكره الشيخ « بكر أبو زيد » ص (٢٢٠) .

٧ـ « بدائع الفوائد » :

وهو من أعظم كتب ابن القيم، انظر المقدمة (٨٠) طبع « المطبعة المنيرية » بتصحيح الشيخ منير الدمشقي رحمه الله تعالى ، وقد راجع أصوله على غير نسخة بعد عرضها على جماعة من أهل العلم والفهم والذكاء (٢١٨/٤) .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٢٢) .

٨ـ « التبيان في أقسام القرآن » :

طبع « دار المعرفة » بتحقيق الشيخ حامد الفقي، وهي طبعة جيدة ولكن ككثير من كتب ابن القيم تحتاج لتحقيق .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٢٥) .

وهذا الكتاب القيم يصلح لدراسة منهج ابن القيم في التفسير لاحتوائه كله على تفسيرات لآيات من سور شتى فهو كالتفسير المستقل .

٩ـ « تحفة الودود في أحكام المولود » :

طبع « دار الريان للتراث » بتحقيق د/ عبد الغفار سليمان. وهي جيدة ، وأعتمدها في التفسير .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٢٩) .

* « التفسير القيم » :

سبق ووضحت في المقدمة أن هذا الكتاب ليس مِن جمْعِهِ رحمه الله تعالى ، وكذا بالطبع « بدائع التفسير » .

١٠ـ « تهذيب سنن مختصر أبي داود » :

طبع « السنة المحمدية » سنة (١٣٦٨ هـ) بتحقيق الشيخ / حامد الفقي ومشاركة العلامة أحمد شاكر في الأجزاء الثلاثة الأول .

ـ عند « بكر أبو زيد » (٢٣٤) .

١١ـ « جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام » :

طبع « المطبعة المنيرية » سنة (١٣٥٧ هـ) وصورت عليها طبعة « دار الطباعة المحمدية » وهي التي وقعت في يدي أولًا وهي بتحقيق « الشيخ طه يوسف شاهين » وهي مسروقة حرفيًّا عن الطبعة المنيرية كلمة كلمة ، ولم تزد عن المنيرية إلا في التصحيف والتحريف . وهذا مما يؤسف له . ثم أمدني بعض الأصدقاء بطبعة حديثة جيدة بتحقيق « محيي الدين مستو » ولكن تحتاج لتخريج أدق .

ـ عند « بكر أبو زيد » (٢٣٦) .

١٢ـ « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » :

طبع مكتبة القرآن سنة (١٤٠٨ هـ) وهي المعتمدة، وأيضًا طبعة « مكتبة المتنبي » والأخيرة رديئة جدًا ثم وقع لي طبعة « الأستاذان يوسف علي بدوي ، ومحيي الدين مستو» وهي جيدة .

ـ ذكرها « بكر أبو زيد » (٢٣٩) .

١٣ـ « الداء والدواء » :

طبع « مكتبة المدني » بتحقيق الدكتور / محمد جميل غازي رحمه الله تعالى وهي خالية غالبًا من التصحيف ، لكن لم تخرج أحاديثها كالعادة وقد طبع أيضًا تحت اسم « الجواب الكافي ... » .

ـ عند « بكر أبو زيد » (٢٤٤) .

١٤ـ « الرسالة التبوكية » :

طبع « مكتبة التوعية » سنة (١٤٠٨ هـ) . وهي جيدة .

ـ عند «بكر أبو زيد» (٢٥٠).

١٥ـ « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » :

طبع « مكتبة التراث » دون تحقيق .
ـ عند «بكر أبو زيد» (٢٥٢) .

١٦ـ « الروح » :

طبع « دار الندوة الجديدة » دون تحقيق . وقد وصلني محققًا في جزأين من عمل د / بسام العموش

مكتبة ابن تيمية، الرياض ، وهي جيدة ، ولكن أدخل مقدمته (١/١٦٦) كأنها من أصل الكتاب دون إشارة إلى بداية الكتاب (١/١٦٧) . مع عدم الفهرسة للجزء الأول وهو مع ذلك اعتمد على مخطوطات جيدة .
ـ عند « بكر أبو زيد » (٢٥٣) .

١٧ـ « زاد المعاد في هدي خير العباد » :

طبع بتحقيق الأستاذين شعيب وعبد القادر الأرناؤوط في « خمسة أجزاء » وهي أجود ما أخرج من كتب ابن القيم .
ـ عند « بكر أبو زيد » (٦٢٠) .

١٨ـ « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » :

تصوير دار المعرفة – بيروت – سنة (١٣٩٨ هـ) دون تحقيق ، وهي مصورة على الطبعة الأولى للطبعة الحسينية لسنة (١٣٢٣ هـ)، ونصفه الأول على مخطوطة العلامة الألوسي ، والنصف الثاني على مخطوطة دار الكتب المصرية كما ورد في آخر الكتاب (٣٠٧) .
ـ عند « بكر أبو زيد » (٢٦٦) .

١٩ـ « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » :

طبع « دار العاصمة » الرياض (١٤٠٨ هـ) بتحقيق الشيخ علي بن محمد ،

في أربعة أجزاء في طبعة جيدة . وقد عقد مقارنة بين الكتاب الأصلي وبين مختصره للموصلي (١/١١٧) ، وأن الكتاب لم يصلنا كاملًا ، ويدل على ذلك كلامه عن الطاغوت الثالث والرابع في المختصر ، وهذا مما لم يصلنا .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٨٤) .

٢٠ـ « طريق الهجرتين وباب السعادتين » :

طبع « المكتبة السلفية » سنة (١٤٠٠ هـ) الطبعة الثالثة بإشراف الأستاذ / محب الدين الخطيب . وهي دون تحقيق ، وهي المعتمدة .

وقد طبع في دار ابن القيم سنة (١٤٠٩ هـ) على الطبعة الأولى ، وامتازت بالتحقيقات .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٧٢) .

٢١ـ « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » :

طبع مكتبة المدني سنة (١٩٨٥ م) . بتحقيق الشيخ الدكتور / محمد جميل غازي رحمه الله تعالى ، وهي خالية من التخريج .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٧٤) .

٢٢ـ « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » :

طبع « دار ابن كثير » دمشق، الثانية (١٤٠٧ هـ) وهي جيدة لكنها غير محققة .

ـــ « بكر أبو زيد » (٢٧٦) .

٢٣ـ « الفروسية » :

طبع دار الصحابة – مصر – سنة (١٤١١ هـ) وهي جيدة .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٨٠) .

٢٤ـ « الفوائد » :

طبع المكتبة القيمة بمصر– سنة (١٤٠٠ هـ)، وهي تحتاج لتخريج وتحقيق جديدين.

ـــ «بكر أبو زيد » (٢٨٤) .

* **الفوائد المشوق** (انظر آخر هذا الباب) .

٢٥ـ « كتاب الصلاة وحكم تاركها » :

طبع المكتب الإسلامي سنة (١٤٠١ هـ) . الأولى بتحقيق / تيسير زعتر ، وقد أجاد في إخراجها .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٤٣) .

٢٦ـ « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » :

وهي المعروفة بالقصيدة النونية ، طبع دار الفاروق الحديثة مصر ، وهي كثيرة التحريف .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٨٧) .

٢٧ـ « الكلام على مسألة السماع » :

طبع « دار العاصمة » الرياض سنة (١٤٠٩ هـ) الطبعة الأولى ، تحقيق راشد عبد العزيز الحمد .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٤٢) .

٢٨ـ « الكلم الطيب والعمل الصالح » :

وهو المعروف باسم « الوابل الصيب ... » طبع دار الريان سنة ١٤٠٨هـ. وطبع المكتبة السلفية ثم طبع « دار البيان » بتحقيق الأرناؤوط ، وهي أجودهم ، وأعتمد على الأولى ثم على هذه .

ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٩٣) .

٢٩ـ « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » :

وهو من أمتع كتب ابن القيم ، وينبغي الاهتمام بدراسته وخاصة للنشء ، لمعرفة السلوك القويم والطريق الصحيح المثمر إلى الله تعالى . وهو مليء بالنقد العلمي الدقيق المنصف ، فهو لم يجامل الهروي أو يتحامل عليه . طبع « السنة

المحمدية » سنة (١٣٧٥ هـ) بتحقيق الشيخ / حامد الفقي رحمه الله تعالى وإليه يرجع الفضل - بعد الله - لإظهار كتب الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، وراجع كلامي على طريقتي في التحقيق عند مبحث «التفسير القيم». وقد كنت بدأت في تخريجه منذ سبع سنوات وتوقفت بسبب العمل في التفسير ولعل الله ييسر إخراجه.
ـــ عند « بكر أبو زيد » (٢٩٥) .

٣٠ـ « مفتاح دار السعادة ومنشور ألوية العلم والإرادة » :

طبع مكتبة حميدو سنة (١٣٩٩ هـ) بتصحيح محمود حسن ربيع ، وللأسف أنه أسوء الكتب إخراجًا من ناحية التحقيق أو التخريج مع أهميته العظمى ، وفوائده الجزيلة .
ـــ عند « بكر أبو زيد » (٣٠٠) .

٣١ـ « المنار المنيف في الصحيح والضعيف » :

طبع « مكتبة المطبوعات الإسلامية » سورية سنة (١٤٠٣ هـ) بتحقيق الشيخ / عبد الفتاح أبو غدة ، وهي جيدة جدًا .
ـــ عند « بكر أبو زيد » (٣٠٣) .

٣٢ـ « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » :

طبع المكتبة القيمة سنة (١٤٠٧ هـ) الرابعة .
ـــ عند « بكر أبو زيد » (٣٠٨) .

هذا ما وصلنا من كتبه رحمه الله تعالى وهي « اثنان وثلاثون كتابًا » من « ثمانية وتسعين » كما ذكر العلامة بكر أبو زيد (٣٠٩) .

تنبيهات :

١ـ بعد مرور أكثر من عامين على العمل في الكتاب ، وكنا قد وصلنا إلى جمع أكثر من ثلثيه إلى سورة « الأحزاب » . وبعد معرفة كثير من الإخوة الكرام بالعمل ، أرسلوا لي بعض كتب ابن القيم – والتي أشرت إليها سابقًا– محققة تحقيقًا جديدًا فكان من الصعب الاعتماد عليها كأصل . فاستفدت منها استفادة كبيرة ولا شك ، والعزم – إن شاء الله تعالى – جعل هذه الكتب–خاصة الجيدة الطبع والتي قوبلت على أكثر من مخطوطة–هي أصلًا للعمل في طبعته الثانية. وأسأل الله أن يتجاوز عن تقصيري ، ويغفر لي ذنبي كله سره وجهره، كبيره وصغيره .

٢ـ قيام البعض باختصار بعض كتب ابن القيم مثل « حادي الأرواح » أو « مدارج السالكين » ولا شك أن للمختصرات أهمية كبيرة إن كانت في موضعها ، مثل اختصار مطول ممل أو تجريده من الموضوع أو الضعيف مثلًا ، ومع هذا فأنا لا أميل لذلك إنما ينبغي نشر الكتاب كما هو مع الإشارة إلى ما فيه من خلل إن وجد، خاصةً مع كتب ابن القيم رحمه الله فهي من السلاسة والإتقان في يسر بالمنزلة الرفيعة .

ثم مختصر « حادي الأرواح » والمسمى « روح وريحان » مثلا أخل بأبواب كاملة هامة ؛ لأنه في ظنه « يصعب الاستفادة منه في هذا العصر » ص (١٥) : فهو حذف الكثير من الآيات والأحاديث والمسائل النحوية التي قد تؤدي إلى الإطالة أو ليس وراء هذه المسائل عمل ؟!

وإن كان كل جهد يقرب الدين للناس مشكورًا ، لكن ما ينبغي الإخلال بمقصد العلماء تحت مسمى الاختصار، وللمختصرات ضررها كما هو معلوم، وبين ذلك ابن خلدون في مقدمته (ص ٣٣١) : الفصل الثامن والعشرين .

ومؤلفات ابن القيم رحمه الله لم يختلف اثنان على يسر عبارتها مع قيامها بدور هام وعظيم في الحفاظ على منهج السلف الصالح، وإثبات الحق بالأدلة النقلية والعقلية.

وادعاء صعوبة كتب السلف الآن دعوى فيها بعض الصدق ، ولكن ليس العيب في كتبهم ، بل العيب في أفهامنا وعقولنا وبعدنا عن ثقافتنا وعلومنا والأدوات الهامة لفهم هذه الكتب من نحو وبلاغة وغيرها . ويكفي تتبع تلك الحرب على الفصحى لنعلم لماذا لا نفهم كتب السلف ؟

وسلوا أساتذة اللغة العربية – لا نقول في مراحل قبل الجامعة بل المرحلة الجامعية في الكليات العربية–عن مستوى طلابهم ؟ حتى نفهم لماذا صعبت علينا كتب السلف ؟!

٣ـ وأيضًا ما قام به بعضهم بنزع بعض أبواب أو أبحاث كتبه وإفرادها في طبعات مستقلة وهذا يوهم أن هذه الرسالة كتابٌ مستقل فيزاد في عدد مؤلفاته ويُلبِّس على القارىء بذلك .

وضرب العلامة « بكر أبو زيد » ص (١٨٦) لذلك مثلا : بـ « بلوغ السول في أقضية الرسول صلى الله عليه وسلم » فهو منزوع من إعلام الموقعين (٤/٤٨١) وأيضًا : ما استله بعضهم من « صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم » أو وضوئه وهما مستلان من « زاد المعاد » ، وكذلك : « غض البصر » وغيرها .

ومن ذلك « الأمثال في القرآن الكريم » فقد استُل قديمًا وكان في حوزة فضيلة مفتي بغداد « الشيخ نعمان بن السيد محمود أفندي » سنة (١٢٩٩ هـ) . وهي في مكتبة الأوقاف برقم (٦٦٨٥) . انظر « الأمثال » المطبوع مستقلا (ص ١٧٣) وهذا الكتاب يقع في إعلام الموقعين من ص (٢٠٠) من الجزء الأول . وإن أشار البعض إلى استقلاله منذ قريب من وفاة المؤلف . والله أعلم .

ويجب التنبيه على أنْ ليس لابن القيم من كتبه مما وصلنا يقع بين (٥٠–١٠٠) صفحة حسب الطبعة المعتمد عليها هنا سوى ثلاثة كتب :

١ـ إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (٤٧) صفحة .

٢ـ الرسالة التبوكية (٨٧) صفحة .

٣ـ الفروسية يقع في (١٠١) صفحة .

ويلي ذلك « اجتماع الجيوش » في ما يقرب من (١٥٠) صفحة حسب طبعته المتداولة . وما عدا ذلك فهي رسائل منزوعة من كتبه والله أعلم .

فصــل

الفوائد المشوق لمن ؟

شكك كثير من أهل العلم في نسبة كتابين إلى ابن القيم :

الأول : أخبار النساء . وقد أنكر أو تردد كثير من أهل العلم نسبته لابن القيم منهم :

١ـ الأستاذ المحقق محمد منير الدمشقي ، الذي له من الفضل الكثير في نشر علوم الشريعة السمحة .

٢ـ الأستاذ عبد الغني عبد الخالق .

٣ـ الأستاذ أحمد عبيد .

٤ـ والزركلي .

٥ـ والعلامة « بكر أبو زيد » وقد فصل ذلك تفصيلًا في كتابه الممتع « ابن قيم الجوزية حياته ، آثاره ، موارده » (٢٠٢-٢٠٨) بما يغني عن ذكره هنا إلا اختصارًا وبتصرف .

يقول الأستاذ « بكر أبو زيد » : (ولا يسعنا هنا بعد هذا ، وبعد الدراسة والفحص لمادة الكتاب إلا التقرير بأن كتاب « أخبار النساء » المذكور ليس لابن القيم لأمور :

١ـ بالتتبع لم يذكره أحد من المترجمين في مسرد كتبه .

٢ـ أنه لم يشر إليه في شيء من كتبه لا سيما « روضة المحبين » مع اشتراك المناسبة وهي : شأن النساء .

٣ـ عدم إشارته فيه لأحد من شيوخه أو كتبه كعادته غالبًا .

٤ ـ غرابة الأسلوب : الوضع ، والطريقة ، والمنهج في هذا الكتاب، وبُعد ذلك على سلوك ابن القيم في التأليف) .

ثم بيَّن فضيلة الشيخ منشأ هذا الوهم والخطأ إلى عبث الوراقين أو الوهم والغلط في الخلط بين ابن قيم الجوزية وبين ابن الجوزي . ومع هذا يشكك أيضًا فضيلة الشيخ في نسبة الكتاب إلى ابن الجوزي نفسه والفرق بينه وبين أحكام النساء ، ولكن هل يختلف الأمر بالنسبة للفوائد المشوق ؟ وأحاول جاهدًا بيان الصواب في هذه القضية إن شاء الله تعالى وبه التوفيق :

أولًا : التعريف بكتاب « الفوائد المشوق » :

١ـ اسم الكتاب : « الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان » .

٢ـ موضوعه:معرفة ما تضمنه الكتاب العزيز من أنواع البيان ، وأصناف البديع ، وفنون البلاغة وعيون الفصاحة .أي: هو كتاب بلاغي في المقام الأول . يحتوي الكتاب على مائتين وستين صفحة . عدا الفهرس .

٣ـ طبع هذا الكتاب لأول مرة بتصحيح الأستاذ بدر الدين النعساني وعنه ذكره الأستاذ حامد الفقي والأستاذ أحمد عبيد[١] .

ثانيًا : وسائل إثبات صحة نسبة الكتاب ، وهي عديدة منها :

١ـ أن يذكر المؤلف مؤلفاته في ثنايا كتبه ، وقد ذكر ابن القيم (٢٢) كتابًا لنفسه[٢] .

٢ـ أن يذكر مؤلفاته مترجموه خاصة تلامذته المعاصرين له أو القريبين من عصره وبتتبع ذلك يمكن الوقوف على صحة النسبة إليه غالبًا[١] .

٣ـ إيلاف أسلوب المؤلف ، من حيث استناده على الكتاب والسنة في الاستدلال وكذا اللغة ، وأي فنون اللغة يغلب على أسلوبه ، ومدى تعصبه أو تجرده لمذهبه الفقهي ، ومقدار وضوح عقيدة المؤلف وطريقته ، كخطأ من نسب « دفع شبه التشبيه » لابن القيم، وهو لابن الجوزي. وأيضًا موارد المؤلف في عموم كتبه له دور هام، إلى غير ذلك من الأدوات والأساليب المرجحة لصحة أو بطلان النسبة.

---

(١) « ابن القيم » لبكر أبو زيد (٢٩٠) .

(٢) المصدر نفسه (١٩٧) .

(٣) وقد وُفق فضيلة الشيخ « بكر » للوقوف على ذلك بالنسبة لمؤلفات ابن القيم بقدر يشكر عليه ، فقد ذكر من ترجم له وما ذكره من كتب ، فوقف على (٩٨) مؤلفًا له كما مر من قبل .

ثالثًا : محاولة تطبيق ما سبق على « الفوائد المشوق » :

١ـ لم يشر ابن القيم قط « للفوائد المشوق » بالاسم ، أو بالإشارة إلى موضوعه وهو حري بذلك لشغفه وتطلعه لإنشاء تفسير بديع للقرآن الكريم كما مر في المقدمة ص (١٦) .

٢ـ لم يشر أحد من المترجمين لابن القيم خاصة معاصريه وتلامذته كالصفدي ، أو ابن رجب مثلًا ، وانظر تفصيل ذلك في كتاب « بكر أبو زيد » (١٨٩-١٩٤) فقد ذكر ستة عشر مترجمًا له من الصفدي ، ت (٧٦٣هـ) إلى ابن بدران ت(١٣٤٦هـ) لم يذكر أحدهم « الفوائد المشوق » ضمن كتبه .

٣ـ يقول الأستاذ بكر أبو زيد (٢٩٠) « ...الفوائد المشوق ... طبع لأول مرة بتصحيح الأستاذ محمد بدر الدين النعساني وعنه ذكره الأستاذ حامد الفقي والأستاذ أحمد عبيد وقال بعد ذكره له : (وذكر في « كشف الظنون » كتابًا اسمه « الإيجاز » ولعله هذا) .

وقد قال عن الإيجاز : ص (٢٢١) : « الإيجاز » : لم أر من ذكره قبل صاحب « كشف الظنون » (٢٠٦/١) .

وتبعه البغدادي في « هدية العارفين » (١٥٨/٢) و لم أره عند غيرهما » اهـ. وهذا كله في بحث صحة أو بطلان نسبة الكتاب من ناحية « السند » إلى ابن القيم ثم إليك المزيد وهو هام جدًا وعليه مدار الأمر .

٤ـ وقد كان أن دعاني أخي وحبيبي في الله « عبد الرحمن فودة » المدرس المساعد بكلية دار العلوم لسماع مناقشة رسالة الدكتوراه لأخ كريم هو « زكريا سعيد علي » وكانت المفاجأة أن الرسالة عنوانها « بلاغة القرآن عند المفسرين حتى نهاية القرن السادس » (١٤١١ هـ - ١٩٩١م) - وقد كنت قاربت الانتهاء من تحقيق أكثر من نصف الكتاب - وقد تضمنت رسالته دراسة مبدعة حول كتاب « الفوائد المشوق » نلخصها فيما يلي :

أـ ذهب الباحث إلى نقض نسبة الكتاب لابن القيم من ناحية السند ص (٣-٦)

قريبًا مما ذهبت إليه[١] .

ب- من ناحية المتن ابتدأ الباحث رده صحة هذه النسبة بذكر قضية « المجاز » عند ابن القيم ، وأنه في مقام العداء له ووصفه (كما في مختصر الصواعق) بأنه الطاغوت الثالث الذي وضعه الجهمية (٢٨٤) وهذا لم يصلنا مع الصواعق المطبوع والهجوم الضاري من ابن القيم على مسألة تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز وهو مما يتنافى تمامًا مع ما ذُكر في « الفوائد المشوق » . الذي أخذ حجمًا ضخمًا من ص (٩-٨٧) اهـ.وهذا هام جدًا من ناحية مخالفة المنهجين تمامًا لما يقطع ببطلان هذا التقسيم وبين ما يثبته ويدلل عليه بهذه السعة كما في الفوائد المشوق . وهذا كما مر من الأسباب النافية لصحة نسبة كتاب يخالف محتواه العقدي لمؤلف على النقيض من هذه العقيدة .

جـ- يقول الباحث « ومما لفت نظري في الكتاب الموسوم بالفوائد المشوق عند ذكره للزمخشري أنه يتبع ذلك بصيغة الترحم عليه : (رحمه الله) وهذا مما لا يمكن أن يصدر عن واحد مثل ابن القيم السلفي المعتقَد ... خاصة بالنسبة لواحد من رأس المعتزلة - وهم عنده - من فرق المبتدعة والضلالة .

وهذا الترحم يشعر في كلام السابقين شيئًا من الحب والوفاء في نفس المترحم علي المُتَرَحم عليه » ص (٨) باختصار يسير .

وهذه الفقرة بعينها من أضعف نقاط البحث ، وكنت أرجو أن يغض طرف قلمه عن مثل هذا . وتنزيه ابن القيم عن هذا الخلق ، مع وقوفنا في خندق واحد معه رحمه الله تعالى ، ضد المعتزلة وأمثالهم فيما خالفوا فيه أهل السنة . فقد ذكر ابنُ القيم الزمخشري في أكثر من خمسة عشر موضعًا في المجموع من تفسيره « بدائع التفسير » مثل: (١/٢٦١ و٢٧٧ و ٣١٠ و ٣٧٨ و ٤٢٨) و (٢/١٩٧ و ٢٢٣

(١) قد حاولت الحصول على نسخة من الرسالة فلم أستطع ، لمدة عام كامل ، ثم وقفت عليها في مكتبة الكلية المذكورة وقفة سريعة لم تمكني من دراسة البحث جيدًا، حتى تفضل الأستاذ الباحث مشكورًا بإرسال نسخة منها أعدها للطبع وسماها « المقدمة في علم البيان » مقدمة تفسير ابن النقيب ، وهذه تحتوي على النصف الأول من الكتاب المتعلق بـ « ما يتعلق بالمعاني من البلاغة » وهو إلى القسم الرابع والعشرين من أقسامه .

و ٣١١) و (٣/ ٢٧ و ١١١) إلخ .

وفي كثير منها ينقل قولًا له مع تقدير رأيه أو ما ذهب إليه ثم قد ذكر ابن القيم كثيرًا من علماء الأمة دون ذكر الترحم فهذا ليس شرطًا أو قيدًا .

وانظر موضع ترجمته في السير (٢٠/١٥١) يقول الذهبي : « الزمخشري العلامة ، كبير المعتزلة ،... صاحب الكشاف ... رحل ، وسمع ، وحج ، وجاور وتخرج به أئمة ... أثنى عليه أبو السعادات بن الشجري ... وكان داعية إلى الاعتزال ، الله يسامحه » اهـ. هكذا يكون الإنصاف . والله أعلم .

ثم أحيل أخي الباحث إلى كتاب الأستاذ الدكتور العلامة محمد محمد أبو موسى حفظه الله تعالى: « البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري » ص (٣٠) . ثم سائر الكتاب . وانظر أيضًا من ص (٦٣) وموقف الزمخشري من أهل السنة وتعقيب ورد الشيخ الجليل « أبو موسى » .

د- استشهاد صاحب « الفوائد المشوق » بعدة أحاديث لا يخفى وهنها عن ابن القيم وهو صاحب « المنار المنيف » وهذه الأحاديث بين الضعيف والموضوع ولن نتعرض للأحاديث الضعيفة،حيث إن من أهل العلم من يجيز الاحتجاج بها، أما المكذوبة فهو زور وبهتان ... كقوله : « إياكم وخضراء الدمن ... » وقوله : « المعدة بيت الداء ... » فهو من كلام الحارث بن كلدة، ولا يصح رفعه. أما قوله : « خضراء الدمن » فقد قال الألباني : «ضعيف جدًا ... » . وقوله : « أصحابي كالنجوم... » موضوع فهذا مما لا يفوت ابن القيم معرفته... من (٩-١١) اهـ. وهذا من الباحث نظر جيد،وممّن نبه على هذا الأمر- أي هذه العلة في دفع صحة نسبة الكتاب - فضيلة الشيخ « بكر » في كتابه ص(٢٩١).

ثم يصل الباحث إلى أهم النقاط التي رجحت عندي صحة ما ذهب إليه في نفي صحة نسبة هذا الكتاب لابن القيم ، ثم-وهذا هام جدًا-بيان صاحب هذا العمل الممتع .

هـ- يقول الباحث : (ولمعرفة ذلك هداني الله للإجابة عن السؤال من خيط رفيع جدًا ، وهو عنوان القسم « الحادي والعشرين » من أقسام فنون المعاني (١٣٦)

جعل صاحب الفوائد المشوق عنوانه «الاحتجاج النظري» وقال فيه: وبعض أهل هذا الشأن يسميهُ «المذهب الكلامي»... إلخ، وتذكرت أن هذا الكلام قد مر بي من قبل في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) عند قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ...﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤] يقول أبو حيان: «هذا النوع عند علماء البيان يسمى «الاحتجاج النظري» وهو أن يذكر المتكلم معنى يستدل عليه بضروب من المعقول ...» إلخ.

وقد حاولت معرفة من استخدم مصطلح الاحتجاج النظري من علماء البيان، فلم أعثر على ذكره إلا لدى شيخ أبي حيان «ابن النقيب» كما نص السيوطي.

يقول: وسماه ابن النقيب «الاحتجاج النظري» كما في شرح عقود الجمان في علم البيان للسيوطي ص (١٢٣).

وهنا طرقني السؤال: إذا لم يكن أحد غير ابن النقيب استخدم مصطلح «الاحتجاج النظري» فلم لا يكون الكتاب المسمى بالفوائد المشوق هو نفسه كتاب «ابن النقيب» وبتتبع ما وصلت إليه يدي من كتب البلاغة التي بين أيدينا اليوم فلم أجد في واحد منها إطلاق تسمية «الاحتجاج النظري» على «المذهب الكلامي» إلا في «الفوائد المشوق»).

و- يقول الباحث: (... فلماذا إذًا لا يكون هذا الكتاب إلا مقدمة ابن النقيب في علم البيان، والتي ذكرها أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط عند حديثه عن الوجه الثالث من الوجوه التي يكون كلام الله عز وجل هو «وجه الفصاحة والبلاغة» «ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة، وأجمعها ما جمعه شيخنا الأديب الصالح أبو عبد الله محمد بن سليمان النقيب. وذلك في مجلدين قدمهما أمام كتابه في التفسير...» البحر (١١٧/٢)).

ز- ثم يقول الباحث ص (١٤): (... قال أبو حيان: وفي قوله: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦] نوع من البديع يسمى «التتميم» وهو إرداف الكلام بكلمة ترفع عنه اللبس وتقربه للفهم ... البحر المحيط (١١٧/٢) وهذا التعريف يتطابق مع ما في الفوائد المشوق ص (٩٠).

وهذا التعريف للتتميم لم أجده في واحد من كتب البلاغة التي بين أيدينا إلا في هذا الكتاب وفي تفسير البحر المحيط) .

ح - يقول الباحث (١٥) : (ومن التقارب الكبير بين ما في البحر المحيط وبين ما في « الفوائد المشوق » ما ذكره أبو حيان عند قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ...﴾ [غافر : ٢٨-٢٩] قال أبو حيان : وقال صاحب التحرير والتحبير : هذا نوع من أنواع علم البيان تسميه علماؤنا « استدراج المخاطب » البحر المحيط (٤٦١/٧-٤٦٢) وقابل بالفوائد المشوق (٢١٣-٢١٤) وصاحب التحرير والتحبير - هذا - هو نفسه شيخ أبي حيان « ابن النقيب » والتحرير والتحبير تفسيره الكبير للقرآن واسمه « التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير في معاني كلام السميع البصير » (كشف الظنون : ٣٥٨/١) ، وهذا التشابه الكبير بين ما في تفسير البحر المحيط وكتاب « الفوائد المشوق » وانفراد صاحب هذا الكتاب بمصطلح « الاحتجاج النظري » جعلني أطمئن بعض الاطمئنان إلى ما هجست به نفسي أن ما بين يدي من كتاب « الفوائد المشوق » هو نفسه مقدمة شيخ أبي حيان « ابن النقيب »[(١)]) .

ط- يقول الباحث (١٧) :(غير أن هذا لم يكن كافيًا عندي للوصول إلى درجة اليقين ، فعدت أتلمس ذكر « ابن النقيب » ومن نقل عنه لعَلِّي أجد فيه ما يشفي . وقد كان بحمد الله وتوفيقه ، وهو ما وقع من نص عند السيوطي في حديثه عن « التورية » من فنون البديع .

يقول السيوطي « حكى بعضهم في التورية قولًا نادرًا فقال : هي أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يرددها بعينها ، ويعلقها بمعنى آخر ، نحو ﴿مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام : ١٢٤]

(١) وقد ذكر غير واحد هذه المقدمة بالإضافة لأبي حيان ، منهم الزركشي ، يقول عند حديثه عن « معرفة كون اللفظ والتركيب أحسن وأفصح » يقول الزركشي : « ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع ، وقد صنف الناس في ذلك تصانيف كثيرة ، وأجمعها ما جمعه الشيخ شمس الدين محمد ابن النقيب في مجلدين ، في مقدمة تفسيره ... » البرهان في علوم القرآن (٣١١/١) . وذكرها أيضًا ابن السبكي في مصادره في تأليف « عروس الأفراح » (٣١/١) .

فجاء بلفظ الجلالة مضافًا إليه ، ثم جاء به مبتدأ مثل قوله : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ [التوبة : ١٠٨] **الأول** : متعلقبـ (تقوم)،**والثاني** : خبر رجال . كذا أورده الأندلسي نقلًا عن ابن النقيب في تفسيره ... » .

قلت : - السيوطي - الظاهر أن هذا القول تصحف على ناقله، فإن هذا هو النوع المسمى بـ « الترديد » السابق في الإطناب فتحرف على الناقل « الترديد » بـ « التورية » ثم رأيت في « المصباح » لابن مالك التمثيل بالآية الأولى للترديد فصح ما قلته اهـ . شرح عقود الجمان (١١٥) .

وهذا ما علقته بهامش نسختي على الفوائد المشوق ، فرحم الله السيوطي فقد شفى نفسي بكلامه هذا) .

ى ـ يقول الباحث : (... وبالبحث تبين أن مراد السيوطي « بالأندلسي » - هنا - أبا جعفر الأندلسي ، وأن هذا النص موجود بالفعل في شرحه على بديعة رفيقه ابن جابر الشهيرة بـ « بديعية العميان » ، فتطلبت هذا الشرح المعروف بـ « الحلة السِّيرا في مدح خير الورى » وجدت له عدة نسخ مخطوطة بدار الكتب المصرية، وعثرت بتوفيق الله على ما نقله السيوطي منها . وثبت لي أن الأندلسي هذا هو أبو جعفر الأندلسي أحمد بن يوسف بن مالك الرُعيني الغرناطي (ت ٧٧٩هـ).

وبعد أن ساق أبو جعفر حد « التورية » المشهور من « أنها إطلاق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، والمراد البعيد » ، قال : « وهذا الذي قررناه في حد التورية هو الذي درج عليه الناس ، وقد ذكر ابن النقيب في مقدمة تفسيره قولًا نادرًا في التورية فقال : « التورية أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر ... وذلك نحو قوله : ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ .. ﴾ الآية» الحلة السِّيرا في مدح خير الورى ورقة (١٥٢) مخطوط بدار الكتب المصرية : ٢٨٢ بلاغة[1] .

(١) قلت : وقد طبع شرح الحُلة في مؤسسة الثقافة - الإسكندرية باسم « طراز الحُلة وشفاء الغُلة » بتحقيق د./ رجاء السيد الجوهري الأستاذة المساعدة للأدب بكلية التربية جده « م ع س » ، وهذا النص في المطبوع برقم (٤٤٨) ، وهذه المسألة أوضح أسباب نسبة الكتاب لابن النقيب ، وهذا لا شك قاطع لقول كل خطيب ، وهو أقرب لليقين .

وهذا النص الذي سقته يزيد فائدة على نص السيوطي السابق أنه قرر أن ذلك القول في مقدمة تفسير ابن النقيب فأصبح شبه متقرر عندي أن ما بين يدي من مطبوعة « الفوائد المشوق » ما هي إلا مقدمة الشيخ ابن النقيب وهذا القول النادر الذي نسبه أبو جعفر الأندلسي إلى ابن النقيب في تعريف التورية في الحقيقة ليس إلا نتاج تحريف ناسخ مقدمة ابن النقيب والصواب كما ذهب إليه السيوطي أنه « الترديد » لا « التورية » فهذا حده المعروف به في كتب علماء البلاغة[1] وأنه تصحف على الناسخ من « الترديد » إلى « التورية » وهذا يكشف لنا عن أن هذا التصحيف في أصل مقدمة ابن النقيب المخطوط كان قديمًا جدًا من زمن أبي جعفر الأندلسي ، وهو تصحيف « مبارك » له من الفضل عليّ في توثيق نسبة هذا الكتاب ما له !! اهـ. من ص ١٨-١٩) .

١١ـ ثم اعتمد الباحث أيضًا على أن ما ذكره المؤلف للفوائد المشوق كمقدمة لتفسيره، والتصريح بغرضه من الكتاب وهو «إثبات ما وقع في الكتاب العزيز من فنون الفصاحة وعيون البلاغة...» إلخ راجع الفوائد المشوق (٥، ٧، ٨، ٤٦، ٢٢٥).

كل هذا يقوي عندي أن هذا مقدمة بين يدي تفسير للقرآن الكريم ومن كل ما سبق أجدني مطمئنًا إلى أن ما نشر تحت عنوان « الفوائد المشوق » أو « كنوز العرفان » المنسوب لابن القيم هو في حقيقته مقدمة الشيخ « ابن النقيب » في علوم البلاغة والتي جعلها أمام تفسيره الكبير للقرآن الكريم اهـ[2].

---

(١) انظر : تحرير التحبير : (٢٥٣) وبديع القرآن : (٩٦) . والبرهان في علوم القرآن (٣/٣٠١) والإتقان (٣/٢٧٠) .

(٢) انتهى ما ذكره الباحث ولا تستطل هذا النقل فهو هام بل ضروري للفصل في هذا النزاع ثم حاولت قدر الاستطاعة نقله كاملًا باختصار غير مخل لتعم الفائدة لمن لم يتحصل على نسخة من كتاب الأخ الباحث .

وقفات

الأولى : بعد هذا كله الذي ذكره أخونا الأستاذ زكريا ، لا مجال للشك أو مجرد الشبه في أن كتاب « الفوائد المشوق » المنسوب لابن القيم هو للإمام المفسر (ابن النقيب) .

الثانية : وسبب اعتمادي لكل ما ذكره الأخ الباحث؛لأنه جاء بوضوح ودقة وأدلة لا تقبل الجدل ، وإن دل على عقل يبشر بخير عظيم في هذا الباب لكن من العجيب عدم اهتمام ، بل غضب بعض المناقشين رَسالة الأخ الكريم من ذكره لهذا الباب في رسالته وظنهم أن هذا ليس موضوع بحثه . وفي ظني أن ما قام به يستحق رسالة مستقلة .

الثالثة : وهي الأعجب أن استحقاق هذا العمل من الباحث يجب وضعه موضع التقدير ، اعتماد بعض الباحثين على بناء رسائلهم أو أبحاثهم اعتمادًا على أن الفوائد المشوق لابن القيم ، دون تكلف عناء البحث والتنقيب كما فعل الباحث وهذا حدث للمترجمين لابن القيم كالدكتور / أحمد ماهر البقري رحمه الله في كتابيه عن ابن القيم[(١)] . والأخطر من هذا البحث المقدم من « عبد الرازق عبد العليم ريان» لنيل درجة الماجستير ، بكلية اللغة العربية قسم البلاغة والنقد جامعة الأزهر سنة (١٩٨٢) . وهو جهد جيد جدًا لو أن الكتاب لابن القيم . ولكن ما نأخذه على الباحث عدم البحث والاعتناء في تحقيق نسبة الكتاب لصاحبه[(٢)] حتى عند

---

(١) انظر فصل من تكلم عن ابن القيم .

(٢) حتى نسب إليه كتاب « أخبار النساء » ص (٣٩) مع شهرة رد نسبته إليه .
بل الأغرب والأعجب إشارته إلى مؤلفات لابن القيم بأنها طبعت وهذا لم يسبق إليه مثل :
ـــ التحفة المكية طبع السعادة (١٣٢٧هـ) .
ـــ تفضيل مكة على المدينة ، السنة المحمدية (١٣٤٢هـ) .
ـــ الفتح القدسي – ط صبيح (١٩٤٣ م) .
ـــ كتاب الطاعون – ط الكردي القاهرة (١٣٢٥ هـ) .

من أرَّخوا له ، فضلًا عن القيام بما قام به الأستاذ زكريا .

الرابعة : يسأل سائل لماذا إذًا حويت كتابك ما في « الفوائد المشوق » من تفسير ؟ أقول :

١ـ حين بدأت في جمع الكتاب كما وضحت في محله ، لم يكن ترجح عندي شيء في هذه المسألة كغيري ، إنما هو شك وكاد يعصف بهذا الشك أيضًا أن ابن القيم ذكر أن له « أصول التفسير » !!! ففي « بدائع الفوائد » (٣/٢٨) في معرض بحثه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهي في «بدائع التفسير» (٢/٢٤٨) يقول: «..بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسير بغيرها ، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به ..... وسنزيد هذا إن شاء الله تعالى بيانًا وبسطًا في الكلام « على أصول التفسير » فهذا أصل من أصوله بل هو أهم أصل » اهـ (٣/٢٧-٢٨) من بدائع الفوائد . فبين بقوله: « سنزيد ... » إلى أنه لم يصنع بعد هذه الأصول .ولكن في جلاء الأفهام يقول: « وتفسير المغفرة بالستر ، وهو جزء مسمى المغفرة، وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان وهو لازم الرحمة ، ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في « أصول التفسير » ص(٩٧) من الطبعة المنيرية .فبين هنا أنه وضع أصولًا للتفسير!

٢ـ ومع عدم خفاء اهتمام ابن القيم باللغة وفروعها وتبحره في أبوابها وتعمقه في فهم بلاغة النص وحثه على الاهتمام بذلك ، هذا الأمر مع نسبة البعض « فوائد المشوق » له . جعلني في حيرة وقلق ؟؟ هل الفوائد المشوق من صنعه ؟ خاصة أن رسالة الأستاذ زكريا بعد وصول « بدائع التفسير » للمرحلة النهائية ! وكل

= ـــ شرح الأسماء الحسنى – ط صبيح (١٩٤٣م) .

إلى أكثر من خمسة عشر كتابًا كلها مفقودة ، ولم يشر أحد من مترجميه إلى طبعها والله المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ما قيل عن نسبة الكتاب من قبل أقوال ضعيفة لا شك فهي – قبل بحث الأخ زكريا – بين :

عدم ذكره في كتبه نفسها .

أو عدم ذكر أحد ممن ترجم لابن القيم لهذا الكتاب .

أو نسبة بعض المعاصرين الكتاب له وهو تسرع[(١)] .

أو كقول بعضهم مثل الحاج خليفة وله «الإيجاز» فلعله هو، أي: «الفوائد المشوق» ولا شك أن الإيجاز من أبحاث البلاغة ، وهو في الفوائد المشوق ص (٦٨) القسم الثاني والعشرون من المجاز : « الإيجاز والاختصار » ولكن ليس هذا وحده يكفي في إثبات نسبة الكتاب لابن القيم كما لا يخفى !!

٣ـ كل هذه العوامل ساعدتني على ظهور الكتاب بالصورة الحالية وإن شاء الله سيعدل كل هذا في طبعة قادمة بعونه تعالى . فأرجو التماس عذر في التقصير ، وعفو على التطويل . ولله الحمد والمنة .

---

(١) كما مر في أول البحث .

الباب التاسع
منهج ابن القيم في التفسير

١ـ لمعرفة منهج المفسر أهمية عظيمة ، شغلت كثيرًا من أهل العلم، فهذا يكتب عن منهج الطبري ،وذاك عن القرطبي .... إلخ ، وقد اتسع المقام في هذا الباب وهو أمر جيد خاصة وهو يعتبر مفتاح لأي تفسير .

ومن فوائد هذه المناهج وهي كثيرة :

معرفة مدرسة المؤلف الفقهية ومدى تحرره في فهم النص وتقيده بالمذهب إن كان من أصحابه .

ثم معرفة الجانب العقدي عنده، وإن كان من أهل السنة أم من غيرهم ولماذا؟

ومعرفة أيضًا مدى تأثر المؤلف بغيره من أهل العلم وإضافاته عليهم وتعقيباته مما قد يُكون للقارىء رأيًا راجحًا في مسألة ما وبيان مرجوح في أخرى . إلى غير ذلك من الفوائد الجمة المسطورة في غير هذه العجالة اليسيرة إنما توسع في بيانها بتفصيل كثير من العلماء كفضيلة العلامة الدكتور / محمد حسين الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه العظيم التفسير والمفسرون، ومن المعاصرين البارع الدكتور / فهد الرومي في كتابه الشيق الفائق القيمة « اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر » وغيرهم من أهل العلم .

٢ـ ويتوقف ذلك – معرفة المنهج – من الوقوف على تفسير ما ، ثم النظر في مقدمة صاحبه ، فهي غالبًا تكون بالإضافة لكونها مفتاح الكتاب بلورة لمنهج المؤلف وإبرازًا لأهم عناصره ، خصوصًا لو اشترط المفسر ذلك .

وهذه المقدمات توفر كثيرًا من العناء في هذا الشأن كمقدمة ابن جرير الطبري، أو القرطبي أو ابن كثير ومقدمة العلامة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير .

فهذه المقدمات عظيمة الفائدة ، طريق سهل غالبًا في الوقوف على منهج

المفسر ، بالإضافة إلى دراسة تفسيره ، واستخراج الباحث من بطون سطوره وخبايا حروفه كثيرًا مما لم يذكره المؤلف في مقدمة تفسيره ، وهو مكمل لمعرفة منهجه . بل قد لا تكون مبالغة إذا قلنا إن المقدمة لا تفي أبدًا لمعرفة المنهج ، بل لا بد من الولوج والغوص في بحر المؤلف لاستخراج الدرر الكامنة ، فالباب لا يفي لمعرفة المنزل إنما هو للدخول والاستدلال على العنوان .

٣ـ لكن الأمر يختلف مع عالمنا الكبير ابن القيم ، فهو أولًا لم يضع تفسيرًا مستقلًا كما بينت من قبل ، فضلًا أنه لم يضع مقدمة للتفسير كما صنع شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه ، يستطيع بها الباحث معرفة نقاط أساسية في بيان منهجه . مثل ما كتبه رحمه الله تعالى في (بيان أحسن طرق التفسير) (١/١١٠) من دقائق التفسير فهي أسس هامة للمنهج الصائب الموفق ، ومع صغرها فقد حوت النفائس ، وأمتعت النفوس،وهذا نلحظه أيضًا من خلال ما سطره قلمه رحمه الله تعالى على آيات الذكر الحكيم .

ومما لا يُنازع فيه تأثر ابنُ القيم بشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى ، تأثر المتبع المدقق لا المقلد . وبالتالي يندرج هذا التأثر في التأليف كما هو في الفكر ، مع الفارق بين الشيخين الذي يُنزلُ كلًا منهما منزلته . وأيضًا طريقته في التفسير مع توحد المنبع .

٤ـ وبتتبع ما سطره الإمام ابن القيم خلال كتبه عن آيات الذكر الحكيم إيضاحًا وتفسيرًا قد نتمكن من الوقوف على أهم هذه الأسس والمبادىء الأساسية لمنهجه قدر الاستطاعة .

وقد تقدم في باب مَنْ كتب عن ابن القيم من المعاصرين ما سطره غير واحد منهم عن منهج ابن القيم ، كالدكتور البقري والمتولي وغيرهم ، وأفرد له الأستاذ محمد أحمد السنباطي مؤلفًا مستقلًا هو « منهج ابن القيم في التفسير » واستند على ما جُمع من قبل فيما عرف بـ « التفسير القيم » .

٥ـ يتكون كتاب الأستاذ السنباطي من ثلاثة أبواب :

الباب الأول : التعريف بابن القيم وهو مكون من :

الفصل الأول : ترجمته ووفاته ونشاطه العلمي .
الفصل الثاني : البيئة العلمية حول ابن القيم .

الباب الثاني : مكون من :
الفصل الأول : المدرسة الحنبلية السلفية ومنهجها .
الفصل الثاني : الصراع الفكري بين المدرسة مع المذاهب الأخرى في مشكِلتَي الصفات والأفعال .

البـاب الثالث : منهج ابن القيم في التفسير مكون من تمهيد في التعريف بالتفسير القيم ص (٨١) .

الفصل الأول : منهجه حول الوحدة الموضوعية للسورة ، نماذج من الفاتحة والمعوذتين ، ثم مقارنة بينه وبين شيخه في طريقة التفسير (٨٨) .

ثم ذكر من تأثر بابن القيم في طريقته في التفسير كالإمام محمد عبده ، ورشيد رضا رحمهما الله تعالى ، والشيخ محمود شلتوت رحمه الله تعالى ، والشيخ محمد محمد المدني ، والدكتور محمد عبد الله دراز، والشيخ أبو الأعلى المودودي رحمهم الله تعالى هذا ما قرره الأستاذ السنباطي .

الفصل الثاني : تصدير ابن القيم النص القرآني كأصل للمعاني وأولوية تفسيره بالنص.
المبدأ الأول : العودة بالنص القرآني إلى معناه المستعمل في العصر الأول.
المبدأ الثاني : تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وأقوال الصحابة .

الفصل الثالث : منهجه في التعرض للنحويات والبلاغيات والقراءات .
المبدأ الأول : عنايته بإبراز ما يتضمنه النص القرآني من أسرار بلاغية .
المبدأ الثاني : اهتمامه بالقراءات وعنايته بالنحويات التي ترتبط بها المعاني .

الفصل الرابع : منهجه في تفسير آيات الصفات والأفعال .

الفصل الخامس : موقفه من الإسرائيليات .

هذا ملخص ما سطره الأستاذ السنباطي عن منهج ابن القيم في التفسير ، ويهمنا الباب الثالث (٨١-١٥٦) .

أهم قواعد منهج ابن القيم

أولًا : القواعد :

١- تفسير القرآن بالقرآن .

٢- تفسير القرآن بالسنة المطهرة .

٣- تفسير القرآن بتتبع أقوال الصحابة .

٤- النظر في أقوال التابعين مع ترجيح أصح الأقوال .

٥- النظر اللغوي والبلاغي للآية القرآنية .

ثانيًا : هذه القواعد - أو هذا المنهج - هو منهج أهل السنة في التأليف عامة والتفسير خاصة ، وهي القواعد التي لخصها ونقحها غير واحد من العلماء في مقدمة تفاسيرهم ، بدءًا بابن جرير الطبري، ثم شدَّ يده عليها ابن تيمية رحمه الله في مقدمته المشهورة ، ومن ثمَّ نهجها ابن كثير ، وغيره من العلماء وهي السمة البارزة لعلماء المدرسة السلفية منذ العهد الأول مرورًا بعالمها المبجل سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وقدس روحه ، وجعلنا وإياه من أهل رحمته وفردوس جنته .

ثم هلم جرا إلى عصرنا الحاضر ، كل من تمسك بمنهج أهل السنة تراه لا يُخرج مداد قلمه إلا ويبني على قواعد هذه المدرسة ، ولِمَا لا ، والله تعالى يقول : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [التوبة:١٠٩]

وكتبهم - خاصة شيخ الإسلام وتلميذه - خير شاهد على ذلك ، بل أهم ما يؤكدون عليه النظر في تفسير القرآن بالقرآن ولهذا يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: « وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير » التبيان في أقسام القرآن (١٨٧) .

ثالثًا : ليس معنى هذا المنهج أن ابن القيم يأتي أولًا في تفسير الآية بأختها من القرآن ثم يفسرها من السنة إلخ ... ليس بهذا الأسلوب الذي نراه عند كثير ممن وضع تفسيرًا للقرآن لكن هدا منهج بالاستقراء تراه بارزًا في مؤلفاته « فابن القيم رحمه الله تعالى يبرز الأدلة من الكتاب والسنة ، ويستنبط الأحكام الشرعية منها بأسلوب سهل مبسط خال من التعقيد بنوعيه اللفظي والمعنوي ، متطلبًا نشر التشريع وبث التوحيد ، ردًّا إلى الله ورسوله ، وإلى أن يرد الناس منابع الشريعة الأولى خالية من كل وضر ، خالصة من كل شائبة »[1] ولو وضعنا هذا المنهج أساسًا للدعوة الآن لاستطاع المخلصون بعون الله تعالى أن يعودوا بالأمة إلى نفس المنابع الطاهرة الطيبة، ويخرجوها من حالتها البائسة التعسة . إذًا ابن القيم هدفه العودة إلى المنابع الأُول كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه الصحابة الكرام وأئمة التابعين الأعلام ، فهل طُبق ذلك في التفسير ؟ نعم .... وهذا هو :

رابعًا : ولو نظرنا إلى السور التي نكاد نقف على تفسير شبه كامل لها مثل الفاتحة والعنكبوت ، وهناك عددٌ لا بأس به من سورة القيامة إلى آخر التفسير خاصة الفلق والناس . نرى أن ابن القيم يذهب إلى التفسير الموضوعي للسورة ، أي : « إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية ، تلك الوحدة التي تربط بين أركان السورة بعضها إلى بعض ، لتخدم الأهداف التي أُنزلت من أجلها، والتي يمكن أن تكون أساسًا لفهم آياتها »[2] . فلو نظرنا في تفسيره لسورة القيامة (٥/٧١) .

١ـ لنراه يبدأ ببيان ما في الإقسام في قوله تعالى : ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ (١-٢) من معان كثبوت الجزاء ومستحق الجزاء ، وأن ذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد ، ثم يقول: « وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ويقررها أبلغ تقرير (لما) ؟ يقول: « لحاجة النفوس إلى معرفتها

(١) بكر أبو زيد (٨٦) وليتأمل القارىء هذه الفقرة جيدًا من كلام الشيخ بكر، ويعجب للذين لا يزالون يصرون على أن يؤلفوا لمجرد التأليف ويكتبوا لمجرد التصدر دون اعتبار جماهير المسلمين التي يجب جذبها للعمل في الصف الإسلامي لا مجرد المشاهدة ، كما سبق بيان التنبيه على ذلك .

(٢) منهج ابن القيم في التفسير (٨٤) وضرب الأستاذ السنباطي لذلك مثالًا بالفاتحة والمعوذتين .

والإيمان بها » فهو رحمه الله تعالى يخلصُ إلى نتيجة هي الفيصل بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والباطل . فنفس لا تؤمن بالجزاء ولا تثبت الرسالة والقرآن والمعاد كيف يكون حالها ؟ بل ولو تدبر أحد آيات ذم الكفر والكافرين وأهل العناد أجمعين لرأيت إفسادهم في الأرض برًا وبحرًا مبنيًا على إنكارهم هذه الأمور الضرورية يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا - إلى قوله - وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الآيات (١١١-١١٢ من الأنعام) ويقول تعالى في وصف أهل النار: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ...إلى قوله تعالى ذكره : ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [المدثر:٤٦ -٥٢] فهذا في حق من لم يؤمن بالآخرة، بالجزاء والحساب . ونظائره كثيرة فيمن لم يؤمن بالرسالة والقرآن . وبمقدار إفساد من لم يؤمن بذلك ، ترى خلافه عند المؤمنين بالبعث ، والحساب، والرسالة، والنبي ، والقرآن ، استقامة، صلاحًا وإصلاحًا، عقيدة وسلوكًا وخلقًا .

٢ـ فأنت ترى ابن القيم يضع القرآن حيث يجب أن يوضع ، منهاجًا شاملًا تامًّا كاملًا لحياة الإنسان ، لسعادة الدنيا والآخرة ، ثم يبدأ بعد ذلك في تفسير أهمية هذا القسم ، وأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم الإقسام به في غير آية منها ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ..﴾ [يونس : ٥٣] .

٣ـ ثم يبين المراد بالنفس اللوامة ناظرًا في نظائر القرآن ، وفاحصًا لأقوال الصحابة والترجيح بين ذلك ، وبيان اللوم المحمود والمذموم، ثم بيان الإنكار على المنكر للجمع والحساب ، ثم الترجيح بين الأقوال في معنى ﴿بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة :٤] وبيان القدرة في خلق اليد ، وبيان إعجازها ، ثم يبين أثر عدم الإيمان بالآخرة في الإنسان يقول: « ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان ، وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يومًا يجمع الله فيه عظامه ، ويبعثه حيًّا، بل هو مريد للفجور فيفجر في الحال ، ويريد الفجور في غد وما بعده ، وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا لا يندم على ما مضى منه، ولا يقلع في الحال ولا يعزم في المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب » ثم نبه سبحانه على الحامل له على

ذلك، هو استبعاده ليوم القيامة... اهـ إلخ. وهذا هو عين المراد من القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠]. فمراد القرآن بيان السبيل والمنهج لمن شاء أن يستقيم ، ثم يستمر التفسير على هذا النحو ، نظرًا في القرآن والسنة ، تدبرًا وفهمًا ، ثم ترجيحًا لأقوال الصحابة والتابعين ، واختيار الأنسب والأوفق لمراد القرآن الكريم .

وهو يدفعك لذلك ويحثك بقوة فيقول عند الكلام عن الآية: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٢٢ -٢٣) من سورة القيامة .

يقول : « وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن موضعها ... وجدتها منادية نداءً صريحًا ، أن الله سبحانه وتعالى يُرى عيانًا بالأبصار يوم القيامة ، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلًا ... وهذا الذي أفسد الدين والدنيا ..- ثم يقول : - ..فاسمع الآن أيها السني تفسير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين وأئمة الإسلام لهذه الآية ... » اهـ .

فهو ينادي عليك ببيان المنهج الصائب في التفسير فالْتَزِمْه .

ومع هذا ينقد ويرجح بين أقوال السلف شأنه شأن العلماء المتبعين بنظر ، لا بتقليد مُضِل ، انظر مثلًا (٥ /١١٦) « بدائع التفسير » من سورة النازعات و(٥ /١١٨) هام جدًا في بيان المتوسعين فى نقل التفسير ونقدهم .

٤- وينظر خلال ذلك في علاقة الألفاظ ونسقها في إظهار المعنى ، يقول مثلًا: « فلفظ « يفجر » اقتضت « أمامه » بلا واسطة حرف ، ولا اسم موصول ، فأعطيت ما تضمنته لفظًا ، واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول ، فأعطته معنى ، فهذا وجه هذا القول لفظًا ومعنى والله أعلم » (٥/٧٦) .

فابن القيم ينظر إلى اللفظ ودوره في المعنى ؛ لأنه ليس في القرآن لفظة مهملة (بدائع الفوائد: ٢/٢٢٩) .

فاللغة هنا لخدمة القرآن الذي نزل بها، لا لإخراج القرآن عن المراد منه، حتى يضع بعضهم تفاسير فيها كل شيء إلا التفسير . فابن القيم يسخر اللغة تسخيرًا بارعًا شيقًا صحيحًا لخدمة القرآن ، فهو ليس المستكثر الممل حتى ليُخَيل للقارىء أن القرآن إنما كتاب للنحو ، والصرف، وعلوم البلاغة ، ودقائق وخفايا القضايا المتعلقة بذلك لا غير ، ولا هو المقل حتى يُظن بعده عن هذا العلم .

«وربما توارت شهرة ابن القيم بأنه لغوي ؛ لأن اللغة في ذاتها لم تكن قصد ابن القيم ، وإنما الدرس القرآني بما فيه من موضوعات دخل بعضها فيما يسمى بـ « علم الكلام » كان مقصد ابن القيم من أبحاثه اللغوية ، فدراسته للغة دراسة مجالها التطبيقي هو النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ... »[1].

(١) « ابن القيم اللغوي » للبقري (٥٩) .

عرف القرآن

وهنا يضع ابن القيم رحمه الله تعالى قاعدة أصيلة وعظيمة عند التعامل مع القرآن الكريم، يقول : « ...وينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه ، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام ، فيكون الكلام بدله معنى ما . فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن . فإنهم يفسرون الآية ويعربونها بما يحتمله تركيب تلك الجملة، ويفهم من ذلك التركيب أي معنى اتفق ، وهذا غلط عظيم يقطع السامع بأن مراد القرآن غيره ، وإن احتمل ذلك التركيب هذا المعنى في سياق آخر ، وكلام آخر ، فإنه لا يلزم أن يحتمله القرآن مثل قول بعضهم في قراءة من قرأ : ﴿ وَٱلْأَرْحَامِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] بالجر أنه قسم ، ومثل قول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة :٢١٧] أن المسجد مجرور بالعطف على الضمير المجرور في « به » ونظائر ذلك أضعاف أضعاف ما ذكرنا وأوهى بكثير ، بل للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها ولا يجوز تفسيره بغير عرفه ، والمعهود من معانيه ، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم ، فكما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأفصحها ولها من الفصاحة أعلا مراتبها التي يعجز عنها قدر العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به ، بل غيرها أعظم منها وأجل وأفخم فلا يجوز حمله على المعاني القاصرة بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي، فتدبر هذه القاعدة، ولتكن منك على بال، فإنك تنتفع بها في معرفة ضعف كثير من أقوال المفسرين وزيفها، وتقطع أنها ليست مراد المتكلم تعالى بكلامه ... » (٣/٢٧-٢٨) بدائع الفوائد .

ويقول أيضًا في معرض بيان معنى الآية رقم (٢٧-٢٨) من الأنعام : « وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا ، فراجع أقوالهم تجدها

لا تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا،ومعناها أجل وأعظم مما فسروا به ، ولم يتفطنوا لوجه الإضراب بـ «بل» ، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه ، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب .

فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: ﴿ مَّا كَانُوا۟ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُ ﴾ قدروا مضافًا محذوفًا وهو خبر(ما كانوا يخفون من قبل)، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه ... » عدة الصابرين (١٨٥) .

بل تراه يذم من أعرض عن النحو فلم يفهم التفسير يقول : « ... وأنه لم يقدر المعنى حق قدره ، فلا لصناعة النحو وفق ، ولا لفهم التفسير رُزق ... » بدائع الفوائد (١/١٣٣) ، وانظر أيضًا (١/٢٠٦) .

وسيأتي مزيد في بيان تعظيمه للقرآن وأدوات تفسيره عند الكلام عن الإسرائيليات ، إن شاء الله تعالى .

فليتدبر المسلم مقدار عظم هذه النصيحة ولا يحيد عنها ، وينظر في كتاب الله بها ثم ينتظر مدد الله وفيضه .

٥ـ وهنا نقف على نتيجة هامة هي نظر ابن القيم في القرآن نظرة المصلح المربي المُتبَصِّر ، فهو لا تكاد تمر عليه آية أو يمر بها إلا استخرج منها قواعد هامة لإصلاح الفرد والجماعة ، ويؤكد على علاقتين هامتين ضروريتين :

(١) علاقة العبد بربه سبحانه وتعالى .

(٢) علاقة العباد بعضهم مع بعض .

أما علاقة العبد بربه فأكاد أجزم أن مدار كتب ابن القيم عليها قامت ، ولها دعت ، وانظر إلى أي آية يظن القارىء أنها بعيدة عن ذلك ، تراه يستنبط منها ما ينفع العبد في علاقته مع ربه ، انظره مثلًا عند كلامه على آيات الرب في سورة البقرة فضلًا على فتوحات الله عليه في سورة الفاتحة وهذا أظن التأكيد عليه من نافلة القول .

أما علاقة العبد بغيره من أفراد البشر مسلمين كانوا أم كفارًا . فتراه يخرج من الآيات ما به يستقيم حال الفرد وحال المجتمع بتنوع أفراده ، وتأمل ما سطره في « تحفة الودود » أو في « أحكام أهل الذمة » مثلًا جليًّا لذلك ، يندفع به ما يُراد أن يلصق بالمسلمين الآن من اتهامات بالدموية والقتل لا غير . ويا ليت الأمرجاء من الأعداء فقط لقل الخطب ، إنما هي فتنة تبثها أقلام مأجورة وأفواه مطعومة ، وعقول مسقاة من نبع واحد ألا هو النفاق ، ولكن يتكلمون بألسنتنا ومن جلدتنا .

٦- تفسير الصحابة رضي الله عنهم :

أولًا : منزلة الصحابة رضي الله تعالى عنهم من المكانة بما لا يحتاج لبيان ، فهم من الشأن والرفعة لا يعلو عليهم أحد سوى الأنبياء عليهم السلام . وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرجون عن قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] فهم الجامعة الإسلامية حقًا والجماعة المؤمنة الأولى الذين تربوا على يد خير الناس صلى الله عليه وسلم .

وقد اهتم إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى أيما اهتمام بأمر اتباع الصحابة ، بل بيان وجوب ذلك في أكثر من موضع من كتبه أهمها ما ذكره في « إعلام الموقعين » (١٥٥/٤) .

وبيان الدلالة على اتباعهم مطلقًا مجتمعين ومنفردين ، والرد على من خالف ذلك . وهذا ما أدين به لرب العالمين ولا نحيد عنه إلى يوم الدين ، فإن الصحابة رضي الله عنهم خير الناس وأتقاهم وأعلمهم بعد رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم .

«وقد نهج ابن القيم رحمه الله تعالى في مسائل العلم منهج الاسترواح والتطلب من كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، فإن لم يجد أخذ بأزمة أقوال الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم أبر الأمة قلوبًا وأعمقها دينًا، وأصحها فهومًا.

وهذه صفة بارزة وسمة ظاهرة في جميع مباحثه في العقائد والأحكام ، ولهذا أفاض رحمه الله تعالى بالاستدلال لهذا الأصل ووجوب الأخذ به والعمل بموجبه .. »[1] وهذا الفصل في وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم يُعضُ عليه بالنواجذ فقد لا تجده في غير مكانه .

---

(١) بكر أبو زيد (٨٩) .

ثانيًا : موقف ابن القيم من تفسير الصحابة رضي الله عنهم . بعد أن عرفنا مكانتهم في مصنفاته العقدية والفقهية ، نرى فيما استطعنا جمعه من تفسيره أنه رحمه الله تعالى يجعل هذا من الأصول العظيمة في التفسير وإليك بعض الشذرات .

يقول مثلًا في « التبيان في أقسام القرآن » (٢٢٩) :

« **الوجه العاشر** : ما رواه سعيد بن منصور في سننه حدثنا الأحوص حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ قال : المطهرون الملائكة ، وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم[1]: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعًا فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة ، والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ويجب الرجوع إلى تفسيرهم » فهنا أوجب الرجوع إلى تفسيرهم كما أوجب – فيما سبق – اتباعهم وطاعتهم .

وقال في موضع آخر من طريق الهجرتين (٣٥٦) في الحديث عن أصحاب الأعراف : « وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة » .

ويقول رحمه الله تعالى في تفسير معنى اللهو من الآية (٦) سورة لقمان : « وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضًا أنه الغناء»– ثم ذكر قولي الحاكم – ثم قال : « وهذا وإن كان فيه نظر – قول الحاكم أن تفسيرهم في حكم المرفوع – فلا ريب أنه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم ، فهم أعلم الأمة بمراد الله عز وجل من كتابه فعليهم نُزل ، وهم أول من خوطب به من الأمة وقد شاهدوا تفسيره من الرسول صلى الله عليه وسلم علمًا وعملًا، وهم العرب الفصحاء على الحقيقة، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل ... » (٤٠٥/٣) بدائع التفسير.

وهو يجمع بين أقوالهم، وبين أن أكثر اختلافهم في التفسير اختلاف تنوع. راجع (٥ /١٠٥) المرسلات .

(١) راجع ص (٣٠٠) من سورة الأعراف .

٧ ـ ويقول رحمه الله تعالى :

« وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع ، أو الموقوف ؟ على قولين : الأول اختيار أبي عبد الله الحاكم . والثاني هو الصواب ، ولا نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم نعلم أنه قاله » اهـ .

وقد قال الحاكم أيضًا في مستدركه (٢/٢٥٨): «ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند» ولم يعقب الذهبي بشيء، إذًا ابن القيم يصوب أن تفسيرهم موقوف، ولكن يوجب اتباعهم فيه؛ لأنهم أعلم الأمة بتفسير القرآن كلام الرحمن ، وإن كان المقام لا يسع هنا الترجيح بين أقوال أهل العلم في هذه المسألة ، ولكني أظن أن تخريج هذه المسألة مبني على أن النبي صلى الله عليه وسلم هل تناول تفسير القرآن كله للصحابة أم لا ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إن تناول تفسير القرآن كله لهم ، فلا شك أن ما قالوه يكون مرفوعًا ، وما صح سنده يكون العمدة . والله أعلم .

وفي المسألة قولان **أحدهما** : بالإيجاب ، **والآخر** : بالنفي ، وقد ناقش ذلك الدكتور / محمد الذهبي رحمه الله تعالى في كتابه الهام « التفسير والمفسرون » (١/٥٠) . واتهم الفريقين بالغلو (١/٥٣) ، وتوسط بين القولين بأن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن الكثير من معاني القرآن لأصحابه ، كما تشهد بذلك كتب الصحاح، ولم يبين كل معاني القرآن، وذكر قول ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير (١/٢٥) قال: «التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير تعرفه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله» (١/٥٥)

وجعل الدكتور / الذهبي على رأس القائلين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم تناول بيان القرآن كله ابن تيمية رحمه الله تعالى (١/٥١) التفسير والمفسرون ، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : « يجب أن يُعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، قوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] يتناول هذا وهذا، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن - كعثمان بن عفان وعبد الله بن

مسعود وغيرهما - أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها ، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا،ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة،وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ أقوام كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم ، وقيام دينهم ودنياهم ؟! ولهذا كان نزاع الصحابة في القرآن قليلًا جدًّا ، وهو وإن كان في التابعين أكثر منه في الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم ... » دقائق التفسير (١/٩٠-٩١) .

وانظر مقدمة القرطبي لتفسيره : باب كيفية التعلم والفقه ... (١/٣٤) .

٨- ثم المتتبع لتراجم القراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كعبد الله ابن مسعود ، وسالم ومعاذ وأبي بن كعب ، وغيرهم كعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم التابعين وأشهرهم مجاهد - أقول -:المتتبع لتراجمهم يلمس مقدار ما أخذوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتلقي ابن مسعود رضي الله عنه سبعين سورة من فِيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يبعد أن يسألوه ليتعلموا ويتفقهوا وهذا كثير يصعب حصره، إنما المتتبع لتفاسير السلف الأوائل يراه واضحًا ، فهل يعقل أن يسألوه صلى الله عليه وسلم عن النعيم في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر : ٨] ثم يتركون السؤال عن غيرها مما خطره أكبر ومعناه أهم ، كالأحكام والعقائد ، وانظر عدة الصابرين (١٩٠) . انظر فتح الباري (٨/٦٦٣) فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وانظر فصل في أحسن طرق التفسير لابن تيمية رحمه الله تعالى (١/١١٠-١١١) دقائق التفسير . ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: « وكذلك الصحابة والتابعون فسروا جميع القرآن ، فكانوا يقولون : إن العلماء يعلمون تفسيره وما أريد به ، وإن لم يعلموا كيفية ما أخبر الله به عن نفسه ... » (١/٢٠٧) درء تعارض العقل والنقل .

وتفسير ابن جرير ، وعبد الرزاق ، وغيرهم من الأوائل ، دال على كثرة

ما نقلوه في التفسير عن خير أمة أخرجت للناس صحابة رسولنا صلى الله عليه وسلم ، وانظر مقدمة ابن كثير لتفسيره (١/٣) .

٩ـ وإني أتبع قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في أن الرسول صلى الله عليه وسلم بين القرآن للصحابة ، وأن الصحابة والتابعين فسروا القرآن كله .

فإذًا لا عجب أن نرى استحضار ابنِ القيم لآراء الصحابة رضي الله عنهم عن تفسيره ، وهو لا ينقل فقط ، بل يرجح وينقح بين آرائهم ، مثلًا انظر تفسيره لمعنى « اللمم » الآية (٣٢ :النجم) في (٤/٣٠١) من بدائع التفسير وينقد من يخالف أقوالهم وبشدة كما عند تفسيره « للطائر » من قوله تعالى الآية (١٣) الإسراء . يقول : « هذه طريقة لكم معروفة في تحريف الكلم عن مواضعه ، سلكتموها في الجسم والطبع والعقل وهذا لا يعرفه أهل اللغة وهو خلاف حقيقة اللفظ وما فسره به أعلم الأمة بالقرآن ، ولا يعرف ما قلتموه عن أحد من سلف الأمة ... » شفاء العليل (٦١) وهذا سيصادف القارىء كثيرًا وإذا ثبت النقل عنهم فإنك تراه لا يحيد عن قولهم رضي الله عنهم .

كما سبق التنبيه على ذلك قريبًا .

١٠ـ موقف ابن القيم من الإسرائيليات :

للعلماء موقف مما رُوي من أقاويل أهل الكتاب ، يقفون به موقف الاحتياط والحذر وغالبًا الرفض ، وذلك مبناه على قوله صلى الله عليه وسلم : **«بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»** (حم، خ، ق) عن ابن عمرو (صحيح الجامع: ٢٨٣٤) .

ولهذا يقول ابن كثير رحمه الله تعالى : « ... هذه الأحاديث الإسرائيليات تذكر للاستشهاد ، لا للاعتضاد ، فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

الثاني : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

الثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل ،

فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ... » (٣/١) تفسيره ، ثم ضرب أمثلة لذلك ، كأسماء أصحاب الكهف وكلبهم ، ونوع الشجرة التي أكل منها آدم ... إلخ .

ويذكر كثير من المفسرين ذلك ظنًّا أن هذا من العلم النفيس فحشوا كتبهم به وهو غث وغش فصرفوا المسلمين عن مقاصد الكتاب الهادي المنير ، إلى (خزعبلات) وأباطيل أهل الكتاب ، وغفلوا أن الله تعالى إنما سكت عن أسماء كثير من الأماكن والأشخاص ليعلمنا أنها ليست مقاصد الكتاب العزيز ، فما الذي يفيد في معرفة اسم ذي القرنين ، وموطنه ، وأماكن رحلاته ، ثم تراهم يقفون عند هذا ، ويغفلون عن قاعدة هامة من قواعد صلاح الأمم واستقامة الحياة قاعدة العدل والإحسان وانتقاد الظلم، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۞ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۞ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٦-٨٨] فلا يعطون لمثل هذه الآية النفيسة ما تستحقه ؛ لأن ذلك على خلاف هوى الطغاة والجبابرة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وهنا نقف على جوهرة ثمينة من جواهر العلم النفيس لابن كثير – ولِمَ لا – وهو ممن أزهر وأثمر ببستان شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم – يقول ابن كثير في أحسن ما يكون في عرض الخلاف أن تُستوعب الأقوال في ذلك المقام ، وأن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لئلا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فتشتغل به عن الأهم فالأهم .

« ... فأما من حكى خلافًا في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب في الذي تركه ، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضًا ، فإن صحح غير الصحيح عامدًا فقد تعمد الكذب ، أو جاهلًا فقد أخطأ ، وكذلك من نصب الخلاف فيما لا

فائدة تحته ، أو حكى أقوالًا متعددة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكبر بما ليس بصحيح ، فهو كلابس ثوبي زور . والله الموفق للصواب » تفسير ابن كثير (١/٣) .

هذه القاعدة الهامة تراها واضحة عند ابن القيم رحمه الله تعالى فهو لا يذكر الأقوال تكثرًا ، ولا يسرد الأراء عُجبًا ، بل يرجح ما به يقع القارىء على الصواب ويُسهل العمل به . فلا يترك القارىء متحيرًا ، مدعيًا أن له حق الاختيار .

بيان تعظيمه للكتاب

١١- ولهذا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى يعرض تمامًا عن ذكر الإسرائيليات ، فهو يعلم مقدار ما أفسدت هذه الآفات في عقائد المسلمين ورغبتها في تحويل الإسلام إلى رهبانية وقصص وحكايات لصرفهم عن المقصد الأسمى ألا هو العلم الصحيح النافع مع العمل الصائب . وقد ضرب الأستاذ السنباطي مثلًا لإعراض ابن القيم بتفسير آيات آداب الضيافة من سورة الذاريات (٢٤-٢٥) وما دار بين الملائكة وخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام . (منهج ابن القيم ١٥٤) .

وينقد ابن القيم بشدة من يعتمد الإسرائيليات في احتجاجه دون التفات لمعارضة لأصول الدين أو للصحيح من الآثار يقول في معرض قبول التوبة وعودة العبد بعدها خيرًا مما كان : (... فإذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها إلى طاعاته التي كان عليها أولًا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوي الأثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة ، وهذا بخلاف ما يظن من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر لعبده ذنبه فإنه لا يعود الود الذي كان له من قبل الجناية ، واحتجوا في ذلك بأثر إسرائيلي مكذوب أن الله قال لداود عليه السلام : « يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود». وهذا كذب قطعًا ...) طريق الهجرتين (٢١٦-٢١٧) . بل نرى ابن القيم يعرض بالكلية عن ذكر ما فيه مساس وعدم صون للكتاب الكريم،أو ما يشوب سير أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم . مما قد لا يحذر منه كثير من المؤلفين « كحاطب ليل » يقول في بيان قوله تعالى ذكره : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا ... ﴾ الآية [الأحزاب:٣٦] : « أخبر سبحانه أنه ليس لمؤمن أن يختار بعد قضائه وقضاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومن تخير بعد ذلك ، فقد ضل ضلالًا بعيدًا . وأما زعم بعض من لم يقدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حق قدره ، أنه ابتلي في شأن زينب بنت جحش ، وأنه رآها فقال : « سبحان مقلب القلوب »

فظن هذا الزاعم أن ذلك في شأن العشق ، وصنف بعضهم كتابًا في العشق وذكر فيه عشق الأنبياء وذكر هذه الواقعة . وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل وتحميله كلام الله ما لا يتحمله ونسبته رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما برأه الله منه .. » بدائع التفسير (٣/٤٢٥ -٤٢٦) فأنت ترى موضع الكتاب المعظم عند ابن القيم ومكانة النبي المكرم صلى الله عليه وسلم بل لو عدنا ونظرنا في تكملة آيات سورة القيامة بل وغيرها من السور ترى تردد عبارة « ومن أسرار الآية كذا » « وهذا من أسرار القرآن » راجع مثلًا سورة القيامة (٥ /٧٩) .

ويقول أيضًا « ...فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله ، وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا » بدائع الفوائد (١/٧٤) .

ومنه أيضًا (١/١١٧) : « ...وهذا باب قد فتحه الله لي ولك فلجه وانظر إلى أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه جمعًا وإفرادًا وتقديمًا وتأخيرًا إلى غير ذلك من أسراره ... » .

ومنه (١/١١٩) : « ....فمثل هذا الفصل يُعض عليه بالنواجذ وتثنى عليه الخناصر فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله،والله الموفق للصواب » ويرد بشدة وقوة على من ينتصر لقاعدة نحوية على حساب القرآن « ...فلا يجوز تحريف كلام الله انتصارًا لقاعدة نحوية،هدم مائة أمثالها أسهل من تحريف معنى الآية . » بدائع الفوائد (١/٤٥) ، وأخيرًا ينقد ابن القيم من يُطوع القرآن إلى بدعته خلافًا لما عليه السلف يقول : « ونحن قد أريناكم أقوال أئمة الهدى وسلف الأمة في الطائر ، فأرونا قولكم عن واحد منهم قاله قبلكم وكل طائفة من أهل البدع تجر القرآن إلى بدعها وضلالها وتفسره بمذاهبها وآرائها والقرآن بريء من ذلك وبالله التوفيق » شفاء العليل (٦١) .

وهـذا قليـل من كثير مما يؤكد على تعظيم الإمام للقرآن والذود عن تفسيره بغير وجه صحيح .

وهو مع هذا يرد ويناقش ، لا يقلد رأي أحد مهما كان، فهو يعلم أن كل أحد يؤخذ منه ويرد ، إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

راجع مثلًا : كلامه عن آية الذر (١٧٢) الأعراف أو كلامه عن الشك من الآية (٩٤) سورة يونس أو معنى الصراط الآية (٥٦) من سورة هود .

ومقصده رحمه الله تعالى في كل هذا الوصول للحق بطريق الحق ، والله حسبه وكل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم . فرحمه الله تعالى وأثابه فوق نيته .

ابن القيم والتفسير العلمي

بينا من قبل في الوقفة الثانية ص (٤٩) الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي،وأن الإعجاز العلمي موجود إلى قيام الساعة،أما تفسير القرآن تفسيرًا علميًّا فمرفوض والمتتبع لمؤلفات ابن القيم رحمه الله تعالى والتي منها تم جمع تفسيره يلحظ الأتي:

أولًا : أن ابن القيم رحمه الله تعالى يحث المسلمين على التفكر والتدبر والنظر في الكون وإلى ما خلق الله من شيء ، ليزدادوا إيمانًا وتسليمًا . وهذا واضح في جل كتبه خاصة « مفتاح دار السعادة .. » الذي لا نظير له . فهو يتكلم عن صنع الإنسان وبديع صنعه والكلام على أعضاء الإنسان عضوًا عضوًا،ثم ينتقل إلى الكلام عن سائر المخلوقات من شمس وقمر ونجوم وكواكب واختلاف الليل والنهار، ثم الحيوانات والحشرات إلى سائر المخلوقات، وفي كل هذا يذكر الحكمة في الخلق والإعجاز في الصنع .

ثانيًا : يضع ابن القيم رحمه الله فرقًا بينًا في النظر إلى الآيات وأنه نوعان :

الأول : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلًا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر.

والثاني : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يُفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ... فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقًا لهيبته ، خاشعًا لعظمته ، عان لعزته ، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد . فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه ... » مفتاح دار السعادة (٢١٧) .

ثم يسرد بعد ذلك ابن القيم سائر المخلوقات ثم يتكلم عن الحكمة في خلقها

وعجيب صنعها وقدرة تدبيرها . يذكر الأرض مثلًا وما فيها من أرزاق للعباد ، فظهرها وطن لهم وبطنها وطن لهم بعد موتهم . إلخ . مستشهدًا في ذلك بالآيات القرآنية ، وأحيانًا كثيرة بالأحاديث النبوية ؛ فيتكلم بتوسع تارة وبإيجاز أخرى . وهو في كل هذا حادٍ للأرواح إلى بلاد الأفراح ، متزودًا للمعاد بهدي خير العباد ، متسلحًا ببدائع الفوائد ، سائرًا في طريق أعلام الموقعين عن رب العالمين ، يخطو على مدارج السالكين ، بمفتاح دار السعادة ، مغيثًا للهفان مؤنسًا للسائر في طريق الهجرتين مرسلًا على أعداء السنة صواعق مرسلة . رحمه الله تعالى . ولو تتبعنا ما ذكره لطال المقام فانظر مفتاح دار السعادة ففيه البيان .

ويقول رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ ... ﴾ الآية (٥٣:فصلت) « أي أن القرآن حق ، فأخبر أنه لابد أن يريهم من آياته المشهودة ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق ... » الفوائد ص (٢٣) .

ثالثًا : هل الكلام على هذه الآيات وما فيها من علوم كونية ، يعتبر هذا تفسيرًا علميًّا أم بيانًا للإعجاز العلمي في القرآن ؟

بالنظر إلى ما رجحه كثير من أهل العلم المحققين برفض التفسير العلمي للقرآن بدءًا من السابقين أمثال الشاطبي رحمه الله تعالى في الموافقات (٢/٧٩-٨٠) وانتهاء بالدكتور الذهبي رحمه الله تعالى (٢/٤٦٩) نقرر أن ابن القيم لا يفسر الآيات تفسيرًا علميًّا بمفهوم أصحابه ، لقيام هذه العلوم على نظريات ، لا قرار لها ولا بقاء ، قد تكون اليوم صائبة وغدًا طائشة ، بل بعض هذه النظريات تهدم كثيرًا من سابقتها مع اشتهارها واستمرارها مدة، كنظرية النسبية « لأينشتين » «EINSTEIN » وغيرها من النظريات العلمية في شتى المجالات وكيف هدمت سابقتها ، فربط تفسير الآيات بمثل هذا عين الخطأ .

لكن لو ذهبنا إلى أن ابن القيم قد أشار إلى الإعجاز العلمي في القرآن في سائر الآيات التي فسرها غيره تفسيرًا علميًّا لو ذهبنا لذلك فقد– والله أعلم – وفقنا.

مثال : تكلم ابن القيم رحمه الله تعالى عن قوله تعالى : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ

﴿لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات : ٢٠-٢١] . في ما يقرب من أربعين فصلًا ، وأكثر من (١٢٠) صفحة في « التبيان في أقسام القرآن »من (٢٩٤-٤٢٢) . عن بديع صنع الله تعالى في الأرض ، ثم الإنسان ، تكلم عن الأذنين وسر شقهما في جانبي الوجه والأنف واللسان والأسنان ... وعن الحمل وتفاوت مدته وعن الجنين وأحواله ثم سائر أعضاء الإنسان ، وفائدة كل عضو وخصائصه وبعض خصائصه التشريحية وهو يحسن في أحيان كثيرة ، لكن يخالفه الطب الحديث الدقيق في كثير مما تكلم هو عنه . وأقول خالفه الطب - لا خالف الطب - لأنه متقدم وهذا التقدم الطبي حديث فقد يتحدث عن الطحال مثلًا بخلاف ما وصل إليه العلم الآن ؛ لأنه يتكلم عنه بما وصله من علم من أطباء عصره وهذا مشهور عند المسلمين في تلك القرون وقبلها أيضًا ، فهو لا يلام ولكن يشكر سعيه ويحمد فعله ، ويثاب من فضل الله على قدر نيته ، وهي حسنة إن شاء الله تعالى . وهو في هذا على خلاف من يحارب الإسلام الآن مدعيًا مخالفته للتقدم والمدنية والحضارة . والتقدم عندهم خروج عن الالتزام ، والمدنية مسايرة أخلاق الغرب ، والحضارة حضارة الفراعنة ، حتى يعتزون بها ويتحمسون لها أكثر من تحمسهم لدينهم الإسلام هذا إن كانوا أصلًا مؤمنين به .

الخلاصة : إننا نرى ابن القيم رحمه الله تعالى ـ وهو المدافع حتى النهاية عن القرآن وعن التشريع كما سبق بيانه مرارًا ـ ينأى بنفسه عن ربط القرآن بتطورات العلم من نظريات أو اختراعات . إنما يبين إعجاز القرآن كلام الرحمن في تعليم الإنسان ما لم يعلم،وها هو الإنسان يلمس ذلك الآن، شهد بذلك العدو المعاند قبل الصديق المساند . والله أعلم . وهذه قضية كبيرة - كمسلم - أميل إلى ما مال إليه علماء الأمة كالشاطبي متبعًا إياهم في تنزيه القرآن عن هذا الأمر .

وقبل الختام

بقيت كلمة وهي « أن المفسرين جميعهم لا شك قالوا كل ما بلغهم من علم ووفقوا من فهم عن القرآن الكريم . لكنهم على ما بذلوا من جهد ونفس ومال لم يقولوا كل شيء عن القرآن ، إنما قالوا ما في وسعهم . ولو ادعى أي أحد منهم أنه قال مالا يحتاج لغيره ، لعانده الواقع وما ألف أحد بعد أحد . فالأمر مداره على الفهم الصحيح بفتح من الله تعالى ، فالطبري مثلًا قال ما في وسعه وكذا ابن عطية والقرطبي وابن كثير والألوسي وابن عاشور ، كل يقول ما عنده وعلى الله القبول ومنه التوفيق .

ومما لا شك فيه أنه إذا ثبت القول عن الصحابة والتابعين أو أحد من السلف الصالحين بسند صحيح لا يجب الحياد عنه ، والاستمساك به نجاة ، والاعتصام به حياة ؛ ولكن قد يجتهد المفسر في ترجيح قول على قول من أقوالهم فله أجران إن أصاب وأجر إن أخطأ . واختلافهم في الغالب اختلاف تنوع لا تضاد . وصدق الله القائل : ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[الكهف :١٠٩] فكما لا تنفد كلمات الله تعالى لا ينفد فتح الله على عباده الصالحين ، فيستخرجون منه دررًا ونفائس عن مثلها غفل الغواصون ، وإن كانوا أعلى منزلة ، والله الموفق للصواب . والله أعلى وأعلم ».

الخـتام

اللهم لك الحمد ، ملء السماء وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، وأشهد أن لا إله إلا أنت ربي وحدك لا شريك لك . وأن محمدًا عبدك ورسولك صلى الله عليه وسلم ، صلاة لا تحدها الحدود ولا يحيط بها العادُّون ، السراج المنير ، البشير النذير صلى الله عليه وسلم . ها قد تم هذا العمل بين يديك أخي المسلم . ولا شك أنه في نفسك شيء ، وعلى لسانك قول ، فإن كان في نفسك ضيق فنفثه في الاستغفار لي .

وإن كان خيرًا فاجعله دعاء لي بحسن الخاتمة والنجاة من خزي العاقبة .

وإن كان على لسانك ذم فعذري أني – وأقسم بالله – أحببت هؤلاء العلماء ، وما أردت إلا خدمتهم التي هي خدمة لديني الذي أدين به وأدعـو له بإذن ربي . ومما لا شك فيه أن هذا العمل لو كان في غير هذه الظروف لخرج على غير هذه الصورة ، ولكن كما قيل : لو نظر الناظر مائة مرة فيما كتب لوجد خطأً أو أراد تصحيحًا أو تقديمًا أو تأخيرًا في كل مرة ، وكل ذلك يبغي الكمال والحسن . ويأبى الله أن يُتم كتابًا إلا كتابه تعالى .

وهذا جهدي وهو جهد محب – يعلم الله – والمحب معذور ، ولا أدعي غيرذلك، فإن كان صوابًا فمن الله وحده لا شريك له سبحانه ، إليه أسعى وأحفد وأرغب ، وآمل أن يتقبله مني خالصًا لوجهه الكريم ، متوسلًا بأسمائه وصفاته أن يصرف به وجهي عن النار ، وأن يقيني شر نفسي وسيىء عملي . وما فيه من خطأً فالله منه بريء ورسوله صلى الله عليه وسلم .

وكما بدأ هذا العمل بمحنة ذكرتها أثناء المقدمة ، يكاد ينتهي أيضًا بمحنة أسأل الله أن يبدلها منحة ، آمين . فليلمس القارىء لي أعذارًا لا عذرًا ، فالله وحده يعلم في أي أحوال كتبت هذه الكلمات حتى يكاد دمع عيني يسقط ، ولكن الحمد لله الحمد لله الحمد لله . ثم لا يشكر الله من لا يشكر الناس ، أشكر بعد الله أبي وأمي - حفظهما الله تعالى ومتعهما بالصحة والعافية والبركة في العمر- على ما بذلا من دعاء ونصح وجهد ، فلهما من الله الجزاء الذي لا يحد ، والخير الذي لا يعد ، ثم أشكر زوجتي المحتسبة جزاها الله كل خير عني وعن ابنتي - فاطمة - حفظها الله تعالى . فكم بذلت وتعبت وسهرت على ما بها ، مما أسأل الله تعالى كشفه ورفعه . فلها الشكر - بعد شكر الله - ولجميع مشايخي الذين يصعب حصرهم ممن ساعدني ولو بكلمة . ولجميع إخواني الذين لم يتأخر أحدهم في مد يد العون. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وكتبه

الذي لا غنى له عن ربه طرفة عين

يسري السيد محمد أحمد علي

أبو فاطمة

الهرم ـ في أول ذي الحجة ١٤١٣هـ

الموافق ٢٣ / ٥ / ١٩٩٣م .

بدائـــــع التفســـــير

الجامـع لمـا فـسره الإمـام « ابن قيـم الجـوزيـة »

- رحمـــه الله تعالى -

المجلـــد الأول

جمعـــه ووثـق نصـوصـه وخـرج أحـاديثـــه

بعـــون الله تعالى

يسري السيد محمد

سُورَةُ الفَاتِحَةِ

سورة الفاتحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين * ﴾

قال رحمه الله تعالى :

إذا أعطيت الفاتحة حقها وجدتها من أولها إلى آخرها منادية على ذلك[1]، دالة عليه ، صريحة فيه ، وإن كان حمده لايقتضي غير ذلك ، وكذلك كمال ربوبيته للعالمين لايقتضي غير ذلك ، فكيف يكون الحمد كله لمن لايقدر على مقدور أهل سماواته وأرضه من الملائكة والجن والإنس والطير والوحش ، بل يفعلون ما لا يقدر عليه ولا يشاؤه ، ويشاء ما لا يفعله كثير منهم ، فيشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء ، وهل يقتضي ذلك كمال حمده ، وهل يقتضيه كمال ربوبيته .

ثم قوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ مبطل لقول الطائفتين المنحرفتين على قصد السبيل ، فإنه يتضمن إثبات فعل العبد وقيام العبادة به حقيقة فهو العابد على الحقيقة ، وإن ذلك لا يحصل له إلا بإعانة رب العالمين عز وجل له ، فإن لم يُعِنْهُ ولم يقدره ولم يشأ له العبادة لم يتمكن منها ولم يوجد منه البتة، فالفعل منه والإقدار والإعانة من الرب عز وجل .

ثم قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ يتضمن طلب الهداية ممن هو قادر عليها وهي بيده ، إن شاء أعطاها عبده ، وإن شاء منعه إياها ، والهداية معرفة

---

(١) أي خلق الله تعالى للأعمال وتكوينه وإيجاده لها .

الحق والعمل به ، فمن لم يجعله الله تعالى عالماً بالحق عاملاً به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء ، فهو سبحانه المنفرد بالهداية الموجبة للاهتداء التي لا يتخلف عنها وهي جعل العبد مريداً للهدى محباً له مؤثراً له عاملاً به ، فهذه الهداية ليست إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل وهي التي قال سبحانه فيها :

(إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [القصص : ٥٦] .

مع قوله تعالى: (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢] .

فهذه هداية الدعوة والتعليم والإرشاد وهي التي هدى بها ثمود فاستحبوا العمى عليها وهي التي قال تعالى فيها :

(وما كان الله ليضل قوماً بعد إذْ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) [التوبة : ١١٥].

فهداهم هدى البيان الذي تقوم به حجته عليهم ومنعهم الهداية الموجبة للاهتداء التي لا يضل من هداه بها فذلك عدله فيهم وهذه حكمتهفأعطاهم ما تقوم به الحجة عليهم ومنعهم ما ليسوا له بأهل ولا يليق بهم(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

للفاتحة قوتان : قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية .

وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوتيه العلمية والإرادية واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فاطره وبارئه ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ومعرفة آفاتها ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها . فبهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية . وأعلم الناس أعرفهم بها وأفقههم فيها . واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنّته عليه ، وتقصيره هو في أداء حقه فهو مستحي من مواجهته بتلك الخدمة لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ودون ذلك وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته . فهو مضطر إلى

(١) شفاء العليل (٥٢-٥٣) .

أن يهديه الصراط المستقيم الذي هدى إليه أولياءه وخاصته وأن يجنبه الخروج على ذلك الصراط إما بفساد في قوته العلمية فيقع في الضلال ، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل انتظام .

فإن قوله : ﴿ **الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين** ﴾ يتضمن الأصل الأول ، وهو معرفة الرب تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ، والأسماء المذكورة في هذه السورة هي أصول الأسماء الحسنى ، وهي اسم « الله » و « الرب » و « الرحمن » . فاسم « الله » متضمن لصفات الألوهية ، واسم « الرب » متضمن لصفات الربوبية . واسم « الرحمن » متضمن لصفات الإحسان . والجود والبر . ومعاني أسمائه تدور على هذا .

وقوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

يتضمن معرفة الطريق الموصلة إليه وأنها ليست إلا عبادته وحده بما يحبه ويرضاه واستعانته على عبادته .

وقوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ .

يتضمن بيان أن العبد لا سبيل له إلى سعادته إلا باستقامته على الصراط المستقيم وأنه لا سبيل له إلى الاستقامة إلا بهداية ربه له ، كما لا سبيل له إلى عبادته إلا بمعونته فلا سبيل له إلى الاستقامة على الصراط إلا بهدايته .

وقوله : ﴿ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾ .

يتضمن بيان طرفي الانحراف عن الصراط المستقيم ، وأن الانحراف إلى أحد الطرفين انحراف إلى الضلال الذي هو فساد العلم والاعتقاد ، والانحراف إلى الطرف الآخر انحراف إلى الغضب الذي سببه فساد القصد والعمل .

فأول السورة رحمة ، وأوسطها هداية ، وآخرها نعمة . وحظ العبد من النعمة على قدر حظه من الهداية ، وحظه منها على قدر حظه من الرحمة ، فعاد

الأمر كله إلى نعمته ورحمته ، والنعمة والرحمة من لوازم ربوبيته ، فلا يكون إلا رحيماً منعماً وذلك من موجبات ألوهيته فهو الإله الحق ، وإن جحده الجاحدون ، وعدل به المشركون . فمن تحقق بمعاني الفاتحة علماً ومعرفة وعملاً وحالاً فقد فاز من كماله بأوفر نصيب ، وصارت عبوديته عبودية الخاصة الذين ارتفعت درجتهم عن عوام المتعبدين . والله المستعان[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وهذان الجمعان[٢] : هما حقيقة : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فإن العبد يشهد من قوله : ﴿ **إياك** ﴾ الذات الجامعة لجميع صفات الكمال ، التي لها كل الأسماء الحسنى .

ثم يشهد في قوله : ﴿ **نعبد** ﴾ جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً .

ثم يشهد من قوله : ﴿ **وإياك نستعين** ﴾ جميع أنواع الاستعانة ، والتوكل والتفويض . فيشهد منه جمع الربوبية .

ويشهد من ﴿ **إياك نعبد** ﴾ جمع الإلهية .

ويشهد من ﴿ **إياك** ﴾ الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى .

ثم يشهد من ﴿ **اهدنا** ﴾ عشر مراتب . إذا اجتمعت حصلت له الهداية .

المرتبة الأولى: هداية العلم والبيان . فيجعله عالماً بالحق مدركاً له .

المرتبة الثانية : أن يُقْدِرَه عليه . وإلا فهو غير قادر بنفسه .

المرتبة الثالثة : أن يجعله مريداً له .

المرتبة الرابعة: أن يجعله فاعلاً له .

المرتبة الخامسة: أن يثبته على ذلك . ويستمر به عليه .

---

(١) الفوائد (٢١-٢٢) .

(٢) في بيان منزلة الجمع الصحيح الذي عليه أهل الاستقامة : جمع توحيد الألوهية وجمع توحيد الربوبية .

المرتبة السادسة: أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له .

المرتبة السابعة: أن يهديه في الطريق نفسها هداية خاصة . أخص من الأولى . فإن الأولى هداية إلى الطريق إجمالاً . وهذه هداية فيها وفى منازلها تفصيلاً .

المرتبة الثامنة : أن يشهده المقصود من الطريق ، وينبهه عليه . فيكون مطالعاً في سيره ، ملتفتاً إليه ، غير محتجب بالوسيلة عنه .

المرتبة التاسعة: أن يشهده فقره وضرورته إلى هذه الهداية فوق كل ضرورة .

المرتبة العاشرة: أن يشهده الطريقين المنحرفين عن طريقها وهما :
طريق أهل الغضب ، الذين عدلوا عن اتباع الحق قصداً وعناداً .
وطريق أهل الضلال الذين عدلوا عنها جهلاً وضلالاً .

ثم يشهد جمع « الصراط المستقيم » في طريق واحد ، عليه جميع أنبياء الله ورسله وأشياعهم من الصديقين والشهداء والصالحين .

فهذا هو الجمع الذي عليه رسل الله تعالى وأتباعهم . فمن حصل له هذا الجمع (فقد)[١] هدي إلى الصراط المستقيم . والله أعلم[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

وليقف عند كل آية من الفاتحة ينتظر جواب ربه له وكأنه يسمعه يقول حمدني[٣] عبدي حين يقول : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

(١) (فقد) زيادة لازمة من نسخة المنار لمدارج السالكين (٣ / ٣٣١) .

(٢) مدارج السالكين (٣/٥١٠-٥١١) .

(٣) يشير للحديث الصحيح :
« .. من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج ..» الحديث .
رواه مسلم (٢ / ٢٦) في الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة وأبو داود (٣ / ٣٨) في الصلاة .
والترمذي (٣ / ١٨٦) التفسير ، باب « سورة الفاتحة » .
والنسائي (٢ / ١٣٥) في الافتتاح .
والموطأ (١ / ٨٤) في الصلاة .

فإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ وقف لحظة ينتظر قوله : أثنى عليَّ عبدي .

فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ انتظر قوله : مجّدني عبدي .

فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ انتظر قوله : هذا بيني وبين عبدي .

فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها انتظر قوله : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل .

ومن ذاق طعم الصلاة علم أنه لا يقوم غير التكبير والفاتحة مقامهما ، كما لا يقوم غير القيام والركوع والسجود مقامهما فلكل عبودية من عبودية الصلاة سر وتأثير وعبودية لا تحصل من غيرها ، ثم لكل آية من آيات الفاتحة عبودية وذوق ووجد يخصها .

فعند قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ نجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى : فعلاً ووصفاً واسماً . وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً ، فهو محمود في أفعاله وأوصافه وأسمائه ، منزه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه ، فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك ، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال ، وأسماؤه كلها حسنى وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسموات والأرض وما بينهما وما فيهما ، فالكون كله ناطق بحمده ، والخلق والأمر صادر عن حمده وقائم بحمده ووجد بحمده ، فحمده هو سبب وجود كل موجود ، وهو غاية كل موجود وكل موجود شاهد بحمده ، وإرساله رسوله بحمده . وإنزاله كتبه بحمده ، والجنة عَمُرت بأهلها بحمده والنار عمرت بأهلها بحمده ، وما أطيع إلا بحمده ، وما عصي إلا بحمده ، ولا تسقط ورقة إلا بحمده ، ولا يتحرك في الكون ذرة إلا بحمده ، وهو المحمود لذاته ، وإن لم يحمده العباد ، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحده العباد ، والإله الحق وإن لم يؤلهوه ، وهو سبحانه الذي حمد نفسه على لسان القائل

« الحمد لله رب العالمين » كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[١] « إن الله تعالى قال على لسان نبيه : « سمع الله لمن حمده » فهو الحامد لنفسه في الحقيقة على لسان عبده ، فإنه الذي أجرى الحمد على لسانه وقلبه، وإجراؤه بحمده فله الحمد كله ، وله الملك كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، فهذه المعرفة من عبودية الحمد[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأول سورة من القرآن تدل عليها[٣] من وجوه كثيرة وهي سورة أم الكتاب .

أولها :

فإن قوله : ﴿ الحمد لله ﴾ يدل عليها ، فإنه سبحانه يحمد على أفعاله كما حمد نفسه عليها في كتابه ، وحمده عليها رسلُه وملائكته والمؤمنون من عباده ، فمن لا فعل له البتة كيف يحمد على ذلك ؟ فالأفعال هي المقتضية للحمد ، ولهذا نجده مقروناً بها، كقوله : (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض) [الأنعام : ١]. (الحمد لله الذي هدانا لهذا) [الأعراف : ٤٣] . (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) [الكهف : ١] . (الحمد لله فاطر السموات والأرض) [فاطر : ١] .

الثاني : قوله : ﴿ رب العالمين ﴾ وربوبيته للعالم تتضمن تصرفه فيه وتدبيره له ، ونفاذ أمره كل وقت فيه ، وكونه معه كل ساعة في شأن يخلق ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع ، ويعز ويذل ، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته ، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه .

---

(١) رواه مسلم (٤٣/٢) في الصلاة ، باب التشهد في الصلاة .
وأبو داود (٢٥٥/٣) في الصلاة ، باب التشهد .

(٢) الكلام عن مسألة السماع (١٩٥-١٩٧) .

(٣) أي مسألة تعدد صفات الواحد وتكثر أسماؤه الدالة على صفاته وقيام الأمور المتجددة به .. إلخ . في الرد على النفاة المعطلة المعتقدين المعارضة بين العقل والوحي .

الثالث : قوله : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ وهو الذي يرحم بقدرته ومشيئته من لم يكن راحماً له قبل ذلك .

الرابع : قوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ والملك هو المتصرف فيما هو ملك عليه ومالك له ، ومن لا تصرف له ولا يقوم به فعل البتة ، لايعقل له ثبوت ملك ولا مالك .

الخامس : قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ فهذا سؤال لفعل يفعله بهم لم يكن موجوداً قبل ذلك ، وهو الهداية التي هي فعله ، فيترتب عليها الاهتداء الذي هو مطاوع وهو فعلهم .

السادس : قوله : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ ونعمته عليهم وفعله القائم به وهو الإنعام ، فلو لم يقم به فعل الإنعام لم يكن للنعمة وجود البتة .

السابع : قوله : ﴿ **غير المغضوب عليهم** ﴾ وهم الذين غضب الله عليهم بعد ما أوجدهم وقام بهم سبب الغضب ، فالغضب على المعدوم محال ، وقد ثبت[١] عن النبي صلى الله عليه وسلم أن العبد إذا قال : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ يقول الله : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ قال الله : مجدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ قال الله : هذه بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ونصفها لعبدي ، فإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ إلى آخرها ، قال الله : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[٢] . اهـ .

وقال رحمه الله تعالى :

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال ، وتضمنتها أكمل تضمن .

فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء ، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي : « الله ، والرب ، والرحمن »

---

(١) تقدم تحقيقه صـ (١١١) .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١٢٢٢/٤-١٢٢٥) .

وبنيت السورة على الألوهية والربوبية والرحمة . فـ ﴿ **إياك نعبد** ﴾مبني على الألوهية . و ﴿ **إياك نستعين** ﴾ على الربوبية . وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة. والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في ألوهيته، وربوبيته ، ورحمته. والثناء والمجد كمالان لجده .

وتضمنت إثبات المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها . وتفرُّد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق ، وكون حكمه بالعدل . وكل هذا تحت قوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ .

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة :

أحدها : كونه (رب العالمين) . فلا يليق به أن يترك عباده سُدىً هَمَلا ، لايعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما . فهذا هضم للربوبية ، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به . وما قدره حق قدره من نسبه إليه .

الثاني : أخذها من اسم (الله) وهو المألوه المعبود . ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله .

الموضع الثالث : من اسمه (الرحمن) فإن رحمته تمنع إهمال عباده ، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم ، فمن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ ، وإخراج الحب . فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح ، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب . وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك .

الموضع الرابع : من ذكر (يوم الدين) فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم ، فيثيبهم على الخيرات ، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات . وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه . والحجة إنما قامت برسله وكتبه .

وبهم استحق الثواب والعقاب . وبهم قام سوق يوم الدين . وسيق الأبرار إلى النعيم ، والفجار إلى الجحيم .

الموضع الخامس : من قوله : (إياك نعبد) فإن ما يُعبد به تعالى لا يكون إلا على ما يحبه ويرضاه . وعبادته : هي شكره وحبه وخشيته ، فطري ومعقول للعقول السليمة . لكن طريق التعبد وما يعبد به لاسبيل إلى معرفته إلا برسله وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول ، يستحيل تعطيل العالم عنه ، كما يستحيل تعطيله عن الصانع . فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل . ولم يؤمن به ، ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفراً به .

الموضع السادس : من قوله : (اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فالهداية : هي البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة . ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل . فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق . وجعل الإيمان في القلب وتحبيبه إليه ، وتزيينه في قلبه ، وجعله مؤثراً له ، راضياً به ، راغباً فيه . وهي هدايتان مستقلتان ، لا يحصل الفلاح إلا بهما . وهما متضمنتان تعريف ما لم نعلمه من الحق تفصيلا وإجمالا ، وإلهامنا له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً وباطناً . ثم خلقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم . ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة .

ومن ههنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، وبطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم . وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلا مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك . وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله ؛ فأمر يفوته الحصر . ونحن محتاجون إلى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الأمور ؛ كان سؤال الهداية له سؤال التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى – وهي آخر مراتبها – وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة ، وهو الصراط الموصل إليها . فمن هُدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدي هناك إلى الصراط المستقيم ،

الموصل إلى جنته ودار ثوابه . وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم . وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط . فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطَّرْف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشد الركاب ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشي مشيا ، ومنهم من يحبو حبوا ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردَس في الناس . فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حَذْو القُذَّة بالقذة جزاء وفاقا : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) [النمل : ٩٠] .

ولينظر الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم ، فإنها الكلاليب التي بجَنْبتي ذاك الصراط ، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه . فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك : (وما ربك بظَلَّام للعبيد) [فصلت : ٤٦] .

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير ، والسلامة من كل شر .

الموضع السابع : من معرفة نفس المسئول ، وهو الصراط المستقيم . ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور : الاستقامة ، والإيصال إلى المقصود ، والقرب ، وسعته للمارين عليه ، وتعيُّنه طريقاً للمقصود ، ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل بين نقطتين . وكلما تعوج طال وبعد . واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود . ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته . وإضافته إلى المنعم عليهم ، ووصفُه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيّنه طريقا .

والصراط : تارة يضاف إلى الله ، إذ هو الذي شرعه ونصبه ، كقوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما) [الأنعام : ١٥٣] . وقوله : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله) [الشورى : ٥٢:٥٣] . وتارة يضاف إلى العباد ، كما في

الفاتحة . لكونهم أهل سلوكه . وهو المنسوب لهم . وهم المارون عليه .

الموضع الثامن : من ذكر المنعم عليهم ، وتمييزهم عن طائفتي الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة . لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق ، أو جاهلا به . والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفاً له . فهذه أقسام المكلفين . لا يخرجون عنها البتة . فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه . وهو الذي زكّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو المفلح : (قد أفلح من زكاها) [الشمس : ٩] . والعالم به المتبع هواه هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل . والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل . فكل منهماضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به . ومن ههنا كان اليهود أحقَّ به . وهو متغلظ في حقهم . كقوله تعالى في حقهم : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . فباءوا بغضب على غضب). [البقرة : ٩٠] . قال تعالى : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مَثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه . وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾ [المائدة : ٦٠] . والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال . ومن هنا وصفت النصارى به في قوله تعالى: (قل ياأهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) [المائدة : ٧٧] .

فالأولى : في سياق الخطاب مع اليهود .

والثانية : في سياقه مع النصارى . وفي الترمذي وصحيح ابن حِبَّان من حديث عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون »[١] .

---

(١) رواه بطوله الإمام أحمد (٤ / ٣٧٨ ، ٣٧٩) .

والترمذي (٥ /١٨٦ ، ١٨٧) في التفسير، من سورة الفاتحة وقال : حسن غريب . =

ففي ذكر المنعَم عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه - والمغضوب عليهم - وهم من عرفه واتبع هواه - والضالين - وهم من جهله -: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إنما أوجبها ثبو ت الرسالة . وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه :

منها : أن النعمة هي الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواهما وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل في مقابلتهما ، كقول مؤمني الجن : (وأنا لا ندري أشَرٌّ أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رَشَدا) [الجن : ١٠] . ومنه قول الخضرِ في شأن الجدار واليتيمين : (فأراد ربك أن يبلغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما ﴾ [الكهف : ٨٢] . وقال في خرق السفينة : (فأردت أن أعيبها) [الكهف : ٧٩] . ثم قال بعد ذلك : (وما فعلته عن أمري) وتأمل قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرَّفثُ إلى نسائكم) [البقرة : ١٨٧] . وقوله : (حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) [المائدة : ٤] . وقوله : (حرمت عليكم أمهاتكم) ثم قال : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) [النساء : ٢٣] .

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم . وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر . فكل الخلق في نعمه . وهذا فصل النزاع في مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ .

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان . ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر ، كما قال تعالى: (وإن تَعدُّوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلوم كَفَّار) [إبراهيم : ٣٤] .

= وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣/ ١٩)
والطبري (١ / ١٨٦) تحقيق أحمد شاكر .
وقال ابن كثير : وقد روي حديث عدي هذا من طرق ، وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها (١ / ٢٩) .
وانظر (فتح القُدير) للشوكاني (١ / ٢٤ ، ٢٥) والحديث صحيح إن شاء الله تعالى .

والنعمة من جنس الإحسان ، بل هي الإحسان . والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر . وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم : (وما بكم من نعمة فمن الله) [النحل : ٥٣] فأضيف إليه ما هو منفرد به . وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومَجْرًى للنعمة . وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى ، بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه . فكان في لفظة « المغضوب عليهم » بموافقة أوليائه له : من الدلالة على تفرده بالإنعام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها - ما ليس في لفظة « المنعم عليهم » .

الوجه الثالث : أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره ، وتصغير شأنه ، ما ليس في ذكر فاعل النعمة ، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ، ورفع قدره : ما ليس في حذفه . فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره ، فقلت : هذا الذي أكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ما تمناه كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك : هذا الذي أكرم ، وخُلع عليه وشُرف وأُعطي .

وتأمل سراً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره . فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح . وهي الهدى ودين الحق . ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء . فهذا تمام النعمة . ولفظ (أنعمت عليهم) يتضمن الأمرين . وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين : الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان ، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه . فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال . فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم . وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم . فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه . فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام ، واقتضاه أكمل اقتضاء ، في غاية الإيجاز

والبيان والفصاحة ، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة ، وحذفه في أهل الغضب . وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال .

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة ، والغضب والضلال . فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم . وهذا كثير في القرآن : يقرن بين الضلال والشقاء ، وبين الهدى والفلاح . **فالثاني** كقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ [البقرة : ٤] . وقوله : ﴿ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٢] . **والأول** : كقوله تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسُعُر ﴾ [القمر : ٤٧] . وقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ [البقرة : ٧] . وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله : ﴿ فإما يأتينَّكم منِّي هُدىً فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى ﴾ [طه : ١٢٣] . فهذا الهدى والسعادة . ثم قال : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لِمَ حشرتني أعمى وقد كنتُ بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ [طه : ١٢٤] . فذكر الضلال والشقاء . فالهدى والسعادة متلازمان . والضلال والشقاء متلازمان .

فصل

وذكر الصراط المستقيم منفرداً ، معرفاً تعريفين : تعريفاً باللام ، وتعريفاً بالإضافة . وذلك يفيد تعينه واختصاصه ، وأنه صراط واحد . وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها ، كقوله : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتَفرَّق بكم عن سبيله ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . فوحَّد لفظ الصراط وسبيله . وجمع السبل المخالفة له . وقال ابن مسعود : « خطّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا ، وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سُبل ، وعلى كل سبيل شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق

بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)[١] وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد . وهو مابعث به رسله وأنزل به كتبه . لايصل إليه أحد إلا من هذه الطريق . ولو أتى الناسُ من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة ، والأبواب عليهم مغلقة ، إلا من هذا الطريق الواحد . فإنه متصل بالله ، موصل إلى الله . قال الله تعالى : (هذا صراطٌ علي مستقيم) [الحجر : ٤١] . قال الحسن: معناه : صراط إليَّ مستقيم . وهذا يحتمل أمرين :

أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت أداة « على » مقام « إلى » .

والثاني : أنه أراد التفسير على المعنى . وهو الأشبه بطريق السلف . أي صراط موصل إليَّ وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لا يُعَرِّج على شيء . وهذا مثل قول الحسن وأبين منه . وهو من أصح ما قيل في الآية . وقيل : « عليَّ » فيه للوجوب ، أي عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه . والقولان نظير القولين في آية النحل . وهي : (وعلى الله قَصْدُ السبيل) [النحل : ٩] . والصحيح فيها كالصحيح في آية الحجر : أن السبيل القاصد – وهو المستقيم المعتدل – يرجع إلى الله ، ويوصل إليه ، قال طُفيل الغَنَوي .

مضوا سلفاً قَصْدَ السبيل عليهم وصَرْف المنايا بالرجال تَشَقْلَب

أي ممرنا عليهم ، وإليهم وصولنا ، وقال الآخر :

فهن المنايا : أيُّ وادٍ سلكته عليها طريقي ، أو علي طريقها

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة « إلى » التي هي للانتهاء ، لا أداة « على » التي هي للوجوب . ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال : (إن

(١) أخرجه الإمام أحمد رضي الله عنه (رقم / ٤١٤٢) وصححه الشيخ المحدث أحمد شاكر رحمه الله .
وابن حبان في صحيحه رقم (٥) بتحقيق أحمد شاكر .
ورواه الحاكم (٢ / ٣١٨) وصححه ووافقه الذهبي .
وانظر تحقيق الإمام ابن كثير على هذا الحديث (٢ /٢٠٥) من تفسيره .

إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم) [الغاشية : ٢٥:٢٦] . وقال : (إلينا مرجعهم) [الروم : ٢٣] (ثم إلى ربهم مرجعهم) [الأنعام : ١٠٨] وقال لما أراد الوجوب : (ثم إن علينا حسابهم) [الغاشية : ٢٦] (إن علينا جمعه وقرآنه) [القيامة : ١٧] (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) [الأنعام : ٣٨] ونظائر ذلك .

قيل : في أداة « على » سر لطيف . وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدىً . وهو حق . كما قال في حق المؤمنين : (أولئك على هدى من ربهم) [البقرة : ٤] . وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (فتوكل على الله إنك على الحق المبين) [النمل : ٧٩] . والله عز وجل هو الحق ، وصراطه حق ، ودينه حق فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكان في أداة « على » على هذا المعنى ما ليس في أداة « إلى » فتأمله ، فإنه سر بديع .

فإن قلت : فما الفائدة في ذكر « على » في ذلك أيضا . وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق ، وعلى الهدى ؟ .

قلت : لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه واستقامته إليه . فكان في الإتيان بأداة « على » ما يدل على علوه وثبوته واستقامته . وهذا بخلاف الضلال والرَّيب . فإنه يؤتى فيه بأداة « في » الدالة على انغماس صاحبه ، وانقماعه وتدسسه فيه ، كقوله تعالى : (فهم في رَيْبهم يترددون) [التوبة : ٤٥] وقوله : (والذين كذبوا بآياتنا صُمٌّ وبُكْم في الظلمات) [الأنعام : ٣٩] وقوله : (فذَرْهم في غَمْرتهم حتى حين ﴾ [المؤمنون : ٢٤] وقوله : (وإنهم لفي شك منه مُريب) [الشورى : ١٤] وتأمل قوله تعالى : (وإنَّا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) [سبأ : ٢٤] . فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير ، وطريق الضلال تأخذ سُفلا ، هاوية بسالكها في أسفل سافلين .

وفي قوله تعالى : (قال هذا صراط عليَّ مستقيم) [الحجر : ٤١]

قول ثالث : وهو قول الكسائي : إنه على التهديد والوعيد نظير قوله : (إن ربك لبالمرصاد) [الفجر : ١٤] كما يقال : طريقك عليَّ ، وممرك عليَّ ، لمن

تريد إعلامه بأنه غير فائت لك ، ولا مُعجِز . والسياق يأبى هذا ، ولا يناسبه لمن تأمله . فإنه قاله مجيباً لإبليس الذي قال : (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلَصين) [الحجر : ٣٩] فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ، ولا طريق لي عليهم . فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير . وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم . فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط ، لأنه صراط عليَّ . ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ، ولا الحَوْم حول ساحته ، فإنه محروس محفوظ بالله . فلا يصل عدو الله إلى أهله .

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ، ولينظر إلى هذا المعنى ويوازن بينه وبين القولين الآخرين ، أيهما أليق بالآيتين ، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف .

وأما تشبيه الكسائي[1] له بقوله : (إن ربك لبالمرصاد) فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالة . فتأمله ، ولا يقال في التهديد : هذا طريق مستقيم عليَّ ، لمن لا يسلكه . وليست سبيل المهدَّد مستقيمة . فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم وسبيله التي هو عليها ليست مستقيمة على الله . فلا يستقيم هذا القول البتة .

وأما من فسره بالوجوب ، أي عليّ بيان استقامته والدلالة عليه . فالمعنى صحيح . لكن في كونه هو المراد بالآية نظر . لأنه حذف في غير موضع الدلالة . ولم يؤلف الحذف المذكور ، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف . بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة . فإنه حذف مألوف معروف . حتى إنه لايذكر البتة . فإذا قلت : له درهم عليَّ . كان الحذف معروفاً مألوفا . فلو أردت عليَّ نقدُه ، أو عليَّ وزنه وحفظه ، ونحو ذلك ، وحذفت . لم يسغ . وهو نظير : عليّ بيانه . المقدر في الآية ، مع أن الذي قاله السلف أليق بالسياق . وأجلُّ المعنيين وأكبرهما .

---

(١) الإمام شيخ القراءة والعربية ، أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله .. الملقب بالكسائي ، لكساءٍ أحرم فيه .

سير أعلام النبلاء للذهبي (٩ / ١٣١) .

وسمعت[1] شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رضي الله عنه يقول وهما نظير قوله تعالى : (إن علينا لَلْهُدَى وإن لنا للآخرة والأولى) [الليل : ١٢:١٣] قال : فهذه ثلاثة مواضع في القرآن في هذا المعنى .

قلت : وأكثر المفسرين لم يذكر في سورة (والليل إذا يغشى) إلا معنى الوجوب ، أي علينا بيان الهدى من الضلال . ومنهم من لم يذكر في سورة النحل إلا هذا المعنى كالبغوي . وذكر في الحِجْر الأقوال الثلاثة . وذكر الواحدي في بسيطه المعنيين في سورة النحل . واختار شيخنا قول مجاهد والحسن في السور الثلاث .

فصل

والصراط المستقيم : هو صراط الله . وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه ، كما ذكرنا ، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم ، وهذا في موضعين من القرآن : في هود والنحل ، قال في هود : (ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) [هود : ٥٦] وقال في النحل : (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يُوجِّهه لا يأت

---

(١) شيخ الإسلام الإمام العلامة الحافظ الناقد الفقيه المجتهد المفسر البارع علم الزهاد ونادرة العصر ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبد الحليم بن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدين عبد السلام .

المجاهد بالقلم والسيف والجنان . كان من بحور العلم ومن الأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد والشجعان الكبار والكرماء الأجواد أثنى عليه الموافق والمخالف وسارت بتصانيفه الركبان .

قال الذهبي : ما رأيت مثله .

والإمام ابن تيمية رضي الله عنه ترجم له كثير من العلماء تراجم مفردة منهم ابن عبد الهادي في : « العقود الدرية » .

وانظر تذكرة الحفاظ للذهبي (١٤٩٦/٤) .

والبداية والنهاية (٣٠٨/١٣) .

و – مع إمامته – ابن القيم ثمرة من ثمار شجرة علم ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) [النحل : ٧٦] . فهذا مثل ضربه الله للأصنام التي لا تسمع ، ولا تنطق ولا تعقل ، وهي كَلٌّ على عابدها يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده ويضعه ويقيمه ويخدمه . فكيف يسوونه في العبادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد . وهو قادر متكلم ، غني ، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله . فقوله صدق ورشد ونصح وهدى . وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة . هذا أصح الأقوال في الآية . وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره . ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال ، ثم حكاها بعده ، كما فعل البغوي . فإنه جزم به ، وجعله تفسير الآية . ثم قال :

وقال الكلبي(١) : يدلكم على صراط مستقيم .

قلت : ودلالته لنا على الصراط هي من موجب كونه سبحانه على الصراط المستقيم . فإن دلالته بفعله وقوله ، وهو على الصراط المستقيم في أفعاله وأقواله . فلا يناقض قول من قال : إنه سبحانه على الصراط المستقيم .

قال : وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم .

قلت : وهذا حق لا يناقض القول الأول . فالله على الصراط المستقيم ، ورسوله عليه . فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه . وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم ، وهو الصنم الذي هو أبكم ، لايقدر على هدى ولا خير . وإمام الأبرار ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

وعلى القول الأول : يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار . والقولان متلازمان . فبعضهم ذكر هذا ، وبعضهم ذكر هذا ؛ وكلاهما مراد من الآية . قال : وقيل : كلاهما للمؤمن والكافر . يرويه عطية عن ابن عباس . وقال

(١) الكلبي هو « العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب المفسر ، وكان رأساً في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث » ، – سير أعلام النبلاء (٦ / ٢٤٨) .

عطاء : الأبكم أبيُّ بن خَلف ، ومن يأمر بالعدل : حمزة وعثمان بن عفان ، وعثمان ابن مظعون .

قلت : والآية تحتمله ، ولا يناقض القولين قبله ، فإن الله على صراط مستقيم ، ورسوله وأتباع رسوله . وضد ذلك معبود الكفار وهاديهم ، والكافر التابع والمتبوع والمعبود . فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع . وبعضهم ذكر الهادي ، وبعضهم ذكر المستجيب القابل . وتكون الآية : متناولة لذلك كله ولذلك نظائر كثيرة في القرآن .

وأما آية هود : فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحداً . وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم . وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم . فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) [الأنعام : ١١٥] وأفعاله كلها مصالح وحكم ، ورحمة وعدل وخير . فالشر لايدخل في أفعاله ولا أقواله البتة ، لخروج الشر عن الصراط المستقيم . فكيف يدخل في أفعال من هو على الصراط المستقيم أو أقواله ؟ وإنما يدخل في أفعال من خرج عنه وفي أقواله .

وفي دعائه عليه الصلاة والسلام : « لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك »[(١)] ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله : والشر لا يُتقرب به إليك ،أو لا يصعد إليك . فإن المعنى أجل من ذلك ، وأكبر وأعظم قدرا . فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى ، وأوصافه كلها كمال ، وأفعاله كلها حكم ، وأقواله كلها صدق وعدل : يستحيل دخول الشر في أسمائه أو أوصافه ، أو أفعاله أو أقواله . فطابق بين هذا المعنى وبين قوله : (إن ربي على صراط مستقيم) وتأمل

---

(١) رواه مسلم (٢ / ٤٢٧ ، ٤٢٨) في صلاة المسافرين باب : صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه بالليل .
والنسائي (٢ / ١٢٩ - ١٣١) في الافتتاح ، باب الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة .
وأبو داود (٢ / ٤٦٣) في الصلاة ، باب ، ما يستفتح به الصلاة من الدعاء .
والترمذي (٥ / ٤٥٣) الدعوات ، باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل .

كيف ذكر هذا عقيب قوله : (إني توكلت على الله ربي وربكم) [هود : ٥٦] أي هو ربي ، فلا يُسلمني ولا يضيعني ، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ ولا يمنعكم مني . فإن نواصيكم بيده ، لاتفعلون شيئاً بدون مشيئته . فإن ناصية كل دابة بيده ، لايمكنها أن تتحرك إلا بإذنه . فهو المتصرف فيها . ومع هذا ، فهو في تصرفه فيها وتحريكه لها ، ونفوذ قضائه وقدره فيها : على صراط مستقيم ، لايفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة ، ولو سلطكم عليَّ فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه . لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم ، لايظلم ولايفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة . فهكذا تكون المعرفة بالله ، لا معرفة القدرية المجوسية ، والقدرية الجبرية ، نفاة الحكم والمصالح والتعليل . والله الموفق سبحانه .

فصـــل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه ، مريداً لسلوك طريقٍ مرافقهُ فيها غاية العزة . والنفوس مجبولة على وحشة التفرق ، وعلى الأنس بالرفيق ، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق ، وأنهم هم الذين : (أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) [النساء : ٦٩] فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له . وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبني جنسه ، وليعلم أن رفيقه في هذا الصراط هم الذين أنعم الله عليهم . فلا يكترث بمخالفة الناكبين عنه له . فإنهم هم الأقلُّون قدرا ، وإن كانوا الأكثرين عددا ، كما قال بعض السلف : عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين. وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين . وكلما استوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق . واحرص على اللحاق بهم . وغض الطرف عمن سواهم . فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا . وإذا صاحوا بك في طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم . فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك . وقد ضربت لذلك مثلين . فليكونا منك على بال :

المثل الأول : رجل خرج من بيته إلى الصلاة ، لايريد غيرها . فعرض له في طريقه شيطان من شياطين الإنس ، فألقى عليه كلاماً يؤذيه فوقف ورد عليه وتماسكا فربما كان شيطان الإنس أقوى منه ، فقهره ، ومنعه عن الوصول إلى المسجد ، حتى فاتته الصلاة . وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول ، وكمال إدراك الجماعة . فإن التفت إليه أطمعه في نفسه . وربما فترت عزيمته . فإن كان له معرفة وعلم زاد في السعي والجَمْز[1] بقدر التفاته أو أكثر ، فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده ، وخاف فوت الصلاة أو الوقت : لم يبلغ عدوه منه ما شاء .

المثل الثاني : الظبي أشد سعياً من الكلب ، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه ، فيدركه الكلب فيأخذه .

والقصد : أن في ذكر هذا الرفيق : ما يزيل وحشة التفرد ، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم .

وهذه إحدى الفوائد في دعاء القنوت : « اللهم اهدني فيمن هديت »[2] أي أدخلني في هذه الزمرة ، واجعلني رفيقاً لهم ومعهم .

والفائدة الثانية : أنه توسل إلى الله بنعمه وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية أي قد أنعمت بالهداية على من هديت ، وكان ذلك نعمة منك ، فاجعل لي نصيباً من هذه النعمة ، واجعلني واحداً من هؤلاء المنعم عليهم . فهو توسل إلى الله بإحسانه .

---

(١) الجمز : ضرب من السير أشد من العنق . (مختار الصحاح) . يقصد شدة السير .

(٢) حديث حسن .
رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١ / ١٩٩) .
ورواه الترمذي (٢ / ٣٢٨) بالصلاة باب : ما جاء في القنوت في الوتر .
وقال : « حديث حسن » .
وأبو داود (٤ / ٣٠٠) في قيام الليل ، باب القنوت في الوتر .
والنسائي (٣ / ٢٤٨) في قيام الليل ، باب الدعاء في الوتر .

والفائدة الثالثة : كما يقول السائل للكريم : تصدق عليّ في جملة من تصدقت عليهم ، وعلمني في جملة من علمته . وأحسن إليّ في جملة من شملته بإحسانك .

فصـــل

ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلَّ المطالب ونيلُه أشرفَ المواهب : علَّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه ، وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم ، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم : توسل إليه بأسمائه وصفاته . وتوسل إليه بعبوديته . وهاتان الوسيلتان لايكاد يرد معهما الدعاء . ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان في حديثي الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان في صحيحه ، والإمام أحمد والترمذي .

أحدهما : حديث عبد الله بن بُريـدة عن أبيه قال : « سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[١] قال الترمذي : حديث صحيح .

فهذا توسل إلى الله بتوحيده ، وشهادة الداعي له بالوحدانية . وثبوت صفاته المدلول عليها باسم « الصمد » وهو كما قال ابن عباس « العالم الذي كمل علمه ، القادر الذي كملت قدرته » وفي رواية عنه « هو السيد الذي قد كمل

---

(١) رواه الترمذي (٥ / ٤٨١) في الدعوات ، باب جامع الدعوات وقال : حسن غريب .
وأبو داود (٤ / ٣٦٢) في قيام الليل ، باب الدعاء وهو حديث صحيح .
ورواه الإمام أحمد (٥ / ٣٤٩) .
وابن حبان في صحيحه (٢ / ١٢٥) .
والحاكم (١ / ٥٠٤) على شرط مسلم .

فيه جميع أنواع السؤدد » وقال أبو وائل « هو السيد الذي انتهى سؤدده » .

وقال سعيد بن جبير « هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وأعماله » وبنفي التمثيل والتشبيه عنه بقوله « ولم يكن له كفواً أحد » وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة والتوسل بالإيمان بذلك ، والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثاني : حديث أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنّان ، بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم . فقال : لقد سأل الله باسمه الأعظم »[1] فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته .

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما التوسل بالحمد والثناء عليه ، وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده . ثم جاء سؤال أهم المطالب ، وأنجح الرغائب ، وهو الهداية ، بعد الوسيلتين . فالداعي به حقيق بالإجابة .

ونظير هذا : دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يدعو به إذا قام يصلي من الليل . رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت. وإليك أنبت. وبك خاصمت، وإليك حاكمت . فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي لا إله إلا أنت »[2] فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه وبعبوديته له . ثم سأله المغفرة .

---

(١) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ١٥٩) .
والترمذي (٥ / ٥١٤) في الدعوات ، باب : رقم (١٠٩) .
وأبو داود (٤ / ٣٦٣) في الصلاة باب : الدعاء .
والنسائي (٣ / ٥٢) في السهو ، باب : الدعاء بعد الذكر .
وهو صحيح والله أعلم .

(٢) صحيح البخاري (٣ / ٥) فتح الباري ، في التهجد باب : التهجد بالليل .

فصـــل

في اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

التوحيد نوعان : نوع في العلم والاعتقاد . ونوع في الإرادة والقصد . ويسمى الأول : التوحيد العلمي . والثاني : التوحيد القصدي الإرادي . لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة . والثاني بالقصد والإرادة . وهذا الثاني أيضاً نوعان : توحيد في الربوبية ، وتوحيد في الألوهية . فهذه ثلاثة أنواع .

فأما توحيد العلم : فمداره على إثبات صفات الكمال ، وعلى نفي التشبيه والمثال . والتنزيه عن العيوب والنقائص . وقد دل على هذا شيئان : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل : فإثبات الحمد له سبحانه . وأما المفصل : فذكر صفة الألوهية والربوبية ، والرحمة والملك . وعلى هذه الأربع مدار الأسماء والصفات . فأما تضمن الحمد لذلك : فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضا عنه والخضوع له ، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود ، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له . وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل ، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها . ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه ، لكمال صفاته وكثرتها . ولأجل هذا لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه ، لما له من صفات الكمال ، ونعوت الجلال التي لا يحصيها سواه . ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار ، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها . فعابها بأنها لاتسمع ولا تبصر ، ولا تتكلم ولا تهدي ، ولا تنفع ولا تضر . وهذه صفة إله الجهمية ، التي عاب بها الأصنام ،

= ومسلم (٢ / ٤٢٤) في صلاة المسافرين ، باب صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه بالليل ورواه غيرهما .

نسبوها إليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا . فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام في محاجَّته لأبيه : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا) [مريم : ٤٢] . فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر : وأنت إلهك بهذه المثابة ، فكيف تنكر عليّ ؟ لكن كان مع شركه أعرف بالله من الجهمية . وكذلك كفار قريش كانوا مع شركهم مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه ، وقال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عجلا جسداً له خُوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) [الأعراف : ١٤٨] . فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن في هذا إنكار عليهم ، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك .

فإن قيل : فالله تعالى لا يكلم عباده .

قيل : بلى ، قد كلمهم ، فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب ، منه إليه بلا واسطة ، كموسى . ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكي ؛ وهم الأنبياء وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذي بلغته رسله عنه . وقالوا لهم : هذا كلام الله الذي تكلم به وأمرنا بتبليغه إليكم . ومن ههنا قال السلف : من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلهم . لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذي تكلم به إلى عباده ، فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة وقال تعالى في سورة طه عن السامري : (فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا) [طه : ٨٨] . ورَجْع القول : هو التكلم والتكليم . وقال تعالى : (ضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) [النحل : ٧٦] فجعل نفي صفات الكلام موجبًا لبطلان الألوهية. وهذا أمر معقول بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية : أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهاً ، ولا مدبراً ، ولا ربًّا ، بل هو مذموم معيب ناقص ، ليس له الحمد ، لا في الأولى ، ولا في الآخرة . وإنما الحمد في الأولى والآخرة لمن له صفات

الكمال ، ونعوت الجلال ، التي لأجلها استحق الحمد . ولهذا سمى السلف كتبهم التي صنفوها في السنة وإثبات صفات الرب وعلوه على خلقه ، وكلامه وتكليمه : توحيداً . لأن نفي ذلك وإنكاره والكفر به إنكار للصانع ، وجحد له ، وإنما توحيده : إثبات صفات كماله ، وتنزيهه عن الشبيه والنقائص . فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها توحيداً، وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيبا. فسموا الباطل باسم الحق، ترغيباً فيه، وزخرفاً يُنفّقونه به. وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه، والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة ، ليس لهم نقد النقاد : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشدا) [الكهف : ١٧] . والمحمود لا يحمد على العدم والسكوت البتة ، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية ، وإلا فالسلب المحض لا حمد فيه ، ولا مدح ولا كمال .

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه ، وتعبد كل شيء له ، فاتخاذ الولد ينافي ذلك ، كما قال تعالى : (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض) [يونس : ٦٨].

وحمد نفسه على عدم الشريك ، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية ، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره ، فيكون شريكا له . فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه . لأن الموجود أكمل من المعدوم . ولهذا لا يحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذ كان متضمناً ثبوت كمال . كما حمد نفسه بكونه لا يموت لتضمنه كمال حياته ، وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سنة ولا نوم ، لتضمن ذلك قيوميته ، وحمد نفسه بأنه لا يعزُب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لكمال علمه وإحاطته . وحمد نفسه بأنه لا يظلم أحداً ، لكمال عدله وإحسانه . وحمد نفسه بأنه لا تدركه الأبصار ، لكمال عظمته ، يرى ولا يدرك ، كما أنه يُعلم ولا يحاط به علما . وإلا فمجرد نفي الرؤية ليس بكمال . لأن العدم لا يرى ، فليس في كون الشيء لا يرى كمال البتة . وإنما الكمال في كونه لا يحاط به رؤية ولا إدراكا ، لعظمته في نفسه

وتعاليه عن إدراك المخلوق له . وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان ، لكمال علمه .

فكل سلب في القرآن حمد به نفسه فلمضادته لثبوت ضده ، ولتضمنه كمال ثبوت ضده . فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الكمال ، وأن نفيها نفي لحمده ، ونفي الحمد مستلزم لثبوت ضده .

فصـــل

فهذا دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات .

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها ، وهي : الله ، والرب ، والرحمن ، والرحيم ، والملك : فمبني على أصلين :

أحدهما : أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله . فهي مشتقة من الصفات . فهي أسماء وهي أوصاف . وبذلك كانت حُسْنَى ، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى ، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان ، وبالعكس ، فيقال : اللهم إني ظلمت نفسي ، فاغفر لي أنك أنت المنتقم . واللهم أعطني ، فإنك أنت الضار المانع ، ونحو ذلك . ونفي معاني أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها قال تعالى : (وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) [الأعراف : ١٧٠] . ولأنها لو لم تدل على معانٍ وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها ، لكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها ، وأثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله، كقوله تعالى: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [الذاريات : ٥٨] فعلم أن القويَّ من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة وكذلك قوله : (فلله العزة جميعاً) [فاطر : ١٠] . فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا عزيزاً . وكذلك قوله : (أنزله بعلمه) [النساء : ١٦٦] . (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) [هود : ١٤] (ولا يحيطون بشيء من علمه) [البقرة : ٢٥٥] . وفي

الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[١] فأثبت المصدر الذي اشتق منه اسمه « البصير » وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[٢] وفي الصحيح حديث الاستخارة : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك »[٣] فهو قادر بقدرة . وقال تعالى لموسى : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف : ١٤٤] . فهو متكلم بكلام . وهو العظيم الذي له العظمة ، كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي » وهو الحكيم الذي له الحكم : (فالحكم لله العلي الكبير) [غافر : ١٢] . وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله أو سمعه أو بصره أو قوته أو عزته أو عظمته انعقدت يمينه ، وكانت مكفرة . لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه .

وأيضاً لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها . فلا يقال : يسمع ويرى ويعلم ويقدر ويريد ، فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها ، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها .

وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة ، التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به . فكانت كلها سواء ، ولم

---

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٧٩) ، باب في قوله عليه السلام إن الله لا ينام .

(٢) رواه البخاري معلقاً (١٣ / ٣٨٤) كتاب التوحيد باب (و كان الله سميعا بصيراً) .
ورواه ابن ماجه (١ / ٦٧) في المقدمة باب : فيما أنكرت الجهمية .
و (١ / ٦٦٦) في الطلاق ، باب : الظهار .
والنسائي (٦ / ١٦٧) في الطلاق باب الظهار .

(٣) رواه البخاري في مواضع منها (١١ / ١٨٧) في الدعوات باب : الدعاء عند الاستخارة .
والترمذي (٢ / ٣٤٥) في الصلاة ، ما جاء في صلاة الاستخارة .
والنسائي (٦ / ٨٠ و ٨١) في النكاح ، باب كيف الاستخارة .

يكن فرق بين مدلولاتها . وهذا مكابرة صريحة ، وبَهْت بَيِّن . فإن من جعل معنى اسم « القدير » هو معنى اسم « السميع ، البصير » ومعنى اسم « التواب » هو معنى اسم « المنتقم » ومعنى اسم « المعطي » هو معنى اسم « المانع » فقد كابر العقل واللغة والفطرة .

فنفي معاني أسمائه من أعظم الإلحاد فيها . والإلحاد فيها أنواع : هذا أحدها .

الثاني : تسمية الأوثان بها كما يسمونها آلهة . وقال ابن عباس ومجاهد « عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه ، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا . فاشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان » وروي عن ابن عباس (يلحدون في أسمائه) [الأعراف : ١٨٠] . « يكذبون عليه » وهذا تفسير بالمعنى . وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها . هذا حقيقة الإلحاد . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب ، أو هو غاية الملحد في أسمائه تعالى ، فإنه إذا أدخل في معانيها ما ليس منها ، وخرج بها عن حقائقها أو بعضها ، فقد عدل بها عن الصواب والحق ، وهو حقيقة الإلحاد . فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها . وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة ، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات ، كإلحاد أهل الاتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها ، حتى قال زعيمهم : وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلا وشرعاً وعرفا ، وبكل اسم مذموم عقلا وشرعاً وعرفاً . تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

فصـــل

الأصل الثاني : أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التي اشتق منها بالمطابقة ، فإنه يدل دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم .

فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة . ويدل على الصفة الأخرى باللزوم . فإن اسم « السميع » يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها ، وعلى السمع وحده بالتضمن . ويدل على اسم الحي وصفة الحياة بالالتزام . وكذلك سائر أسمائه وصفاته . ولكن يتفاوت الناس في معرفة اللزوم وعدمه . ومن ههنا يقع اختلافهم في كثير من الأسماء والصفات والأحكام . فإن من علم أن الفعل الاختياري لازم للحياة ، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة – أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ما ينكره من لم يعرف لزوم ذلك ، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها ، وكذلك سائر صفاته . فإن اسم « العظيم » له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها . وكذلك اسم « العلي » واسم « الحكيم » وسائر أسمائه . فإن من لوازم اسم « العلي » العلو المطلق ، بكل اعتبار . فله العلو المطلق من جميع الوجوه : علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات . فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه « العلي » .

وكذلك اسمه « الظاهر » من لوازمه : ألا يكون فوقه شيء ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء » بل هو سبحانه فوق كل شيء ، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه « الظاهر » ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط ، كما يقال : الذهب فوق الفضة ، والجوهر فوق الزجاج . لأن هذه الفوقية لا تتعلق بالظهور ، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها . ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط ، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة ، لمقابلة الاسم بـ« الباطن » . وهو الذي ليس دونه شيء ، كما قابل « الأول » الذي ليس قبله شيء ، بـ« الآخر » الذي ليس بعده شيء .

وكذلك اسم « الحكيم » من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ، ووضعه الأشياء في مواضعها ، وإيقاعها على أحسن الوجوه . فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه . وكذلك سائر أسمائه الحسنى .

فصـــل

إذا تقرر هذان الأصلان : فاسم « الله » دال على جميع الأسماء الحسنى ، والصفات العليا بالدلالات الثلاث ، فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له ، مع نفي أضدادها عنه .

وصفات الإلهية : هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال ، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم ، كقوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى) [الأعراف : ١٨٠] . ويقال : الرحمن والرحيم ، والقدوس والسلام ، والعزيز والحكيم : من أسماء الله . ولا يقال : الله ، من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ، ونحو ذلك .

فعلم أن اسمه « الله » مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى ، دال عليها بالإجمال . والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الألوهية التي اشتق منها اسم « الله » واسم « الله » دال على كونه مألوهًا معبودا ، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعاً ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته ، المتضمنين لكمال الملك . والحمد وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ، ولا قادر ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم في أفعاله .

فصفات الجلال والجمال أخص باسم « الله » .

وصفات الفعل والقدرة ، والتفرد بالضر والنفع ، والعطاء والمنع ، ونفوذ المشيئة وكمال القوة ، وتدبير أمر الخليقة أخص باسم « الرب » .

وصفات الإحسان والجود والبر ، والحنان والمنة والرأفة واللطف ، أخص باسم « الرحمن » وكرر إيذاناً بثبوت الوصف ، وحصول أثره ، وتعلقه بمتعلقاته .

فالرحمن : الذي الرحمة وصفه . والرحيم : الراحم لعباده . ولهذا يقول

تعالى : (وكان بالمؤمنين رحيما) [الأحزاب : ٤٣] . (إنه بهم رءوف رحيم) [التوبة : ١١٧] . ولم يجيء رحمن بعباده ، ولا رحمن بالمؤمنين ، مع ما في اسم « الرحمن » الذي هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به .

ألا ترى أنهم يقولون : غضبان للممتلىء غضبا ، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك ؟ فبناء فعلان للسعة والشمول . ولهذا يقرن استواؤه على العرش بهذا الاسم كثيرا كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) [طه : ٥] . (ثم استوى على العرش الرحمن) [الفرقان : ٥٩] . فاستوى على عرشه باسم الرحمن ، لأن العرش محيط بالمخلوقات ، قد وسعها . والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالى : (ورحمتي وسعت كل شيء) [الأعراف : ١٥٦] . فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات . فلذلك وسعت رحمته كل شيء . وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب ، فهو عنده موضوع على العرش : إن رحمتي تغلب غضبي » وفي لفظ « فهو وضع عنده على العرش » .

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ، ووضعه عنده على العرش ، وطابق بين ذلك وبين قوله : (الرحمن على العرش استوى) وقوله : (ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) [الفرقان : ١٥٦] . ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم .

وصفات العدل ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، والعطاء والمنع ، والإعزاز والإذلال ، والقهر والحكم ، ونحوها : أخص باسم « الملك » وخصه بيوم الدين ، وهو الجزاء بالعدل ، لتفرده بالحكم فيه وحده ، ولأنه اليوم الحق ، وما قبله كساعة ، ولأنه الغاية ، وأيام الدنيا مراحل إليه .

فصـــل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة ، وهي « الله ، الرب ، والرحمن » كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم ؟ فلها الجمع والفرق .

فاسم « الرب » له الجمع الجامع لجميع المخلوقات ، فهو رب كل شيء وخالقه ، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته . وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته ، وتحت قهره . فاجتمعوا بصفة الربوبية ، وافترقوا بصفة الإلهية ، فألَّهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل ، والرجاء ، والخوف ، والحب والإنابة والإخبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له .

وههنا افترق الناس وصاروا فريقين : فريقا مشركين في السعير ، وفريقاً موحدين في الجنة .

فالإلهية هي التي فرقتهم ، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم .

فالدين والشرع والأمر والنهي ، مظهره وقيامه : من صفة الألوهية ، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل : من صفة الربوبية . والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار : من صفة الملك . وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بألوهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته . وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى .

وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده . فالتأليه منهم له ، والربوبية منه لهم . والرحمة سبب واصل بينه وبين عباده ، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه ، وبها هداهم ، وبها أسكنهم دار ثوابه ، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم . فبينهم وبينه سبب العبودية ، وبينه وبينهم سبب الرحمة .

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته ، فـ (الرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله : (رب العالمين . الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها ، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته ، مع أن في كونه رباً للعالمين ما يدل على علوه على خلقه ، وكونه فوق كل شيء ، كما يأتي بيانه إن شاء الله .

فصـــل

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد ، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها : ما يدل على أنه محمود في ألوهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه ، وأنه إله محمود ، رب محمود ، ورحمن محمود ، وملك محمود . فله بذلك جميع أقسام الكمال : كمال من هذا الاسم بمفرده ، وكمال من الآخر بمفرده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

مثال ذلك : قوله تعالى : (والله غني حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال . والحمد صفة كمال ، واقتران غناه بحمده كمال أيضاً ، وعلمه كمال ، وحكمته كمال ، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً . وقدرته كمال . ومغفرته كمال ، واقتران القدرة بالمغفرة كمال ، وكذلك العفو بعد القدرة : (إن الله كان عفواً قديراً) [النساء : ١٤] . واقتران العلم بالحلم : (والله عليم حليم) [النساء : ١١] .

وحملة العرش أربعة : اثنان يقولان : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك » واثنان يقولان : « سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » فما كل من قدر عفا ، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة ، ولا كل من علم يكون حليما ، ولا كل حليم عالم . فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم . ومن عفو إلى قدرة ، ومن ملك إلى حمد ، ومن عزة إلى رحمة : (وإن ربك لهو العزيز الرحيم) [الشعراء : ٩] . ومن ههنا

كان قول المسيح عليه السلام : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) [المائدة : ١٢١] . أحسن من أن يقول : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . أى إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة . وهي كمال القدرة ، وعن حكمة ، وهي كمال العلم . فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني [لا يكون قادراً حكيماً][1] .

فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة وعلم تام وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع ، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت . فإنه لو قال : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم ؛ كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لايستحقها ما نزه عنه منصب المسيح عليه السلام ، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال ، وموقف انتقام ممن جعل لله ولدا ، أو اتخذ إلهاً من دونه . فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة . وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام : (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم) [إبراهيم : ٣٥:٣٦] . ولم يقل : فإنك عزيز حكيم ، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء ، أي إن تغفر له وترحمه ، بأن توفقه للرجوع من الشرك إلى التوحيد ، ومن المعصية إلى الطاعة كما في الحديث : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون »[2] .

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به ، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه ، واقترن به ، من فعله وأمره ، والله الموفق للصواب .

---

(١) [زيادة لازمة لتمام المعنى] .

(٢) رواه البخاري (١٢ / ٢٩٤) في استتابة المرتدين ، باب إذا عرّض الذمي .
ومسلم (٤ / ٤٣١) في الجهاد ، باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصـــل

في مراتب الهداية الخاصة والعامة . وهي عشر مراتب

المرتبة الأولى : مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة ، بل منه إليه . وهذه أعلى مراتبها ، كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه . قال الله تعالى : (وكلم الله موسى تكليما) [النساء : ١٦٣] . فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه . وهذا يدل على أن التكليم الذي حصل له أخص من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية . ثم أكده بالمصدر الحقيقي الذي هو مصدر « كلم » وهو « التكليم » رفعاً لما توهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام ، أو إشارة ، أو تعريف للمعنى النفسي بشيء غير التكليم . فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز . قال الفراء : العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل . ولكن لا تحققه بالمصدر ، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام ، كالإرادة . يقال : فلان أراد إرادة ، يريدون حقيقة الإرادة . ويقال : أراد الجدار ، ولا يقال : إرادة . لأنه مجاز غير حقيقة . هذا كلامه . وقال تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك) [الأعراف : ١٤٢] . وهذا التكليم غير التكليم الأول الذي أرسله به إلى فرعونه . وفي هذا التكليم الثاني سأل النظر ، لا في الأول ، وفيه أعطي الألواح ، وكان عن مواعدة من الله له . والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة . وفيه قال الله له : (ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) [الأعراف : ١٤٣] . أي بتكلمي لك بإجماع السلف .

وقد أخبر سبحانه في كتابه أنه ناداه وناجاه . فالنداء من بُعد والنجاء من قرب . تقول العرب : إذا كبرت الحلقة فهو ندا ، أو نجاء وقال له أبوه آدم في محاجته : « أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده ؟ » .

وكذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه . وكذلك في حديث الإسراء في رؤية موسى في السماء السادسة أو السابعة ، على اختلاف الرواية . قال : « وذلك بتفضيله بكلام الله » ولو كان التكليم الذي حصل له من جنس ما حصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به في هذه الأحاديث معنى . ولا كان يسمى « كليم الرحمن » وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء)[الشورى : ٥١]. ففرق بين تكليم الوحي ، والتكليم بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب .

فصـــل

المرتبة الثانية : مرتبة الوحي المختص بالأنبياء . قال الله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) [النساء : ١٢٦] وقال : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب) الآية [الشورى : ٥١] . فجعل الوحي في هذه الآية قسما من أقسام التكليم ، وجعله في آية النساء قسيماً للتكليم ، وذلك باعتبارين : فإنه قسيم التكليم الخاص الذي بلا واسطة ، وقسم من التكليم العام الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة ، والوحي في اللغة : هو الإعلام السريع الخفي ، ويقال في فعله : وَحَى ، وأوحى . قال رؤبة :

وحى لها القرار فاستقرت

وهو أقسام ، كما سنذكره .

فصـــل

المرتبة الثالثة : إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشرى . فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه .

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء ، لاتكون لغيرهم ، ثم هذا الرسول

الملكي قد يتمثل للرسول البشري رجلا ، يراه عياناً ويخاطبه ، وقد يراه على صورته التي خلق عليها ، وقد يدخل فيه الملك ، ويوحى إليه ما يوحيه ، ثم يَفِصم عنه ، أي يقلع . والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم .

فصـــل

المرتبة الرابعة : مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص ، وتكون دون مرتبة الصديقين ، كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه كان في الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن في هذه الأمة فعمر بن الخطاب »[(١)] .

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا ، وعلق وجودهم في هذه الأمة بإن الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها .

والمحدَّث هو الذي يحدَّث في سره وقلبه بالشيء ، فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا : والصديق أكمل من المحدث ، لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف ، فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه .

قال : وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول فإن وافقه قبله ، وإلا رده ، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : حدثني قلبي

(١) رواه البخاري (٧ / ٥٢) في فضائل الصحابة ، باب فضل عمر بن الخطاب رضي الله عنه . ومسلم (٥ / ٢٥٩) في فضائل الصحابة ، باب فضل عمر بن الخطاب .

عن ربي : فصحيح أن قلبه حدثه ، ولكن عن من ؟ عن شيطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال : حدثني قلبي عن ربي كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب ، قال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوَّه به يوماً من الدهر ، وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك . بل كتب كاتبه يوماً « هذا ما أرى الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب . فقال : لا . امحه واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب . فإن كان صواباً فمن الله ، وإن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه بريء » وقال في الكلالة « أقول فيها برأيي . فإن يكن صواباً ، فمن الله . وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان » فهذا قول المحدث بشهادة الرسول وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح ، والسماعي : مجاهر بالقِحَة والفرية . يقول : حدثني قلبي عن ربي ، فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذي حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحدا .

فصــل

المرتبة الخامسة : مرتبة الإفهام . قال الله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما) [الأنبياء : ٧٨-٧٩]. فذكر هذين النبيين الكريمين: فأثنى عليهما بالعلم والحكم . وخص سليمان بالفهم في هذه الواقعة المعينة ، وقال علي بن أبي طالب ، وقد سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء[١] دون الناس ؟ فقال : لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النَّسَمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ، وما في هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (١ / ٢٤٦) كتاب العلم ، باب : كتابة العلم .
والترمذي (٤ / ١٧) في الديات ، باب : ما جاء ولا يقتل مسلم بكافر .
وابن ماجه (٢ / ٨٨٧) كذلك .

وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر » وفي كتاب[1] عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما « والفهم فيما أدلي إليك » فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله في قلبه . يعرف به ، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره ، مع استوائهما في حفظه . وفهم أصل معناه .

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبوية ، وفيه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عُدَّ ألف بواحد ، فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[2] وما خص به ابن عباس من فهمه منها : أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه ، وإعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفاؤه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا ، وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص ؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلى غيره . ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه ، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

فصـــل

المرتبة السادسة : مرتبة البيان العام . وهو تبيين الحق ، وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه . بحيث يصير مشهوداً للقلب ، كشهود العين للمرئيات وهذه المرتبة هي حجة الله على خلقه ، التي لا يعذب أحداً ولا يضله ، إلا بعد وصوله إليها . قال الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى : « هذا كتاب جليل ، تلقاه العلماء بالقبول ، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة ، والحاكم والمفتي أحوج شيء إليه وإلى تأمله والتفقه فيه » .
وقد بسط شرحه الإمام ابن القيم في كتابه (إعلام الموقعين) (١ / ٨٥) إلى (٢ / ١٨٣) . رحمه الله تعالى .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٨ / ٦٠٦) في التفسير باب : (فسبح بحمد ربك ...) .

يبين لهم ما يتقون) [التوبة : ١١٥] . فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم ، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان .

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات في هذا الباب وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده ، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع ، كقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) [الصف : ٥] . (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم) [النساء : ١٥٥] . فالأول : كفر عناد ، **والثاني** : كفر طبع ، وقوله : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) [الأنعام : ١١٠] . فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ؛ بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل فإنه موضع عظيم . وقال تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) [فصلت : ١٧] . فهذا هدى بعد البيان والدلالة وهو شرط لا موجب . فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده ، لم يحصل به كمال الاهتداء وهو : هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، وبيان بالآيات المشهودة المرئية ، وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصدق ما أخبرت به عنه ، ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر في آياته المشهودة عليهم ، ويحضهم على التفكر في هذه وهذه . وهذا البيان هو الذي بعثت به الرسل وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء . قال الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم) [إبراهيم : ٤] . فالرسل تبين والله هو الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء بعزته وحكمته .

فصـــل

المرتبة السابعة : البيان الخاص ، وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية البتة . قال تعالى في هذه المرتبة : (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل) [النحل : ٣٧] . وقال : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [القصص : ٥٦] . فالبيان الأول شرط ، وهذا موجب.

فصـــل

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع . قال الله تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسْمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [الأنفال : ٢٣]. قال تعالى : (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير) [فاطر : ١٩-٢٣] . وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم ، لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى ،وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود ، والمراد الذي هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله :(ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) [الأنبياء : ٢،٣] . وهذا السماع لايفيد السامع إلا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها ، وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه : (ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) [محمد : ١٦] .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام : أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن . ومرتبة الإفهام أعم ، فهي أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه ، ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر ، وهي أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته ، ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول .

فهو إذن ثلاث مراتب : سماع الأذن ، وسماع القلب ، وسماع القبول والإجابة .

فصـــل

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام . قال تعالى : ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : ٧:٨] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن الخزاعي لما أسلم : « قل : اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي »[١]

وقد جعل صاحب[٢] المنازل الإلهام هو مقام المحدثين . قال : وهو فوق مقام الفراسة لأن الفراسة ربما وقعت نادرة واستصعبت على صاحبها وقتاً أو استعصت عليه ، والإلهام لايكون إلا في مقام عتيد .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله (٤ / ٤٤٤) .
والنسائي في اليوم والليلة : «كما في الأطراف للمزي» (٣ /٦٨) وصححه الحافظ ابن حجر كما في « الإصابة » (٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٨) .

(٢) هو : الإمام القدوة شيخ الإسلام ، الحافظ الكبير ، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد ابن أحمد .. الأنصاري كان مولده في سنة ست وتسعين وثلاثمائة وتوفي في (٤٨١) ترجم له الإمام الذهبي رحمه الله ترجمة حسنة بديعة أنصف فيها الحق .
وكتابه « منازل السائرين » هو الذي شرحه ابن القيم في « مدارج السالكين » وقد أساء محققه كثيرا لشيخ الإسلام الهروي فقارن بين كلامه وتجريحه وبين نقد الذهبي له نقداً علمياً صحيحاً . والله أعلم .
سير أعلام النبلاء (١٨ / ٥٠٣) .
طبقات الحنابلة (١ / ٥٠) .
العبر (٣ / ٢٩٨) .

قلت : التحديث أخص من الإلهام : فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذي حصل له به الإيمان ، فأما التحديث : فالنبي صلى الله عليه وسلم قال فيه « إن يكن في هذه الأمة أحد فعمر »[١] يعني من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحي إلى غير الأنبياء إما من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ [القصص : ٧] . وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي ﴾ [المائدة : ١١١] . وإما من غير المكلفين كقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النَّحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ [النحل : ٦٩] فهذا كله وحي إلهام .

وأما جعله فوق مقام الفراسة فقد احتج عليه بأن الفراسة : ربما وقعت نادرة كما تقدم . والنادر لا حكم له . وربما استصعب على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه ، والإلهام لايكون إلا في مقام عتيد ، يعني في مقام القرب والحضور .

والتحقيق في هذا : أن كل واحد من الفراسة والإلهام ينقسم إلى عام وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً ، ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل ، وأما الإلهام فموهبة مجردة ، لا تنال بكسب البتة .

فصل

المرتبة العاشرة : من مراتب الهداية . الرؤيا الصادقة : وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[٢] .

---

(١) سبق ص (١٤٦) .

(٢) رواه البخاري (١٢ / ٣٩٠) في التعبير ، باب الرؤيا الصالحة .

وقد قيل في سبب هذا سبب التخصيص المذكور : إن أول مبتدأ الوحي كان هو الرؤيا الصادقة ، وذلك نصف سنة . ثم انتقل إلى وحي اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بعث إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه ، فنسبة مدة الوحي في المنام من ذلك جزء من ستة وأربعين جزءاً . وهذا حسن لولا ما جاء في الرواية الأخرى الصحيحة « أنها جزء من سبعين جزءاً »[١] .

والرؤيا : مبدأ الوحي . وصدقها بحسب صدق الرائي . وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها . فيتعوض المؤمنون بالرؤيا وأما في زمن قوة نور النبوة : ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا .

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم . واحتياج مَنْ بعدهم إليها لضعف إيمانهم . وقد نص أحمد على هذا المعنى . وقال عبادة بن الصامت : « رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قيل : وما المبشرات يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو ترى له »[٣] وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أُروا ليلة القدر في العشر الأواخر قال « أرى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١٢٢/٥) في الرؤيا ، أوله .
ومسلم في صحيحه (٥ / ١٢١) في الرؤيا ، أوله .
وأبو داود (١١ / ٣٦٠) .

(٢) رواه البخاري (١٢ / ٤٢٢) في التعبير ، باب القيد في المنام .
الترمذي (٣ / ٤٦١) في الرؤيا ، باب « أن رؤية المؤمن جزء من ستة وأربعين ... » .
وأبو داود (١١ / ٣٦١) في الأدب ، باب في الرؤيا .

(٣) البخاري (١٢ / ٣٩١) في التعبير ، باب المبشرات .
والموطأ (٢ / ٩٥٧) في الرؤيا باب : ما جاء في الرؤيا .
والترمذي (٤ / ٤٦٢) في الرؤيا ، باب ذهبت النبوة .... .
وأبو داود (١١ / ٣٥٩) في الأدب ، باب الرؤيا .

رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر . فمن كان منكم متحريها فليتحرها في العشر الأواخر من رمضان »[(١)] .

والرؤيا كالكشف ، منها رحماني ومنها نفساني ومنها شيطاني ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله ورؤيا تحزين من الشيطان ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه في اليقظة فيراه في المنام »[(٢)]

والذي هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التي من الله خاصة ورؤيا الأنبياء وحي . فإنها معصومة من الشيطان . وهذا باتفاق الأمة ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتعرض على الوحي الصريح فإن وافقته وإلا لم يعمل بها . فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت .

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحي بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه، أو منبهة على اندراج قضية خاصة في حكمه ، لم يعرف الرائي اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك . ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهي .

ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة ويذكر الله حتى تغلبه عيناه . فإن رؤياه لاتكاد تكذب البتة . وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار فإنه وقت النزول الإلهي واقتراب الرحمة والمغفرة وسكون الشياطين ، وعكسه رؤيا العتمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية .

وقال عبادة بن الصامت رضي الله عنه « رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب

---

(١) رواه البخاري (٤ / ٣٠١) في فضل ليلة القدر ، باب التماس ليلة القدر في السبع الأواخر .
ومسلم (٣ / ٢٣٢ ، ٢٣٣) في الصوم ، باب فضل ليلة القدر .

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله (٢ / ٢٦٩ و ٣٩٥) .
مسلم (٥ / ١١٩) في الرؤيا .
والترمذي (٤ / ٤٦١) أول الرؤيا .

عبده في المنام » وللرؤيا ملك موكل بها يريها العبد في أمثال تناسبه وتشاكله . فيضربها لكل أحد بحسبه .

وقال مالك « الرؤيا من الوحي وحي » وزجر عن تفسيرها بلا علم . وقال « أتتلاعب بوحي الله ؟ » ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها يخرجنا ذكرها عن المقصود والله أعلم .

فصـــل

في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين

شفاء القلوب وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم وفساد القصد .

ويترتب عليها داءان قاتلان وهما الضلال والغضب فالضلال نتيجة فساد العلم ، والغضب ينتجه فساد القصد وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد وأوجبه عليه كل يوم وليلة في كل صلاة لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة ولايقوم غير هذا السؤال مقامه . والتحقق بـ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ علماً ومعرفة وعملاً وحالاً : يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل .

فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً ، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته ، من المشركين ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل ، فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم فإن عجزوا عن ذلك

دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق وحادوا عنه إلى طريق أخرى وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين ، لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به : (وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) [النور : ٤٨-٥٠] .

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم ، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها، واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا ، إذا حق الحق وبطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة . وهذا يظهر كثيراً في الدنيا ، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله ، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حققت الحقائق . وفاز المحقون وخسر المبطلون ، وعلموا أنهم كانوا كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين ، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه ، ويقين لا ينجي مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له وإليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهي من أعظم القواطع عنه . فحاله أيضا كحال هذا ، وكلاهما فاسد القصد ، ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء : عبودية الله لا غيره ، بأمره وشرعه ، لا بالهوى ، ولا بآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفكارهم . بالاستعانة على عبوديته به ، لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره .

فهذه هي أجزاء ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فإذا ركبها الطبيب اللطيف،

العالم بالمرض ، واستعملها المريض ، حصل بها الشفاء التام ، وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها أو اثنين أو أكثر .

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما تراميا به إلى التلف ولابد : وهما الرياء ، والكبر . فدواء الرياء بـ﴿ **إياك نعبد** ﴾ ودواء الكبر بـ﴿ **إياك نستعين** ﴾ .

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – يقول ﴿ **إياك نعبد** ﴾ تدفع الرياء ﴿ **وإياك نستعين** ﴾ تدفع الكبرياء .

فإذا عوفي من مرض الرياء بـ﴿ **إياك نعبد** ﴾ ومن مرض الكبر والعجب بـ ﴿ **إياك نستعين** ﴾ ومن مرض الضلال والجهل بـ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ عوفي من أمراضه وأسقامه ، ورفل في أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة ، وكان من المنعم عليهم ، غير المغضوب عليهم ، وهم أهل فساد القصد ، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه ، والضالين . وهم أهل فساد العلم ، الذين جهلوا الحق و لم يعرفوه .

وحق لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يستشفى بها من كل مرض ، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه . فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت الله وكلامه ، وفهمت عنه فهماً خاصاً ، اختصها به ، من معاني هذه السورة .

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق .

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ما جاءت به السنة وما شهدت به قواعد الطب ودلت عليه التجربة فأما ما دلت عليه السنة . ففي الصحيح من حديث أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري « أن ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مروا بحي من العرب فلم يقروهم و لم يضيفوهم فلدغ سيد الحي فأتوهم فقالوا : هل عندكم من رقية أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا :

نعم ولكنكم لم تقرونا فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جُعلاً فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب فقام كأن لم يكن به قلبة فقلنا : لا تعجلوا حتى نأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأتيناه فذكرنا له ذلك فقال ما يدريك أنها رقية كلوا واضربوا لي معكم بسهم »[١] فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه فأغنته عن الدواء وربما بلغت من شفائه ما لم يبلغه الدواء هنا مع كون المحل غير قابل إما لكون هؤلاء الحي غير مسلمين أو أهل بخل ولؤم فكيف إذا كان المحل قابلاً .

فصل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك . فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الحمات والسموم وهي ذوات الأنفس الخبيثة التي تتكيف بكيفية غضبية تثير فيها سمية نارية يحصل بها اللدغ وهي متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها فإذا تكيفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لها ذلك طبيعة سمية تجد راحة ولذة في إلقائها إلى المحل المقابل كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة في إيصال شره إلى من يوصله إليه وكثير من الناس لا يهنأ له عيش في يوم لا يؤذي فيه أحداً من بني جنسه ويجد في نفسه تأذيا بحمل تلك السمية والشر الذي فيه حتى يفرغه في غيره فيبرد عند ذلك أنينه وتسكن نفسه ويصيبه في ذلك نظير ما يصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع فيسوء خلقه وتثقل نفسه حتى يقضي وطره ، هذا في قوة الشهوة وذاك في قوة الغضب وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعاً لهذه النفوس الغضبية فلولا هو لفسدت الأرض وخربت : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ [البقرة : ٢٥١] . وأباح الله – بلطفه ورحمته – لهذه النفوس من الأزواج

---

(١) رواه البخاري (٤ / ٥٢٩) في الإجارة باب ما يعطى في الرقية .
ومسلم (٥ / ٤٨ ، ٤٩) في السلام ، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية .

وملك اليمين ما يكسر حدتها ، والمقصود : أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها ما يؤثر في المحل بمجرد مقابلته له وإن لم يمسه فمنها ما يطمس البصر ويسقط الحبل ومن هذا نظر العائن فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت في نفسه كيفية سمية أثرت فى المعين بحسب عدم استعداده وكونه أعزل من السلاح وبحسب قوة تلك النفس وكثير من هذه النفوس يؤثر في المعين إذا وصف له فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به ، ومنكر هذا ليس معدوداً من بني آدم إلا بالصورة والشكل فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التي فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها وما تضمنته من التوحيد والتوكل والثناء على الله وذكر أصول أسمائه الحسنى وذكر اسمه الذي ما ذكر على شر إلا أزاله ومحقه ، ولا على خير إلا نماه وزاده دفعت هذه النفس بما تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية فحصل البرء . فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده وحفظ الشيء بمثله ، فالصحة تحفظ بالمثل ، والمرض يدفع بالضد ، أسباب ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة ، وقبول من الطبيعة المنفعلة ، فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية و لم تقو نفس الراقي على التأثير لم يحصل البرء ، فهنا أمور ثلاثة : موافقة الدواء للداء . وبذل الطبيب له . وقبول طبيعة العليل ، فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء وإذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله سبحانه وتعالى ومن عرف هذا كما ينبغي تبين له أسرار الرقى وميز بين النافع منها وغيره ورقى الداء بما يناسبه من الرقى وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره وحسن تأمله والله أعلم . وأما شهادة التجارب بذلك فهي أكثر من أن تذكر ، وذلك في كل زمان ، وقد جربت أنا من ذلك في نفسي وفي غيري أموراً عجيبة ولاسيما مدة المقام بمكة فإنه كان يعرض لي آلام مزعجة بحيث تكاد تقطع الحركة مني وذلك في أثناء الطواف وغيره فأبادر إلى قراءة الفاتحة وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط ، جربت ذلك مراراً عديدة وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مراراً

فأشربه فأجد به من النفع والقوة ما لم أعهد مثله في الدواء ، والأمر أعظم من ذلك ولكن بحسب قوة الإيمان وصحة اليقين والله المستعان .

فصـــل

في اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل ، والرد على أهل البدع والضلّال من هذه الأمة .

وهذا يعلم بطريقين ، مجمل ومفصل :

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، وإيثاره ، وتقديمه على غيره ، ومحبته والانقياد له ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان .

والحق : هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به علماً وعملا في باب صفات الرب سبحانه وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وفي حقائق الإيمان ، التي هي منازل السائرين إلى الله تعالى . وكل ذلك مسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم ، فكل علم أو عمل أو حقيقة ، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة المحمدية ، بحيث يكون من ضرب المدينة ، فهو من الصراط المستقيم ، وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطريق أهل الغضب ، وهي طريق من عرف الحق وعانده ، وطريق أهل الضلال ، وهي طريق من أضله الله عنه . ولهذا قال عبد الله ابن عباس وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم « الصراط المستقيم : هو الإسلام » وقال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما « هو القرآن » وفيه حديث مرفوع في الترمذي[(١)] وغيره ، وقال سهل بن عبد الله « طريق

(١) ضعيف .

السنة والجماعة » . وقال بكر بن عبد الله المزني « طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولا ريب أنه ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه ، وإيثاره على غيره . فهو الصراط المستقيم .

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له .

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ما خالفه فباطل ، وهو من صراط الأمتين : الأمة الغضبية ، وأمة أهل الضلال .

فصـــل

وأما المفصل : فمعرفة المذاهب الباطلة ، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها . فنقول :

الناس قسمان : مقر بالحق تعالى ، وجاحد له ، فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى والرد على من جحده بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين ، وتأمل حال العالم كله علويه وسفليه بجميع أجزائه تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه ، فإنكار صانعه وجحده في العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لا فرق بينهما ، بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزاكية المشرقة العلوية ، والفطر الصحيحة : أظهر من العكس .

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل

= رواه الترمذي (٥ / ١٥٨) في فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن .
والدارمي (٢ / ٣١٢ و ٣١٣) في فضائل القرآن .
والإمام أحمد باختصار (٢ / ٨٩) تحقيق أحمد شاكر .
وراجع تفسير ابن كثير (١ / ٢٦) في قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم) .
والحديث أوله : « ألا إنها ستكون فتنة ... » .

الناس بصنعه وأفعاله عليه ، ولا ريب أنهما طريقان صحيحان ، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما .

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير ، وأما الاستدلال بالصانع فله شأن . وهو الذي أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم : (أفي الله شك) [إبراهيم : ١٠] . أي أيشك في الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ؟ وأي دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم : (فاطر السموات والأرض) .

وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية - قدس الله روحه - يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى الدليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما .

وإذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الإلحاد : القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ماثم وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة وجود هذا العالم ، فليس عند القوم رب وعبد ، ولا مالك ومملوك ، ولا راحم ومرحوم ، ولا عابد ومعبود ، ولا مستعين ومستعان به ، ولا هاد ولا مهدي ولا منعم ولا منعم عليه ، ولا غضبان ومغضوب عليه ، بل الرب هو نفس العبد وحقيقته ، والمالك هو عين المملوك ، والراحم هو عين المرحوم ، والعابد هو نفس المعبود . وإنما التغاير أمر اعتباري بحسب مظاهر الذات وتجلياتها فتظهر تارة في صورة معبود ، كما ظهرت في صورة فرعون ، وفي صورة عبد ، كما ظهرت في صورة العبيد ، وفي صورة هاد ، كما في صورة الأنبياء والرسل والعلماء، والكل من عين واحد، بل هو العين الواحدة، فحقيقة العابد ووجوده، أو إنِّيته هي حقيقة المعبود ووجوده وإنيته .

والفاتحة من أولها إلى آخرها تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم .

فصـــل

والمقرّون بالرب سبحانه وتعالى أنه صانع العالم نوعان :

نوع ينفي مباينته لخلقه ، ويقولون : لا مباين ولا محايث ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا فيه ولا بائن عنه .

فتضمنت الفاتحة للرد على هؤلاء من وجهين :

أحدهما : إثبات ربوبيته تعالى للعالم . فإن الربوبية المحضة تقتضي مباينة الرب للعالم بالذات ، كما باينهم بالربوبية ، وبالصفات والأفعال ، فمن لم يثبت رباً مبايناً للعالم ، فما أثبت ربا ، فإنه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين ، لزوماً لا انفكاك له عنه البتة : إما أن يكون هو نفس هذا العالم ، وحينئذ يصح قوله . فإن العالم لا يباين ذاته ونفسه ، ومن ههنا دخل أهل الوحدة ، وكانوا معطلة أولا ، واتحادية ثانيا .

وإما أن يقول : ما ثم رب يكون مبايناً ولا محايثا ، ولا داخلا ولا خارجا ، كما قالته الدهرية المعطلة للصانع .

وأما هذا القول الثالث المشتمل على جمع النقيضين : إثبات رب مغاير للعالم مع نفي مباينته للعالم ، وإثبات خالق قائم بنفسه ، لا في العالم ولا خارج العالم ، ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا يَمْنته ولا يَسْرته : فقول له خَبِيء ، والعقول لا تتصوره حتى تصدق به . فإذا استحال في العقل تصوره . فاستحالة التصديق به أظهر وأظهر ، وهو منطبق على العدم المحض ، والنفي الصِرف ، وصدقه عليه أظهر عند العقول والفطر من صدقه على رب العالمين ، فضَعْ هذا النفي وهذه الألفاظ الدالة عليه على العدم المستحيل ، ثم ضعها على

الذات العلية القائمة بنفسها، التي لم تحل في العالم ، ولا حَلَّ العالم فيها ، ثم انظر أي المعلومين أولى به ؟ واستيقظ لنفسك ، وقم لله قَوْمة مفكر في نفسه في الخلوة في هذا الأمر ، متجرد عن المقالات وأربابها وعن الهوى والحمية والعصبية ، صادقاً في طلب الهداية من الله ، فالله أكرم من أن يخيب عبداً هذا شأنه . وهذه المسألة لا تحتاج إلى أكثر من إثبات رب قائم بنفسه ، مباين لخلقه ، بل هذا نفس ترجمتها .

فصـــل

ثم المثبتون للخالق تعالى نوعان :

أهل توحيد ، وأهل إشراك ، وأهل الإشراك نوعان :

أحدهما : أهل الإشراك به في ربوبيته وإلهيته ، كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية[١] ، فإنهم يثبتون مع الله خالقاً آخر ، وإن لم يقولوا : إنه مكافىء له ، والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال ، ليست أفعالهم مقدورة لله ، ولا مخلوقة لهم ، وهي صادرة بغير مشيئته ولا قدرة له عليها ، ولا هو الذي جعل أربابها فاعلين لها ، بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين .

فربوبيـة العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم لأنها تقتضي ربوبية لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال .

وحقيقة قول القدرية المجوسية : أنه تعالى ليس ربًّا لأفعال الحيوان ، ولا تناولتها ربوبيته وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه ؟ مع أن

---

(١) القدرية : هم من يزعمون أن العبد هو الذي يخلق فعله بنفسه استقلالاً فأثبتوا خالقاً مع الله تعالى ، وينفون بذلك القدر .

انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١ / ١٣٠) أول كتاب الإيمان .

والملل والنحل للشهرستاني (١ / ٤٣) .

والفرق بين الفرق لعبد القادر الإسفراييني (١١٤) .

في عموم حمده ما يقتضي حمده على طاعات خلقه ، إذ هو المعين عليها والموفق لها ، وهو الذي شاءها منهم ، كما قال في غير موضع من كتابه : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله)[الإنسان : ٣٠] ، [التكوير : ٢٩] . فهو محمود على أن شاءها لهم ، وجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته ، فهو المحمود عليها في الحقيقة . وعندهم : أنهم هم المحمودون عليها ، ولهم الحمد على فعلها ، وليس لله حمد على نفس فاعليتها عندهم ، ولا على ثوابه وجزائه عليها .

أما الأول : فلأن فاعليتها بهم لا به .

وأما الثاني : فلأن الجزاء مستحق عليه استحقاق الأجرة على المستأجر ، فهو محض حقهم الذي عاوضوه عليه .

وفي قوله : ﴿ **وإياك نستعين** ﴾ رد ظاهر عليهم . إذ استعانتهم به إنما تكون عن شيء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته ، فكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده ، إن شاء أوجده وإن شاء لم يوجده ، بمن ليس ذلك الفعل بيده ، ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته ؟ .

وفي قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ أيضا رد عليهم فإن الهداية المطلقة التامة هي المستلزمة لحصول الاهتداء ، ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها ، وهي المتضمنة للإرشاد والبيان ، والتوفيق والإقدار ، وجعلهم مهتدين . وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة ، كما ظنته القدرية . لأن هذا القدر وحده لايوجب الهدى ، ولا ينجي من الردى ، وهو حاصل لغيرهم من الكفار ، الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا الضلالة بالهدى .

فصـــل

النوع الثاني : أهل الإشراك به فى إلهيته ، وهم المقرون بأنه وحده رب كل شيء ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، وهم مع هذا يعبدون غيره، ويعدلون به سواه

في المحبة والطاعة والتعظيم ، وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا ، فهؤلاء لم يوفوا ﴿ **إياك نعبد** ﴾ حقه ، وإن كان لهم نصيب من « نعبدك » . لكن ليس لهم نصيب من ﴿ **إياك نعبد** ﴾ المتضمن معنى : لانعبد إلا إياك ، حباً وخوفاً ورجاء وطاعة وتعظيما ، فـ﴿ **إياك نعبد** ﴾ تحقيق لهذا التوحيد ، وإبطال للشرك فى الإلهية ، كما أن ﴿ **إياك نستعين** ﴾ تحقيق لتوحيد الربوبية ، وإبطال للشرك به فيها ، وكذلك قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ فإنهم أهل التوحيد ، وهم أهل تحقيق ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ وأهل الإشراك : هم أهل الغضب والضلال .

فصـــل

في تضمنها الرد على الجهمية[1] معطلة الصفات

وذلك من وجوه :

أحدها : من قوله ﴿ **الحمد لله** ﴾ فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ، ونعوت جلاله ، إذ من عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق ، وغايته : أنه محمود من وجه دون وجه ، ولا يكون محموداً بكل وجه ، وبكل اعتبار ، بجميع أنواع الحمد : إلا من استولى على صفات الكمال جميعها ، فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها .

وكذلك في إثبات صفة الرحمة له : ما يتضمن إثبات الصفات التي تستلزمها من الحياة ، والإرادة والقدرة ، والسمع والبصر ، وغيرها .

---

(١) الجهمية : نسبة إلى المبتدع الضال : جهم بن صفوان ، كان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه ، ويقول بخلق القرآن ويقول إن الله في الأمكنة كلها . قتله سلم بن أحوز (سنة ١٢٧) لإنكاره أن الله كلم موسى .
سير أعلام النبلاء (٦ / ٢٦) .
مقالات الإسلاميين (١ / ٣٣٨) .

وكذلك صفة الربوبية : تستلزم جميع صفات الفعل ، وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال : ذاتاً وأفعالاً ، كما تقدم بيانه .

فكونه محموداً إلهاً رباً رحماناً رحيما ، ملكا معبودا ، مستعاناً ، هادياً منعماً ، يرضى ويغضب ، مع نفي قيام الصفات به : جمع بين النقيضين . وهو من أمحل المحال .

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا في نصف الليل الثاني : من لوازم رحمته وربوبيته . وهكذا سائر الصفات الخبرية .

الوجه الثاني : أن السمع ورد بها ثناء على الله ومدحاً له ، وتعرفاً منه إلى عباده بها . فجحدها وتحريفها عما دلت عليه ، وأريد بها : مناقض لما جاءت له ، فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال ، وأن تستدل بالعقل كما تقدم .

فصــل

في تضمنها الرد على الجبرية[1]

وذلك من وجوه :

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه ، فإنه يقتضي ألا يعاقب عبيده على ما لا قدرة لهم عليه ، ولا هو من فعلهم ، بل هو بمنزلة ألوانهم ، وطولهم وقصرهم ، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم . فهو الفاعل لقبائحهم في الحقيقة ، وهو المعاقب لهم عليها . فحمده عليها يأبى ذلك أشد الإباء ، وينفيه أعظم النفي ، فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم

(١) الجبرية : نسبة إلى القول بأن العبد مجبر على فعله ، فهو كسائر الجمادات بالنسبة لخلق أفعال الله فيها . وأن العبد لا إرادة له ولا قدرة على الفعل وهم في مذهبهم الباطل مذاهب متعددة .
الملل والنحل للشهرستاني (١ / ٨٥) .

التي فعلوها حقيقة. فهي أفعالهم لا أفعاله. وإنما أفعاله العدل والإحسان والخيرات.

الوجه الثاني : إثبات رحمته ورحمانيته تنفي ذلك . إذ لايمكن اجتماع هذين الأمرين قط : أن يكون رحماناً رحيما ، ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه ، ولا هو من فعله ، بل يكلفه ما لا يطيقه ، ولا له عليه قدرة البتة ثم يعاقبه عليه ، وهل هذا إلا ضد الرحمة . ونقض لها وإبطال ؟ وهل يصح في معقول أحد : اجتماع ذلك ، والرحمة التامة الكاملة في ذات واحدة ؟

الوجه الثالث : إثبات العبادة والاستعانة لهم ، ونسبتها إليهم بقولهم « نعبد ، ونستعين » وهي نسبة حقيقية لا مجازية ، والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التي هي من أفعال عبيده ، بل العبد حقيقة : هو العابد المستعين ، والله المعبود المستعان به .

فصـــل

في بيان تضمنها للرد على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة وبيان أنه سبحانه فاعل مختار

وذلك من وجوه:

أحدها : من إثبات حمده ، إذ كيف يحمد على ما ليس مختاراً لوجوده ، ولا هو بمشيئته وفعله ؟ وهل يصح حمد الماء على آثاره وموجباته ؟ أو النار والحديد وغيرها في عقل أو فطرة ؟ وإنما يحمد الفاعل المختار بقدرته ومشيئته على أفعاله الحميدة ، هذا الذي ليس في العقول والفطر سواه . فخلافه خارج عن الفطرة والعقل ، وهو لا ينكر خروجه عن الشرائع والنبوات ، بل يتبجح بذلك ويعده فخرا .

الثاني : إثبات ربوبيته تعالى : يقتضي فعله بمشيئته واختياره وتدبيره

وقدرته ، وليس يصح في عقل ولا فطرة ربوبية الشمس لضوئها ، والماء لتبريده ، والنبات الحاصل به ، ولا ربوبية شيء أبداً لما لا قدرة له عليه البتة ، وهل هذا إلا تصريح بجحد الربوبية ؟

فالقوم كنوا للأغمار ، وصرحوا لأولي الأفهام .

الثالث : إثبات ملكه ، وحصول ملك لمن لا اختيار له ، ولا فعل ولا مشيئة غير معقول ، بل كل مملوك له مشيئة واختيار وفعل أتم من هذا الملك وأكمل : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) [النحل : ١٧] .

الرابع : من كونه مستعاناً ، فإن الاستعانة بمن لا اختيار له ولا مشيئة ولا قدرة محال .

الخامس : من كونه مسئولاً أن يهدي عباده ، فسؤال من لا اختيار له محال ، وكذلك من كونه منعما .

فصـــل

في بيان تضمنها للرد على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات

وذلك من وجوه :

أحدها : كمال حمده ، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئاً من العالم وأحواله وتفاصيله ، ولا عدد الأفلاك ، ولا عدد النجوم ، ولا من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه .

الثاني : أن هذا مستحيل أن يكون إلها ، وأن يكون ربا ، فلابد للإله المعبود والرب المدبر أن يعلم عابده ، ويعلم حاله .

الثالث : من إثبات رحمته . فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم .

الرابع : إثبات ملكه . فإن ملكا لا يعرف أحداً من رعيته البتة ، ولا شيئاً من أحوال مملكته البتة ، ليس بملك بوجه من الوجوه .

الخامس : كونه مستعانا .

السادس : كونه مسئولا أن يهدي سائله ويجيبه .

السابع : كونه هاديا .

الثامن : كونه منعما .

التاسع : كونه غضباناً على من خالفه .

العاشر : كونه مجازيا ، يدين الناس بأعمالهم يوم الدين ، فنفي علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله .

فصــل

في بيان تضمنها للرد على منكري النبوات

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده التام ، فإنه يقتضي كمال حكمته وأن لا يخلق خلقه عبثا ، ولا يتركهم سُدى لا يؤمرون ولا يُنهون ، ولذلك نَزَّه نفسه عن هذا في غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنكر الرسالة والنبوة ، وأن يكون ما أنزل على بشر من شيء فإنه ما عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمته ، ولا قدره حق قدره ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ، ويأباه حمده ومجده .

فمن أعطى الحمد حقه علماً ومعرفة وبصيرة استنبط منه « أشهد أن محمداً رسول الله » كما يستنبط منه « أشهد ألا إله إلا الله » وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات في منافاته للحمد كتعطيل صفات الكمال ، وكإثبات الشركاء والأنداد .

الثاني : ألوهيته ، وكونه إلها. فإن ذلك مستلزم لكونه معبودًا مطاعا. ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به ويطاع إلا من جهة رسله .

الثالث : كونه ربا فإن الربوبية تقتضي أمر العباد ونهيهم . وجزاء محسنهم بإحسانه ، ومسيئهم بإساءته . هذا حقيقة الربوبية . وذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة .

الرابع : كونه رحماناً رحيما . فإن كمال رحمته : أن يُعرِّف عباده نفسه وصفاته ويدلهم على ما يقربهم إليه ، ويباعدهم منه ، ويثيبهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى ، وذلك لا يتم إلا بالرسالة والنبوة . فكانت رحمته مقتضية لها .

الخامس : ملكه . فإن الملك يقتضي التصرف بالقول ، كما أن الملك يقضي التصرف بالفعل ، فالملك هو المتصرف بأمره ، وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء والمالك هو المتصرف في ملكه بفعله ، والله له الملك وله المِلك ، فهو المتصرف في خلقه بالقول والفعل .

وتصرفه بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونية، وتصرف بكلماته الدينية، وكمال الملك بهما ، فإرسال الرسل : موجب كمال ملكه وسلطانه ، وهذا هو الملك المعقول في فطر الناس وعقولهم . فكل مَلك لاتكون له رسل يبثها في أقطار مملكته فليس بملك . وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته ، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه . فإنهم رسل الله في خلقه وأمره .

السادس : ثبوت يوم الدين . وهو يوم الجزاء ، الذي يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً ، وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة ، وقيام الحجة التي بسببها يُدان المطيع والعاصي .

السابع : كونه معبوداً . فإنه لا يُعبد إلا بما يحبه ويرضاه ، ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله . فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً .

الثامن : كونه هاديا إلى الصراط المستقيم ؛ وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب ، فإن الخط المستقيم : هو أقرب خط موصل بين نقطتين ، وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل ، فتوقفه على الرسل ضروري ؛ أعظم من توقف الطريق الحسي على سلامة الحواس .

التاسع : كونه منعما على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم . فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم ، وجعلهم قابلين الرسالة مستجيبين لدعوته ، وبذلك ذكرهم منته عليهم وإنعامه في كتابه .

العاشر : انقسام خلقه إلى منعم عليهم ، ومغضوب عليهم ، وضالين ، فإن هذا الانقسام ضروري بحسب انقسامهم في معرفة الحق ، والعمل به : إلى عالم به عامل بموجبه ، وهم أهل النعمة ، وعالم به معاند له ، وهم أهل الغضب . وجاهل به ، وهم الضالون . وهذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل . فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة . وهذا الانقسام ضروري بحسب الواقع ؛ فالرسالة ضرورية .

وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتي قبلها : بيان تضمنها للرد على من أنكر المعاد الجسماني ، وقيامة الأبدان ، وعرفت اقتضاءها ضرورة ثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهي ، وهو الحق الذي خُلقت به وله السموات والأرض والدنيا والآخرة ، وهو مقتضى الخلق والأمر ، ونفيه نفي لهما .

فصــــل

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم .

فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسِل ، فإذا لم يكن ثَمَّ كلام فماذا يبلغ الرسل ؟ بل كيف يعقل كونه رسولا ؟ ولهذا قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلما ، أو يكون القرآن كلامه ؛ فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ورسالة جميع الرسل ، التي حقيقتها ، تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكر رسالته صلى الله عليه وسلم عن القرآن : (إن هذا إلا سحر يُؤْثَر . إن هذا إلا قول البشر) [المدثر : ٢٤، ٢٥] وإنما عنوا القرآن المسموع الذي بلغوه وأنذروا به .

فمن قال : إن الله لم يتكلم به فقد ضاهأ قوله قولهم ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فصــــل

في بيان تضمنها للرد على من قال بقدم العالم

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده . فإنه يقتضي ثبوت أفعاله ، لاسيما وعامة مواد الحمد في القرآن ، أو كلها ، إنما هي على الأفعال ، وكذلك هو ههنا . فإنه حمد نفسه على ربوبيته المتضمنة لأفعاله الاختيارية ، ومن المستحيل ؛ مقارنة الفعل لفاعله . هذا ممتنع في كل عقل سليم ، وفطرة مستقيمة . فالفعل متأخر عن فاعله بالضرورة .

وأيضاً فإنه متعلق الإرادة والتأثير والقدرة ، ولا يكون متعلقها قديماً البتة .

الثاني : إثبات ربوبيته للعالمين ، وتقريره : ما ذكرناه ، والعالم كل ما سواه فثبت أن كل ما سواه مربوب ، والمربوب مخلوق بالضرورة ، وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن ، فإذاً ربوبيته تعالى لكل ما سواه تستلزم تقدمه عليه وحدوث المربوب ، ولا يتصور أن يكون العالم قديماً ، وهو مربوب أبداً ، فإن القديم مستغن بأزليته عن فاعل له ، وكل مربوب فهو فقير بالذات ، فلا شيء من المربوب بغني ولا قديم .

الثالث : إثبات توحيده ، فإنه يقتضي عدم مشاركة شيء من العالم له في خصائص الربوبية ، والقدر من خصائص الربوبية ، فالتوحيد ينفي ثبوته لغيره ضرورة ، كما ينفي ثبوت الربوبية والإلهية لغيره .

فصــــل

في بيان تضمنها للرد على الرافضة[(١)]

وذلك من قوله : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إلى آخرها .

ووجه تضمنه إبطال قولهم : أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام : منعم عليهم ، وهم أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه . ومغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه ، وضالون ، وهم الذين جهلوه فأخطأوه .

فكل من كان أعرف للحق ، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم .

ولا ريب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم : هم أولى بهذه الصفة من الروافض . فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جهلوا الحق وعرفه الروافض ، أو رفضوه وتمسك به الروافض .

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما ، فرأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا بلاد الكفر ، وقلبوها بلاد إسلام ، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى . فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم . ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان ، فإنه قطُّ ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام ، وكم جَرُّوا على الإسلام وأهله من بلية ؟ وهل عاثت سيوف المشركين عُبَّاد الأصنام من عسكر هولاكو وذويه من التتار

---

(١) الرافضة : سموا بذلك لما جاءوا زيد بن علي وقالوا : تبرأ من أبي بكر وعمر حتى ننقذك قال : بل أتولاهما ، قالوا : إذا نرفضك ، فمن ثَمَّ قيل لهم : الرافضة .
سير أعلام النبلاء (٥ / ٣٩٠) .
والفرق بين الفرق (٢٣) .
والملل والنحل للشهرستاني (١ / ١٤٦) .

إلا من تحت رءوسهم ؟ وهل عطلت المساجد ، وحرقت المصاحف ، وقتل سَرَوات المسلمين وعلماؤهم وعبادهم وخليفتهم إلا بسببهم ومن جَرَّائهم ؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة ، وآثارهم في الدين معلومة .

فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم ؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال ، إن كنتم تعلمون ؟ ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله : بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم ، وهو كما فسروه . فإنه صراطهم الذي كانوا عليه ، وهو عين صراط نبيهم . وهم الذين أنعم الله عليهم ، وغضب على أعدائهم ، وحكم لهم بالضلال ، وقال أبو العالية – رفيع الرياحي – والحسن البصري ، وهما من أجلِّ التابعين : الصراط المستقيم : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه ، وقال أبو العالية أيضاً في قوله : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ هم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر ، وهذا حق : فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة ، ولا خلاف بينهم ، وموالاة بعضهم بعضا ، وثناؤهم عليهما ، ومحاربة من حاربا ومسالمة من سالما ، معلومة عند الأمة . خاصها وعامها .

وقال زيد بن أسلم : الذين أنعم عليهم هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر . ولا ريب أن المنعم عليهم : هم أتباعه ، والمغضوب عليهم : هم الخارجون عن اتباعه ، وأتبع الأمة لهم وأطوعهم : أصحابه وأهل بيته . وأتباع الصحابة له : السمع والبصر ، أبو بكر وعمر ، وأشد الأمة مخالفة لهما هم الرافضة ، فخلافهم لهما معلوم عند جميع فرق الأمة ، ولهذا يبغضون السنة وأهلها ، ويعادونها ويعادون أهلها ، فهم أعداء سنته صلى الله عليه وسلم وأهل بيته . وأتباعه من بنيهم أكمل ميراث ؟ بل هم ورثته حقا .

فقد تبين أن الصراط المستقيم طريق أصحابه وأتباعه ، وطريق أهل الغضب والضلال : طريق الرافضة . وبهذه الطريق بعينها يرد على الخوارج ، فإن معاداتهم الصحابة معروفة .

فصـــل

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب ، انتهى إلى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد ، حتى قيل : أنزل الله مئة كتاب وأربعة كتب ؛ جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجمع معاني القرآن في المفصل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة ، ومعاني الفاتحة في ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين : فنصفهما له تعالى وهو ﴿ **إياك نعبد** ﴾ ونصفهما لعبده وهو ﴿ **إياك نستعين** ﴾ وسيأتي سر هذا ومعناه إن شاء الله في موضعه .

والعبادة تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول : طريق معبد أي مذلّل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته و لم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعا ، ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم ، بل هو غاية مطلوبهم ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم : منكرين لكونه إلها ، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقا لهم ، فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية ، الذي اعترف به مشركو العرب ، و لم يخرجوا به من الشرك ، كما قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف : ٨٧] . وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [الزمر : ٣٨] . (قل لمن الأرض ومن فيها سيقولون لله) [المؤمنون : ٨٤-٨٩] . ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغي أن يعبد غيره ، كما أنه لا خالق غيره ولا رب سواه .

والاستعانة : تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره ، مع ثقته به ، لاستغنائه عنه .

وقد يعتمد عليه ، مع ثقته به لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .

والتوكل معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد ، وهو حقيقة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ وهذان الأصلان - وهما التوكل والعبادة - قد ذكرا في القرآن في عدة مواضع ، قرن بينهما فيها ، هذا **أحدها** .

الثاني : قول شعيب (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) [هود : ٨٨] .

الثالث : قوله تعالى : (ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه) [هود : ١٢٣] .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين : (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) [الممتحنة : ٤] .

الخامس : قوله تعالى : (واذكر اسم ربك وتبَتَّل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) [المزمل : ٨،٩] .

السادس : قوله تعالى : (قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ [الرعد : ٣٠] .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين ، وهما ﴿ **إياك نعبد** . **وإياك نستعين** ﴾ . وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها ، والاستعانة وسيلة إليها ، ولأن ﴿ **إياك نعبد** ﴾ متعلق بألوهيته واسمه « الله » و ﴿ **إياك نستعين** ﴾ متعلق بربوبيته واسمه الرب . فقدم ﴿ **إياك نعبد** ﴾ على ﴿ **إياك نستعين** ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة ، ولأن ﴿ **إياك نعبد** ﴾ قسم الرب . فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى ، لكونه أولى به ، و ﴿ **إياك نستعين** ﴾ قسم العبد ، فكان مع الشطر الذي له ، وهو ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ إلى آخر السورة .

ولأن العبادة المطلقة : تتضمن الاستعانة ، من غير عكس . فكل عابد لله عبودية تامة : مستعين به ، ولا ينعكس ، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته . فكانت العبادة أكمل وأتم . ولهذا كانت قسم الرب ، ولأن الاستعانة جزء من العبادة ، من غير عكس ، ولأن الاستعانة طلب منه ، والعبادة طلب له ، ولأن العبادة لاتكون إلا من مخلص ، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص ، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك ، والاستعانة طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك ، وأداء حقه ؛ أهم من التعرض لصدقته . ولأن العبادة شكر نعمته عليك ، والله يجب أن يشكر ، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقّها أعانك عليها ، فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .

والعبودية محفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، وإعانة بعدها على عبودية أخرى ، وهكذا أبدا ، حتى يقضي العبد نحبه ، ولأن ﴿ **إياك نعبد** ﴾ له . و ﴿ **إياك نستعين** ﴾ به ، وماله مقدم على ما به . لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه . وما به متعلق بمشيئته ، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمشيئته ، فإن الكون كله متعلق بمشيئته . والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار ، والطاعات والمعاصي . والمتعلق بمحبته : طاعاتهم وإيمانهم . فالكفار أهل مشيئته ، والمؤمنون أهل محبته . ولهذا لايستقر في النار شيء لله أبدا وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته .

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿ **إياك نعبد** ﴾ على ﴿ **إياك نستعين** ﴾ .

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدة العناية به ، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر . فهو في قوة لانعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك ، والحاكم في ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً ، وسيبويه نص على الاهتمام ، ولم ينف غيره . ولأنه يقبح من القائل : أن يعتق عشرة أعبد مثلا ،

ثم يقول لأحدهم : إياك أعتقت ، ومن سمعه أنكر ذلك عليه ، وقال : وغيره أيضاً أعتقت . ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام ، ولاحسن إنكاره .

وتأمل قوله تعالى : (وإياي فارهبون) [البقرة : ٤٠] . (وإياي فاتقون) [البقرة : ٤١] . كيف تجده في قوة : لا ترهبوا غيري ، ولا تتقوا سواي ؟ وكذلك ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ هو في قوة : لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك ، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق ، ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه ، وفتح عليه باب الشك والتشكيك ، فهؤلاء هم آفة العلوم ، وبلية الأذهان والفهوم ، مع أن في ضمير ﴿ **إياك** ﴾ من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل ، ففي « إياك قصدت ، وأحببت » من الدلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك : قصدتك وأحببتك ، وإياك أعني : فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني .

ومن ههنا قال من قال من النحاة : إن « إيّا » اسم ظاهر ، مضاف إلى الضمير المتصل ، ولم يردَّ بردٍ شاف .

ولولا أنَّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة ، وذكرنا مذاهب النحاة فيها ، ونصرنا الراجح ، ولعل أن نعطف على ذلك بعون الله .

وفي إعادة « إياك » مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين ، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه ، فإذا قلت : لملك مثلا : إياك أحب ، وإياك أخاف ، كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك : إياك أحب وأخاف .

فصـــل

إذا عرف هذا : فالناس في هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام : **أجلها وأفضلها** : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها ، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها ، ولهذا كان من أفضل

ما يسأل الربُّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته ، وهو الذي علمه النبي صلى الله عليه وسلم لِحبِّه معاذ بن جبل . فقال : « يا معاذ ، والله إني لأحبك ، فلا تنس أن تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك »(١) .

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته ، وأفضل المواهب ؛ إسعافه بهذا المطلوب. وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع ما يضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه : تأملت أنفع الدعاء : فإذا هو سؤال العون على مرضاته ، ثم رأيته في الفاتحة في ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾.

ومقابل هؤلاء : **القسم الثاني** : وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته ، لا على مرضاة ربه وحقوقه ، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمُدُّ هؤلاء وهؤلاء ، وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها ، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته : كانت زيادة له في شقوته ، وبعده عن الله وطرده عنه ، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته ، كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولابد .

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره ، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه ، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته ، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه ، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبته له ، فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً لا بخلا ، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته ، ويعامله بلطفه : فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه ، ويراه يقضي حوائج غيره ، فيسيء ظنه بربه ، وهذا حشو قلبه

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٣٨٤) في الصلاة باب الاستغفار .
والنسائي (٣ / ٥٢) في السهو باب : نوع آخر من الدعاء .

ولا يشعر به ، والمعصوم من عصمه الله ، والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، ولكن ما حيلتي ؟ والأمر ليس إليّ ، والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه ، فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك ، وإذا لم تجد من سؤاله بدا ، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة ، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة ، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها . ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا ، بل إن وُكل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره . وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال ؛ تسأله أن يجعله عوناً على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته ، ولا تظن أن عطاءه كلَّ ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاء وامتحان ، يمتحن بهما عباده . قال الله تعالى : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فَقَدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن . كلا) [الفجر : ٢٥:٢٦] . أي ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته : فقد أكرمته ، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له ؛ أيشكرني فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرني فأسلبه إياه ، وأخول فيه غيره ، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليّ ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له : أيصبر ؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق ، أم يتسخط ؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره ، فإنه يوسع على

الكافر لا لكرامته ، ويُقَتّر على المؤمن لا لإهانته ، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته . فله الحمد على هذا وعلى هذا ، وهو الغني الحميد .

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

فصـــل

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان :

أحدهما : القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق في مقدوره ، إعانة له على الفعل . فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها ، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة ؛ فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ، ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان ، وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر ، فعباده هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه ؛ فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد قال ابن عباس رضي الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده .

النوع الثاني : من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها في ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له ، بل كالعدم الذي لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول . فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب ، ومن الآلة إلى الفاعل . فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من ﴿ **إياك نستعين** ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد

والوظائف فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم ، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس ، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما . فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس هَمِّه على إنزال ما ينوبه بهما . فهذه حال المتوكل ، ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولابد . قال الله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق : ٣] . أي كافيه . والحسب : الكافي . فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو :

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يَدُر مع ما يحبه ويرضاه ، فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به فقضيت له ، وأسعف بها ، ولكن لا عاقبة له ، سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق أو أحوالا ، من كشف وتأثير وقوة وتمكين . فإنها من جنس الملك الظاهر ، والأموال لا تستلزم الإسلام ، فضلا عن الولاية والقرب من الله . فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر . فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم معرفة بالله ودينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه ، فالحال من الدنيا . فهو كالملك والمال ، إن أعان صاحبه على

طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره ، ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة .

فصـــل

إذا عرف هذا ؛ فلا يكون العبد متحققاً بإياك نعبد إلا بأصلين عظيمين .

أحدهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق ﴿ **إياك نعبد** ﴾ .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضا إلى أربعة أقسام .

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة . وهم أهل ﴿ **إياك نعبد** ﴾ حقيقة ، فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله . فمعاملتهم ظاهراً ، وباطناً لوجه الله وحده ، لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمدة ، والمنزلة في قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم . بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا . فالعمل لأجل هؤلاء ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم ، لا يكون من عارف بهم البتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه ، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله ، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه ، ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم ، وكذلك أعمالهم كلها وعباداتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه . وهو الذي بلا عباده بالموت والحياة لأجله . قال الله تعالى : (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) [تبارك : ٢] . وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملا ، قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا يا أبا علي : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا

كان خالصاً ولم يكن صوابا ، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة . وهذا هو المذكور في قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف : ١١٠] . وفي قوله تعالى : (ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) [النساء : ١٢٥] . فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه على متابعة أمره ، وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباء منثورا . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد »(١) وكل عمل بلا اقتداء فإنه لايزيد عامله من الله إلا بعدا . فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره ، لا بالآراء والأهواء .

فصل

الضرب الثاني : من لا إخلاص له ولا متابعة . فليس عمله موافقا لشرع ، ولا هو خالصاً للمعبود ، كأعمال المتزينين للناس المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله . وهؤلاء شرار الخلق وأمقتهم إلى الله عز وجل . ولهم أوفر نصيب من قوله : (لا تحسبن الذين يفرحون بما أَتَوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفَازة من العذاب ولهم عذاب أليم) [آل عمران : ١٨٨] . يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة عن الصراط المستقيم ، فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الاتباع والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والضلال .

---

(١) رواه البخاري (٥ / ٣٥٥) بلفظ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو مردود) في الصلح ، باب : إذا اصطلحوا على صلح فيه جور .
ومسلم في الأقضية (٤ / ٣١٢) باب : نقض الأحكام الباطلة .

الضرب الثالث : من هو مخلص في أعماله ، لكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقده قربة إلى الله فهذا حاله ، كمن يظن أن سماع المُكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التي يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة ، وأمثال ذلك .

الضرب الرابع : من أعماله على متابعة الأمر ، لكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحَمية وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال ، فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لكنها غير خالصة فلا تقبل : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [البينة : ٥] . فكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر ، والإخلاص له في العبادة . وهم أهل ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

فصـــل

ثم أهل مقام ﴿ **إياك نعبد** ﴾ لهم في أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربعة طرق ، فهم في ذلك أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها.

قالوا : لأنه أبعد الأشياء من هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة ، ورووا حديثاً لا أصل له « أفضل الأعمال أحمزها » أي أصعبها وأشقها ، وهؤلاء هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا : وإنما تستقيم النفوس بذلك ، إذ طبعها الكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض ، فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثاني : قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد في الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ما هو منها .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العلم والعبادة ، فرأوا الزهد في الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع المهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته ، فرأوا أن أفضل العبادات في الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل ما فيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان : فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهي بادروا إليه ولو فرَّقهم وأذهب جمعيتهم ؛ والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله . فإذا جاء ما يفرقه عن الله لم يلتفت إليه ؛ وربما يقول قائلهم :

يطالب بالأوراد من كان غافلا	فكيف بقلب كل أوقاته ورد ؟

ثم هؤلاء أيضا قسمان : منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته ، ومنهم من يقوم بها ، ويترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل هؤلاء شيخا عارفا فقال : إذا أذن المؤذن وأنا في جمعيتي على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، وإن بقيت على حالي بقيت على جمعيتي ، فما الأفضل في حقي ؟

فقال : إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعي الله ، ثم عد إلى موضعك . وهذا لأن الجمعية على الله : حظ الروح والقلب، وإجابة الداعي : حق الرب ، ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل ﴿ **إياك نعبد** ﴾ .

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعد ،

فرأوه أفضل من ذي النفع القاصر ، فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل . فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله »[١] رواه أبو يعلى .

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النفاع متعد إلى الغير ، وأين أحدهما من الآخر ؟

قالوا: ولهذا كان فضل العالم على العابد: كفضل القمر على سائر الكواكب.

قالوا : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه « لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمر النعم »[٢] وهذا التفضيل للنفع المتعدي ، واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء »[٣] واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله وملائكته يصلون على

---

(١) ضعيف .
رواه أبو يعلى (٦ / ٦٥ و ١٠٦ و ١٩٤) .
ورواه البزار (٢ / ٣٩٨) .
قال الهيثمي في مجمع الزوائد (رواه أبو يعلى والبزار وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك) (٨ / ١٩١) .
والطبراني في الكبير (١٠ / ١٠٥) والأوسط .
قال الهيثمي (فيه عمر وهو أبو هارون القرشي متروك) مجمع الزوائد (٨ / ١٩١) .
ورواه الخطيب في تاريخه (٦ / ٣٣٤) .

(٢) رواه البخاري في فضائل علي (٧ / ٨٧) باب مناقب علي رضي الله عنه .
ومسلم في فضائل الصحابة (٥ / ٢٧١) باب فضائل علي رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى (١١ / ٣٧٣) بسند صحيح .
ورواه مسلم بلفظ (من سن سنة حسنة ..) (٥ / ٥٣١) في العلم ، باب : من سن سنة حسنة .
والإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢ / ٣٩٧ و ٥٠٤ و ٥٠٥) .
والدارمي (١ / ١٠٧) في المقدمة ، باب : من سن سنة حسنة .
والترمذي (٥ / ٤٢) في العلم ، باب : من دعا إلى هدى .
وابن ماجه (١ / ٧٥) في المقدمة ، باب : من سن سنة حسنة .

معلمي الناس الخير »[١] وبقوله صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، حتى الحيتان في البحر والنملة في جحرها»[٢]

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لاينقطع عمله ما دام نفعه الذي نسب إليه .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم ، ونفعهم في معاشهم ومعادهم ، لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن الناس والترهب ، ولهذا أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد ، وترك مخالطة الناس[٣] . ورأى هؤلاء التفرق في أمر الله ونفع عباده والإحسان إليهم أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك .

الصنف الرابع : قالوا : إن أفضل العبادة : العمل على مرضاة الرب في كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته . فأفضل العبادات في وقت الجهاد : الجهاد ، وإن آل إلى ترك الأوراد ، من صلاة الليل وصيام النهار ، بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض ، كما في حالة الأمن .

والأفضل في وقت حضور الضيف مثلا : القيام بحقه ، والاشتغال به عن الورد المستحب ، وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي أمامة (٥ / ٤٨) . في العلم ، باب فضل الفقه على العبادة . وقال: غريب .
ورواه الدارمي مرسلاً (١ / ٧٥) في المقدمة باب : من قال العلم الخشية .
وهو حسن .
ورواه أيضاً عن الحسن مرسلاً (١ / ٨٢) في فضل العلم والعلماء .
وصححه الشيخ الألباني ، كما في صحيح الترمذي (٢ / ٣٤٣) .

(٢) رواه الترمذي (٥ / ٤٧) في العلم ، باب : فضل الفقه على العبادة .
وأبو داود (١٠ / ٧٢) في العلم ، باب : في فضل العلم .
وصححه الألباني ، صحيح الترمذي (٢ / ٣٤٢) .

(٣) رواه البخاري (٩ /٥) في النكاح ، باب : الترغيب في النكاح .
ومسلم (٣ / ٥٤٩) في النكاح ، باب : استحباب النكاح .

والأفضل في أوقات السحر : الاشتغال بالصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار .

والأفضل في وقت استرشاد الطالب ، وتعلم الجاهل : الإقبال على تعليمه والاشتغال به .

والأفضل في أوقات الأذان : ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذن .

والأفضل في أوقات الصلوات الخمس : الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه ، والمبادرة إليها في أول الوقت ، والخروج إلى الجامع ، وإن بعد كان أفضل .

والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه ، أو البدن أو المال : الاشتغال بمساعدته ، وإغاثة لهفته ، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك .

والأفضل في وقت قراءة القرآن : جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه ، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به ، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره ، والعزم على تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل في وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل في أيام عشر ذي الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل في العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم وإقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل في وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذي يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم في الخير فهي خير من عزلتهم فيه ، وعزلتهم في الشر ، فهي أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من عزلتهم .

فالأفضل في كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه . وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذي تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقض وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض في تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت . فمدار تعبده عليها . فهو لا يزال متنقلا في منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه في السير حتى ينتهي سيره : فإن رأيت العلماء رأيته معهم . وإن رأيت العباد ، رأيته معهم . وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم . وإن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، وإن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم ، وإن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم ، فهذا هو العبد المطلق ، الذي لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، وما فيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ولو كانت راحة نفسه ولذتها في سواه ، فهذا هو المتحقق بإياك نعبد وإياك نستعين حقا ، القائم بهما صدقا . ملبسه ما تهيأ ، ومأكله ما تيسر ، واشتغاله بما أمر به في كل وقت بوقته ، ومجلسه حيث انتهى ووجده خاليا ، لا تملكه إشارة ، ولا يتعبده قيد ، ولا يستولي عليه رسم ، حر مجرد ، دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الأمر أنى توجهت ركائبه ، ويدور معه حيث استقلت مضاربه يأنس به كل محق ، ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع ، وكالنخلة

لايسقط ورقها وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله ، فهو لله وبالله ومع الله ، قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناس بلا نفس . بل إذا كان مع الله عزل الخلائق من البين وتخلى عنهم ، وإذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها ، فواهاً له . ما أغْرَبَه بين الناس ، وما أشدُّ وحشته منهم ، وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه !! والله المستعان ، وعليه التكلان .

فصــــل

ثم للناس في منفعة العبادة وحكمتها ومقصودها طرق أربعة . وهم في ذلك أربعة أصناف .

الصنف الأول : نفاة الحِكَم والتعليل ، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة ، وصِرْف الإرادة . فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر من غير أن يكون سببا لسعادة في معاش ولا معاد ، ولا سبباً لنجاة ، وإنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة ، كما قالوا في الخلق : إنه لم يخلق ما خلقه لعلة ، ولا لغاية هي المقصودة به ، ولا لحكمة تعود إليه منه ، وليس في المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها ، ولا فيها قوى ولا طبائع ، فليست النار سبباً للإحراق ، ولا الماء سبباً للإرواء والتبريد ، وإخراج النبات ، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضي ذلك ، وحصول الإحراق والري ليس بهما ، لكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا ، لا بسببه ولا بقوة قامت به ، وهكذا الأمر عندهم في أمره الشرعي سواء ، لا فرق في نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، ولكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا ، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه ، ولا المنهي عنه صفة اقتضت قبحه .

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة . وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى (بمفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة)[1] وبينا فساد هذا

---

(١) طبع طبعات غير جيدة تحتاج إلى تحقيق وتصحيح .

الأصل من نحو ستين وجها ، وهو كتاب بديع في معناه ، وذكرناه أيضا في كتابنا المسمى (بسفَر الهجرتين وطريق السعادتين)[١] .

وهؤلاء لايجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ، ولا يتنعمون بها ، وليست قرة أعينهم ، وليست الأوامر سرور قلوبهم ، وغذاء أرواحهم وحياتهم ، ولهذا يسمونها تكاليف ؛ أي قد كلفوا بها ، ولو سمى مدع لمحبة ملك من الملوك أو غيره ما يأمره به تكليفا ؛ وقال : إني إنما أفعله بكلفة ، لم يعده أحد محباً له ، ولهذا أنكر هؤلاء - أو كثير منهم - محبة العبد لربه . وقالوا : إنما يحب ثوابه وما يخلقه له من النعيم الذي يتمتع به ، لا أنه يحب ذاته . فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه ، وحقيقة العبودية : هي كمال المحبة ، فأنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها . وحقيقة الإلهية : كونه مألوها محبوباً بغاية الحب المقرون بغاية الذل والخضوع ، والإجلال والتعظيم ، فأنكروا كونه محبوبا . وذلك إنكار لإلهيته ، وشيخ هؤلاء : هو الجعد بن درهم[٢] الذي ضَحَّى به خالد بن القَسْري في يوم أضحى ، وقال : إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، وإنما كان إنكاره : لكونه تعالى محبوباً محبا ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التي هي الخلة عند الجهمية التي يشترك فيها جميع الخلائق ، فكلهم أخلاء الله عندهم . وقد بينا فساد قولهم هذا وإنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهاً في كتابنا المسمى

---

(١) طبع بعنوان « طريق الهجرتين وباب السعادتين » .

(٢) الجعد بن درهم : أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولا كلم موسى ، وأن ذلك لا يجوز على الله - تعالى الله عن إفكهم علوا كبيرًا - وكان زنديقًا . راجع هـ (١) ص (٦٦|١) .
سير أعلام النبلاء (٥ / ٤٣٣) .
ميزان الاعتدال (١ / ٣٩٩) .
البداية والنهاية (٩ / ٣٥٠) .
وأما خالد القسري الأمير الكبير فله حديث في « مسند أحمد » وفي « سنن أبي داود » وله محاسن ومساوىء من محاسنه قتل الجعد بنَ درهم .
انظر : سير أعلام النبلاء للذهبي (٥ / ٤٢٥) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (٢ / ٢٢٦) .
البداية والنهاية (١٠ / ١٧) .

(قرة عيون المحبين ، وروضة قلوب العارفين) وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية ، وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك البتة ، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة ، ولا لعينه إلا بالنور الباصر ، ولا لأذنه إلا بالسمع ، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم .

فصــل

الصنف الثاني : القدرية النفاة ، الذين يثبتون نوعاً من الحكمة ، والتعليل لا يقوم بالرب ، ولا يرجع إليه ، بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته . فعندهم : أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير : قالوا : ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله : (ونُودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) [الأعراف : ٤٣] . وقوله : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقوله : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقوله صلى الله عليه وسلم ، فيما يحكي عن ربه عز وجل : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها » وقوله تعالى : (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر : ١٠] . قالوا : وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجراً وثواباً . لأنه يثوب إلى العامل من عمله ، أي يرجع إليه منه .

قالوا : ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاء ولا أجراً ولا ثواباً معنى .

قالوا : ويدل عليه الوزن . فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها ، وكونها كالأثمان لها لم يكن للوزن معنى . وقد قال تعالى : (والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) [الأعراف : ٨،٩] .

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل ؛ وبينهما أعظم التباين ؛ فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء البتة ، وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره

في طاعته ، وينعِم من أفنى عمره في معصيته . وكلاهما بالنسبة إليه سواء ، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل على من هو أعظم عملا منه ، وأكثر وأفضل درجات والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضي تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت عليه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمناً لها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن .

فقاتلهم الله ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به ، جعلوا تفضله وإحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد ، حتى قالوا : إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل .

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة ؛ ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً في الجزاء البتة .

والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذي فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب . وهو أن الأعمال : أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضيات لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه ، وصدقته على عبده ، إن أعانه عليها ووفقه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحَبَّبها إليه ، وزينها في قلبه وكرَّه إليه أضدادها ، ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه ، ولا هي على قدره ، بل غايتها - إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه -: أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه ، فلو طالبه بحقه لبقيت عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا نفى النبي صلى الله عليه وسلم دخول الجنة بالعمل ، كما قال : « لن يدخل أحداً منكم الجنة عمله »[1]

---

(١) عند البخاري (١١ / ٣٠٠) في الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل .
وانظر جامع الأصول (١ / ٣٠٤ و ٣٠٧ و ٣١٨) .

وفي لفظ لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » وفي لفظ « لن ينجي أحداً منكم عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما في قوله : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) [النحل : ٣٢] . ولا تنافي بينهما . إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد ، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها: رداً على القدرية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجابا ، وحَقَّ لهم أن يكونوا مجوس هذه الأمة ، ويكفي في جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا : أن أهل سمواته وأرضه في منته ، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكراً لها ، وشكراً عليها ، ومحبة له لأجلها ، فهل يتقلب أحد قط إلا في منته ؟ (يَمنُّون عليك أن أسلموا . قل لا تمنوا عليَّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) [الحجرات : ١٧] .

واحتمال منة المخلوق : إنما كانت نقصاً لأنه نظيره . فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه ، ورأى الممنون عليه نفسه دونه ، هذا مع أنه ليس في كل مخلوق ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون : « الله ورسوله أمن »[١] ولا نقص في منة الوالد على ولده ، ولا عار عليه في احتمالها ، وكذلك السيد على عبده ، فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ، ومحض صدقته عليهم ، بلا عوض منهم البتة ؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده . فهو المنان عليهم . بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها ، وكملها لهم ، وقبلها منهم على مافيها ؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله : (بما كنتم تعملون) .

---

(١) رواه البخاري (٧ / ٦٤٤) في المغازي ، باب : غزوة الطائف .
ومسلم (٣ / ١٠٤) في الزكاة ، باب : المؤلفة قلوبهم .

فهذه باء السببية ، رداً على القدرية والجبرية ، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ، ولا هي أسباب له ، وإنما غايتها أن تكون أمارات .

قالوا : وليست أيضا مطردة ، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر . فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة .

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء : كما هي مبطلة لقول أولئك ، وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين ، وتبين لمن له قلب ولب : مقدار قول أهل السنة ؛ وهم الفرقة الوسط ؛ المثبتون لعموم مشيئة الله ، وقدرته ، وخلقه العباد وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها ، وانعقادها بها شرعاً وقدراً ، وترتيبها عليها عاجلا وآجلا .

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل ، بل أنواعا ، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه : (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) [البقرة : ٢١٣] . و (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم) [الجمعة : ٤] .

فصل

الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة: رياضة النفوس، واستعدادها لفيض العلوم عليها . وخروج قواها عن قوى النفوس السبعية والبهيمية ، فلو عطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم ، والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة ، فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها، وهذا يقوله طائفتان :

أحدهما : من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة ، القائلين بقدم العالم ، وعدم انشقاق الأفلاك ، وعدم الفاعل المختار .

الطائفة الثانية : من تفلسفت : من صوفية الإسلام . وتقرب إلى الفلاسفة ،

فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها ، ومفارقتها العالم الحسي ، ونزول الواردات والمعارف عليها .

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى ، فإذا حصل لها بقي مخيراً في حفظ أوراده ، أو الاشتغال بالوارد عنها ، ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف ، وعدم الإخلال بها ، وهم صنفان أيضاً .

أحدهما : من يوجبونه حفظاً للقانون ، وضبطاً للناموس .

والآخرون : الذين يوجبونه حفظاً للوارد ، وخوفاً من تدرج النفس بمفارقتها له إلى حالتها الأولى من البهيمية .

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك . وغاية مفارقتهم بحكم العبادة وما شرعت لأجله ، ولا تكاد تجد في كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة ، على سبيل الجمع أو على سبيل البدل .

فصــــل

وأما الصنف الرابع : وهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية : أتباع الخليلين ، العارفون بالله وحكمته في أمره وشرعه وخلقه ، وأهل البصائر في عبادته ، ومراده بها .

فالطوائف الثلاثة محجوبون عنهم بما عندهم من الشبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة ، ما عندهم وراء ذلك شيء ، قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال ولو علموا أن وراءه ، ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة ، ولم يشعروا به ليجتهدوا في طلبه ورأوا أن ما معهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده .

فتركب من هذه الأمور إيثار ما عندهم على ما سواه ، وهذه بلية الطوائف والمعافى من عافاه الله .

فاعلم أن سر العبودية وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ، ولم يعطلها ، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلها ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه فباطل ، بل أبطل الباطل ، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له ، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات ،وكارتباط المعلوم بالعلم ، والمقدور بالقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود . فمن أنكر حقيقة الإلهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هي الغاية المقصودة بالخلق ، ولها خلقوا ، ولها أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ولأجلها خلقت الجنة والنار ؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها : نسبة لله إلى ما لا يليق به ، ويتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق ، ولم يخلقهما باطلا ، ولم يخلق الإنسان عبثا ولم يتركه سدى مهملا ، قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون : ١١٥] . أي لغير شيء ولا حكمة ، ولا لعبادتي ومجازاتي لكم ، وقد صرح تعالى بهذا في قوله : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] . فالعبادة : هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها . قال الله تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ [القيامة : ٣٦] . أي مهملا قال الشافعي(١) : لا يؤمر ولا يُنْهَى ، وقال غيره : لا يثاب ولا يعاقب ، والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتب على الأمر والنهي ، والأمر والنهي هو طلب العبادة وإرادتها ، وحقيقة العبادة امتثالهما . وقال تعالى : ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩١] . وقال : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ [الحجر : ٨٥] . وقال : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت ﴾ [الجاثية : ٢٢] .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق المتضمن : أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .

---

(١) انظر تفسير سورة القيامة .

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا ، وهو غاية الخلق ، فكيف يقال : إنه لا علة له ، ولا حكمة مقصودة هي غايته ؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكد عليهم الثواب بالمنة ، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية . وارتياضها بمخالفة العوائد ؟ .

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، وبين ما دل عليه صريح الوحي يجد أن أصحاب هذه الأقوال ما قدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته .

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامعة لكمال محبته . مع الخضوع له والانقياد لأمره .

فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله . فلا يحب معه سواه ، وإنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه ، فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبه .

وإذا كانت المحبة له حقيقة عبوديته وسرها . فهى إنما تتحقق باتباع أمره ، واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَماً عليها ، وشاهداً لمن ادعاها ، فقال تعالى : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران : ٣١] . فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم ، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة . فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم ، فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله ، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هي حب الله ورسوله ، وطاعة أمره ، ولا يكفي ذلك في العبودية ، حتى يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شيء أحب إليه من الله ورسوله ، ومتى كان عنده شيء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله لصاحبه البتة ،

ولا يهديه الله . قال الله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) [التوبة : ٢٤] .

فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله ، فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وإن قاله بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ما هو عليه ، وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله . فذلك المقدَّم عنده أحب من الله ورسوله ، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول . فيطيعه ، ويحاكم إليه ، ويتلقى أقواله كذلك ، فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك . وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقا ، أو في بعض الأمور . ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به ، فهذا الذي يخاف عليه . وهو داخل تحت الوعيد . فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله ، ولم يوافقه على اتباع شيخه . فهو من الظلمة المعتدين ، وقد جعل الله لكل شيء قدرا .

فصـــل

وبنى ﴿ **إياك نعبد** ﴾ على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان ، والقلب ، وعمل القلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب ﴿ **إياك نعبد** ﴾ حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذبُّ عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك .

فإياك نعبد : التزام لأحكام هذه الأربعة ، وإقرار بها و ﴿ **إياك نستعين** ﴾ طلب للإعانة عليها والتوفيق لها، و ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل ، وإلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلى الله بهما.

فصــــل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته ، من أولهم إلى آخرهم . فقال نوح لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) [الأعراف : ٥٩] . وكذلك قال هود وصالح وشعيب : [الأعراف : ٦٥،٧٣،٨٥] . وإبراهيم . قال الله تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل : ٣٦] . وقال : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء : ٢٥] . وقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) [المؤمنون : ٥١،٥٢] .

فصـــل

والله تعالى جعل العبودية وصف أكمل خلقه ، وأقربهم إليه . فقال : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا) [النساء : ١٧٢] . وقال : (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) [الأعراف : ٢٠٦] . وهذا يبين أن الوقف التام في قوله : (وله من في السموات والأرض) [الأنبياء : ١٩] . ههنا ، ثم يبتدىء : (ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون) فهما جملتان تامتان مستقلتان : أي إن له من في السموات ومن في الأرض عبيداً وملكا . ثم استأنف جملة أخرى فقال : (ومن عنده لايستكبرون عن عبادته) يعني أن الملائكة الذين عنده لا يستكبرون عن عبادته لا يأنفون عنها ولا يتعاظمون ولا يستحسرون ، فيعيون وينقطعون ، يقال : حسر واستحسر ، إذا تعب وأعيا ، بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفس لبني آدم ، فالأول : وصف لعبيد ربوبيته . والثاني : وصف لعبيد إلهيته وقال تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) [الفرقان : ٦٣-٧٧] . إلى آخر السورة . وقال : (عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) [الإنسان : ٦] . وقال : (واذكر عبدنا داود) [صٓ : ١٧] . وقال : (واذكر عبدنا أيوب) [صٓ : ٤١] . وقال : (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب) [صٓ : ٤٥] . وقال عن سليمان : (نعم العبد إنه أواب) [صٓ : ٣٠] . وقال عن المسيح : (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) [الزخرف : ٥٩] . فجعل غايته العبودية لا الإلهية ، كما يقول أعداؤه النصارى ، ووصف أكرم خلقه عليه ، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته . فقال تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) [البقرة : ٢٥] . وقال تبارك وتعالى : (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) [الفرقان : ١] . وقال : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) [الكهف : ١] . فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه والتحدي بأن يأتوا بمثله ، وقال : (وأنه لما قام عبد الله

يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا) [الجن : ١٩] . فذكره بالعبودية في مقام الدعوة إليه . وقال : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلا) [الإسراء : ١] . فذكره بالعبودية في مقام الإسراء . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »[١] وفي الحديث « أنا عبد آكل كما يأكل العبيد ، وأجلس كما يجلس العبيد »[٢] وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو . قال : « قرأت في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله ، عبدي ورسولي ، سميته المتوكل . ليس بفَظٍ ولا غليظ ، ولا صَخّاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر »[٣] .

وجعل سبحانه البشارة المطلقة لعباده ، فقال تعالى : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) [الزمر : ١٨] . وجعل الأمن المطلق لهم ، فقال

---

(١) رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٦ / ٥٥١) في أحاديث الأنبياء ، باب : قول الله (واذكر في الكتاب مريم ..) .

(٢) رواه أبو يعلى (٨ / ٣١٨) بلفظ « .. كما يأكل العبيد .. » وفيه أبو معشر وهو ضعيف كما في التقريب (٢ / ٢٩٨) .
وقال الهيثمي (٩ / ١٩) إسناده حسن .
والبغوي في شرح السنة (١٣ / ٢٤٧ و ٢٤٨) .
وقال محققه « حديث صحيح » اهـ .
وله شواهد في الزهد للإمام أحمد رضي الله عنه (صـ ٥ ، ٦) عن الحسن ، مرسلاً صحيحاً كما قال الألباني .
سلسلة الأحاديث الصحيحة / ح رقم (٥٤٤) .
وراجع / ح رقم (٢٤٨٤) من السلسلة الصحيحة .
والأخلاق لأبي الشيخ صـ (١٩٦ و ١٩٧) .
وانظر كنز العمال (١٥ / ٢٣٢، ٢٤٨) .
وأخرج البخاري (٩ / ٤٥١) في الأطعمة ، باب : الأكل متكئاً عن أبي جحيفة عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إني لا آكل متكئاً» وفي لفظ « لا آكل وأنا متكىء » . والله أعلم .

(٣) رواه البخاري (٤ / ٤٠٢) في البيوع ، باب كراهية السخب في الأسواق و (٨ / ٤٤٩) في التفسير ، باب : (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) من سورة الفتح .
ورواه الإمام أحمد (٢ / ١٧٤) .

تعالى : ﴿ ياعبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ [الزخرف : ٦٨،٦٩] . وعزل الشيطان عن سلطانه عليهم خاصة ، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . فقال : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : ٤٢] . وقال : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولّونه والذين هم به مشركون ﴾ [النحل : ٩٩،١٠٠] .

وجعل النبي صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان . فقال في حديث جبريل – وقد سأله عن الإحسان – : « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

فصل

في لزوم ﴿ إياك نعبد ﴾ لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : ٩٩] . وقال أهل النار : ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ [المدثر : ٤٦،٤٧] . واليقين ههنا : هو الموت بإجماع أهل التفسير . وفي الصحيح في قصة موت عثمان ابن مظعون رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه »[2] أي الموت وما فيه . فلا ينفك العبد من العبودية ما

---

(١) رواه مسلم (١ / ١٢٨ – ١٣٥) في أول الإيمان .
وأبو داود (٣ / ٤٥٩) في السنة ، باب : في القدر .
والنسائي (٨ / ٩٧) في الإيمان ، باب : نعت الإسلام .
والترمذي (٥ / ٨) في الإيمان ، باب : ما جاء في وصف جبريل .. إلخ .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع (٤ / ١٣٧) في الجنائز باب : الدخول على الميت .
و (٧ / ٣١٠) في مناقب الأنصار ، باب : مقدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة .
وعبد الرزاق في المصنف (١١ / ٢٣٧) برقم (٢٠٤٢٢) .

دام في دار التكليف ، بل عليه في البرزخ عبودية أخرى لمَّا يسأله الملكان « من كان يعبد ؟ وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ »[(١)] ويلتمسان منه الجواب .

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود ، فيسجد المؤمنون ، ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود ، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لايجدون له تعباً ولا نصبا .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو زنديق كافر بالله ورسوله ، وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله ، والانسلاخ من دينه ، وكلما تمكن العبد في منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكثر من الواجب على من دونه . ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل على جميع الرسل أعظم من الواجب على أممهم . والواجب على أولي العزم : أعظم من الواجب على من دونهم ، والواجب على أولي العلم : أعظم من الواجب على من دونهم ، وكل أحد بحسب مرتبته .

فصــــل

في انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، بَرُّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك . قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يَتَفَطَّرن منه وَتنْشَقُّ الأرض وتخُرُّ الجبال هَدًّا أن دَعَوْا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل

(١) انظر هذه المسألة تفصيلاً، والأحاديث الواردة فيها في كتاب الروح، لابن القيم رحمه الله (٤٦ – ٥٥).

من السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) [مريم : ٨٨-٩٣] . فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعالى : (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) [الفرقان : ١٧] . فسماهم عباده مع ضلالهم ، لكن تسمية مقيدة بالإشارة ، وأما المطلقة فلم تجيء إلا لأهل النوع الثاني ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) [الزمر : ٤٦] . وقال : (وما الله يريد ظلماً للعباد) [غافر : ٣١] . (إن الله قد حكم بين العباد) [غافر : ٤٨] . فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثاني : فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر . قال تعالى : (ياعبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) [الزخرف : ٦٨] . وقال : (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) [الزمر : ١٨] . وقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [الفرقان : ٦٣،٦٤] . وقال تعالى عن إبليس : (لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) [الحجر : ٣٩،٤٠] . فقال تعالى : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) [الحجر : ٤١] .

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته ، وأهل طاعته وولايته : هم عبيد إلهيته .

ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء .

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه :

إما منكرا . كقوله : (إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا) .

والثاني : معرفا باللام كقوله : (وما الله يريد ظلماً للعباد) [غافر : ٣١] . (إن الله قد حكم بين العباد) [غافر : ٤٨] .

الثالث : مقيداً بالإشارة أو نحوها كقوله : (أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء) .

الرابع : أن يذكروا في عموم عباده . فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر كقوله : (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) [الزمر : ٤٦] .

الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم . كقوله : (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) [الزمر : ٥٣] .

وقد يقال : إنما سماهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة .

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة : لأن أصل معنى اللفظة : الذل والخضوع . يقال : « طريق معبد » إذا كان مذللا بوطء الأقدام ، و « فلان عَبَّده الحب » إذا ذلله ، لكن أولياؤه خضعوا له وذلوا طوعاً واختيارا ، وانقياداً لأمره ونهيه ، وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغما .

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة : انقسام القنوت إلى خاص وعام ، والسجود كذلك . قال تعالى في القنوت الخاص : (أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) [الزمر : ٩] . وقال في حق مريم : (وكانت من القانتين) [التحريم : ١٢] . وهو كثير في القرآن .

وقال في القنوت العام : (بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون) [البقرة : ١١٦] . أي خاضعون أذلاء .

وقال في السجود الخاص : (إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون)[الأعراف: ٦٠] . وقال : (إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا) [مريم : ٥٨] . وهو كثير في القرآن .

وقال في السجود العام : (ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال) [الرعد : ١٥] .

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور في قوله : (ألم تر

أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) [الحج : ١٨] . فخص بالسجود هنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود في سورة النحل(١) وهو سجود الذل والقهر والخضوع فكل أحد خاضع لربوبيته ، ذليل لعزته ، مقهور تحت سلطانه تعالى .

فصل

في مراتب ﴿إياك نعبد﴾ علماً وعملا

للعبودية مراتب ، بحسب العلم والعمل ؛ فأما مراتبها العلمية فمرتبتان :

إحداهما : العلم بالله .

والثانية : العلم بدينه .

فأما العلم به سبحانه ، فخمس مراتب :

العلم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتنزيهه عما لا يليق به .

والعلم بدينه مرتبتان . **إحداهما** : دينه الأمر الشرعي . وهو الصراط المستقيم الموصل إليه .

والثانية : دينه الجزائي ، المتضمن ثوابه وعقابه . وقد دخل في هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله .

وأما مراتبها العملية فمرتبتان : مرتبة لأصحاب اليمين ، ومرتبة للسابقين المقربين .

فأما مرتبة أصحاب اليمين : فأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات ، وترك بعض المستحبات .

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ [النحل : ٤٩] .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات ، وترك المحرمات والمكروهات ، زاهدين فيما لا ينفعهم في معادهم ، متورعين عما يخافون ضرره .

وخاصتهم : قد انقلبت المباحات في حقهم طاعات وقربات بالنية .

فليس في حقهم مباح متساوي الطرفين، بل كل أعمالهم راجحة ، ومن دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات ، وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات ، ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله .

فصـــل

ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة . من كملها كمل مراتب العبودية .

وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح . وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التي للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح وهي لكل واحد من القلب واللسان ، والجوارح . فواجب القلب : منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية في العبادة ، وهذه قدر زائد على الإخلاص ، فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان .

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصدق . والفرق بينه وبين الإخلاص : أن للعبد مطلوباً وطلبا ، فالإخلاص : توحيد مطلوبه . والصدق : توحيد طلبه .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسماً . والصدق : أن لا يكون الطلب منقسماً . فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب . واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة . وكذلك النصح في العبودية ومدار الدين عليه . وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له . وأصل هذا واجب . وكماله مرتبة المقربين . وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان ، واجب مستحق ؛ وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين . وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن ، أو بضعاً وتسعين وله طرفان أيضاً . واجب مستحق ، وكماله مستحب .

وأما المختلف فيه فكالرضا ، فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية والقولان لأصحاب أحمد . فمن أوجبه قال : السخط حرام ؛ ولا خلاص عنه إلا بالرضا . ومالا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب . واحتجوا بأثر « من لم يصبر على بلائي ، ولم يرض بقضائي ، فليتخذ رباً سواي »[1] .

ومن قال هو مستحب ، قال : لم يجىء الأمر به في القرآن ولا في السنة بخلاف الصبر فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه . وكذلك التوكل قال : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) [يونس : ٨٤] . وأمر بالإنابة . فقال : (وأنيبوا إلى ربكم) [الزمر : ٥٤] . وأمر بالإخلاص كقوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [البينة : ٥] . وكذلك الخوف كقوله : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران : ١٧٥] . وقوله : (فلا تخشوهم واخشون) [البقرة : ١٥٥] . وقوله : (وإياي فارهبون) [البقرة : ٤٠] . وكذلك

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٢ / ٢٣٠) قال الهيثمي « سعيد بن أبي زياد بن هند متروك » مجمع الزوائد (٧ / ٢٠٧) .
وراجع سلسلة الأحاديث الضعيفة رقم (٥٠٦ و ٥٠٧) .

الصدق . قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) [التوبة : ١١٩] . وكذلك المحبة . وهي أفرض الواجبات . إذ هي قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها .

وأما الرضا : فإنما جاء في القرآن مدح أهله . والثناء عليهم لا الأمر به .

قالوا : وأما الأثر المذكور فإسرائيلي لا يحتج به .

قالوا : وفي الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع ، فإن في الصبر على ما تكره النفس خيرا كثيرا »(١) وهو في بعض السنن .

قالوا : وأما قولكم « لا خلاص عن السخط إلا به » فليس بلازم فإن مراتب الناس في المقدور ثلاثة . الرضا : وهو أعلاها ، والسخط وهو أسفلها والصبر عليه بدون الرضا به . وهو أوسطها فالأولى للمقربين السابقين . والثالثة للمقتصدين . والثانية : للظالمين ، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر . وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم وظن أنهما متباينان . وليس كما ظنه ، فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به ، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم . بصومه راض به ، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها . فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به . وهذا الخلاف بينهم ، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني ، وأما الرضا به رباً وإلهاً والرضا بأمره الديني . فمتفق على فرضيته . بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا. «أن يرضى بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً » ومن هذا أيضا اختلافهم في الخشوع في الصلاة وفيه قولان

---

(١) هذا جزء من حديث ابن عباس رضي الله عنهما - المشهور - .
وأخرجه بهذا اللفظ الحاكم (٣ /٥٤١) .
وأبو يعلى رقم (٩٦) في المعجم ، وغيرهما .
قال الألباني في السنة ١٣٨/١ : « وكلها لا تخلو من ضعف » .
ولكن الحديث صحّ من طرق أخرى .

للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره .

وعلى القولين اختلافهم في وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس في صلاته فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالي في إحيائه . ولم يوجبها أكثر الفقهاء واحتجوا بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر من سها في صلاته بسجدتي السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله « إن الشيطان يأتي أحدكم في صلاته ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا ، - لما لم يكن يذكر - حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى »(١) .

ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شيء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، ثلثها ، ربعها - حتى بلغ عشرها »(٢) .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » فليست صحيحة باعتبار ترتب كمال مقصودها عليها ، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة ولا ينبغي أن يعلق لفظ الصحة عليها . فيقال « صلاة صحيحة » مع أنه لا يثاب عليها فاعلها . والقصد : أن هذه الأعمال - واجبها ومستحبها - هي عبودية القلب فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح .

والمقصود أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائماً بعبوديته لله سبحانه هو ورعيته .

---

(١) رواه البخاري (٣ / ١٢٤) في السهو ، باب : إذا لم يدركم صلى .
ومسلم (٢ / ٢٠٥) في المساجد ، باب : السهو في الصلاة والسجود له .
وراجع المغني (٢ / ٤٠٣) باب : سجدتي السهو .

(٢) رواه أبو داود (٣/٣) في الصلاة ، باب ما جاء في نقصان الصلاة . وصححه الألباني كما في صفة الصلاة (صـ ٣٦) الطبعة الأولى الجديدة .

وأما المحرمات التي عليه : فالكبر ، والرياء ، والعجب ، والحسد ، والغفلة ، والنفاق وهي نوعان : كفر ومعصية .

فالكفر : كالشك والنفاق والشرك وتوابعها . « والمعصية نوعان : كبائر . وصغائر » .

فالكبائر : كالرياء والعجب والكبر والفخر والخيلاء والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشماتة بمصيبتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمني زوال ذلك عنهم ، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريماً من الزنا وشرب الخمر وغيرها من الكبائر الظاهرة ولا صلاح للقلب، ولا للجسد إلا باجتنابها ، والتوبة منها ، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها .

فوظيفة ﴿ **إياك نعبد** ﴾ على القلب قبل الجوارح فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد . وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه ، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضاً : شهوة المحرمات وتمنيها ، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتهي ، فشهوة الكفر والشرك : كفر ، وشهوة البدعة : فسق ، وشهوة الكبائر : معصية ، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب . وإن تركها عجزا عن بذله مقدوره في تحصيلها : استحق عقوبة الفاعل ، لتنزله منزلته في أحكام الثواب والعقاب ، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : هذا القاتل يارسول الله ، فما بال

المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[1] فنزله منزلة القاتل ، لحرصه في الإثم دون الحكم ، وله نظائر كثيرة في الثواب والعقاب .

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

فصـــل

وأما عبوديات اللسان الخمس : فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن . وهو ما يتوقف صحة صلاته عليه ، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود ، وأمر بقول « ربنا ولك الحمد » بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير .

ومن واجبه : رد السلام . وفي ابتدائه قولان . ومن واجبه : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة ، وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ودوام ذكر الله ، والمذاكرة في العلم النافع ، وتوابع ذلك .

وأما محرمه فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف وسب المسلم ، وأذاه بكل قول ، والكذب ، وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم ، وهو أشدها تحريما .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به ، مع عدم العقوبة عليه .

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (١ / ١٠٦) في الإيمان ، باب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . ومسلم (٥ / ٢٣٧) في الفتن .

وقد اختلف السلف . هل في حقه كلام مباح متساوي الطرفين ؟ على قولين . ذكرهما ابن المنذر[١] وغيره . **أحدهما** : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به : إما أن يكون له أو عليه . وليس في حقه شيء لا له ولا عليه .

واحتجوا بالحديث المشهور ، وهو « كل كلام ابن آدم عليه لا له ، إلا ما كان من ذكر الله وما والاه »[٢] .

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله . ولا يكتب إلا الخير والشر .

وقالت طائفة : بل هذا الكلام مباح لا له ولا عليه كما في حركات الجوارح.

قالوا : لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي . وهذا شأن المباح .

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين بل إما راجحة وإما مرجوحة . لأن للسان شأنا ليس لسائر الجوارح ، وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول : اتق الله فإنما نحن بك ، فإن استقمت استقمنا، وأن اعوججت اعوججنا . وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم ، وكل ما يتلفظ به اللسان ، فإما أن يكون مما يرضي الله ورسوله أو لا ، فإن كان كذلك فهو الراجح ، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح . وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح ، فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوى الطرفين ، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة ، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له ، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة ، وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة . فتأمله .

---

(١) ابن المنذر : الإمام الحافظ العلامة ، شيخ الإسلام ، أبو بكر ، محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الفقيه . صاحب التصانيف الحسان منها : « التفسير » و « الإشراف في اختلاف العلماء » ، وكتابه « الإجماع » و « المبسوط » وغيرها .
« سير أعلام النبلاء » للذهبي (١٤ / ٤٩٠) .
و « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي (٢ / ١٩٦) .

(٢) رواه الترمذي (٤ /٥٢٥) في الزهد ، باب منه . وقال : حسن غريب .
وابن ماجه (٢ / ١٣١٥) في الفتن ، باب : كف اللسان في الفتنة .

فإن قيل : فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل .

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة ، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لاتفيده . فتكون عليه لا له .

فإن قيل : فإذا كان الفعل متساوي الطرفين كانت حركة اللسان الوسيلة إليه كذلك ، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم .

قيل : لا يلزم ذلك . فقد يكون الشيء مباحاً ، بل واجبا ، ووسيلته مكروهة كالوفاء بالطاعة المنذورة : هو واجب ، مع أن وسيلته ، وهو النذر مكروه منهي عنه ، وكذلك الحلف المكروه مرجوح ، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة ، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة ، وهذا كثير جداً ، فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها ، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه .

فصـــل

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا : إذ الحواس خمسة ؛ وعلى كل حاسة خمس عبوديات ، فعلى السمع : وجوب الإنصات ، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه ، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة في أصح قولي العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة . من ردّه ، أو الشهادة على قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولا يجب أن يطلعك عليه ، ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه ، وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تخشى الفتنة بأصواتهن ، إذا لم تدع إليه حاجة ، من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء ، أو محاكمة ، أو مداواة ونحوها .

وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو ، كالعود والطنبور واليراع ونحوها . ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت ، وهو لا يريد استماعه ، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات ، فحينئذ يجب تجنب سماعها وجوب سد الذرائع .

ونظير هذا المحرم : لا يجوز له تعمد شم الطيب ، وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه ، ونظير هذا : نظرة الفجأة لا تحرم على الناظر ، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها .

وأما السمع المستحب : فكاستماع المستحب من العلم ، وقراءة القرآن ، وذكر الله ، واستماع كل ما يحبه الله ، وليس بفرض .

والمكروه : عكسه ، وهو استماع كل ما يكرهه ولا يعاقب عليه ، والمباح ظاهر .

وأما النظر الواجب : فالنظر في المصحف وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها وينفقها ويستمتع بها ، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ، ونحو ذلك .

والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا ، وبغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب ، والمستام والمعامل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذي المحرم.

والمستحب : النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيماناً وعلماً والنظر في المصحف ووجوه العلماء الصالحين والوالدين ، والنظر في آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

والمكروه : فضول النظر الذي لا مصلحة فيه . فإن له فضولاً كما للسان

فضولا ، وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها ، وأعيَى دواؤها . وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذي لا مضرة فيه فى العاجل والآجل ولا منفعة .

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات . وهي قسمان :

عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب .

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ففقأ عينه لم يكن عليه شيء ، وذهبت هدرا ، بنص[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته . وإن ضعفه بعض الفقهاء ، لكونه لم يبلغه النص ، أو تأوله ، وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أو ريبة هو مأمور أو مأذون له في اطلاعها .

وأما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه ، وخوف الموت . فإن تركه حتى مات ، مات عاصياً قاتلا لنفسه . قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات ، دخل النار .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن به من الهلاك ، على أصح القولين . وإن ظن الشفاء به ، فهل هو مستحب مباح ، أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر والسموم القاتلة . والذوق الممنوع منه للصوم الواجب .

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق طعام الفجاءة ، وهو الطعام الذي تفجأ آكله ، ولم يرد أن يدعوك إليه ، وكأكل أطعمة

(١) يقصد ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن امرءاً اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح » .
رواه البخاري في الديات (١٢ / ٢٥٣) باب : من اطلع في بيت قوم .
ومسلم (٤ / ٨٦٦) في الآداب ، باب تحريم النظر ..

المرائين في الولائم والدعوات ونحوها ، وفي السنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن طعام المتبارين »[١] وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل ما يعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه ، والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه . والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب .

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها ، للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم ، فالشم الواجب : كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام ، كالشم الذي يعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة ؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه ؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به ، وما لا يملك ؟ ومن هذا شم المقوِّم وربُّ الخِبْرة عند الحكم بالتقويم ، والعبيد ونحو ذلك .

وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب في الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق ، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات للافتتان بما وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ويقوي الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل . ومن هذا : هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك . ففي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم « من عُرض عليه ريحان فلا يرده فإنه طيب الريح ، خفيف المحمل »[٢] .

---

(١) رواه أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنه (١٠) في الأطعمة ، باب في طعام المتبارين وأشار أبو داود إلى إرساله عن عكرمة رضي الله عنه وصحح ذلك البغوي في المشكاة (٢/٩٦٢-٩٦٣) .
ورواه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه (٤/١٢٨-١٢٩) وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) رواه مسلم (٥ / ١٠٩) في الألفاظ ، باب : استعمال المسك .

والمكروه : كشم طيب الظَّلَمَة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

والمباح : مالا منع فيه من الله ولا تبعة ، ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس . فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها .

والحرام : لمس ما لا يحل من الأجنبيات .

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله.

والمكروه : لمس الزوجة في الإحرام للذة ، وكذلك في الاعتكاف ، وفي الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت - لغير غاسله - لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحي تكريما له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميص في أحد القولين ولمس فخذ الرجل ، إذا قلنا : هو عورة .

والمباح ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد والمشي بالرجل ، وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله : واجب . وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف ، والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة ، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر ، والأقوى في الدليل : وجوبه لدخوله في الاستطاعة ، وتمكنه بذلك من أداء النسك ، والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام : كقتل النفس التي حرم الله ، ونهب المال المغصوب ، وضرب

= وأبو داود (١١ / ٢٢٩) في الترجل ، باب في رد الطيب والنسائي (٨ / ١٨٩) في الزينة ، باب : الطيب .

من لا يحل ضربه ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد ، أو ما هو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة كالشطرنج ، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم . ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخاً ، إلا مقروناً بردها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم ، والحكم الجائر ، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم ، ولاسيما إن كسبت عليه مالا : (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) [البقرة : ٧٩] . وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً ، فالإثم موضوع عنه .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام ، وكتابة ما لا فائدة في كتابته ، ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل ما فيه منفعة في الدين ، أو مصلحة لمسلم ، والإحسان بيده بأن يعين صانعا ، أو يصنع لأخْرق ، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقِي ، أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ، ومنه : لمس الركن بيده في الطواف ، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان .

والمباح : ما لا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما المشي الواجب : فالمشي إلى الجمعات والجماعات ، في أصح القولين لبضعة وعشرين دليلا ، مذكورة في غير هذا الموضع ، والمشي حول البيت للطواف الواجب ، والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشي إلى حكم الله ورسوله إذا دُعي إليه ، والمشي إلى صلة رحمه ، وبر والديه ، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه ، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة و لم يكن عليه فيه ضرر .

والحرام : المشي إلى معصية الله ، وهو من رجل الشيطان . قال تعالى : (وأجلب عليهم بخيلك ورَجْلك) [الإسراء : ٦٤] . قال مقاتل : استعن عليهم

بركبان جندك ومشاتهم . فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس .

وكذلك تعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضا :

فواجبه في الركوب في الغزو والجهاد والحج الواجب .

ومستحبه : في الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وفي الوقوف بعرفة نزاع : هل الركوب فيه أفضل ، أم على الأرض ؟ والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم للمناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب في معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء : القلب ، واللسان ، والسمع ، والبصر والأنف، والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ [الفاتحة : ٥] . فإن المقصود بتقديم إياك – تعظيم الله سبحانه وتعالى والاهتمام بذكره مع إفادة اختصاص العبادة والاستعانة بالله تعالى ليصير الكلام حسناً متناسقاً ولو قال نعبدك ونستعينك لم يكن الكلام متناسباً[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ فيها عشرون مسألة :

---

(١) مدارج السالكين (١/٧-١٢٢) .

(٢) الفوائد المشوق (٨٢) .

أحدها : ما فائدة البدل في الدعاء والداعي مخاطب لمن لا يحتاج إلى البيان ، والبدل القصد به بيان الاسم الأول .

الثانية : ما فائدة تعريف ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ باللام وهلا أخبر عنه بمجرد اللفظ دونها ، كما قال : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢].

الثالثة : ما معنى الصراط ومن أي شيء اشتقاقه ولم جاء على وزن فعال ولم ذكر في أكثر المواضع في القرآن بهذا اللفظ وفي سورة الأحقاف ذكر بلفظ الطريق فقال : (يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) [الأحقاف : ٣٠] .

الرابعة : ما الحكمة في إضافته إلى قوله تعالى : ﴿ **الذين أنعمت عليهم** ﴾ بهذا اللفظ ولم يذكرهم بخصوصهم فيقول صراط النبيين والصديقين فلم عدل إلى لفظ المبهم دون المفسر .

الخامسة : ما الحكمة في التعبير عنهم بلفظ الذين مع صلتها دون أن يقال المنعم عليهم وهو أخصر كما قال : ﴿ **المغضوب عليهم** ﴾ وما الفرق .

السادسة : لم فرق بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم فقال في أهل النعمة الذين أنعمت وفي أهل الغضب المغضوب بحذف الفاعل .

السابعة : لم قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ فعدى الفعل بنفسه لم يعده بـ « إلى » كما قال تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢] . وقال تعالى : (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) [الأنعام : ٨٧] .

الثامن : أن قوله تعالى : ﴿ **الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم** ﴾ يقتضي أن نعمته مختصة بالأولين دون المغضوب عليهم ولا الضالين . وهذا حجة لمن ذهب إلى أنه لا نعمة له على كافر فهل هذا استدلال صحيح أم لا .

التاسعة : أن يقال لم وصفهم بلفظ غير وهلا قال تعالى لا المغضوب عليهم كما قال ولا الضالين . وهذا كما تقول مررت بزيد لا عمرو ، وبالعاقل لا الأحمق .

العاشرة : كيف جرت غير صفة على الموصول وهي لا تتعرف بالإضافة

وليس المحل محل عطف بيان إذ بابه الأعلام ولا محل لذلك إذ المقصود في باب البدل هو الثاني والأول توطئة وفي باب الصفات المقصود الأول والثاني بيان وهذا شأن هذا الموضع فإن المقصود ذكر المنعم عليهم ووصفهم بمغايرتهم معنى الغضب والضلال .

الحادية عشرة : إذا ثبت ذلك في البدل فالصراط المستقيم مقصود الأخبار عنه بذلك وليس في نية الطرح فكيف جاء صراط الذين أنعمت عليهم بدلا منه وما فائدة البدل هنا .

الثانية عشرة : إنه قد ثبت في الحديث الذي رواه الترمذي والإمام أحمد وأبو حاتم تفسير المغضوب عليهم بأنهم اليهود والنصارى بأنهم الضالون فما وجه هذا التقسيم والاختصاص وكل من الطائفتين ضال مغضوب عليه .

الثالثة عشرة : لم قدم المغضوب عليهم في اللفظ على الضالين .

الرابعة عشرة : لم أتى في أهل الغضب بصيغة مفعول المأخوذة من فعل ولم يأت في أهل الضلال بذلك فيقال المضلين بل أتى فيهم بصيغة فاعل المأخوذة من فعل .

الخامسة عشرة : ما فائدة العطف بـ« لا » هنا ولو قيل المغضوب عليهم والضالين لم يختل الكلام وكان أوجز .

السادسة عشرة : إذ قد عطف بها فيأتي العطف بها مع الواو للمنفي نحو ما قام زيد ولا عمرو وكقوله تعالى : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج) إلى قوله تعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) [التوبة: ٩١،٩٢] . وأما بدون الواو فبابها الإيجاب نحو مررت بزيد لا عمرو فهذه ست عشرة مسئلة في ذلك .

السابعة عشرة : هل الهداية هنا هداية التعريف والبيان أو هداية التوفيق والإلهام .

الثامنة عشرة : كل مؤمن مأمور بهذا الدعاء أمرا لازما لا يقوم غيره مقامه ولابد منه وهذا إنما نسأله في الصلاة بعد هدايته فما وجه السؤال لأمر حاصل وكيف يطلب تحصيل الحاصل .

التاسعة عشرة : ما فائدة الإتيان بضمير الجمع في اهدنا والداعي يسئل ربه لنفسه في الصلاة وخارجها ولا يليق به ضمير الجمع ولهذا يقول : (رب اغفر لى وارحمني وتب علي) .

العشرون : ما حقيقة الصراط المستقيم الذي يتصوره العبد وقت سؤاله فهذه أربع مسائل حقها أن تقدم أولا ولكن جر الكلام إليها بعد ترتيب المسائل الستة عشر .

فالجواب بعون الله وتعليمه فإنه لا علم لأحد من عباده إلا ما علمه ، ولا قوة له إلا بإعانته .

أما المسألة الأولى : وهي فائدة البدل من الدعاء أن الآية وردت في معرض التعليم للعباد والدعاء ، وحق الداعي أن يستشعر عند دعائها ما يجب عليه اعتقاده مما لا يتم الإيمان إلا به إذ الدعاء مخ العبادة[1] والمخ لا يكون إلا في عظم ؛ والعظم لا يكون إلا في لحم ودم ، فإذا وجب إحضار معتقدات الإيمان عند الدعاء وجب أن يكون الطلب ممزوجا بالثناء ، فمن ثم جاء لفظ الطلب للهداية والرغبة فيها مشوبا بالخير تصريحا من الداعي بمعتقده وتوسلا منه بذلك الاعتقاد الصحيح إلى ربه ، فكأنه متوسل إليه بإيمانه واعتقاده أن صراط الحق هو الصراط المستقيم ، وأنه صراط الذين اختصهم بنعمته ، وحباهم بكرامته فإذا قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ والمخالفون للحق يزعمون أنهم على الصراط المستقيم أيضاً

---

(١) ورد في حديث « ضعيف » رواه الترمذي (٥ / ٤٢٥) في الدعوات ، باب : فضل الدعاء ، وقال : غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . اهـ .
ويغني عنه الحديث الصحيح « الدعاء هو العبادة » رواه الترمذي (٥ / ٤٢٦) في الدعوات ، باب فضل الدعاء .
وقال الترمذي : حسن صحيح .

والداعي يجب عليه اعتقاد خلافهم وإظهار الحق الذي في نفسه ، فلذلك أبدل وبين لهم ليمرن اللسان على ما اعتقده الجنان ، ففي ضمن هذا الدعاء المهم الإخبار بفائدتين جليلتين ، **إحداهما** : فائدة الخبر ، **والفائدة الثانية** : فائدة لازم الخبر . فأما فائدة الخبر فهي الإخبار عنه بالاستقامة وأنه الصراط المستقيم الذي نصبه لأهل نعمته وكرامته ، وأما فائدة لازم الخبر فإقرار الداعي بذلك وتصديقه وتوسله بهذا الإقرار إلى ربه .

فهذه أربع فوائد : الدعاء بالهداية إليه . والخبر عنه بذلك . والإقرار ، والتصديق لشأنه . والتوسل إلى المدعو إليه بهذا التصديق ؛ وفيه فائدة خامسة : وهي أن الداعي إنما أمر بذلك لحاجته إليه وأن سعادته وفلاحه لا تتم إلا به فهو مأمور بتدبر ما يطلب وتصور معناه ، فذكر له من أوصافه ما إذا تصور في خلده وقام بقلبه كان أشد طلبا له وأعظم رغبة فيه ، وأحرص على دوام الطلب والسؤال له . فتأمل هذه النكت البديعة .

فصـــل

وأما المسألة الثانية : وهي تعريف الصراط باللام هنا ؛ فاعلم أن الألف واللام إذا دخلت على اسم موصوف اقتضت أنه أحق بتلك الصفة من غيره ، ألا ترى أن قولك جالس فقيها أو عالما ليس كقولك جالس الفقيه أو العالم ولا قولك أكلت طيبا كقولك الطيب ، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم « أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق » ثم قال : « ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق »[1] فلم يدخل الألف واللام على الأسماء المحدثة ، وأدخلها على اسم الرب تعالى ووعده وكلامه ، فإذا عرفت هذا فلو قال اهدنا صراطا مستقيما لكان الداعي إنما يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم على الإطلاق ، وليس المراد ذلك بل المراد الهداية إلى الصراط المعين ؛ الذي نصبه الله تعالى لأهل نعمته ، وجعله

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٣ / ٥) في التهجد ، باب : التهجد بالليل .
ومسلم (٢ / ٤٢٤) في صلاة المسافرين ، باب : صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاؤه بالليل .

طريقا إلى رضوانه وجنته وهو دينه الذي لا دين له سواه ، فالمطلوب أمر معين في الخارج والذهن ، لاشيء مطلق منكر ، واللام هنا للعهد العلمي الذهني وهو أنه طلب الهداية إلى سر معهود قد قام في القلوب معرفته والتصديق به وتميزه عن سائر طرق الضلال ، فلم يكن بد من التعريف (فإن قيل) لم جاء منكراً في قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم (ويهديك صراطاً مستقيما ﴾ [الفتح : ٢] .

وقوله تعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢] . وقوله تعالى : (واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم) [الأنعام : ٨٧] . وقوله تعالى : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) [الأنعام : ١٦١] .

فالجواب عن هذه المواضع بجواب واحد ؛ وهو أنها ليست في مقام الدعاء والطلب ، وإنما هي في مقام الإخبار من الله تعالى عن هدايته إلى صراط مستقيم ، وهداية رسوله إليه ، ولم يكن للمخاطبين عهد به ولم يكن معروفا لهم فلم يجىء معرفا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده ولاتقدمه في اللفظ معهود تكون اللام معروفة إليه ، وإنما تأتي لام العهد في أحد هذين الموضعين أعني أن يكون لها معهود ذهني أو ذكري لفظي وإذ لا واحد منهما في هذه المواضع ؛ فالتنكير هو الأصل وهذا بخلاف قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطا مستقيما هدى إليه أنبياءه ورسله وكان المخاطب سبحانه المسؤول من هدايته عالما به دخلت اللام عليه فقال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ .

وقال السهيلي[1] إن قوله تعالى : (ويهديك صراطا مستقيما) نزلت في

---

(١) الحافظ العلامة البارع أبو القاسم ، وأبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد ... السهيلي الإمام صاحب التصانيف الكبيرة منها :
« الروض الأنف » في شرح سيرة ابن هشام .
و « نتائج الفكر » وغيرها .
انظر « تذكرة الحفاظ » للذهبي (٤ / ١٣٤٨) .
« وفيات الأعيان » لابن خلكان (٣ / ١٤٣) .
و « شذرات الذهب » لابن العماد (٤ / ٢٧١) .

صلح الحديبية ، وكان المسلمون قد كرهوا ذلك الصلح ورأوا أن الرأي خلافه ، وكان الله تعالى عما يقولون ورسوله صلى الله عليه وسلم أعلم . فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآية فلم يرد صراطا مستقيما في الدين ، وإنما أراد صراطا في الرأي والحرب والمكيدة .

وقوله تبارك وتعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢] . أي تهدي من الكفر والضلال إلى صراط مستقيم ، ولو قال في هذا الموطن (إلى الصراط المستقيم) لجعل للكفر وللضلال حظا من الاستقامة إذ الألف واللام تنبىء أن ما دخلت عليه من الأسماء الموصولة أحق بذلك المعنى مما تلاه في الذكر أو ما قرب به في الوهم ولا يكون أحق به ؛ إلا والآخر فيه طرف منه .

وغير خاف ما في هذين الجوابين من الضعف والوهن . أما قوله إن المراد بقوله : (ويهديك صراطا مستقيماً) في الحرب والمكيدة ؛ فهضم لهذا الفضل العظيم والحظ الجزيل الذي امتن الله به على رسوله ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن هذه الآية أحب إليه من الدنيا وما فيها . ومتى سمى الله الحرب والمكيدة صراطا مستقيما ؟ وهل فسر هذه الآية أحد من السلف أو الخلف بذلك ؟ بل الصراط المستقيم ما جعله الله عليه من الهدى ودين الحق الذي أمره أن يخبر بأن الله تعالى هداه إليه في قوله : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) ثم فسره بقوله تعالى : (دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ونصب دينا هنا على البدل من الجار والمجرور أي هداني دينا قيما ، أفتراه يمكنه ههنا أن يقول إن الحرب والمكيدة فهذا جواب فاسد جدا (وتأمل) ما جمع الله سبحانه لرسوله في آية الفتح من أنواع العطايا وذلك خمسة أشياء .

أحدها : الفتح المبين .

والثاني : مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

والثالث : هدايته الصراط المستقيم .

والرابع : إتمام نعمته عليه .

والخامس : إعطاء النصر العزيز وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه . فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد ، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة وقهر أبدانهم باليد ، وهو سبحانه كثيرا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة ، وظهور دينه على الدين كله كقوله تعالى : (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) في موضعين في سورة [براءة : ٣٣] . وفي سورة [الصف : ٩] . وقال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) [الحديد : ٢٥] . فهذا الهدى ثم قال : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) [الحديد : ٢٥] .

فهذا النصر،فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر . وقال تعالى : (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) [آل عمران : ١-٤] . فذكر إنزال الكتاب الهادي والفرقان وهو النصر الذي يفرق بين الحق والباطل وسر اقتران النصر بالهدى أن كلا منهما يحصل به الفرقان بين الحق والباطل ، ولهذا سمى تعالى ما ينصر به عباده المؤمنين فرقانا كما قال تعالى : (إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) [الأنفال : ٢٩] . فذكر الأصلين ما أنزله على رسوله يوم الفرقان ؛ وهو يوم بدر وهو اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل بنصر رسوله ودينه وإذلال أعدائه وخزيهم ومن هذا قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) [الأنبياء : ٤٨] . فالفرقان : نصره له على فرعون وقومه ، والضياء والذكر: التوراة. هذا هو معنى الآية . ولم يصب من قال إن الواو زائدة ، وإن ضياء منصوب على الحال ، كما بينا فساده في (الأمالي المكية) فبين أن آية الفتح تضمنت الأصلين الهدى والنصر وأنه لايصح فيها غير ذلك البتة ، وأما جوابه الثاني عن قوله :(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)بأنه لو عرف لجعل للكفر والضلال حظا من الاستقامة فما أدري من أين جاء له هذا الفهم مع ذهنه الثاقب ، وفهمه البديع رحمه الله تعالى وما

هي إلا كبوة جواد ونبوة صارم افترى. قوله تعالى : ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ [الصافات : ١١٧:١١٨] . يفهم منه أن لغيره حظا من الاستقامة وما ثم غيره إلا طرق الضلال ، وإنما الصراط المستقيم واحد وهو ما هدى الله إليه أنبياءه ورسله أجمعين وهو الصراط المستقيم ؛ صراط الذين أنعمت عليهم ، وكذلك تعريفه في سورة الفاتحة هل يقال إنه يفهم منه أن لغيره حظا من الاستقامة ؟ بل يقال تعريفه ينبيء أن لا يكون لغيره حظ من الاستقامة ، فإن التعريف في قوة الحصر فكأنه قيل : الذي لا صراط مستقيم سواه ، وفهم هذا الاختصاص من اللفظ أقوى من فهم المشاركة فتأمله هنا وفي نظائره .

فصل

وأما المسألة الثالثة : وهي اشتقاق الصراط ، فالمشهور أنه من صرطت الشيء أصرطه إذا بلعته بلعا سهلا فسمي الطريق صراطا لأنه يسترط المارة فيه . والصراط ما جمع خمسة أوصاف : أن يكون طريقا مستقيما ، سهلا ، مسلوكا ، واسعا ، موصلا إلى المقصود . فلا تسمي العرب الطريق المعوج صراطا ولا الصعب المشق ولا المسدود غير الموصل ، ومن تأمل موارد الصراط في لسانهم واستعمالهم تبين له ذلك قال جرير(١) :

أميرُ المؤمنين عَلَى صِرَاطٍ ... إذا اعوجَّ المَوَارِدُ مُسْتَقيمِ

وبنوا الصراط على زنة فعال ، لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط ، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء كاللحاف والخمار والرداء والغطاء والفراش والكتاب إلى سائر الباب يأتي لثلاثة معان :

أحدها : المصدر كالقتال والضرب .

---

(١) هو جرير بن عطية الخطفي ..
وهو من فحول الشعراء ، كان شبِّه من شعراء الجاهلية بالأعشى .
الشعر والشعراء (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٣٢) .
والبيت من ديوانه (٥٠٧) .

والثاني : المفعول نحو الكتاب والبناء والغراس .

والثالث : أنه يقصد به قصد الآلة . التي يحصل بها الفعل ويقع بها كالخمار والغطاء والسداد لما يخمر به ويغطى ويسد به ، فهذا آلة محضة والمفعول هو الشيء المخمر والمغطى والمسدود ، ومن هذا القسم الثالث إله بمعنى مألوه ، وأما ذكره له بلفظ الطريق في سورة الأحقاف خاصة فهذا حكاية الله تعالى لكلام مؤمني الجن أنهم قالوا لقومهم : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) [الأحقاف : ٣٠] . وتعبيرهم عنه ههنا بالطريق فيه نكتة بديعة وهي أنهم قدموا قبله ذكر موسى وأن الكتاب الذي سمعوه مصدقا لما بين يديه من كتاب موسى وغيره ، فكان فيه كالنبأ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله لقومه : (ما كنت بدعا من الرسل) [الأحقاف : ٩] . أي لم أكن أول رسول بعث إلى أهل الأرض بل قد تقدمت رسل من الله إلى الأمم وإنما بعثت مصدقا لهم بمثل ما بعثوا به من التوحيد والإيمان فقال مؤمنو الجن : (إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) أي إلى سبيل مطروق ؛ قد مرت عليه الرسل قبله وأنه ليس ببدع كما قال في أول السورة نفسها ، فاقتضت البلاغة والإعجاز لفظ الطريق ؛ لأنه فعيل بمعنى مفعول أي مطروق مشت عليه الرسل والأنبياء قبل ، فحقيق على من صدق رسل الله وآمن بهم أن يؤمن به ويصدقه ، فذكر الطريق ههنا إذاً أولى لأنه أدخل في باب الدعوة والتنبيه على تعين اتباعه والله أعلم . ثم رأيت هذا المعنى بعينه قد ذكره السهيلي[(١)] فوافق فيه الخاطر الخاطر .

فصـــل

وأما المسألة الرابعة : وهي إضافته إلى الموصول المبهم دون أن يقول صراط النبيين والمرسلين ففيه ثلاث فوائد :

---

(١) ذكره السهيلي – رحمه الله تعالى – في كتابه الممتع النفيس « نتائج الفكر » ص (٥٩) ، وما بعدها ، في بحث نفيس في معنى قوله تعالى : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

(**إحداها**) إحضار العلم وإشعار الذهن عند سماع هذا فإن استحقاق كونهم من المنعم عليهم هو بهدايتهم إلى هذا الصراط فبه صاروا من أهل النعمة وهذا كما يعلق الحكم بالصلة دون الاسم الجامد لما فيه من الإنعام باستحقاق ما علق عليها من الحكم بها وهذا كقوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) [البقرة : ٢٧٤] . (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) [الزمر : ٣٣] . (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم) [الأحقاف : ١٣] . وهذا الباب مطرد فالإتيان بالاسم موصولاً على هذا المعنى من ذكر الاسم الخاص .

(**الفائدة الثانية**) فيه إشارة إلى أن نفي التقليد عن القلب واستشعار العلم بأن من هدي إلى هذا الصراط ، فقد أنعم عليه فالسائل مستشعر سؤاله الهداية وطلب الإنعام من الله عليه ، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله ؛ **أن الأول** : يتضمن الإخبار بأن أهل النعمة هم أهل الهداية إليه **والثانى** : يتضمن الطلب والإرادة وأن تكون منه .

(**الفائدة الثالثة**) أن الآية عامة في جميع طبقات المنعم عليهم ، ولو أتى باسم خاص لكان لم يكن فيه سؤال الهداية إلى صراط جميع المنعم عليهم فكان في الإتيان بالاسم العام من الفائدة أن المسؤل الهدى إلى جميع تفاصيل الطريق التي سلكها كل من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وهذا أجل مطلوب وأعظم مسؤول ولو عرف الداعي قدر هذا السؤال لجعله هجيراه وقرنه بأنفاسه فإنه لم يدع شيئا من خير الدنيا والآخرة إلا تضمنه . ولما كان بهذه المثابة فرضه الله على جميع عباده فرضا متكررا في اليوم والليلة لا يقوم غيره مقامه ومن ثم يعلم تعين الفاتحة في الصلاة وأنها ليس منها عوض يقوم مقامها .

فصـــل

وأما المسألة الخامسة : وهي أنه قال : ﴿ **الذين أنعمت عليهم** ﴾ ولم يقل المنعم عليهم كما قال المغضوب عليهم فجوابها وجواب المسئلة السادسة واحد ،

وفيه فوائد عديدة :

(**أحدها**) أن هذا جاء على الطريقة المعهودة في القرآن وهي أن أفعال الإحسان والرحمة والجود تضاف إلى الله سبحانه وتعالى فيذكر فاعلها منسوبة إليه ولا يبنى الفعل معها للمفعول ، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف الفاعل وبني الفعل معها للمفعول أدبا في الخطاب وإضافته إلى الله أشرف قسمي أفعاله فمنه هذه الآية ، فإنه ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها ، ولما ذكر الغضب حذف الفاعل وبني الفعل للمفعول فقال : (المغضوب عليهم) وقال في الإحسان : (الذين أنعمت عليهم) . ونظيره قول إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه : (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) [الشعراء : ٧٨-٨٠] . فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى ولما جاء إلى ذكر المرض ، قال وإذا مرضت ولم يقل أمرضني وقال فهو يشفين ومنه قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن : (وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ [الجن : ١٠] . فنسبوا إرادة الرشد إلى الرب وحذفوا فاعل إرادة الشر وبنوا الفعل للمفعول ، ومنه قول الخضر عليه الصلاة والسلام في السفينة فأردت أن أعيبها فأضاف العيب إلى نفسه . وقال في الغلامين : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) [الكهف : ٨٢] . ومنه قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) [البقرة : ١٨٧] . فحذف الفاعل وبناه للمفعول وقال : (وأحل الله البيع وحرم الربا) [البقرة : ٢٧٥] . لأن في ذكر الرفث ما يحسن منه أن لا يقترن بالتصريح بالفاعل ومنه : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) [المائدة : ٣] . وقوله : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) [الأنعام : ١٥١] . إلى آخرها . ومنه وهو ألطف من هذا وأدق معنى قوله : (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ [النساء : ٢٣] . إلى آخرها ثم قال : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) [النساء : ٢٤] . وتأمل قوله : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) [النساء : ١٦٠] . كيف صرح بفاعل التحريم في هذا الموضع وقال في حق المؤمنين : (حرمت عليكم الميتة والدم) .

(**الفائدة الثانية**) أن الإنعام بالهداية يستوجب شكر المنعم بها وأصل الشكر ذكر المنعم والعمل بطاعته وكان من شكره إبراز الضمير المتضمن لذكره تعالى الذي هو أساس الشكر وكان في قوله : ﴿ **أنعمت عليهم** ﴾ من ذكره وإضافته النعمة إليه ما ليس في ذكر المنعم عليهم لو قاله ، فضمن هذا اللفظ الأصلين وهما الشكر والذكر المذكوران في قوله (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) [البقرة : ١٥٢] .

(**الفائدة الثالثة**) أن النعمة بالهداية إلى الصراط لله وحده وهو المنعم بالهداية دون أن يشركه أحد في نعمته فاقتضى اختصاصه بها أن يضاف إليه بوصف الإفراد فيقال أنعمت عليهم أي أنت وحدك المنعم المحسن المتفضل بهذه النعمة وأما الغضب فإن الله سبحانه غضب على من لم يكن من أهل الهداية إلى هذا الصراط وأمر عباده المؤمنين بمعاداتهم وذلك يستلزم غضبهم عليهم موافقة لغضب ربهم عليهم فموافقته تعالى تقتضي أن يغضب على من غضب عليه ، ويرضى عمن رضي عنه فيغضب لغضبه ويرضى لرضاه ، وهذا حقيقة العبودية ، واليهود قد غضب الله عليهم ، فحقيق بالمؤمنين الغضب عليهم فحذف فاعل الغضب وقال المغضوب عليهم لما كان للمؤمنين نصيب من غضبهم على من غضب الله عليه بخلاف الإنعام فإنه لله وحده فتأمل هذه النكتة البديعة .

(**الفائدة الرابعة**) أن المغضوب عليهم في مقام الإعراض عنهم وترك الالتفات إليهم والإشارة إلى نفس الصفة التي لهم والاقتصار عليها ، وأما أهل النعمة فهم في مقام الإشارة إليهم وتعيينهم والإشارة بذكرهم ، وإذا ثبت هذا فالألف واللام في المغضوب وإن كانتا بمعنى الذين فليست مثل الذين في التصريح والإشارة إلى تعيين ذات المسمى فإن قولك الذين فعلوا معناه القوم الذين فعلوا وقولك الضاربون والمضربون ليس فيه مافي قولك الذين ضربوا أو ضربوا فتأمل ذلك . فالذين أنعمت عليهم إشارة إلى تعريفهم بأعيانهم وقصد ذواتهم بخلاف المغضوب عليهم ، فالمقصود التحذير من صفتهم والإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم والمعول عليه من الأجوبة ما تقدم .

فصـــل

وأما المسألة السابعة : وهي تعدية الفعل هنا بنفسه دون حرف « إلى » فجوابها أن فعل الهداية يتعدى بنفسه تارة وبحرف إلى تارة وباللام تارة ، والثلاثة في القرآن فمن المعدى بنفسه هذه الآية وقوله : (ويهديك صراطا مستقيما) [الفتح : ٢] . ومن المعدى بـ« إلى » قوله : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) [الشورى : ٥٢]. وقوله تعالى : (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) [الأنعام : ١٦١] . ومن المعدى باللام قوله قول أهل الجنة : (الحمد لله الذي هدانا لهذا) [الأعراف : ٤٣]. وقوله تعالى: (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [الإسراء : ٩]. والفروق لهذه المواضع تدق جدا عن أفهام العلماء ولكن نذكر قاعدة نشير إلى الفرق وهي أن الفعل المعدى بالحروف المتعددة لابد أن يكون له مع كل حرف معنى زائد على معنى الحرف الآخر وهذا بحسب اختلاف معاني الحروف فإن ظهر اختلاف الحرفين ظهر الفرق نحو : رغبت عنه ، ورغبت فيه وعدلت إليه ، وعدلت عنه وملت إليه وعنه ، وسعيت إليه وبه ، وإن تفاوت معنى الأدوات عسر الفرق نحو : قصدت إليه ، وقصدت له ، وهديته إلى كذا ، وهديته لكذا وظاهرية النحاة يجعلون أحد الحرفين بمعنى الآخر ، وأما فقهاء أهل العربية فلا يرتضون هذه الطريقة بل يجعلون للفعل معنى مع الحرف ، ومعنى مع غيره فينظرون إلى الحرف وما يستدعي من الأفعال فيشربون الفعل المتعدي به معناه هذه طريقة إمام الصناعة سيبويه[(١)] رحمه الله تعالى ، وطريقة حذاق أصحابه يضمنون الفعل معنى الفعل لا يقيمون الحرف مقام الحرف وهذه قاعدة شريفة

---

(١) سيبويه : إمام النحو ، حجة العرب ، أبو بشر ، عمرو بن عثمان بن قنبر الفارسي ، ثم البصري . صاحب « الكتاب » الذي لم ينسج مثله . وسيبويه تعني « رائحة التفاح » .
عاش اثنتين وثلاثين سنة ، وقيل : نحو الأربعين ، قيل : مات سنة ثمانين ومئة وهو أصح ، وقيل : سنة ثمان وثمانين ومئة .
من سير أعلام النبلاء (٨ / ٣٥١) .
تاريخ بغداد (١٢ / ١٩٥) .

جليلة المقدار تستدعي فطنة ولطافة في الذهن ، وهذا نحو قوله تعالى : (عينا يشرب بها عباد الله) [الإنسان : ٦] . فإنهم يضمنون يشرب معنى يروي ، فيعدونه بالباء التي تطلبها فيكون في ذلك دليل على الفعلين **أحدهما** : بالتصريح به **والثاني** : بالتضمن والإشارة إليه بالحرف الذي يقتضيه مع غاية الاختصار وهذا من بديع اللغة ومحاسنها وكمالها . ومنه قوله في السحاب : شربن بماء البحر حتى روين ثم ترفعن وصعدن . وهذا أحسن من أن يقال يشرب منها فإنه لا دلالة فيه على الري ، وأن يقال يروى بها لأنه لا يدل على الشرب بصريحه بل باللزوم فإذا قال يشرب بها دل على الشرب بصريحه وعلى الري بخلاف الباء فتأمله . ومن هذا قوله تعالى : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه) [الحج : ٢٥] . وفعل الإرادة لا يتعدى بالباء ولكن ضمن معنى يهم فيه بكذا ، وهو أبلغ من الإرادة فكان في ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة وإن لم تكن جازمة وهذا باب واسع لو تتبعناه لطال الكلام فيه ويكفي المثالان المذكوران فإذا عرفت هذا ففعل الهداية متى عدي بـ «إلى» تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة فأتي بحرف الغاية، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين فإذا قلت هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام. فالقائل إذا قال: اهدنا الصراط المستقيم هو طالب من الله أن يعرفه إياه ويبينه له ويلهمه إياه ويقدره عليه فيجعل في قلبه علمه وإرادته والقدرة عليه ، فجرد الفعل من الحرف وأتى به مجردا معدى بنفسه ليتضمن هذه المراتب كلها ، ولو عدي بحرف تعين معناه وتخصص بحسب معنى الحرف ، فتأمله فإنه من دقائق اللغة وأسرارها .

فصـــل

وأما المسألة الثامنة : وهي أنه خص أهل السعادة[1] بالهداية دون غيرهم

(١) وفي نسخة خص أهل الهداية بالنعمة دون غيرهم .

فهذه مسألة اختلف الناس فيها وطال الحجاج من الطرفين ؛ وهي أنه هل لله على الكافر نعمة أم لا فمن ناف محتج بهذه وبقوله : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) [النساء : ٦٩] . فخص هؤلاء بالإنعام فدل على أن غيرهم غير منعم عليه ولقوله لعباده المؤمنين : (ولأتم نعمتي عليكم) [البقرة : ١٥٠] . وبأن الإنعام ينافي الانتقام والعقوبة فأي نعمة على من خلق للعذاب الأبدي . ومن مثبت محتج بقوله : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) وقوله لليهود : (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) [البقرة : ٤٠]. وهذا خطاب لهم في حال كفرهم، وبقوله في سورة النحل التي عدد فيها نعمه المشتركة على عباده من أولها إلى قوله : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) [النحل : ٨٢،٨٣] . وهذا نص صريح لا يحتمل صرفا ، واحتجوا بأن البر والفاجر والمؤمن والكافر كلهم يعيش في نعمة الله ، وكل أحد مقر لله تعالى بأنه إنما يعيش في نعمته وهذا معلوم بالاضطرار عند جميع أصناف بني آدم إلا من كابر وجحد حق الله تعالى وكفر بنعمته . وفصل الخطاب في المسألة أن النعمة المطلقة مختصة بأهل الإيمان لا يشركهم فيها سواهم ، ومطلق النعمة عام للخليقة كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم ، فالنعمة المطلقة التامة هي المتصلة بسعادة الأبد وبالنعيم المقيم فهذه غير مشتركة ومطلق النعمة عام مشترك فإذا أراد النافي سلب النعمة المطلقة أصاب وإن أراد سلب مطلق النعمة أخطأ وإن أراد المثبت إثبات النعمة المطلقة للكافر أخطأ وإن أراد إثبات مطلق النعمة أصاب ، وبهذا تتفق الأدلة ، ويزول النزاع ؛ ويتبين أن كل واحد من الفريقين معه خطأ وصواب ، والله الموفق للصواب .

وأما قوله تعالى : (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) [البقرة : ٤٠] . فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ولهذا يعددها عليهم واحدة واحدة بأن أنجاهم من آل فرعون ، وأن فرق بهم البحر ، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم ، وبأن ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم ، وإنما كانت لأسلافهم

وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله ، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ولم ينقد لدينه وطاعته ، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكرا ، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ومعاداتكم إياه وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم ، والله أعلم .

فصل

وأما المسألة التاسعة : وهي أنه قال ﴿ **غير المغضوب** ﴾ ولم يقل لا المغضوب عليهم فيقال : لا ريب أن « لا » يعطف بها بعد الإيجاب كما تقول جاءني زيد لا عمرو وجاءني العالم لا الجاهل وأما غير فهي تابع لما قبلها وهي صفة ليس إلا كما سيأتي، وإخراج الكلام هنا مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف وهذا إنما يعلم إذا عرف فرق ما بين العطف في هذا الموضع ، والوصف فتقول لو أخرج الكلام مخرج العطف وقيل صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم لم يكن في العطف بها أكثر من نفي إضافة الصراط إلى المغضوب عليهم كما هو مقتضى العطف فإنك إذا قلت جاءني العالم لا الجاهل لم يكن في العطف أكثر من نفي المجيء عن الجاهل وإثباته للعالم وأما الإتيان بلفظ غير فهي صفة لما قبلها فأفاد الكلام معها وصفهم بشيئين **أحدهما** : أنهم منعم عليهم **والثاني** : أنهم غير مغضوب عليهم فأفاد ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم فإنه يتضمن صفتين صفة ثبوتية وهي كونهم منعما عليهم وصفة سلبية وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب ، وأنهم مغايرون لأهله ولهذا لما أريد بها هذا المعنى جرت صفة على المنعم عليهم ، ولم تكن صفة منصوبة على الاستثناء لأنها يزول منها معنى الوصفية المقصود وفيها فائدة أخرى وهي أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ادعوا أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام فكأنه قيل لهم المنعم عليهم غيركم لا أنتم وقيل للمسلمين المغضوب عليهم غيركم لا أنتم فالإتيان بلفظة غير في هذا السياق أحسن وأدل على إثبات المغايرة المطلوبة فتأمله وتأمل.

كيف قال المغضوب عليهم ولا الضالين ولم يقل اليهود والنصارى مع أنهم هم الموصوفون بذلك تجريدا لوصفهم بالغضب والضلال الذي به غايروا المنعم عليهم ، ولم يكونوا منهم بسبيل لأن الإنعام المطلق ينافي الغضب والضلال فلا يثبت لمغضوب عليه ولا ضال فتبارك من أودع كلامه من الأسرار ما يشهد بأنه تنزيل من حكيم حميد .

فصـــل

وأما المسألة العاشرة : وهي جريان غير صفة على المعرفة وهي لا تتعرف بالإضافة ففيه ثلاثة أجوبة :

أحدها : أن غير هنا بدل لا صفة وبدل النكرة من المعرفة جائز وهذا فاسد من وجوه ثلاثة .

أحدها : أن باب البدل المقصود فيه الثاني والأول توطئة له ومهاد أمامه وهو المقصود بالذكر فقوله تعالى : (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) [آل عمران : ٩٧] . المقصود هو أهل الاستطاعة خاصة وذكر الناس قبلهم توطئة وقولك أعجبني زيد علمه إنما وقع الإعجاب على علمه وذكرت صاحبه توطئة لذكره وكذا قوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) [البقرة : ٢١٧] . المقصود إنما هو السؤال عن القتال في الشهر الحرام لا عن نفس الشهر وهذا ظاهر جدا في بدل البعض وبدل الاشتمال ويراعى في بدل الكل من الكل ولهذا سمي بدلا إيذانا بأنه المقصود فقوله : (لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة) [العلق : ١٥،١٦] . المقصود لنسفعن بالناصية الكاذبة الخاطئة ، وذكر المبدل منه توطئة لها وإذا عرف هذا ؛ فالمقصود هنا ذكر المنعم عليهم وإضافة الصراط إليهم ومن تمام هذا المقصود وتكميله الإخبار بمغايرتهم للمغضوب عليهم فجاء ذكر غير المغضوب مكملا لهذا المعنى ومتمما ومحققا لأن أصحاب الصراط المسئول هدايته هم أهل النعمة فكونهم غير مغضوب عليهم وصف محقق وفائدته فائدة الوصف المبين للموصوف المكمل له، وهذا واضح .

الوجه الثاني : أن البدل يجري مجرى توكيد المبدل وتكريره وتثنيته ولهذا كان في تقدير تكرار العامل وهو المقصود بالذكر كما تقدم فهو الأول بعينه ذاتا ووصفا وإنما ذكر بوصف آخر مقصود بالذكر كقوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ ولهذا يحسن الاقتصار عليه دون الأول ، ولا يكون مخلا بالكلام ألا ترى أنك لو قلت في غير القرآن لله حج البيت على من استطاع إليه السبيل لكن كاملا مستقيما لا خلل فيه ولو قلت في دعائك رب اهدني صراط من أنعمت عليه من عبادك لكان مستقيما ، وإذا كان كذلك فلو قدر الاقتصار على غير وما في حيزها لاختل الكلام وذهب معظم المقصود منه ؛ إذ المقصود إضافة الصراط إلى الذين أنعم الله عليهم لا إضافته إلى غير المغضوب عليهم بل أتى بلفظ غير زيادة في وصفهم والثناء عليهم فتأمله .

الوجه الثالث : أن غير لا يعقل ورودها بدلا وإنما ترد استثناء أو صفة أو حالا . وسر ذلك أنها لم توضع مستقلة بنفسها بل لا تكون إلا تابعة لغيرها ولهذا قلما يقال جاءني غير زيد ومررت بغير عمرو والبدل لابد أن يكون مستقلا بنفسه كما تبين أنه المقصود ونكتة الفرق أنك في باب البدل قاصد إلى الثانى متوجه إليه ، قد جعلت الأول سلما ومرقاة إليه فهو موضع قصدك ومحط إرادتك وفي باب الصفة بخلاف ذلك إنما أنت قاصد الموصوف موضح له بصفته ، فاجعل هذه النكتة معياراً على باب البدل والوصف ثم زن بها غير المغضوب عليهم هل يصح أن يكون بدلا أو وصفا ؟ .

الجواب الثاني : أن غير ههنا صح جريانه صفة على المعرفة لأنها موصولة والموصول مبهم غير معين ففيه رائحة من النكرة لإبهامه فإنه غير دال على معين فصلح وصفه بغير لقربه من النكرة وهذا جواب صاحب الكشاف قال : (فإن قلت :) كيف صح أن يقع غير صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف قلت : الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه فهو كقوله :

ولقد أمر على اللئيم يسبني فمضيت ثمت قلت لا يعنيني

ومعنى قوله : لا توقيت فيه . أي لا تعيين لواحد من واحد كما تعين المعرفة

بل هو مطلق في الجنس فجرى مجرى النكرة واستشهاده بالبيت معناه أن الفعل نكرة وهو يسبني وقد أوقعه صفة للئيم المعرفة[1] باللام لكونه غير معين فهو في قوة النكرة فجاز أن ينعت بالنكرة وكأنه قال على لئيم يسبني وهذا استدلال ضعيف فإن قوله يسبني حال منه لا وصف ، والعامل فيه فعل المرور. المعنى أمر على اللئيم ساباً لي أي أمر عليه في هذه الحال فأتجاوزه ولا أحتفل بسبه .

الجواب الثالث : وهو الصحيح أن غير ههنا قد تعرفت بالإضافة فإن المانع لها من تعريفها شدة إبهامها أو عمومها في كل مغاير للمذكور فلا يحصل بها تعيين ولهذا تجري صفة على النكرة فتقول رجل غيرك يقول كذا ويفعل كذا فتجري صفة للنكرة مع إضافتها إلى المعرفة ومعلوم أن هذا الإبهام يزول لوقوعها بين متضادين يذكر أحدهما ثم تضيفها إلى الثاني فيتعين بالإضافة ويزول الإبهام الذي يمنع تعريفها بالإضافة كما قال :

نحن بنو عمرو الهجان الأزهر النسب المعروف غير المنكر

أفلا تراه أجرى غير المنكر صفة على النسب كما أجرى عليه المعروف لأنهما صفتان معينتان فلا إبهام في غير لأن مقابلها المعروف وهو معرفة وضده المنكر متميز متعين كتعين المعروف أعني تعين الجنس وهكذا قوله : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ فالمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم فإذا كان الأول معرفة كانت غير معرفة لإضافتها إلى محصل متميز غير مبهم ، فاكتسبت منه التعريف وينبغي أن تتفطن ههنا لنكتة لطيفة في غير تكشف لك حقيقة أمرها فأين تكون معرفة وأين تكون نكرة وهي أن «غير» هي نفس ما تكون تابعة له وضد ما هي مضافة إليه فهي واقعة على متبوعها وقوع الاسم المرادف على مرادفه فإن المعروف هو تفسير غير المنكر ، والمنعم عليهم هم غير المغضوب عليهم ، هذا حقيقة اللفظة فإذا كان متبوعها نكرة لم تكن إلا نكرة وإن أضيفت كما إذا قلت رجل غيرك فعل كذا وكذا وإذا كان متبوعها معرفة لم تكن إلا معرفة كما إذا قيل المحسن غير المسيء محبوب معظم عند الناس ، والبر غير الفاجر مهيب ، والعادل غير

(١) في نسخة المعرف .

الظالم مجاب الدعوة فهذا لا تكون فيه غير إلا معرفة ومن ادعى فيها التنكير هنا غلط وقال ما لا دليل عليه إذ لا إبهام فيها بحال فتأمله (فإن قلت) عدم تعريفها بالإضافة له سبب آخر وهي أنها بمعنى مغاير اسم فاعل من غاير كمثل بمعنى مماثل وشبه بمعنى مشابه وأسماء الفاعلين لا تعرف بالإضافة وكذا ما ناب عنها قلت اسم الفاعل إنما لا يتعرف بالإضافة إذا أضيف إلى معموله لأن الإضافة في تقدير الانفصال نحو هذا ضارب زيد غدا وليست غير بعاملة فيما بعدها عمل اسم الفاعل في المفعول حتى يقال الإضافة في تقدير الانفصال بل إضافتها إضافة محضة كإضافة غيرها من النكرات . ألا ترى أن قولك غيرك بمنزلة قولك سواك ولافرق بينهما والله أعلم .

فصـــل

وأما المسألة الحادية عشرة : وهي ما فائدة إخراج الكلام في قوله : (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) مخرج البدل مع أن الأول في نية الطرح ؟ (فالجواب) أن قولهم الأول في البدل في نية الطرح كلام لا يصح أن يؤخذ على إطلاقه بل البدل نوعان : نوع يكون الأول فيه في نية الطرح وهو بدل البعض من الكل وبدل الاشتمال لأن المقصود هو الثاني لا الأول وقد تقدم ونوع لا ينوي فيه طرح الأول وهو بدل الكل من الكل بل يكون الثاني بمنزلة التذكير والتوكيد وتقوية النسبة مع ما تعطيه النسبة الإسنادية إليه من الفائدة المتجددة الزائدة على الأول فيكون فائدة البدل التوكيد والإشعار بحصول وصف المبدل للمبدل منه فإنه لما قال : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ فكأن الذهن طلب معرفة ما إذا كان هذا الصراط مختصاً بنا أم سلكه غيرنا ممن هداه الله فقال : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ وهذا كما إذا دللت رجلا على طريق لا يعرفها وأردت توكيد الدلالة وتحريضه على لزومها وأن لا يفارقها فأنت تقول هذه الطريق الموصلة إلى مقصودك ثم تزيد ذلك عنده توكيداً وتقوية فتقول وهي الطريق التي سلكها الناس والمسافرون وأهل النجاة . أفلا ترى كيف أُفاد وصفك

لها بأنها طريق السالكين الناجين قدرا زائدا على وصفك لها بأنها طريق موصلة وقريبة سهلة مستقيمة فإن النفوس مجبولة على التأسي والمتابعة فإذا ذكر لها من تتأسى به في سلوكها أنست واقتحمتها ، فتأمله .

فصـــل

وأما المسألة الثانية عشرة : وهي ما وجه تفسير المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى مع تلازم وصفي الغضب والضلال ؟ (فالجواب) أن يقال هذا ليس بتخصيص يقتضي نفي كل صفة عن أصحاب الصفة الأخرى فإن كل مغضوب عليه ضال وكل ضال مغضوب عليه ، لكن ذكر كل طائفة بأشهر وصفيها وأحقها به وألصقه بها وأن ذلك هو الوصف الغالب عليهما ، وهذا مطابق لوصف الله اليهود بالغضب في القرآن والنصارى بالضلال فهو تفسير للآية بالصفة التي وصفهم بها في ذلك الموضع . أما اليهود فقال تعالى في حقهم : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فبآءو بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) [البقرة : ٩٠] . وفي تكرار هذا الغضب هنا أقوال :

أحدها : أنه غضب متكرر في مقابلة تكرر كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم والبغي عليه ومحاربته فاستحقوا بكفرهم غضبا وبالبغي والحرب والصد عنه غضبا آخر . ونظيره قوله تعالى : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب) [النحل : ٨٨] . فالعذاب الأول بكفرهم ، والعذاب الذي زادهم إياه بصدهم الناس عن سبيله .

القول الثاني : أن الغضب الأول بتحريفهم وتبديلهم وقتلهم الأنبياء والغضب الثانى بكفرهم بالمسيح .

والقول الثالث : أن الغضب الأول بكفرهم بالمسيح والغضب الثانى بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم . والصحيح في الآية أن التكرار هنا ليس

المراد به التثنية التي تشفع الواحد بل المراد غضب بعد غضب بحسب تكرر كفرهم وإفسادهم وقتلهم الأنبياء ، وكفرهم بالمسيح ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم ومعاداتهم لرسل الله إلى غير ذلك من الأعمال التي كل عمل منها يقتضي غضبا على حدته . وهذا كما في قوله : (فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين) [الملك : ٣،٤] . أي كرة بعد كرة لا مرتين فقط . وقصد التعدد في قوله : (فبآءو بغضب على غضب) أظهر ولا ريب أن تعطيلهم ما عطلوه من شرائع التوراة وتحريفهم وتبديلهم يستدعي غضبا وتكذيبهم الأنبياء يستدعي غضبا آخر وقتلهم إياهم يستدعي غضباً آخر وتكذيبهم المسيح وطلبهم قتله ورميهم أمه بالبهتان العظيم يستدعي غضبا وتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم يستدعي غضبا ومحاربتهم له وأذاهم لأتباعه يقتضي غضبا وصدهم من أراد الدخول في دينه عنه يقتضي غضبا فهم الأمة الغضبية أعاذنا الله من غضبه فهي الأمة التي باءت بالغضب المضاعف المتكرر وكانوا أحق بهذا الاسم والوصف من النصارى . وقال تعالى في شأنهم : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) [المائدة : ٦٠] . فهذا غضب مشفوع باللعنة والمسخ وهو أشد ما يكون من الغضب . وقال تعالى : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) [المائدة : ٧٨-٨٠] . وأما وصف النصارى بالضلال ففي قوله تعالى : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) [المائدة : ٧٧] . فهذا خطاب للنصارى لأنه في سياق خطابه معهم بقوله : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم - إلى قوله - وضلوا عن سواء السبيل) [المائدة : ٧٢-٧٧] . فوصفهم بأنهم قد ضلوا أولا ثم أضلوا كثيرا وهم أتباعهم فهذا قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم حيث ضلوا في أمر المسيح

وأضلوا أتباعهم فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ازدادوا ضلالاً آخر بتكذيبهم له وكفرهم به فتضاعف الضلال في حقهم ، هذا قول طائفة منهم الزمخشري وغيره وهو ضعيف فإن هذا كله وصف لأسلافهم الذين هم لهم تبع فوصفهم بثلاث صفات :

أحدها : أنهم قد ضلوا من قبلهم .

والثاني : أنهم أضلوا أتباعهم .

والثالث : أنهم ضلوا عن سواء السبيل . فهذه صفات لأسلافهم الذين نهي هؤلاء عن اتباع أهوائهم فلا يصح أن يكون وصفا للموجودين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم هم المنهيون أنفسهم لا المنهي عنهم فتأمله وإنما سر الآية أنها اقتضت تكرار الضلال في النصارى ضلالا بعد ضلال لفرط جهلهم بالحق وهي نظير الآية التي تقدمت في تكرار الغضب في حق اليهود ولهذا كان النصارى أخص بالضلال من اليهود ووجه تكرار هذا الضلال أن الضال قد أخطأ نفس مقصوده فيكون ضالا فيه فيقصد ما لا ينبغي أن يقصده ويعبد من لا ينبغي أن يعبده وقد يصيب مقصودا حقا لكن يضل في طريق طلبه والسبيل الموصلة إليه .

فالأول : ضلال في الغاية .

والثاني : ضلال في الوسيلة ثم إذا دعا غيره إلى ذلك فقد أضله .

وأسلاف النصارى اجتمعت لهم الأنواع الثلاثة فضلوا عن مقصودهم حيث لم يصيبوه وزعموا أن إلههم بشر يأكل ويشرب ويبكي وأنه قتل وصلب وصفع فهذا ضلال في نفس المقصود حيث لم يظفروا به وضلوا عن السبيل الموصلة إليه فلا اهتدوا إلى المطلوب ولا إلى الطريق الموصل إليه ودعوا أتباعهم إلى ذلك فضلوا عن الحق وعن طريقه وأضلوا كثيرا فكانوا أدخل في الضلال من اليهود فوصفوا بأخص الوصفين . والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة فخافوا

أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإنهم كانوا يعرفون أن محمدا رسول الله كما يعرفون أبناءهم ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادتهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ، ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالا محضا ، وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه ، فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوبا عليهم ضالين . ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفا وبياناً وإرشادا وإلهاما وتوفيقا وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لاتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم الذين عدلوا عنه على عمد وعلم ، والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال . وكان السلف يقولون من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى وهذا كما قالوا فإن من فسد من العلماء فاستعمل أخلاق اليهود من تحريف الكلم عن مواضعه وكتمان ما أنزل الله إذا كان فيه فوات غرضه وحسد من آتاه الله من فضله وطلب قتله وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس ويدعونهم إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم إلى غير ذلك من الأخلاق التي ذم بها اليهود من الكفر واللي والكتمان والتحريف والتحيل على المحارم وتلبيس الحق بالباطل فهذا شبهه باليهود ظاهر . وأما من فسد من العباد فعبد الله بمقتضى هواه لا بما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم وغلا في الشيوخ فأنزلهم منزلة الربوبية وجاوز ذلك إلى نوع من الحلول أو الاتحاد فشبهه بالنصارى ظاهر . فعلى المسلم أن يبعد من هذين الشبهين غاية البعد ومن تصور الشبهين والوصفين وعلم أحوال الخلق علم ضرورته وفاقته إلى هذا الدعاء الذي ليس للعبد دعاء أنفع منه ولا أوجب منه عليه ، وأن حاجته إليه أعظم من حاجته إلى الحياة والنفس لأن غاية ما يقدر بفوتهما موته وهذا يحصل له بفوته شقاوة الأبد فنسأل الله

أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين إنه قريب مجيب .

فصل

وأما المسألة الثالثة عشرة : وهو تقديم المغضوب عليهم على الضالين فلوجوه عديدة :

أحدها : أنهم متقدمون عليهم بالزمان .

الثاني : أنهم كانوا هم الذين يلون النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتابين فإنهم كانوا جيرانه في المدينة والنصارى كانت ديارهم نائية عنه ، ولهذا تجد خطاب اليهود والكلام معهم في القرآن أكثر من خطاب النصارى كما في سورة البقرة والمائدة وآل عمران وغيرها من السور .

الثالث : أن اليهود أغلظ كفرا من النصارى ولهذا كان الغضب أخص بهم واللعنة والعقوبة فإن كفرهم عن عناد وبغي كما تقدم فالتحذير من سبيلهم والبعد منها أحق وأهم بالتقديم وليس عقوبة من جهل كعقوبة من علم وعاند .

الرابع : وهو أحسنها أنه تقدم ذكر المنعم عليهم ، والغضب ضد الإنعام والسورة هي السبع المثاني التي يذكر فيها الشيء ومقابله فذكر المغضوب عليهم مع المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس في تقديم الضالين فقولك الناس منعم عليه ومغضوب عليه فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك منعم عليه وضال .

فصل

وأما المسألة الرابعة عشرة : وهي أنه أتى في أهل الغضب باسم المفعول وفي الضالين باسم الفاعل ؛ فجوابهما ظاهر ؛ فإن أهل الغضب من غضب الله

عليهم وأصابهم غضبه فهم مغضوب عليهم ، وأما أهل الضلال فإنهم هم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه ولهذا استحقوا العقوبة عليه ، ولا يليق أن يقال ولا المضلين مبنيا للمفعول لما في رائحته من إقامة عذرهم وإنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فعل فيهم ولا حجة في هذا للقدرية فإنا نقول إنهم هم الذين ضلوا وإن كان الله أضلهم بل فيه رد على الجبرية الذين لا ينسبون إلى العبد فعلا إلا على جهة المجاز لا الحقيقة فتضمنت الآية الرد عليهم كما تضمن قوله ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الرد على القدرية ففي الآية إبطال قول الطائفتين ، والشهادة لأهل الحق أنهم هم المصيبون وهم المثبتون للقدر توحيدا وخلقا والقدرة لإضافة أفعال العباد إليهم عملا وكسبا وهو متعلق الأمر والعمل كما أن الأول متعلق الخلق والقدرة فاقتضت الآية إثبات الشرع والقدر والمعاد والنبوة فإن النعمة والغضب هو ثوابه وعقابه فالمنعم عليهم رسله وأتباعهم ليس إلا ، وهدي أتباعهم إنما يكون على أيديهم فاقتضت إثبات النبوة بأقرب طريق وأبينها وأدلها على عموم الحاجة وشدة الضرورة إليها وأنه لا سبيل للعبد أن يكون من المنعم عليهم إلا بهداية الله له ولا تنال هذه الهداية إلا على أيدي الرسل وأن هذه الهداية لها ثمرة وهي النعمة التامة المطلقة في دار النعيم ولخلافها ثمرة وهي الغضب المقتضي للشقاء الأبدي فتأمل كيف اشتملت هذه الآية مع وجازتها واختصارها على أهم مطالب الدين وأجلها ، والله الهادي إلى سواء السبيل ، وهو أعلم .

فصـــل

وأمـا المسـألة الخامسة عشـرة : وهي ما فائدة زيادة لا بين المعطوف والمعطوف عليه ففي ذلك أربع فوائد :

أحدها : أن ذكرها تأكيد للنفي الذي تضمنه غير ، فلولا ما فيها من معنى النفي لما عطف عليها بلا مع الواو فهو في قوة لا المغضوب عليهم ولا الضالين أو غير المغضوب عليهم وغير الضالين .

الفائدة الثانية : أن المراد المغايرة الواقعة بين النوعين وبين كل نوع بمفرده فلو لم يذكر لا وقيل غير المغضوب عليهم والضالين أوهم أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين لا ما غاير كل نوع بمفرده ، فإذا قيل ولا الضالين كان صريحا في أن المراد صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء . وبيان ذلك أنك إذا قلت ما قام زيد وعمرو فإنما نفيت القيام عنهما ولا يلزم من ذلك نفيه عن كل واحد منهما بمفرده .

الفائدة الثالثة : رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد وصفوا بالغضب والضلال ودخل العطف بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض نحو قوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون) [المؤمنون : ١-٣] . إلى آخرها فإن هذه صفات للمؤمنين ومثل قوله : (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) [الأعلى : ١-٣] . ونظائره فلما دخلت لا علم أنهما صنفان متغايران مقصودان بالذكر وكانت لا أولى بهذا المعنى من غير لوجوه :

أحدها : أنها أقل حروفا .

الثاني : التفادي من تكرار اللفظ .

الثالث : الثقل الحاصل بالنطق بغير مرتين من غير فصل إلا بكلمة مفردة ولا ريب أنه ثقيل على اللسان .

الرابع : أن لا إنما يعطف بها بعد النفي فالإتيان بها مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم كما نفي عنهم الضلال وغير وإن أفهمت هذا فلا أدخل في النفي منها وقد عرف بهذا الجواب المسألة السادسة عشرة وهي أن لا إنما يعطف بها في النفي .

فصل

وأما المسألة السابعة عشرة : وهي أن الهداية هنا من أي أنواع الهدايات فاعلم أن أنواع الهداية أربعة :

أحدها : الهداية العامة المشتركة بين الخلق المذكورة في قوله تعالى : (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) [طه : ٥٠] . أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره وأعطى كل عضو شكله وهيأته وأعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال ، وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره وهداية الجماد المسخر لما خلق له فله هداية تليق به كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به وإن اختلفت أنواعها وصورها وكذلك كل عضو له هداية تليق به فهدى الرجلين للمشي واليدين للبطش والعمل واللسان للكلام والأذن للاستماع والعين لكشف المرئيات وكل عضو لما خلق له وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه ، ومراتب هدايته سبحانه لا يحصيها إلا هو فتبارك الله رب العالمين ، وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومن الأبنية ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصي عليها ثم تأوي إلى بيوتها وهداها إلى طاعة يعسوبها واتباعه والائتمام به أين توجه بها ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ومن تأمل بعض هدايته المبثوثة في العالم شهد له بأنه الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوة بأيسر نظر وأول وهلة وأحسن طريق وأخصرها وأبعدها من كل شبهة فإن من لم يهمل هذه الحيوانات سدى ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التي تعجز عقول العقلاء عنها كيف يليق به أن يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود الذي كرمه وفضله على كثير من خلقه مهملا وسدى معطلا لا يهديه إلى أقصى كمالاته وأفضل غاياته بل يتركه معطلا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه وهل هذا إلا مناف لحكمته ونسبته له مما لا يليق بجلاله ولهذا أنكر ذلك على من زعمه ونزه نفسه عنه وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه وأنه يتعالى عنه فقال تعالى : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق) [المؤمنون : ١١٥،١١٤] . فنزه نفسه عن هذا الحسبان فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل وأنه مما

تظاهر عليه العقل والشرع كما هو أصح الطريقين في ذلك ومن فهم هذا فهم سر اقتران قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ [الأنعام : ٣٨] . بقوله : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : ٣٧] . وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه بل جعلها أمما وهداها إلى غاياتها ومصالحها كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها .

النوع الثاني : هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام فإنها سبب وشرط لا موجب ولهذا لا ينبغي الهدى معها كقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ [فصلت : ١٧] . أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا . ومنها قوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] .

النوع الثالث : هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها وهي المذكورة في قوله : ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ [المدثر : ٣١] . وفي قوله : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ [النحل : ٣٧] . وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم « من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له » وفي قوله تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : ٥٦] . فنفى عنه هذه الهداية وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قوله : ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ [الشورى : ٥٢] .

الرابع : غاية هذه الهداية وهي الهداية إلى الجنة والنار إذا سيق أهلهما إليهما قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ [يونس : ٩] . وقال أهل الجنة فيها : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ﴾ [الأعراف : ٤٣] . وقال تعالى عن أهل النار : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾

[الصافات : ٢٢، ٢٣] . إذا عرف هذا فالهداية المسئولة في قوله الصراط المستقيم إنما تتناول المرتبة الثانية والثالثة خاصة فهي طلب التعريف والبيان والإرشاد والتوفيق والإلهام (فإن قيل) كيف يطلب التعريف والبيان وهو حاصل له وكذلك الإلهام والتوفيق قيل هذه هي المسألة الثامنة عشرة وقد أجاب عنها من أجاب بأن المراد التثبيت ودوام الهداية ، ولقد أجاب وما أجاب وذكر فرعا لا قوام له بدون أصله ، وثمرة لا وجود لها بدون حاملها ، ونحن نبين بحمد الله أن الأمر فوق ما أجاب به وأعظم من ذلك بحول الله . فاعلم أن العبد لا يحصل له الهدى التام المطلوب إلا بعد ستة أمور ؛ وهو محتاج إليها حاجة لا غنى له عنها :

الأمر الأول : معرفته في جميع ما يأتيه ويذره بكونه محبوباً للرب تعالى مرضيا له . فيؤثره وكونه مغضوبا له مسخوطا عليه فيجتنبه ، فإن نقص من هذا العلم والمعرفة شيء ؛ نقص من الهداية التامة بحسبه .

الأمر الثاني : أن يكون مريداً لجميع ما يحب الله منه أن يفعله عازما عليه ومريداً لترك جميع ما نهى الله عازما على تركه بعد خطوره بالبال مفصلا وعازما على تركه من حيث الجملة مجملا ، فإن نقص من إرادته لذلك شيء ؛ نقص من الهدى التام بحسب ما نقص من الإرادة .

الأمر الثالث : أن يكون قائما به فعلا وتركا فإن نقص من فعله شيء ؛ نقص من هداه بحسبه فهذه ثلاثة هي أصول في الهداية ويتبعها ثلاثة هي من تمامها وكمالها :

أحدها : أمور هُدي إليها جملة ولم يهتد إلى تفاصيلها ؛ فهو محتاج إلى هداية التفصيل فيها .

الثاني : أمور هدي إليها من وجه دون وجه ؛ فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها لتكمل له هدايتها .

الثالث : الأمور التي هدي إليها تفصيلا من جميع وجوهها فهو محتاج إلى الاستمرار إلى الهداية والدوام عليها ، فهذه ستة أصول تتعلق بما يعزم على فعله

وتركه ويتعلق بالماضي أمر سابع وهو أمور وقعت منه على غير جهة الاستقامة ، فهو محتاج إلى تداركها بالتوبة منها وتبديلها بغيرها وإذا كان كذلك فإنما يقال كيف يسأل الهداية وهي موجودة له ثم يجاب عن ذلك بأن المراد التثبيت والدوام عليها إذا كانت هذه المراتب الست حاصلة له بالفعل فحينئذ يكون سؤاله الهداية سؤال تثبيت ودوام فأما إذا كان ما يجهله أضعاف ما يعلمه وما لا يريده من رشده أكثر مما يريده ولا سبيل له إلى فعله إلا بأن يخلق الله فاعلية فيه ، فالمسئول هو أصل الهداية على الدوام تعليما وتوفيقا وخلقا للإرادة فيه وإقدارا له وخلقا للفاعلية وتثبيتا له على ذلك ، فعلم أنه ليس أعظم ضرورة منه إلى سؤال الهداية أصلها وتفصيلها علما وعملا والتثبيت عليها والدوام إلى الممات . وسر ذلك أن العبد مفتقر إلى الهداية في كل نفس في جميع ما يأتيه ويذره أصلا وتفصيلا وتثبيتا ومفتقر إلى مزيد العلم بالهدى على الدوام فليس له أنفع ولا هو إلى شيء أحوج من سؤال الهداية فنسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبت قلوبنا على دينه .

فصـــل

أما المسألة التاسعة عشرة : وهي الإتيان بالضمير في قوله : ﴿ **اهدنا الصراط** ﴾ ضمير جمع فقد قال بعض الناس في جوابه أن كل عضو من أعضاء العبد وكل حاسة ظاهرة وباطنة مفتقرة إلى هداية خاصة به . فأتى بصيغة الجمع تنزيلا لكل عضو من أعضائه منزلة المسترشد الطالب لهداه ، وعرضت هذا الجواب على شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه فاستركه واستضعفه جدا وهو كما قال فإن الإنسان اسم للجملة لا لكل جزء من أجزائه وعضو من أعضائه والقائل إذا قال اغفر لي وارحمني واجبرني وأصلحني واهدني سائل من الله ما يحصل لجملته ظاهره وباطنه فلا يحتاج أن يستشعر لكل عضو مسألة تخصه يفرد لها لفظة فالصواب أن يقال هذا مطابق لقوله إياك نعبد وإياك نستعين والإتيان بضمير الجمع في الموضعين أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار إلى الرب تعالى وإقرار بالفاقة إلى عبوديته واستعانته وهدايته فأتى به بصيغة ضمير الجمع أي نحن معاشر

عبيدك مقرون لك بالعبودية ، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه : نحن عبيدك ومماليكك وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك ، فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك من أن يقول أنا عبدك ومملوكك ، ولهذا لو قال أنا وحدي مملوكك استدعى مقته ؛ فإذا قال أنا وكل من في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم ؛ لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثير جدا وأنا واحد منهم ، وكلنا مشتركون في عبوديتك والاستعانة بك وطلب الهداية منك فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد فتأمله ، وإذا تأملت أدعية القرآن رأيت عامتها على هذا النمط نحو : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) [البقرة : ٢٠١] . ونحو دعاء آخر البقرة وآخر آل عمران وأولها وهو أكثر أدعية القرآن .

فصـــل

وأما المسألة العشرون : وهي ما هو الصراط المستقيم ؟ فنذكر فيه قولا وجيزا فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته ؛ وحقيقته شيء واحد : وهو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا ، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة فلا يشرك به أحدا في عبوديته ، ولا يشرك برسوله أحدا في طاعته ، فيجرد التوحيد ، ويجرد متابعة الرسول ، وهذا معنى قول بعض العارفين « إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين صدق محبته وحسن معاملته » وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين ، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك كله فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته ، والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله ، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمداً رسول الله وهذا هو الهدى ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به وهو معرفة ما بعث الله

به رسله والقيام به فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها وهي معنى قول من قال علوم أعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة ، ومعنى قول من قال متابعة رسول الله ظاهرا وباطنا علما وعملا ومعنى قول من قال الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره . وأما ما عدا هذا من الأقوال كقول من قال الصلوات الخمس وقول من قال حب أبي بكر وعمر وقول من قال هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له بل هي جزء من أجزائه وحقيقته الجامعة ما تقدم والله أعلم[(١)].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/٩-٤١) .

سُورَةُ البَقَرَة

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

فائدة في معنى « الٓمٓ » وغيرها من الحروف في أول السور

تأمل سر ﴿ الٓمٓ ﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة ، فالألف إذا بدىء بها أولاً كانت همزة ، وهي أول المخارج من أقصى الصدر ، واللام من وسط مخارج الحروف ، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف ، أعني الحلق واللسان والشفتين .

وترتيب في التنزيل منذ البداية إلى الوسط إلى النهاية ، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجا فيصير منها تسعة وعشرون حرفا عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمنها سرا عجيبا . وهو أن للألف البداية واللام التوسط والميم النهاية فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسطه ؛ فمشتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم . وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها ؛ وهي الجهر والشدة

والاستعلاء والإطباق والسين مهموس مرخو مستفل صفيري منفتح فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء ؛ فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف ، وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك قٓ والسورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن ، وذكر الخلق وتكرير القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم وتلقي الملكين قول العبد وذكر الرقيب وذكر السائق والقرين والإلقاء في جهنم والتقديم بالوعيد وذكر المتقين وذكر القلب والقرون والتنقيب في البلاد وذكر القيل مرتين وتشقق الأرض وإلقاء الرواسي فيها ، ويسوق النخل والرزق وذكر القوم وحقوق الوعيد ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة ، وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح . وإذا أردت زيادة إيضاح هذا فتأمل ما اشتملت عليه سورة صٓ من الخصومات المتعددة فأولها خصومة الكفار مع النبي صلى الله عليه وسلم وقولهم : (أجعل الألهة إلها واحدا) [ص : ٥] . إلى آخر كلامهم ، ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات ، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم ، ثم خصامه ثانيا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم فليتأمل اللبيب الفطن هل يليق بهذه السورة غير صٓ وبسورة ق غير حرفها وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف والله أعلم(١) .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة : ١، ٢] .

وهذا يتضمن أمرين :

أحدهما : أنه يهدي به من اتقى مساخطه قبل نزول الكتاب ، فإن الناس على اختلاف مللهم ونحلهم قد استقر عندهم أن الله سبحانه يكره الظلم والفواحش والفساد في الأرض ويمقت فاعل ذلك ، ويحب العدل والإحسان والجود والصدق

(١) بدائع الفوائد (١٧٤/٣) .

بأن وفقهم للإيمان به جزاء لهم على برهم وطاعتهم ، وخذل أهل الفجور والفحش والظلم بأن حال بينهم وبين الاهتداء به .

والأمر الثاني : أن العبد إذا آمن بالكتاب واهتدى به مجملاً ، وقبل أوامره وصدق أخباره ، كان ذلك سبباً لهداية أخرى تحصل له على التفصيل .

فإن الهداية لا نهاية لها ولو بلغ العبد فيها ما بلغ ، ففوق هدايته هداية أخرى ، وفوق تلك الهداية هداية أخرى إلى غير غاية . فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى ، فهو في مزيد هداية مادام في مزيد من التقوى. وكلما فوت حظاً من التقوى ؛ فاته حظ من الهداية بحسبه ، فكلما اتقى زاد هداه ، وكلما اهتدى زادت تقواه[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ - إلى قوله - أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١-٥] .

فقوله: ﴿**أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون**﴾ استئناف وهو جواب لسؤال مقدر كأنه قيل وما يحصل لهؤلاء الموصوفين بهذه الصفات ؛ فقيل إنهم على هدى من ربهم وإنهم مفلحون[(٢)] .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : ٦] . وقوله تعالى : (**سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم**) [المنافقون : ٦] . وقوله تعالى : (**سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون**) [الأعراف : ١٩٣] . مما أشكل إعرابه على فحول العربية واختلفت أقوالهم في ذلك فقال صاحب الكشاف[(٣)] : سواء اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف

---

(١) الفوائد (١٢٨-١٢٩) .

(٢) الفوائد المشوق (٧٢) .

(٣) هو الزمخشري ، العلامة ، كبير المعتزلة أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد ، صاحب « الكشاف » وهو تفسير للقرآن بثه مذهبه الاعتزالي ، وكان داعية له من مؤلفاته « أساس البلاغة » . « والفائق في غريب الحديث » وغيرها . كان مولده في رجب سنة (٤٦٧) وتوفي في ليلة عرفة سنة (٥٣٨) . =

بالمصادر ومنه قوله تعالى : (تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) [آل عمران : ٦٤] وقوله تعالى : (في أربعة أيام سواء للسائلين) [فصلت : ١٠] . بمعنى مستوية ، وارتفاعه على أنه خبر لـ « إن » وأنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع رفع على الفاعلية، كأنه قيل إن الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه ، كما تقول إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه ، أو يكون أنذرتهم أم لم تنذرهم في موضع الابتداء وسواء خبراً مقدماً بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه ، والجملة خبر لإن .

(قال فإن قلت) الفعل أبداً خبر لا مخبر عنه فكيف صح الإخبار عنه في هذا الكلام .

(قلت) هو من جنس الكلام المهجور فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى وقد وجدنا العرب يميلون في مواضع من كلامهم مع المعاني ميلاً بيناً من ذلك قولهم (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) معناه لايكن منك أكل السمك وشرب اللبن ، وإن كان ظاهر اللفظ على ما لا يصح من عطف الاسم على الفعل والهمزة وأم مجردتان بمعنى الاستواء ، وقد انسلخ عنهما معنى الاستفهام رأساً .

قال سيبويه : جرى هذا على حرف الاستفهام ، كما جرى على حرف النداء في قولك اللهم اغفر لنا أيتها العصابة يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما أن ذاك جرى على صورة النداء ولا نداء ومعنى الاستواء استواؤهما في علم المستفهم عنهما ، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن إما الإنذار وإما عدمه ولكن لا بعينه ، وكلاهما معلوم بعلم غير معين .

(قلت) هذا قوله وقول طائفة من النحاة ، وقد اعترض على ما ذكراه بأنه يلزم القائل به أن يجيز سواء قمت أم قعدت دون أن تقول علي أو عليك .

وأنه يجيز سيان أذهب زيد أم جلس ، ويتفقان أقام زيد أم قعد ، وما كان

= انظر سير أعلام النبلاء (٢٠ / ١٥٥) .

و « وفيات الأعيان » (٥ / ١٦٨ - ١٦٩) .

والعقد الثمين (٧ / ١٤٧) .

وانظر الكشاف للزمخشري (١ / ٢٥) .

نحو هذا مما لا يجوز في الكلام ولا روي عن أحد ، لأن التقدير الذي قدروه منطبق على هذا .

وقالت طائفة أخرى : سواء هٰهنا مبتدأ ، والجملة الاستفهامية في موضع الخبر ، وإنما قالوا هذا وإن كان سواء هٰهنا مبتدأ والجملة لا تكون في موضع المبتدأ أبداً ولا في موضع الفاعل ، وأورد عليهم أن الجملة إذا وقعت خبراً فلابد فيها من ضمير يعود على المبتدأ ، فأين الضمير العائد على سواء هاهنا ؟ فأجابوا عن هذا بأن سواء وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في المعنى خبر ، لأن المعنى : سواء عليهم الإنذار وعدمه ، قالوا ولا يلزم أن يعود من المبتدأ ضمير على الخبر فلما كان سواء خبراً في المعنى دون اللفظ روعي المعنى ، ونظير هذا قولهم : ضربي زيداً قائما فإنه لم يعد على ضربي ضمير من الحال التي سدت مسد الخبر ، لأن معناه أضرب زيداً أو ضربت زيداً ، والفعل لا يعود عليه ضمير فكذلك ما هو في معناه وقوته ، ونظيره أيضاً أقائم أخوك ، لأن « أخوك » وإن سد مسد الخبر فإنه فاعل في المعنى ، وقائم معناه معنى الفعل الرافع للفاعل فروعيت هذه المعاني في هذه المواضع وهجر فيه جانب اللفظ إلى جانب المعنى وبقي حكم الابتداء مقتضياً للرفع لفظاً ، والمبتدأ متضمن لمعنى يخالف معنى الابتداء فحكم لذلك المعنى فلم يعد على اللفظ ضمير ، وحكم للفظ المبتدأ بحكم الابتداء فارتفع فهذا قول هذه الطائفة الأخرى ، واعترض عليه بعد الاعتراف بحسنه وقوته بأن العرب لم تنطق بمثل هذا في « سواء » حتى قرنته بالضمير المجرور بعلى نحو سواء عليكم ، وسواء عليهم ، وسواء علَيّ فإن طردوا ما أصّلوه في سواء ، سواء قرن بعلى أم لم يقرن فليس كذلك ، وإن خصوه بالمقرون بعلى فلم يبينوا سر اختصاصه بذلك .

وقالت طائفة ثالثة منهم السهيلي ؛ وهذا لفظة لمّا كانت العرب لا تقول سيان أقمت أم قعدت ، ولا مثلان ، ولا شبهان ، ولا يقولون ذلك إلا في سواء مع المجرور بعلى ، وجب البحث عن السر في ذلك ، وعن مقصد القوم في هذا الكلام ، وعن المساواة بين أي شيء هي ، وفي أي الصفات هي من الاسمين

الموصوفين بالتساوي ، فوجدنا معنى الكلام ومقصوده إنما هو تساوي عدم المبالاة بقيام أو قعود أو إنذار أو ترك إنذار ، ولو أرادوا المساواة في صفة موجودة في الذات لقالوا سواء الإقامة والشخوص ، كما يقولون سواء زيد وعمرو ، وسيان ومثلان يعني استواءهما في صفة ذاتيهما فإذا أردت أن تسوي بين أمرين في عدم المبالاة وترك الالتفات لهما وأنهما قد هانا عليك وخفا عليك قلت سواء عليَّ أفعل أم لم يفعل ، كما تقول لا أبالي أفعل أم لم يفعل ؛ لأن المبالاة فعل من أفعال القلب ، وأفعال القلب تلغى إذا وقعت بعدها الجمل المستفهم عنها أو المؤكدة باللام ، تقول لا أدري أقام زيد أم قعد ، وقد علمت ليقومن زيد ، ولكن لا تلغى هذه الأفعال القلبية حتى يذكر فاعلها في اللفظ أو في المعنى فتكون حينئذ في موضع المفعول بالعلم[1] ثم قال .

(١) بدائع الفوائد (٣/٤٥ - ٤٧) .

في بيان الطبع والختم
والحائل بين الكافر وبين الإيمان
وأن ذلك مجعول للرب سبحانه

فتأمل هذا المعنى في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٦، ٧] .

ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعم جميع الكفار ، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفاراً قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم ، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار ؛ فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة ، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير ، وبعضهم بالطمس على أعينهم ، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب ، كما يعاقب بالطمس على الأعين ، وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال على الحق عقوبة دائمة مستمرة ، وقد يعاقب به إلى وقت ثم يعافي عبده ويهديه ، كما يعاقب بالعذاب كذلك . اهـ .

قال : و « الختم » قال الأزهري(١) : أصله التغطية ، وختم البذر في الأرض ، إذا غطاه . قال أبو إسحاق : معنى ختم وطبع في اللغة واحد ، وهو

---

(١) هو أبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهر ، اللغوي الإمام المشهور في اللغة ، كان فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها ألف « تهذيب اللغة » من أعظم كتبه ، وانظر في ذلك مقدمة الأستاذ العلامة « عبد السلام هارون » لهذا الكتاب (١ / ١٣) .
ولد في (٢٨٢) وتوفي في (٣٧٠) وقيل (٣٧١) .
انظر « سير أعلام النبلاء » (١٦ / ٣١٥) .
و « وفيات الأعيان » (٤ / ٣٣٤) .
و « شذرات الذهب » (٣ / ٧٢) .

التغطية على الشيء والاستيثاق منه ، فلا يدخله شيء ، كما قال تعالى : (أم على قلوب أقفالها) [محمد : ٢٤] ، وكذلك قوله : (وطبع الله على قلوبهم) قلت : الختم والطبع يشتركان فيما ذكر ، ويفترقان في معنى آخر ، وهو أن الطبع ختم يصير سجية وطبيعة ، فهو تأثير لازم لا يفارق(١) .

وأما المرض : فقال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة : ١٠] .

وقال: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) [الاحزاب : ٣٢] .

وقال : (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) [المدثر : ٣١] .

ومرض القلب خروجه عن صحته واعتداله ، فإن صحته أن يكون عارفاً بالحق محباً له ، مؤثراً له على غيره ، فمرضه إما بالشك فيه وإما بإيثار غيره عليه.

فمرض المنافقين : مرض شك وريب ، ومرض العصاة مرض غي وشهوة .. وقد سمى الله سبحانه كلا منهما مرضا .

قال ابن الأنباري(٢) : أصل المرض في اللغة : الفساد ، مرض فلان :

---

(١) شفاء العليل (٩١-٩٢) .

(٢) الإمام الحافظ اللغوي ذو الفنون ، أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن الأنباري المقرىء النحوي من كتبه :
« كتاب الوقف والابتداء » .
و « كتاب المشكل » .
و « شرح المفضليات » وغيرها كثير .
ولد في (٢٧٢) وكانت وفاته في (٣٢٨) .
له ترجمة في :
سير أعلام النبلاء (١٥ / ٢٧٤) .
تاريخ بغداد (٣ / ١٨١ - ١٨٦) .
طبقات الحنابلة (٢ / ٦٩ - ٧٣) .
وفيات الأعيان (٤ / ٣٤١ - ٣٤٣)

فسد جسمه وتغيرت حاله ومرضت بالمرض : تغيرت وفسدت ، قالت ليلى الأخيلية [(١)] :

إذا هبط الحجاج مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاها

وقال آخر :

ألم تر أن الأرض أضحت مريضة ... لفقد الحسين والبلاد اقشعرت

والمرض يدور على أربعة أشياء : فساد ، وضعف ، ونقصان ، وظلمة .

ومنه مرض الرجل في الأمر إذا ضعف فيه ، ولم يبالغ ، وعين مريضة النظر : أي فاترة ضعيفة ، وريح مريضة : إذا هب هبوبها كما قال :

راحت لأربعك الرياح مريضة

أي لينة ضعيفة حتى لا يعفى أثرها .

وقال ابن الأعرابي [(٢)] : أصل المرض النقصان ومنه : بدن مريض ؛ أي ناقص القوة وقلب مريض : ناقص الدين ومرض في حاجتي : إذا نقصت حركته .

---

(١) هي ليلى بنت الأخيل ، من عُقيل بن كعب ، وهي من أشعر النساء لا يقدم عليها غير خنساء .. ماتت في زمن الحجاج .
انظر الشعر والشعراء ، (طبقات الشعراء) لابن قتيبة (٢٢٠) .
وفيات الأعيان (٢ / ٤٧ - ٥٠) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد الأعرابي إمام اللغة .
ولد بالكوفة سنة (١٥٠) وتوفي في (٢٣١) .
انظر حياته وآثاره في مقدمة كتابه (البئر) للأستاذ الدكتور « رمضان عبد التواب » حفظه الله تعالى .
وانظر سير أعلام النبلاء (١٠ / ٦٨٧) .
تاريخ بغداد (٥ / ٢٨٢ - ٢٨٥) .
تهذيب الأسماء واللغات (٢ / ٢٩٥) .
وفيات الأعيان (٤ / ٣٠٦ - ٣٠٩) .
تهذيب اللغة (١ / ٢٠ ، ٢١) .

وقال الأزهري عن المنذري عن بعض أصحابه : المرض إظلام الطبيعة واضطرابها بعد صفائها . قال : والمرض : الظلمة وأنشد :

وليلة مرضت في كل ناحية فما يضيء لها شمس ولا قمر

هذا أصله في اللغة .

ثم الشك والجهل والحيرة والضلال وإرادة الغي وشهوة الفجور في القلب : تعود إلى هذه الأمور الأربعة فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض فيعاقبه الله بزيادة المرض لإيثاره أسبابه وتعاطيه لها(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة : ١١، ١٢] . فهذه مناظرة جرت بين المؤمنين والمنافقين فقال لهم المؤمنون لا تفسدوا في الأرض فأجابهم المنافقون بقولهم إنما نحن مصلحون ، فكأن المناظرة انقطعت بين الفريقين ، ومنع المنافقون ما ادعى عليهم أهل الإيمان من كونهم مفسدين ، وأن ما نسبوهم إليه إنما هو صلاح لا فساد ، فحكم العزيز الحكيم بين الفريقين بأن أسجل على المنافقين أربع إسجالات **أحدها** : تكذيبهم ، **والثاني** : الإخبار بأنهم مفسدون ، **والثالث** : حصر الفساد فيهم بقوله هم المفسدون ، **والرابع** : وصفهم بغاية الجهل ، وهو أنه لا شعور لهم البتة بكونهم مفسدين ، وتأمل كيف نفى الشعور عنهم في هذا الموضع ، ثم نفى عنهم العلم في قولهم : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ فقال : ﴿ **ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٣] . فنفى علمهم بسفههم وشعورهم ، وهذا أبلغ ما يكون من الذم والتجهيل أن يكون الرجل مفسداً ولا شعور له بفساده البتة ، مع أن أثر فساده مشهور في الخارج ، مرئي لعباد الله وهو لا يشعر به ، وهذا يدل على استحكام الفساد في مداركه وطرق علمه . وكذلك كونه سفيهاً ، والسفه غاية الجهل وهو مركب من عدم العلم بما يصلح معاشه ومعاده وإرادته بخلافه فإذا كان بهذه المنزلة وهو لا يعلم بحاله كان من

---

(١) شفاء العليل (٩٨، ٩٩) .

أشقى النوع الإنساني ، فنفي العلم عنه بالسفه الذي هو فيه متضمن لإثبات جهله ونفي الشعور عنه بالفساد الواقع منه متضمن لفساد آلات إدراكه فتضمنت الآيتان الإسجال عليهم بالجهل وفساد آلات الإدراك بحيث يعتقدون الفساد صلاحاً والشر خيراً .

وكذلك المناظرة الثانية معهم أيضاً فإن المؤمنين قالوا لهم : ﴿ **آمنوا كما آمن الناس** ﴾ فأجابهم المنافقون بقولهم : ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ . وتقرير المناظرة من الجانبين أن المؤمنين دعوهم إلى الإيمان الصادر من العقلاء بالله ورسوله وأن العاقل يتعين عليه الدخول فيما دخل فيه العقلاء الناصحون لأنفسهم ولاسيما إذا قامت أدلته ، وصحت شواهده ، فأجابهم المنافقون بما مضمونه أنا إنما يجب علينا موافقة العقلاء وأما السفهاء الذين لا عقل لهم يميزون به بين النافع والضار ، فلا يجب علينا موافقتهم ، فرد الله تعالى عليهم ، وحكم للمؤمنين وأسجل على المنافقين بأربعة أنواع (**أحدها**) تسفيههم . (**الثاني**) حصر السفه فيهم . (**الثالث**) نفي العلم عنهم . (**الرابع**) تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من الإخبار عن سفه أهل الإيمان . (**وخامس**) أيضا وهو تكذيبهم فيما تضمنه جوابهم من دعواهم التنزيه من السفه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة : ١١،١٢] .

فقوله : ﴿ **ألا إنهم هم المفسدون** ﴾ كلام مستأنف ؛ وهو إخبار من الله تعالى ، فلو أتى بالواو العاطفة لكان إخباراً عن اليهود بأنهم وصفوا أنفسهم بأنهم مفسدون فيختل المعنى ، ويتناقض الكلام ..

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم** ﴾ [البقرة : ١٤،١٥] . فهذا إخبار من الله تعالى ،

(١) بدائع الفوائد (١٣٠/٤ ، ١٣١) .

وفي الحقيقة جواب سؤال مقدر لأنه تعالى لما أخبر عنهم بأنهم قالوا كيت وكيت تشوف السامعون إلى العلم بمصير أمرهم فكأنه قيل فماذا فعل الله بهم ، فقال : ﴿ **الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون** ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .

فإنهم إنما خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بإنَّ المشدّدة ، فقالوا في خطاب المؤمنين – آمنا – ولإخوانهم – إنّا معكم – لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد من أن ينزلوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، وكان ذلك متقبلاً منهم ورائجاً عند إخوانهم ، وما قالوه للمؤمنين ؛ فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خزياً ومداجاة وكانوا يعلمون أنهم لو قالوا بأوكد لفظ وأشده لما راج لهم عندهم إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً ، ولأنهم ليس لهم من عقائدهم باعث قوي على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين بخلاف ما قالوه في خطاب إخوانهم وصرحوا في كلامهم لإخوانهم أن ما خاطبوا به المؤمنين إنما هو هزء فقالوا : ﴿ **إنما نحن مستهزءون** ﴾... وهذه نكت دقيقة ولطائف خفية لاتوجد في نوع من الكلام العربي إلا في القرآن الكريم وما أكثر ذلك وأمثاله في آياته وأوفره مودعاً في غضونه ؛ فاعرفه وقس عليه ترشد[٢] .

قال تعالى في حق المنافقين : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : ١٧].

تقديره أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة بمفازة فاستضاء بها ما حوله واتقى ما يخاف وأمن ، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره

(١) الفوائد المشوق (١٨٧) .
(٢) الفوائد المشوق (٢٠٧) .

فبقي مظلماً خائفاً متحيراً ، وكذلك المنافق إذا أظهر كلمة الإيمان استنار بها واعتزّ بعزّها وأمن على نفسه وماله وولده فإذا مات عاد إلى الخوف وبقي في العذاب والنقمة . ويجوز أن يكون المعنى أنهم لما وصفوا - بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى - عقب ذلك بهذا التمثيل مثل هداهم الذي باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد - والضلالة - التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ثم قال الله - ﴿ **صم بكم عمي** ﴾ - كانت حواسهم سليمة لكن لما سدوا مسامعهم عن الإصاخة إلى الحق وأبوا أن ينطقوا به بألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم جُعلوا كأنما أصابت هذه الحواس منهم الآفات ، وهذا من عجائب التشبيه ، وطريقته عند علماء البيان طريقة قولهم - ليوث - الشجعان - بحور - للكرام[1] .

وقال رحمه الله :

ولم يقل أذهب الله نورهم لأن كل من ذهب بشيء فقد أذهبه وليس كل من أذهب شيئاً ذهب به ، لأن الذهاب بالشيء هو استصحاب له ومضي به وفي ذلك نوع احتياز للمذهوب به ، وإمساك له عن الرجوع إلى حالته ، والعود إلى مكانه ، وليس كذلك الإذهاب للشيء لزوال معنى الاحتياز ، وهذا كلام دقيق يحتاج إلى زيادة تأمل وإنعام نظر فافهمه ، وقس عليه ما أشبهه ، وبالله التوفيق[2] .

وقال رحمه الله تعالى :-

ومن هذا ما وقع في القرآن من الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون فإنها تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس ، أو أحد المحسوسين من الآخر ، واعتبار أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا

---

(١) الفوائد المشوق (٦١) .

(٢) الفوائد المشوق (١٥٦) .

يُبۡصِرُونَ ۞ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۞ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ ﴾ [البقرة : ١٧-١٩] . إلى قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

فضرب للمنافقين بحسب حالهم مثلين : مثلا نارياً ومثلا مائيا ، لما في النار والماء من الإضاءة والإشراق والحياة ، فإن النار مادة النور والماء مادة الحياة ، وقد جعل الله سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها ، ولهذا سماه روحاً ونوراً ، وجعل قابليه أحياء في النور ، ومن لم يرفع به رأساً أمواتاً في الظلمات ، وأخبر عن حال المنافقين بالنسبة إلى حظهم من الوحي وأنهم بمنزلة من استوقد ناراً لتضيء له وينتفع بها ، وهذا لأنهم دخلوا في الإسلام فاستضاءوا به ، وانتفعوا به ، وآمنوا به ، وخالطوا المسلمين ، ولكن لم يكن لصحبتهم مادة من قلوبهم من نور الإسلام ؛ طفىء عليهم وذهب الله بنورهم ، ولم يقل بنارهم ، فإن النار فيها الإضاءة والإحراق ، فذهب الله بما فيها من الإضاءة ، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فهذا حال من أبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر ، ودخل في الإسلام ثم فارقه بقلبه فهو لا يرجع إليه ، ولهذا قال : ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ ثم ذكر حالهم بالنسبة إلى المثل المائي ، فشبههم بأصحاب صَيِّب – وهو المطر الذي يصوب أي ينزل من السماء – فيه ظلمات ورعد وبرق ، فلضعف بصائرهم وعقولهم اشتدت عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه وخطابه الذي يشبه الصواعق ، فحالهم كحال من أصابه مطر في ظلمة ورعد وبرق ، فلضعفه وخوره جعل أصبعيه في أذنيه ، وغمض عينيه خشية من صاعقة تصيبه ، وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم ؛ رأيتهم عنها معرضين : (كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة) [المدثر : ٥٠،٥١] . ويقول مخنثهم : سدوا عنا هذا الباب ، واقرؤوا شيئاً غير هذا ، وترى قلوبهم مولية وهم يجمحون لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم ، وكذلك المشركون على اختلاف شركهم إذا جرد لهم التوحيد وتليت عليهم النصوص

المبطلة لشركهم اشمأزت قلوبهم ، وثقلت عليهم ، ولو وجدوا السبيل إلى سد آذانهم لفعلوا ، ولذلك تجد أعداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا نصوص الثناء على الخلفاء الراشدين ، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل ذلك عليهم جداً ، وأنكرته قلوبهم ، وهذا كله شبه ظاهر ، ومثل محقق من إخوانهم من المنافقين في المثل الذي ضربه الله لهم بالماء ، فإنهم لما تشابهت قلوبهم تشابهت أعمالهم(١) .

وقال رحمه الله : شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا ناراً لتضيء لهم وينتفعوا بها .

فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ومايضرهم ، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين . فهم كقوم سُفّر ضلوا عن الطريق ، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق ، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا ، طفئت عنهم تلك الأنوار ، وبقوا في الظلمات لا يبصرون ، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث .

فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب ، مما يسمعه بأذنه ، ويراه بعينه ، ويعقله بقلبه . وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى ، فلا تسمع قلوبهم شيئا ، ولا تبصره ، ولا تعقل ما ينفعها .

وقيل : لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نُزِّلوا منزلة من لا سمع له ولا بصر ولا عقل ، والقولان متلازمان .

وقال في صفتهم : ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ لأنهم قد رأوا في ضوء النار ، وأبصروا الهدى ، فلما أطفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل : ذهب نورهم . وفيه سر بديع ، وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التى هى للمؤمنين من الله تعالى ، فإن الله تعالى مع المؤمنين ، و (إن الله مع الصابرين) [البقرة : ١٥٣] . و (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) [النحل : ١٢٨] .

(١) إعلام الموقعين (١/٢٠٠-٢٠١) .

فذهاب الله بذلك النور ؛ هو انقطاع المعية التي خصّ بها أولياءه ، فقطعها بينه وبين المنافقين ، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم ، فليس لهم نصيب من قوله : (لا تحزن إن الله معنا) [التوبة : ٤٠] . ولا من : (كلا إن معي ربي سيهدين) [الشعراء : ٦٢] .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ **أضاءت ما حوله** ﴾ كيف جعل ضوءها خارجاً عنه منفصلا ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب ، ولكنه كان ضوء مجاورة ، لا ملابسة ومخالطة . وكان الضوء عارضاً والظلمة أصلية ؛ فرجع الضوء إلى معدنه وبقيت الظلمة في معدنها ؛ فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به ، حجة من الله تعالى قائمة ؛ وحكمة بالغة ، تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده .

وتأمل قوله : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل بنارهم . ليطابق أول الآية ؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق ؛ فذهب بما فيها من الإشراق – وهو النور – وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق ، وهو النارية .

وتأمل كيف قال : ﴿ **بنورهم** ﴾ ولم يقل بضوئهم ، مع قوله : ﴿ **فلما أضاءت ما حوله** ﴾ لأن الضوء هو زيادة في النور . فلو قال : ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط ، دون الأصل ، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته .

وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم ، وأنهم من أهل الظلمات ، الذين لا نور لهم وأيضا فإن الله تعالى سمَّى كتابه نوراً ، ورسوله نوراً ، ودينه نوراً ، ومن أسمائه النور ، والصلاة نور ، فذهابه سبحانه بنورهم : ذهاب بهذا كله .

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** ﴾ كيف طابق بين هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضى بها ، وبذل الهدى في مقابلتها ، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضى بها ، بدلاً عن النور الذي هو الهدى والنور ، فبذلوا الهدى والنور ، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة ، فيالها

من تجارة ما أخسرها ! وصفقة ما أشد غبنها ! .

وتأمل كيف قال الله تعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ فوحده ، ثم قال : ﴿ **وتركهم في ظلمات** ﴾ فجمعها . فإن الحق واحد ، وهو صراط الله المستقيم ، الذي لا صراط يوصل إليه سواه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا بالأهواء ، والبدع ، وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ودين الحق ، بخلاف طرق الباطل . فإنها متعددة متشعبة . ولهذا يفرد الله سبحانه الحق ويجمع الباطل ، كقوله تعالى : (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) [البقرة : ٢٥٧] . وقال تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السُّبُل فتفرق بكم عن سبيله) [الأنعام : ١٥٣] . فجمع سبيل الباطل ، ووحد سبيل الحق . ولا يناقض هذا قوله تعالى : (يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُل السلام) [المائدة : ١٦] . فإن تلك هي طرق مرضاته ، التي يجمعها سبيله الواحد ، وصراطه المستقيم . فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد وسبيل واحد ، وهي سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها . وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خط خطاً مستقيما ، وقال : « هذا سبيل الله » ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ، وقال : « هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ، ثم قرأ قوله تعالى : (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)[1] .

وقد قيل : إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام ، ويكون بمنزلة قول الله تعالى : (كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله) [المائدة : ٦٤] . ويكون قوله تعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ مطابقاً لقوله تعالى : (أطفأها الله) ويكون تخييبهم وإبطال ما راموه : هو تركهم في الظلمات والحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه ، ولا يبصرون سبيلا ،

---

(١) حديث صحيح : مر ص (١٢٢) من سورة الفاتحة .

بل هم صم بكم عمي . وهذا التقدير – وإن كان حقاً – ففي كونه مراداً بالآية نظر ، فإن السياق إنما قصد لغيره ، ويأباه قوله تعالى : ﴿ **فلما أضاءت ما حوله** ﴾ وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبداً ، ويأباه قوله تعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ وموقد نار الحرب لا نور له . ويأباه قوله تعالى : ﴿ **وتركهم في ظلمات لا يبصرون** ﴾ وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر . قال الحسن : هو المنافق ، أبصر ثم عمي ، وعرف ثم أنكر . ولهذا قال : ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ أي لا يرجعون إلى النور الذي فارقوه . وقال تعالى في حق الكفار : (صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : ١٧١] . فسلب العقل عن الكفار ، إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان ، وسلب الرجوع عن المنافقين ، لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان .

فصــــل

ثم ضرب الله سبحانه لهم مثلا آخر مائيا . فقال تعالى : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾ [البقرة : ١٩] . فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله صلى الله عليه وسلم من النور والحياة بنصيب مستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها . فذهب نوره ، وبقي في الظلمات حائراً تائها ، لا يهتدي سبيلا ، ولا يعرف طريقاً ، وبنصيب أصحاب الصيّب ، وهو المطر الذي يصوب ، أي ينزل من عُلو إلى سفل . فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب ؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ، وشبه نصيب المنافقين من هذا الهدى بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق ، ولا نصيب له فيما وراء ذلك ، مما هو المقصود بالصيب ، من حياة البلاد والعباد ، والشجر والدواب ، فإن تلك الظلمات التي فيه ، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره ، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب ، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك : من

برد شديد وتعطيل مسافر عن سفره ، وصانع عن صنعته ، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام ، وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب . وهذه حال أكثر الخلق ، إلا من صفت بصيرته . فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق ، والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة ، وملامة اللوام ، ومعاداة من يخاف معاداته . لم يقدم عليه ، لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة ، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون ، وفيها تنافس المتنافسون ، وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر ، ومفارقة الأهل والوطن ، ومقاساة الشدائد ، وفراق المألوفات ، ولا يجاوز نظره وبصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته . فإنه لا يخرج إليه ، ولا يعزم عليه . وحال هؤلاء حال الضعيف البصيرة والإيمان ، الذي يرى ما في القرآن من الوعد الوعيد والزواجر والنواهي ، والأوامر الشاقة على النفوس التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات ، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه . والناس كلهم صبيان العقول ، إلا من بلغ مبلغ الرجال العقلاء الألباء ، وأدرك الحق علماً وعملا ومعرفة ، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب وما فيه من الرعد والبرق والصواعق ، ويعلم أنه حياة الوجود.

وقال الزمخشري [(١)] : لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب ، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من تشبيه الكفر بالظلمة وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى : أو كمثل ذوي صيب . والمراد : كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة ، فلقوا منها ما لقوا .

قال : والصحيح الذي عليه علماء أهل البيان لا يتخطونه : أن المثلين جميعاً من جهة التمثيلات المتركبة ، دون المفرقة ، لا يتكلف لواحد واحد شيء بقدر شبهه فيه .

---

(١) في تفسير الكشاف (١ / ٤٠) .

وهذا القول الفحل ، والمذهب الجزل ، بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك ، فتشبهها بنظائره ، كما جاء في القرآن حيث شبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحداً بأخرى مثلها . كقوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) [الجمعة : ٥] . الغرض : تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة . وتساوي الحالين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأحمال ولا يشعر من ذلك إلا بما يزيده من الكد والتعب ، وكقوله تعالى : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح) [الكهف : ٤٥] . المراد : قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء هذا النبات . فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوية بعضها ببعض ، وتصييرها شيئاً واحدا فلا كذلك ، لما وصف من وقوع المنافقين في ضلالتهم ، وما خبطوا فيه من الحيرة والدهشة ، فشبه حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعد إيقادها في ظلمة الليل . وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة ، مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

قال : فإن قلت أي المثلين أبلغ ؟

قلت : الثاني ؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر ، وفظاعته . وكذلك أفرادهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ .

فصل

وقد اشتمل هذان المثلان على حكم عظيمة .

منها : أن المستضيء بالنار مستضيء بنور من جهة غيره ، لا من قبل نفسه . فإذا ذهبت تلك النار بقي في ظلمة . وهكذا المنافق ، لما أقر بلسانه من غير اعتقاد ومحبة بقلبه ، وتصديق جازم ، كان ما معه من النور كالمستعار .

ومنها : أن ضياء النار يحتاج دوامه إلى مادة تحمله ، وتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان ، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح ، يقوم بها ويدوم بدوامها ، فإذا لم توجد مادة الإيمان طفىء كما تطفأ النار بفراغ مادتها .

ومنها : أن الظلمة نوعان ؛ ظلمة مستمرة لم يتقدمها نور ، وظلمة حادثة بعد النور ؛ وهي أشد الظلمتين وأشقهما على من كانت حظه ؛ فظلمة المنافق ظلمة بعد إضاءة ، فمثلت حاله بحال المستوقد للنار ، الذي حصل في الظلمة بعد الضوء ، وأما الكافر فهو في الظلمات لم يخرج منها قط .

ومنها : أن في هذا المثل إيذاناً وتنبيهاً على حالهم في الآخرة ، وأنهم يعطون نوراً ظاهراً ، كما كان نورهم في الدنيا ظاهرا . ثم يطفأ ذلك أحوج ما يكونون إليه إذ لم تكن له مادة باقية تحمله ، وبقوا في الظلمة على الجسر ، لا يستطيعون العبور ، فإنه لا يمكن أحداً عبوره إلا بنور ثابت يصحبه حتى يقطع الجسر . فإن لم يكن لذلك النور مادة من العلم النافع والعمل الصالح ، وإلا ذهب الله تعالى به أحوج ما كان إليه صاحبه . فطابق مثلهم في الدنيا بحالتهم التي هم عليها في هذه الدار ، وبحالتهم يوم القيامة عندما يقسم النور .

ومن ههنا يعلم السر في قوله تعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل : أذهب الله نورهم .ر

فإن أردت زيادة بيان وإيضاح ، فتأمل ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وقد سئل عن الورود ؟ فقال : « نجيء نحن يوم القيامة على تل فوق الناس . قال : فتدعى الأمم بأوثانها وما كانت تعبد : الأول فالأول ، ثم يأتينا ربنا تبارك وتعالى بعد ذلك ، فيقول : من تنتظرون ؟ فيقولون : ننتظر ربنا . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : حتى ننظر إليك ، فيتجلى لهم يضحك قال : فينطلق بهم ، فيتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم – منافق أو مؤمن – نوراً ثم يتبعونه . وعلى جسر جهنم كلاليب وحَسَك ، تأخذ من شاء الله تعالى . ثم يطفأ نور المنافقين ، ثم ينجو المؤمنون . فتنجو أول زمرة ، وجوههم

كالقمر ليلة البدر ، سبعون ألفاً لا يحاسبون . ثم الذين يلونهم ، كأضوأ نجم في السماء ، ثم كذلك . ثم تحل الشفاعة ، ويشفعون حتى يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، فيجعلون بفناء الجنة ، ويجعل أهل الجنة يرشون عليهم الماء - وذكر باقي الحديث »(١) .

فتأمل قوله : « فينطلق فيتبعونه ، ويعطى كل إنسان منهم نور : المنافق والمؤمن » ثم تأمل قوله تعالى : ﴿ **ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون** ﴾ وتأمل حالهم إذ أطفئت أنوارهم ، فبقوا في الظلمة ، وقد ذهب المؤمنون في نور إيمانهم يتبعون ربهم عز وجل .

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة : « لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع كل مشرك إلهه الذي كان يعبده »(٢) والموحد حقيق بأن يتبع الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل .

وتأمل قوله تعالى : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) [القلم : ٤٢] . وذكر هذه الآية في حديث الشفاعة في هذا الموضع ، وقوله في الحديث « فيكشف عن ساقه » وهذه الإضافة تبين المراد بالساق المذكور في الآية .

وتأمل ذكر الانطلاق واتباعه سبحانه تعالى بعد هذا . وذلك يفتح لك باباً من أسرار التوحيد ، وفهم القرآن ، ومعاملة الله سبحانه تعالى لأهل توحيده الذين عبدوه وحده ، ولم يشركوا به شيئاً ، هذه المعاملة التي عامل بمقابلتها أهل الشرك حيث ذهبت كل أمة مع معبودها ، فانطلق بها واتبعته إلى النار . وانطلق المعبود الحق واتبعه أولياؤه وعابدوه ، فسبحان الله رب العالمين . قرت عيون أهل التوحيد به في الدنيا والآخرة ، وفارقوا الناس فيه أحوج ما كانوا إليهم .

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣ / ٣٨٣) .
ومسلم (١ / ٤٥٤) في الإيمان ، باب : آخر أهل النار خروجاً .

(٢) رواه البخاري (١٣ / ٤٣٠) في التوحيد ، باب قول الله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة) .
ومسلم (١ / ٤٣٤) في الإيمان ، باب : رؤية الله عز وجل .

ومنها : أن المثل الأول متضمن لحصول الظلمة ، التي هي الضلال والحيرة التي ضدها الهدى . والمثل الثاني : متضمن لحصول الخوف الذي ضده الأمن . فلا أمن ولا هدى : (الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) [الأنعام : ٨٢] .

قال ابن عباس[١] وغيره من السلف : مثل هؤلاء في نفاقهم كمثل رجل أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة فاستضاء ورأى ما حوله ، فاتقى ما يخاف ، فبينما هو كـذلك إذ طفئت ناره ، فبقي في ظلمته خائفاً متحيرا . كذلك المنافقون بإظهار كلمة الإيمان أمنوا على أموالهم وأولادهم ، وناكحوا المؤمنين ووارثوهم ، وقاسموهم الغنائم ، فذلك نورهم ؛ فإذا ماتوا عادوا إلى الظلمة والخوف . قال مجاهد : إضاءة النار لهم : إقبالهم إلى المسلمين والهدى ، وذهاب نورهم : إقبالهم إلى المشركين والضلالة . وقد فسرت تلك الإضاءة وذهاب النور : بأنها في الدنيا ، وفسرت بأنها فى البرزخ وفسرت بيوم القيامة . والصواب : أن ذلك شأنهم في الدور الثلاثة ، فإنهم لما كانوا كذلك في الدنيا جوزوا في البرزخ وفي القيامة بمثل حالهم ، جزاء وفاقا : (وما ربك بظلام للعبيد) فإن المعاد يعود إلى العبد فيه ما كان حاصلا منه في الدنيا ولهذا يسمى يوم الجزاء : (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا) [الإسراء : ٧٢] . (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) [مريم : ٧٦] . ومن كان مستوحشاً مع الله بمعصيته إياه في هذه الدار ؛ فوحشته معه في البرزخ ويوم المعاد أعظم وأشد . ومن قرت عينه به في هذه الحياة الدنيا قرت عينه به يوم القيامة وعند الموت ويوم البعث ، فيموت العبد على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه . ويعود عليه عمله بعينه ، فينعم ظاهراً وباطناً ، فيورثه من الفرح والسرور واللذة والبهجة ، وقرة العين والنعيم ، وقوة القلب واستبشاره وحياته وانشراحه ، ما هو من أفضل النعيم ، وأجله وأطيبه وألذه ، وهل النعيم إلا طيب النفس ، وفرح القلب وسروره وانشراحه ، واستبشاره ؟ .

---

(١) راجع تفسير الطبري في تفسير الآية (١ / ١٤٠) .

هذا وينشأ له من أعماله ماتشتهيه نفسه ، وتلذ عينه من سائر المشتهيات التي تشتهيها الأنفس وتلذها الأعين ، ويكون تنوع تلك المشتهيات وكمالها وبلوغها مرتبة الحسن والموافقة بحسب كمال عمله ومتابعته فيه وإخلاصه ، وبلوغه مرتبة الإحسان فيه وبحسب تنوعه ، فمن تنوعت أعماله المرضية المحبوبة له في هذه الدار تنوعت الأقسام التي يتلذذ بها في تلك الدار ، وتكثرت له بحسب تكثر أعماله هنا وكان مزيده متبوعها والابتهاج بها ، والالتذاذ هناك على حسب مزيده من الأعمال ، ومتبوعه فيها في هذه الدار .

وقد جعل الله سبحانه لكل عمل من الأعمال المحبوبة له والمسخوطة أثراً وجزاء ولذة ونعيما يخصه ، لا يشبه أثر الآخر وجزاءه ، لهذا تنوعت لذات أهل الجنة ، وآلام أهل النار ، وتنوع ما فيها من الطيبات والعقوبات . فليست لذة كل من ضرب في كل مرضاة الله بسهم وأخذ منها بنصيب كلذة من إنما سهمه ونصيبه في نوع واحد منها ولا ألم من ضرب في كل مساخط الله بنصيب كألم من ضرب بسهم واحد في مساخطه .

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن كمال ما يستمتع به العبد من الطيبات في الآخرة بحسب كمال ما يقابله من الأعمال في الدنيا ، فقد رأى قِنواً من حَشَف معلقا في المسجد للصدقة . فقال : « إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة »[(١)] فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله ، فيجزىء على تلك الصدقة بحشف من جنسها .

وهذا الباب يفتح لك أبواباً عظيمة من فهم المعاد ، وتفاوت الناس في أحواله ، وما يجري فيه من الأمور[(٢)] .

---

(١) رواه أبو داود (٤ / ٤٩٦) في الزكاة ، باب : ما لا يجوز من الصدقة .
وابن ماجه (١ / ٥٨٣) في الزكاة ، باب : النهي أن يخرج في الصدقة شر ماله .
والنسائي (٣ / ٤٣) في الزكاة ، باب قوله تعالى : (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) كلهم عن عوف بن مالك رضي الله عنه .

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (١٢-١٦) .

وقال رحمه الله تعالى :-

قال : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل : بنارهم لأن النار فيها الإحراق والإشراق . فذهب بما فيها من الإضاءة والإشراق ، وأبقى عليهم ما فيها من الأذى والإحراق ، وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقي في قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلي في قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرها وأذاها ، وسمومها ووهجها في الدنيا ، فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة ناراً مؤصدة تطلع على الأفئدة .

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان في الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد . فهو في ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى في حق إخوانهم من الكفار : (والذين كذبوا بآياتنا صم بكم في الظلمات) [الأنعام : ٣٩] . وقال تعالى : (مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون) [البقرة : ١٧١] .

شبه تعالى حال المنافقين في خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار ، وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ورأوا النور عيانا . ولهذا قال تعالى في حقهم ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾ إليه . لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه . وقال تعالى في حق الكفار : (فهم لا يعقلون) لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون في ظلمات الكفر صم بكم عمي .

فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا ، وإلى الإيمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً ، إلى طريق الرشاد هاديا . لقد أسمع منادي الإيمان لو صادف آذاناً واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً

خالية . ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات . فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعد إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام ، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، وما لجرح بميت إيلام[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

وأما الصمم والوقر ففي قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ وقوله : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : ٢٣] . وقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩] . وقوله تعالى : ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ [فصلت : ٤٤] .

قال ابن عباس : في آذانهم صمم عن استماع القرآن ، وهو عليهم عمى أعمى الله قلوبهم فلا يفقهون . أولئك ينادون من مكان بعيد ، مثل البهيمة التي لا تفهم إلا دعاء ونداء .

وقال مجاهد : بعيد من قلوبهم . وقال الفراء : تقول للرجل الذي لا يفهم كذلك : أنت تُنادى من مكان بعيد ، قال : وجاء في التفسير : كأنما ينادون من السماء فلا يسمعون . انتهى .

والمعنى : أنهم لا يسمعون ولا يفهمون كما أن من دعي من مكان بعيد لا يسمع ولا يفهم .

وأما البكم فقال تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ والبُكم جمع أبكم ، وهو الذي لا ينطق .

---

(١) الوابل الصيب (٦٨-٧٠) بتحقيق الأرناؤوط .

والبكَمُ نوعان : بكم القلب وبكم اللسان ، كما أن النطق نطقان : نطق القلب ونطق اللسان . وأشدهما : بكم القلب ، كما أن عماه وصممه أشد من عمى العين ، وصمم الأذن .

فوصفهم الله سبحانه بأنهم لا يفقهون الحق ، ولا تنطق به ألسنتهم والعلم يدخل من ثلاثة أبواب : من سمعه ، وبصره ، وقلبه . وقد سدت عليهم هذه الأبواب الثلاثة ، فسد السمع بالصمم والبصر بالعمى ، والقلب بالبكم . ونظيره قوله تعالى :(لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) [الأعراف : ١٧٩] . وقد جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله (وجعلنا لهم سمعاً وأبصارا وأفئدة. فما أغنى عنهم سمعهم ولاأبصارهم ولاأفئدتهم من شيء . إذ كانوا يجحدون بآيات الله) [الأحقاف : ٢٦] . فإذا أراد سبحانه هداية عبد فتح قلبه وسمعه ، وبصره . وإذا أراد ضلاله أصمه وأعماه وأبكمه وبالله التوفيق[1] .

قول الله تعالى ذكره :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٩] .

الصيب : المطر الذي يصوب من السماء أي ينزل منها بسرعة ، وهو مثل للقرآن الذي به حياة القلوب ، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان . فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل لهم به من الحياة التي لا خطر لها. فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق وهو الوعيد والتهديد والعقوبات والمثلات ، التي حذر الله بها من خالف أمره . وأخبر أنه منزلها على من كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء والصبر على الأمر ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التي هي على خلاف أهوائها ، فهي كالظلمات والرعد والبرق . ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من

(١) شفاء العليل (٩٦) .

الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق . بل يستأنس بذلك ويفرح به ، لما يرجو من ورائه من الحياة والخصب .

وأما المنافق فإنه قد عمي قلبه ، ولم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيما وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه . فوضع أصابعه في أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره . فهو خائف أن يختطف بصره . لأن بصره أضعف من أن يثبت معه . فهو في ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف . فإن أضاء له ما بين يديه مشى في ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً ، لايدري أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذي به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو في نفسه ، بل لا يدرك إلا رعداً وبرقاً وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك . فالوحشة لازمة له . والرعب والفزع لا يفارقانه ، وأما من أنس بالصيب ، وعلم ما يحصل به من الخير والحياة والنفع ، وعلم أنه لابد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، فإنه يستأنس بذلك ، ولا يستوحش منه ، ولا يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب .

فهذا مثل مطابق للصيب الذي نزل به جبريل صلى الله عليه وسلم من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليحيي به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء ، حكمة بالغة ، وأسباباً منتظمة ، نظمها العليم الحكيم . فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده وبروقه فقط . لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب مما اطمأن به العالمون ، وشك فيما تيقنه المبصرون العارفون . فبصره في المثل الناري كبصر الخفاش في نحر الظهيرة ، وسمعه في المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد . وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من سماع الرعد . فإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ؛ وظنون كاذبة ؛ جالت فيها وصالت وقامت بها وقعدت واتسع فيها مجالها ، وكثر قيلها وقالها فملأت

الأسماع من هذيانها ، والأرض من دواوينها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء والقابلين منهم - والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم .

ولعموم البلية بهم وضرر القلوب بكلامهم ؛ هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك ، وكشف أستارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : (ومنهم ... ومنهم ... ومنهم)[١] . حتَّى انكشف أمرهم وبانت حقائقهم وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفي أوصاف الكفار آيتين ، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجلدة مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذي قد تأبد العداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته[٢] .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢١-٢٤] .

فهذا استدلال في غاية الظهور ونهاية البيان على جميع مطالب أصول الدين من إثبات الصانع وصفات كماله من قدرته وعلمه وإرادته وحياته وحكمته وأفعاله وحدوث العالم وإثبات نوعي توحيده تعالى توحيد الربوبية المتضمن أنه وحده الرب الخالق الفاطر ، وتوحيد الإلهية المتضمن أنه وحده الإله المعبود المحبوب الذي لا تصلح العبادة والذل والخضوع والحب إلا له ، ثم قرر تعالى بعد ذلك إثبات نبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أبلغ تقرير وأحسنه وأتمه وأبعده عن المعارض فثبت بذلك صدق رسوله في كل ما يقوله ، وقد أخبر عن المعاد والجنة ، والنار

---

(١) في قوله تعالى من سورة التوبة الآيات (٤٩ و ٥٨ و ٦١ و٧٥) .

(٢) الوابل الصيب (٧٠-٧٢) .

فثبت صحة ذلك ضرورة ، فقررت هذه الآيات هذه المطالب كلها على أحسن وجه فصدرها تعالى بقوله : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾ وهذا خطاب لجميع بني آدم يشتركون كلهم في تعلقه بهم ثم قال : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ فأمرهم بعبادة ربهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه ، وهو مالك ذواتنا ورقابنا وأنفسنا ، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكا خالصاً حقيقياً ، وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه ، فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ، ولهذا قال : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ ولم يقل إلهكم، والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح ، والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له . ثم قال ﴿ **الذي خلقكم** ﴾ فنبه بهذا أيضا وجوب عبادته وحده وهو كونه أخرجهم من العدم إلى الوجود وأنشأهم واخترعهم وحده بلا شريك باعترافهم وإقرارهم ، كما قال في غير موضع من القرآن : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) [الزخرف : ٨٧] . فإذا كان هو وحده الخالق فكيف لا يكون وحده المعبود وكيف تجعلون معه شريكا في العبادة وأنتم مقرون بأنه لا شريك له في الخلق ، وهذه طريقة القرآن يستدل بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية . ثم قال : ﴿ **والذين من قبلكم** ﴾ فنبه بذلك على أنه وحده الخالق لكم ولآبائكم ومن تقدمكم وأنه لم يشركه أحد في خلق من قبلكم ولا في خلقكم ، وخلقه تعالى لهم متضمن لكمال قدرته وإرادته وعلمه وحكمته وحياته وذلك يستلزم لسائر صفات كماله ونعوت جلاله فتضمن ذلك إثبات صفاته وأفعاله ووحدانيته في صفاته فلا شبيه له فيها ولا في أفعاله فلا شريك له فيها . ثم ذكر المطلوب من خلقهم وهو أن يتقوه فيطيعونه ولا يعصونه ، ويذكرونه فلا ينسونه ، ويشكرونه ولا يكفرونه فهذه حقيقة تقواه . وقوله : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ قيل إنه تعليل للأمر وقيل تعليل للخلق وقيل المعنى : اعبدوه لتتقوه بعبادته . وقيل المعنى خلقكم لتتقوه وهو أظهر لوجوه :

(**أحدها**) أن التقوى هي العبادة والشيء لا يكون علة لنفسه .

(**الثاني**) أن نظيره قوله تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذرايات :٥٦] .

(**الثالث**) أن الخلق أقرب في اللفظ إلى قوله : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ من الأمر.

ولمن نصر الأول أن يقول لا يمتنع أن يكون قوله لعلكم تتقون تعليلا للأمر بالعبادة ، ونظيره قوله تعالى : (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) فهذا تعليل لكتب الصيام ، ولا يمتنع أن يكون تعليلا للأمرين معاً ، وهذا هو الأليق بالآية والله أعلم . ثم قال تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ [البقرة : ٢٢] . فذكر تعالى دليلا آخر متضمنا للاستدلال بحكمته في مخلوقاته فالأول متضمن لأصل الخلق والإيجاد ويسمى دليل الاختراع والإنشاء والثاني متضمن للحكم المشهودة في خلقه ويسمى دليل العناية والحكمة وهو تعالى كثيرا ما يكرر هذين النوعين من الاستدلال في القرآن ، ونظيره قوله تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والأنهار)[إبراهيم : ٣٢،٣٣] . فذكر خلق السموات والأرض ثم ذكر منافع المخلوقات وحكمها ، ونظيره قوله تعالى : (أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا) [النمل : ٦٠-٦٤] إلى آخر الآيات على أن في هذه الآيات من الأسرار والحكم ما يحسب عقول العالمين أن يفهموه ويدركوه ولعله أن يمر بك إن شاء الله التنبيه على رائحة يسيرة من ذلك . ونظير ذلك أيضا قوله تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم

النهار

يعقلون ﴾[البقرة : ١٦٤] . وهذا كثير في القرآن لمن تأمله ، وذكر سبحانه في آية البقرة قرار العالم وهو الأرض ، وسقفه وهو السماء ، وأصول منافع العباد وهو الماء الذي أنزله من السماء فذكر المسكن والساكن وما يحتاج إليه من مصالحه ونبه تعالى بجعله للأرض فراشاً على تمام حكمته في أن هيأها لاستقرار الحيوان عليها فجعلها فراشاً ومهادا وبساطا وقرارا وجعل سقفها بناء محكما مستويا لا فطور فيه ولا تفاوت ولا عيب . ثم قال : ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ فتأمل هذه النتيجة وشدة لزومها لتلك المقدمات قبلها ، وظفر العقل بها بأول وهلة وخلوصها من كل شبهة وريبة وقادح وأن كل متكلم ومستدل ومحجاج إذا بالغ في تقرير ما يقرره ، وأطاله وأعرض القول فيه فغايته إن صح ما يذكره أن ينتهي إلى بعض ما في القرآن . فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من البرهان الشافي في التوحيد أي إذا كان الله وحده هو الذي فعل هذه الأفعال ، فكيف تجعلون له أنداداً وقد علمتم أنه لا ندَّ له يشاركه في فعله فلما قرر نوعي التوحيد انتقل إلى تقرير النبوة فقال : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [البقرة : ٢٣] . إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به ، وقلتم إنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم ، ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عده الوف ثم تعجز الخلائق كلهم عن ذلك ، حتى إن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه ، فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ، ويحكمون بسماجته ، وقبح ركاكته وخسته فهو كمن أظهر طيبا لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله ، فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم وجاء الحمقان بعذرة منتنه خبيثة ، وقالوا قد جئنا بمثل ما جئت به فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهاناً وعظمة وجلالة ، وأكد تعالى هذا التوبيخ والتقريع والتعجيز بأن قال : ﴿ **وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ كما يقول المعجز لمن يدعي مقاومته أجهد عليَّ بكل

من تقدر عليه من أصحابك ، وأعوانك وأوليائك ، ولا تبق منهم أحدا حتى تستعين به ، فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه وأسخفه عقلا إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه ، أو أكملهم وأفضلهم وأصدقهم وأوثقهم بما يقوله ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية وأمثالها على أصناف الخلائق أميهم وكتابيهم وعربهم وعجمهم ، ويقول لن تستطيعوا ذلك ولن تفعلوه أبدا ، فيعدلون معه إلى الحرب والرضى بقتل الأحباب ، فلو قدروا على الإتيان بسورة واحدة لم يعدلوا عنها إلى اختيار المحاربة ، وإيتام الأولاد ، وقتل النفوس والإقرار بالعجز عن معارضته ، وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة : هذا (**أحدها**).

(**وثانيها**) إقدامه صلى الله عليه وسلم على هذا الأمر وإسجاله على الخلائق إسجالا عاما إلى يوم القيامة أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا ، فهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله تعالى ، وإلا فعلم البشر وقدرته يضعفان عن ذلك .

(**وثالثها**) : النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه . وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه . وبالوجهين الأولين يكون معجزة لكل من بلغه خبره ولو لم يتأمله فتأمل هذا الموضع من إعجاز القرآن تعرف فيه قصور كثير من المتكلمين وتقصيرهم في بيان إعجازه ، وأنهم لن يوفوه عشر معشار حقه حتى قصر بعضهم الإعجاز على صرف الدواعي عن معارضته مع القدرة عليها وبعضهم قصر الإعجاز على مجرد فصاحته وبلاغته ، وبعضهم على مخالفة أسلوب نظمه لأساليب نظم الكلام وبعضهم على ما اشتمل عليه من الإخبار بالغيوب إلى غير ذلك من الأقوال القاصرة التي لا تشفي ولا تجدي ، وإعجازه فوق ذلك ووراء ذلك كله ، فإذا ثبتت النبوة بهذه الحجة القاطعة فقد وجب على الناس تصديق الرسول في خبره وطاعة أمره وقد أخبر على الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وعن المعاد والجنة والنار فثبتت صحة ذلك يقيناً فقال تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين**

وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾[البقرة : ٢٤، ٢٥] . الآية فاشتملت الآيات على تقرير مهمات أصول الدين من إثبات خالق العالم وصفاته ووحدانيته ورسالة رسوله ، والمعاد الأكبر(١) .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١، ٢٢] .

فذكر سبحانه أمرهم بعبادته ، وذكر اسم الرب مضافاً إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم ، ثم ذكر ضروب إنعامه عليهم بإيجادهم وإيجاد من قبلهم وجعل الأرض فراشا لهم يمكنهم الاستقرار عليها ، والبناء والسكنى .

وجعل السماء بناء وسقفاً فذكر أرض العالم وسقفه ، ثم ذكر إنزال مادة أقواتهم ولباسهم وثمارهم منبهاً بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شأنه ، وتشكره الفطر والعقول ، وقبح الإشراك به وعبادة غيره(٢) .

وقال رحمه الله تعالى :

احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله وصحة ماجاء به من الكتاب وأنه من عنده وكلامه الذي يتكلم به وأنه ليس من صنعة البشر ، ولا من كلامهم بقوله :

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [البقرة : ٢٣] .

فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزله على عبده وأنه كلامه أن يأتي

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣١-١٣٦) .
(٢) مفتاح دار السعادة (٣٣٥) .

بسورة واحدة مثله ، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره ، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين[١] .

قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥] .

وقولهم : ﴿ **هذا الذي رزقنا من قبل** ﴾ أي شبيهه ونظيره لا عينه وهل المراد هذا الذي رزقنا في الدنيا نظيره من الفواكه والثمار ، أو هذا نظير الذي رزقناه قبل في الجنة ؟

قيل : فيه قولان : ففي تفسير السدي[٢] عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل أنهم أتوا بالثمرة في الجنة ، فلما نظروا إليها قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وأتوا به متشابها يعرفونه ، وقال آخرون : هذا الذي رزقنا من قبل من ثمار الجنة ، من قبل هذا لشدة مشابهة بعضه بعضاً في اللون والطعم ، واحتج أصحاب هذا القول بحجج :

إحداها : أن المشابهة التي بين ثمار الجنة بعضها لبعض ؛ أعظم من المشابهة التي بينها وبين ثمار الدنيا ، ولشدة المشابهة قالوا هذا هو .

---

(١) الصواعق المرسلة (٢/٤٦٧-٤٦٨) .

(٢) السُّدّي ، إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة ، الإمام المفسر أبو محمد الحجازي الأعور ..
روى عن أنس وابن عباس وغيرهم ، وحدث عنه شعبة وسفيان الثوري وآخرون .
توفي في سنة سبع وعشرين ومائة .
روى له مسلم والأربعة .
وهو غير السدي الصغير ، محمد بن مروان الكوفي أحد المتروكين .
سير أعلام النبلاء (٥ / ٢٦٤) .
الطبقات الكبرى (٦ / ٣٢٣) .
والأثر رواه الطبري في تفسيره (١ / ١٧١) .

الحجة الثانية : ما حكاه ابن جرير[(١)] عنهم قال : ومن علة قائلي هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله كما كان ، حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن مهدي ، حدثنا سفيان سمعت ابن مرة يحدث عن أبي عبيدة وذكر ثمر الجنة ، وقال : كلما نزعت ثمرة عادت مكانها أخرى .

الحجة الثالثة : قوله : ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ وهذا كالتعليل والسبب الموجب لقولهم هذا الذي رزقنا من قبل .

والحجة الرابعة : أن المعلوم أنه ليس كل ما في الجنة من الثمار قد رزقوه في الدنيا ، وكثير من أهلها لا يعرفون ثمار الدنيا ولا رأوها ، ورجحت طائفة : منهم ابن جرير وغيره القول الآخر ، واحتجت بوجوه : قال ابن جرير[(٢)] : والذي يحقق صحة قول القائلين : إن معنى ذلك هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا أن الله جل ثناؤه قال : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً** ﴾ يقولون : هذا الذي رزقنا من قبل ، ولم يخصص أن ذلك من قيلهم في بعض دون بعض ، فإذا كان قد أخبر جل ذكره عنهم أن ذلك من قيلهم كلما رزقوا ثمرة ، فلا شك أن ذلك من قيلهم في أول رزق رزقوه من ثمارها أتوا به بعد دخولهم الجنة واستقرارهم فيها ، الذي لم يتقدمه عندهم من ثمارها ثمرة ، فإذا كان لاشك أن ذلك من قيلهم في أوله كما هو من قيلهم في وسطه وما يتلوه ، فمعلوم أنه محال أن يقولوا لأول رزق رزقوه من ثمار الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل هذا من ثمار الجنة ، وكيف يجوز أن يقولوا لأول رزق من ثمارها ولما يتقدمه عندهم غيرها هذا هو الذي رزقنا من قبل ، إلا أن ينسبهم ذو غية وضلال إلى قيل الكذب ، الذي قد طهرهم الله منه أو يدفع دافع أن يكون ذلك من قيلهم الأول : رزق يرزقونه من ثمارها فيدفع صحة ما أوجب الله صحته من غير نصب دلالة على أن ذلك في حال من أحوالهم دون حال ، فقد تبين أن معنى الآية كلما رزقوا من ثمرة من ثمار الجنة في الجنة ، قالوا : هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا .

---

(١) تفسير الطبري (١ / ١٧١) .

(٢) المصدر السابق .

قلت : أصحاب القول الأول يخصون في هذا العام بما عدا الرزق الأول ، لدلالة العقل والسياق عليه ، وليس هذا ببدع من طريقة القرآن ، وأنت مضطر إلى تخصيصه ولابد بأنواع من التخصيصات :

أحدها : أن كثيراً من ثمار الجنة ؛ وهي التي لا نظير لها في الدنيا ، لا يقال لها ذلك .

الثاني : أن كثيرا من أهلها لم يرزقوا جميع ثمرات الدنيا التي لها نظير في الجنة .

الثالث : أنه من المعلوم أنهم لا يستمرون على هذا القول أبد الآباد كلما أكلوا ثمرة واحدة : قالوا : هذا الذي رزقنا في الدنيا ، ويستمرون على هذا الكلام دائماً إلى غير نهاية ، والقرآن العظيم لم يقصد إلى هذا المعنى ، ولا هو مما يعتني بهم من نعيمهم ولذتهم ، وإنما هو كلام مبين خارج على المعتاد المفهوم من الطيب .

ومعناه : أنه يشبه بعضه بعضاً ليس أوله خيراً من آخره ، ولا هو مما يعرض له ما يعرض لثمار الدنيا عند تقادم الشجر وكبرها من نقصان حملها وصغر ثمارها وغير ذلك ، بل أوله مثل آخره ، وآخره مثل أوله ، وهو خيار كله يشبه بعضه بعضا . فهذا وجه قولهم ولا يلزم مخالفة ما قصد الله سبحانه وتعالى ولا نسبة أهل الجنة إلى الكذب بوجه . والذي يلزمهم من التخصيص يلزمك نظيره وأكثر منه . والله أعلم .

وأما قوله عز وجل : ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ قال الحسن : خيار كله لا رذل ، ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه ، وأن ذلك ليس فيه رذل ؟

وقال قتادة : خيار لا رذل فيه .

فإن ثمار الدنيا ينقى منها ويرذل منها .

وكذلك قال ابن جريج وجماعة . وعلى هذا فالمراد بالتشابه التوافق والتماثل .

وقالت طائفة أخرى ، منهم ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : متشابهاً في اللون والمرأى ، وليس يشبه الطعم ، قال مجاهد : متشابها لونه مختلفا طعمه .

وكذلك قال الربيع بن أنس ، وقال يحيى بن أبي كثير : « عشب الجنة الزعفران ، وكثبانها المسك ، ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتونهم بمثلها فيقولون : هذا الذي رزقنا جئتمونا به آنفاً . فيقول لهم الخدم كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف . فهو قوله عز وجل : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها** ﴾ . وقالت طائفة وناس معنى الآية : أن يشبه ثمر الدنيا ، غير أن ثمر الجنة أفضل وأطيب . قال ابن وهب : قال عبد الرحمن بن زيد : يعرفون أسماءه ؛ كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح ، والرمان بالرمان ، قالوا في الجنة : هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها يعرفونه . وليس هو مثله في الطعم ، واختار ابن جرير[1] هذا القول قال : ودليلنا على فساد قول من قال إن معنى الآية هذا الذي رزقنا من قبل أي في الجنة وتلك الدلالة على فساد ذلك القول هي الدلالة على فساد قول من خالف قولنا في تأويل قوله : ﴿ **وأتوا به متشابها** ﴾ أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن المعنى الذي من أجله قال القوم : ﴿ **هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها** ﴾ قلت : هذا لا يدل على فساد قولهم كما تقدم[2] .

وقال رحمه الله تعالى : فتأمل جلالة المبشر ومنزلته وصدقه وعظمته ، وعظمة من أرسله إليك بهذه البشارة وقد بشرك به وضمنه لك وجعله أسهل شيء عليك وأيسره وجمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه والأزواج جمع زوج والمرأة زوج للرجل وهو زوجها هذا هو الأفصح وهو لغة قريش وبها نزل القرآن لقوله : (اسكن أنت

---

(١) المصدر السابق .

(٢) حادى الأرواح (١٤١-١٤٤) .

وزوجك الجنة) [البقرة : ٣٥] ومن العرب من يقول : زوجة وهو نادر لا يكادون يقولونه ، وأما المطهرة فإن جرى صفة على الواحد فيجري صفة على جمع التكثير إجراء له مجرى جماعة كقوله تعالى : (ومساكن طيبة) [الصف : ١٢] وقولهم : قوى ظاهرة ونظائره والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمح إلى غير زوجها وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ قال عبد الله بن المبارك[(١)] حدثنا شعبة عن قتادة عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ **ولهم فيها أزواج مطهرة** ﴾ قال : من الحيض والغائط والنخامة والبصاق ، وقال عبد الله بن مسعود[(٢)] وعبد الله بن عباس : (مطهرة : لا يحضن ولا يحدثن ولا يتنجسن) وقال ابن عباس أيضا (مطهرة من القذر والأذى لا يبلن ولا يتغوطن ولا يمذين ولا يمنين ولا يحضن ولا يبصقن ولا يتنخمن ولا يلدن) وقال قتادة[(٣)] : (مطهرة من الإثم والأذى طهرهن الله سبحانه من كل بول وغائط وقذر ومأثم) وقال عبد الرحمن بن زيد[(٤)] (المطهرة التي لا تحيض ، وأزواج الدنيا لسن بمطهرات ألا تراهن يدمين ويتركن الصلاة والصيام قال : وكذلك خلقت حواء حتى عصت فلما عصت ، قال الله لها : إني خلقتك وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة[(٥)] .

---

(١) ذكر هذا الحديث ابن كثير في تفسيره (١ / ٦٤) في تفسير الآية ذاتها .
وقال : رواه الحافظ « أبو بكر بن مردويه » ثم قال : هذا حديث غريب ، وقد رواه الحاكم في مستدركه وقال : على شرط الشيخين . وهذا الذي ادعاه فيه نظر .. إلخ . اهـ .
وقد بذلت جهدي ولم أعثر عليه في المستدرك .
وانظر « فتح القدير » للشوكاني في (١ / ٥٥) .
والطبري (١ / ٣٩٧) بتحقيق آل شاكر .
(٢)(٣) راجع الطبري (١ / ١٧١) وما بعدها .
(٤) انظر الطبري (١ / ١٧٦) وما بعدها .
(٥) حادي الأرواح (١٧٧-١٧٨) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] .

وهذا جواب اعتراض اعترض به الكفار على القرآن وقالوا : إن الرب أعظم من أن يذكر الذباب والعنكبوت ونحوها من الحيوانات الخسيسة فلو كان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله لم يذكر فيه الحيوانات الخسيسة فأجابهم الله تعالى بأن قال : ﴿ **إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها** ﴾ فإن ضرب الأمثال بالبعوضة فما فوقها إذا تضمن تحقيق الحق وإيضاحه وإبطال الباطل وإضحاده كان من أحسن الأشياء ، والحسن لا يستحيا منه فهذا جواب الاعتراض فكأن معترضا اعترض على هذا الجواب أو طلب حكمة ذلك فأخبر تعالى عمَّاله في ضرب تلك الأمثال من الحكمة وهي إضلال من شاء وهداية من شاء ثم كان سائلا سأل عن حكمة الإضلال لمن يضله بذلك فأخبر تعالى عن حكمته وعدله وإنه إنما يضل به الفاسقين ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض** ﴾[البقرة :٢٧]. فكانت أعمالهم هذه القبيحة التي ارتكبوها سببا لأن أضلهم وأعماهم عن الهدى[1] .

قوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] .

فهذا استدلال قاطع على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة فذكر تعالى أربعة أمور ؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم (والرابع) منتظر موعود به وعد الحق (**الأول**) كونهم كانوا أمواتا لا أرواح فيهم بل نطفا وعلقا ، ومضغة مواتا لا حياة فيها (**الثاني**) أنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة (**الثالث**) أنه تعالى يميتهم بعد هذه الحياة (**الرابع**) أنه يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه فما بال العاقل يشهد الثلاثة الأطوار الأول ، ويكذب بالرابع وهل الرابع إلا طور من أطوار التخليق ، فالذي أحياكم

(١) بدائع الفوائد (١٣٦/٤) .

بعد أن كنتم مواتا ثم أماتكم بعد أن أحياكم ما الذي يعجزه عن إحيائكم بعد ما يميتكم ؟ وهل إنكاركم ذلك إلا كفر مجرد بالله ! فكيف يقع منكم بعد ما شاهدتموه ! ففي ضمن هذه الآية الاستدلال على وجود الخالق وصفاته وأفعاله وعلى المعاد[1] .

أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة : ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٢] .

إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى إبليس فلعنه وأخرجه من السماء (وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه) .

أحدها : أنه سبحانه رد على الملائكة لما سألوه كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمون وهو العليم الحكيم ، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحي عباده والشهداء والصديقين والعلماء وطبقات أهل العلم والإيمان من هو خير من الملائكة ، وظهر إبليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا ، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكم الباهرة .

الثاني : أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه وفضله ميزه عليهم بالعلم فعلمه الأسماء كلها ﴿ **ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ . جاء في التفسير[2] أنهم قالوا : لن يخلق ربُنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض فلما

(١) بدائع الفوائد (١٣٦/٤-١٣٧) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١ / ١٩٥) وما بعدها .

امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما لم يعلموه فقالوا : ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ فحينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال : ﴿ **يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم** ﴾ أقروا له بالفضل .

الثالث : أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم : ﴿ **ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظاهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض ، فتعرف إليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفاً للعلم .

الرابع : أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات ، وأراد سبحانه أن يظهر لملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم[١] .

قول الملائكة : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك** ﴾ [البقرة : ٣٠] .

فقيل المعنى : ونقدس أنفسنا لك فعدي باللام ، وهذا ليس بشيء .

والصواب : أن المعنى نقدسك وننزهك عما لا يليق بك وهذا قول جمهور أهل التفسير .

وقال ابن جرير [٢] : ونقدس لك ننسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس ، ومما أضاف إليك أهل الكفر بك .

قال : وقال بعضهم : نعظمك ونمجدك ، قاله أبو صالح ، وقال مجاهد : نعظمك ونكبرك . انتهى .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٦-٥٧) .

(٢) تفسير الطبري (١ / ٢١١) .

وقال بعضهم : ننزهك عن السوء فلا ننسبه إليك ، واللام فيه على حدها في قوله (ردف لكم) لأن المعنى تنزيه الله لا تنزيه نفوسهم لأجله .

قلت : ولهذا قرن هذا اللفظ بقولهم نسبح بحمدك ، فإن التسبيح تنزيه الله سبحانه عن كل سوء .

قال ميمون بن مهران[(١)] : سبحان الله كلمة يعظم بها الرب ويحاشى بها من السوء وقال ابن عباس : هي تنزيه لله من كل سوء ، وأصل اللفظة من المباعدة من قولهم سبحت الأرض إذا تباعدت فيها ، ومنه : (كل في فلك يسبحون) فمن أثنى على الله ونزهه عن السوء فقد سبحه ويقال : سبح الله وسبح له وقدسه وقدس له[(٢)] .

وقال رحمه الله تعالى :-

جوابه سبحانه لمن سأل عن التخصيص والتميز الواقع في أفعاله بأنه لحكمة يعلمها هو سبحانه وإن كان السائل لا يعلمها كما أجاب الملائكة لما قال لهم : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ قالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ [البقرة : ٣٠] . ولو كان فعله مجرداً عن الحكم والغايات والمصالح لكان الملائكة أعلم به أن سألوا هذا السؤال ولم يصح جوابهم بتفرده بعلم ما لا يعلمونه من الحكم والمصلحة التي في خلق هذا الخليفة ولهذا كان سؤالهم إنما وقع عن وجه الحكمة لم يكن اعتراضاً على الرب تعالى . ولو قدر أنه على وجه الاعتراض فهو دليل على علمهم أنه لا يفعل شيئاً إلا لحكمة فلما رأوا أن خلق هذا الخليفة مناف للحكمة في الظاهر سألوه عن ذلك[(٣)] .

وقال : فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولى

---

(١) بيان : تنزيه القضاء الإلهي عن الشر .

(٢) شفاء العليل (١٧٩) .

(٣) شفاء العليل (٣٠) .

من وجود من يعصيه ويخالفه ، فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقول الله تعالى : ﴿ **إني أعلم ما لا تعلمون** ﴾ [البقرة : ٣٠] فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر ، والحسد ما لا يعلمه الملائكة ، فلما أمرهم بالسجود ظهر ما في قلوب الملائكة من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد ، فبادروا إلى الامتثال ، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد ، فأبى واستكبر وكان من الكافرين[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

الله سبحانه مهد الأرض لآدم وذريته قبل خلقه فقال : ﴿ **إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ [البقرة : ٣٠] . وقضى أن يعرفه قدر المخالفة وأقام عذره بقوله : (فأزلهما الشيطان) وتداركه برحمة بقوله : (ثم اجتباه ربه) يا آدم لا تجزع من كأس خطا كان سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب ، وألبسك رداء العبودية لو لم تذنبوا لا تحزن بقولي لك اهبطوا منها فلك خلقتها ، ولكن اخرج إلى مزرعة المجاهدة ، واجتهد في البذر ، واسق شجرة الندم بساقية الدمع ، فإذا عاد العود أخضر ، فعد لما كان ؛ منصب الخلة : منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب غار الحبيب على خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه فأمره بذبحه فلما أسلم للامتثال خرجت تلك المزاحمة وخلصت المحبة لأهلها فجاءته البشرى (وفديناه بذبح عظيم) ليس المراد أن يعذب ولكن يبتلي ليهذب ، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد إنما العجب من مباشرة الذبح بيده ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور ، فلذلك جعلت آثارها مثابة للقلوب نحن إليها أعظم من حنين الطيور من أوكارها[٣] .

(١) مدارج السالكين (٢/١٩٧-١٩٨) .

(٢) الفوائد (١٦٠) .

(٣) بدائع الفوائد (٣/٢٢٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۞ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة : ٣٠-٣٣] .

فهذه كالمناظرة من الملائكة والجواب عن سؤالهم كأنهم قالوا إن استخلفت في الأرض خليفة كان منه الفساد وسفك الدماء ، وحكمتك تقتضي أن لا تفعل ذلك وإن جعلت فيها فتجعل فيها من يسبح بحمدك ، ويتقدس لك ، ونحن نفعل ذلك فأجابهم تعالى عن هذا السؤال بأن له من الحكمة في جعل هذا الخليفة في الأرض ما لا تعلمه الملائكة ، وإن وراء ما زعمتم من الفساد مصالح وحكما لا تعلمونها أنتم وقد ذكرنا منها قريبا من أربعين حكمة في كتاب التحفة المكية فاستخرج تعالى من هذا الخليفة وذريته الأنبياء والرسل والأولياء والمؤمنين وعمر بهم الجنة وميز الخبيث من ذريته من الطيب فعمر بهم النار . وكان ضمن ذلك من الحكم والمصالح ما لم يكن للملائكة تعلمه .

ثم إنه سبحانه أظهر فضل الخليفة عليهم بما خصه به من العلم الذي لم تعلمه الملائكة وأمرهم بالسجود له تكريما له وتعظيما له وإظهاراً لفضله . وفي ضمن ذلك من الحكم ما لا يعلمه إلا الله ؛ فمنها امتحانهم بالسجود لمن زعموا أنه يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء فأسجدهم له ، وأظهر فضله عليهم لما أثنوا على أنفسهم وذموا الخليفة كما فعل سبحانه ذلك بموسى ، لما أخبر عن نفسه أنه أعلم أهل الأرض ، فامتحنه بالخضر وعجزه معه في تلك الوقائع الثلاث . وهذه سنته تعالى في خليفته ، وهو الحكيم العليم . ومنها خبره لهذا الخليفة وابتداؤه له بالإكرام والإنعام لما علم مما يحصل له من الانكسار والمصيبة والمحنة ، فابتدأه بالجبر

والفضل ثم جاءت المحنة والبلية والزل وكانت عاقبتها إلى الخير والفضل والإحسان ، فكانت المصيبة التي لحقته محفوفة بإنعامين إنعام قبلها وإنعام بعدها ، ولذريته المؤمنين نصيب مما لأبيهم ، فإن الله تعالى أنعم عليهم بالإيمان ابتداء ، وجعل العاقبة لهم فما أصابهم بين ذلك من الذنوب والمصائب فهي محفوفة بإنعام قبلها وإنعام بعدها ، فتبارك الله رب العالمين . ومنها استخراجه تعالى ما كان كامنا في نفس عدوه إبليس من الكبر والمعصية الذي ظهر عند أمره بالسجود ؛ فاستحق اللعنة والطرد والإبعاد على ما كان كامناً في نفسه عند إظهاره ، والله تعالى كان يعلم منه ولم يكن ليعاقبه ويلعنه على علمه فيه ، بل على وقوع معلومه ، فكان أمره بالسجود له مع الملائكة مظهراً للخبث والكفر الذي كان كامنا فيه ولم تكن الملائكة تعلمه فأظهر لهم سبحانه ما كان يعلمه وكان خافيا عنهم من أمره ، فكان في الأمر بالسجود له تكريماً لخليفته الذي أخبرهم بجعله في الأرض وجبراً له وتأديباً للملائكة ، وإظهاراً لما كان مستخفياً في نفس إبليس ، وكان ذلك سببا لتمييز الخبيث من الطيب ، وهذا من بعض حكمه تعالى في إسجادهم لآدم . ثم إنه سبحانه لما علم آدم ما علمه ثم امتحن الملائكة بعلمه فلم يعلموه فأنبأهم به آدم ، وكان في طي ذلك جوابا لهم عن كون هذا الخليفة لا فائدة في جعله في الأرض فإنه يفسد فيها، ويسفك الدماء فأراهم من فضله وعلمه خلاف ما كان في ظنهم(١) .

قول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٣٤] .

في ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها ، وقد كرر الله تعالى ذكرها في كتابه ، وأخبر فيها أن امتناع إبليس من السجود كان كبراً منه وكفراً ومجرد إباء وإنما ذكر تلك الشبهة تعنتا وإلا فسبب معصيته الاستكبار والإباء والكفر ، وإلا فليس في أمره بالسجود لآدم ما يناقض الحكمة بوجه وأما شبهته الداحضة ، وهي أن أصله وعنصره النار ، وأصل آدم وعنصره التراب ، ورتب على ذلك أنه خير منه فهي باطلة من وجوه عديدة

(١) بدائع الفوائد (٤/١٣٧-١٣٩) .

(**أحدها**) أن دعواه كونه خيرا من آدم دعوى كاذبة باطلة ، واستدلاله عليها بكونه مخلوقا من نار وآدم من طين استدلال باطل ، وليست النار خيرا من الطين والتراب بل التراب خير من النار وأفضل عنصرا من وجوه .

(**أحدها**) أن النار طبعها الفساد وإتلاف ما تعلقت به بخلاف التراب .

(**الثاني**) أن طبعها الخفة والحدة والطيش، والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات .

(**الثالث**) أن التراب يتكون فيه ومنه أرزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم وآلات معايشهم ، ومساكنهم ، والنار لا يتكون فيها شيء من ذلك .

(**الرابع**) أن التراب ضروري للحيوان لا يستغني عنه البتة ولا عن ما يتكون فيه ومنه ، والنار يستغني عنها الحيوان البهيم مطلقا وقد يستغني عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها الضرورة ، فأين انتفاع الحيوان كله بالتراب إلى انتفاع الإنسان بالنار في بعض الأحيان .

(**الخامس**) أن التراب إذا وضع فيه القوت أخرجه أضعاف أضعاف ما وضع فيه ، فمن بركته يؤدي إليك ما تستودعه فيه مضاعفا ، ولو استودعته النار لخانتك وأكلته ولم تبق ولم تذر .

(**السادس**) أن النار لا تقوم بنفسها بل هي مفتقرة إلى محل تقوم به يكون حاملا لها ، والتراب لا يفتقر إلى حامل فالتراب أكمل منها .

(**السابع**) أن النار مفتقرة إلى التراب ؛ وليس بالتراب فقر إليها فإن المحل الذي تقوم به النار لا يكون إلا مكونا من التراب أو فيه فهي الفقيرة إلى التراب وهو الغني عنها .

(**الثامن**) أن المادة الإبليسية هي المارج من النار وهو ضعيف يتلاعب به الهوى فيميل معه كيفما مال ، ولهذا غلب الهوى على المخلوق منه فأسره وقهره ، ولما كانت المادة الآدمية التراب وهو قوي لا يذهب مع الهوى أينما ذهب

قهر هواه وأسره ورجع إلى ربه ؛ فاجتنباه واصطفاه فكان الهوى الذي مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال فزال ، وكان الثبات والرزانة أصليا له فعاد إليه ، وكان إبليس بالعكس من ذلك فرجع كل من الأبوين إلى أصله وعنصره ، آدم إلى أصله الطيب الشريف ، واللعين إلى أصله الرديء .

(**التاسع**) أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فالشر كامن فيها لا يصدها عنه إلا قسرها وحبسها ، ولولا القاسر والحابس لها لأفسدت الحرث والنسل وأما التراب فالخير والبر والبركة كامن فيه كلما أثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته ، فأين أحدهما من الآخر .

(**العاشر**) أن الله تعالى أكثر ذكر الأرض في كتابه ، وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفراشا وبساطا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات ، ودعا عباده إلى التفكر فيها ، والنظر في آياتها وعجائب ما أودع فيها ولم يذكر النار إلا في معرض العقوبة والتخويف والعذاب إلا موضعين ذكرها فيهما بأنها تذكرة ومتاع للمقوين ، تذكرة بنار الآخرة ومتاع لبعض أفراد الإنسان وهم المقوون النازلون وهي الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار في منزله ، فأين هذا من أوصاف الأرض في القرآن .

(**الحادي عشر**) أن الله تعالى وصف الأرض بالبركة في غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر أنه بارك فيها عموما فقال : (أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) [فصلت : ٩، ١٠] . فهذه بركة عامة وأما للبركة الخاصة ببعضها فلقوله : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين) [الأنبياء : ٧١] . وقوله : (وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة) [سبأ : ١٨] . وقوله : (ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها) [الأنبياء : ٨١] . وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور أنها مذهبة للبركة ماحقة لها فأين المبارك في نفسه المبارك فيما وضع فيه إلى مزيل البركة وماحقها .

(**الثاني عشر**) أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التي يذكر فيها اسمه ، ويسبح له فيها بالغدو والآصال عموما ، وبيته الحرام الذي جعله قياما للناس مباركا فيه وهدى للعالمين خصوصاً ولو لم يكن في الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفا وفضلا على النار .

(**الثالث عشر**) أن الله تعالى أودع في الأرض من المنافع والمعادن والأنهار والعيون والثمرات والحبوب والأقوات وأصناف الحيوانات وأمتعتها والجبال والنبات والرياض والمراكب البهية والصور البهيجة ما لم يودع في النار شيئا منه، فأي روضة وجدت في النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين فوارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة أو زوجة حسنة أو لباس وسترة .

(**الرابع عشر**) أن غاية النار أنها وضعت خادمة لما في الأرض ، فالنار إنما محلها محل الخادم لهذه الأشياء المكمل لها ، فهي تابعة لها خادمة فقط إذا استغنت عنها طردتها وأبعدتها عن قربها وإذا احتاجت إليها استدعتها استدعاء المخدوم لخادمه ومن يقضي حوائجه .

(**الخامس عشر**) أن اللعين لقصور نظره ، وضعف بصيرته رأى صورة الطين شرابا ممتزجا بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي والتراب الذي جعل خزانة المنافع والنعم هذا وكم يجيء من الطين من المنافع ، وأنواع الأمتعة فلو تجاوز نظره صورة الطين إلى مادته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل ، وإذا استقريت الوجوه التي تدلك على أن التراب أفضل من النار وخير منها ؛ وجدتها كثيرة جدا ، وإنما أشرنا إليها إشارة ، ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزمه من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرا من المخلوق من الطين فإن القادر على كل شيء يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقه من المادة الفاضلة ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ، ولم يعبر منها إلى كمال الصورة ونهاية الخلقة فأين الماء المهين الذي هو نطفة ومضغة واستقذار النفوس له إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خلقا وخلقا ، وقد خلق الله تعالى الملائكة

من نور وآدم من تراب ، ومن ذرية آدم من هو خير من الملائكة ، وإن كان النور أفضل من التراب ، فهذا وأمثاله مما يدلك على ضعف مناظرة اللعين ، وفساد نظره وإدراكه وأن الحكمة كانت توجب عليه خضوعه لآدم فعارض حكمة الله وأمره برأيه الباطل ، ونظره الفاسد ، فقياسه باطل نصا وعقلا وكل من عارض نصوص الأنبياء بقياسه ورأيه فهو من خلفائه وأتباعه فنعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله التوفيق والعصمة من هذا البلاء الذي ما رمي العبد بشر منه ولأن يلقى الله بذنوب الخلائق كلها ما خلا الإشراك به أسلم له من أن يلقى الله وقد عارض نصوص أنبيائه برأيه ورأي بني جنسه ، وهل طرد الله إبليس ولعنه وأحل عليه سخطه وغضبه إلا حيث عارض النص بالرأي والقياس ثم قدمه عليه ، والله يعلم أن شبه عدو الله مع كونها داحضة باطلة ، أقوى من كثير من شبه المعارضين لنصوص الأنبياء بآرائهم وعقولهم ، فالعالم يتدبر سر تكرير الله لهذه القصة مرة بعد مرة وليحذر أن يكون له نصيب من هذا الرأي والقياس وهو لا يشعر فقد أقسم عدو الله أنه ليغوين بني آدم أجمعين إلا المخلصين منهم ، وصدق تعالى ظنه عليهم وأخبر أن المخلصين لا سبيل له عليهم ، والمخلصون هم الذين أخلصوا العبادة والمحبة والإجلال والطاعة لله والمتابعة والانقياد لنصوص الأنبياء فيجرد عبادة الله عن عبادة ما سواه ، ويجرد متابعة رسوله ، وترك ما خالفه لقوله دون متابعة غيره فليزن العاقل نفسه بهذا الميزان قبل أن يوزن يوم القدوم على الله ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[1] .

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٥، ٣٦] .

فهذا يدل على أن هبوطهم كان من الجنة إلى الأرض من وجهين :

أحدها : من لفظة اهبطوا ، فإنه نزول من علو إلى سفل .

---

(١) بدائع الفوائد (٤ / ١٣٩ – ١٤٣) .

الثاني : ولكم في الأرض مستقر عقب قوله (اهبطوا) فدل أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض ، ثم أكد هذا بقوله في سورة الأعراف (قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) [الأعراف : ٢٥] . ولو كانت الجنة في الأرض لكانت حياتهم فيها قبل الإخراج وبعده . (قالوا) وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد فقال : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) [طه : ١١٨،١١٩] . وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً . فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها لابد أن يعرض له شيءٌ من ذلك ، وقابل سبحانه بين الجوع والظمأ ، والعري والضحى ، فإن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر ، والظمأ حر الباطن ، والضحى حر الظاهر . فنفى عن سكانها ذل الظاهر والباطن ، وحر الظاهر والباطن ، وذلك أحسن من المقابلة بين الجوع والعطش ، والعري والضحى . وهذا شأن ساكن جنة الخلد قالوا : وأيضاً فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله : (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) [طه : ١٢٠] . فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وأن ملكها يبلى قالوا : وأيضا هذه القضية في سورة البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ [البقرة : ٣٤-٣٧] .

فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة ، فلهذا أتى فيه بضمير الجمع ، وقد قيل : إن الخطاب لهما وللحية وهذ ضعيف جداً ، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ولا في السياق ما يدل عليها ، وقيل : الخطاب لآدم وحواء وأتى فيه بضمير الجمع كقوله : (وكنا لحكمهم شاهدين) [الأنبياء : ٧٨] . وهما داود وسليمان ، وقيل : لآدم وحواء وذريتهما .

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول ، لأنها بين قول لا دليل عليه ، وبين ما يدل اللفظ على خلافه ، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين ، فإذا تقرر هذا ، فقد ذكر سبحانه الإهباط ثانيا بقوله : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هدٰي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : ٣٨] . والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول ، وهو إهباط من السماء إلى الأرض ، والأول إهباط من الجنة ، وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولا فوق السماء جنة الخلد .

قد ظن الزمخشري[1] أن قوله ﴿ **اهبطوا منها جميعا** ﴾ خطاب لآدم وحواء خاصة ، وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما . قال : والدليل عليه قوله تعالى : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) [طه : ١٢٣] قال : ويدل على ذلك قوله : ﴿ **فمن تَبِع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة : ٣٨، ٣٩] وما هو إلا حكم يَعُم الناس كلهم ، ومعنى قوله : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم بعضاً .

وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية . فإن العداوة التي ذكرها الله تعالى إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما ، كما قال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) [فاطر : ٦] . وهو سبحانه قد أكد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان ، وأعاد وأبدى ذكرها في القرآن لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو . وأما آدم وزوجه فإنه إنما أخبر في كتابه أنه خلقها له ليسكن إليها وجعل بينهما مودة ورحمة. فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته والعداوة بين الشيطان والإنسان . وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس ، وهم ثلاثة ، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور ، مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه ؟ مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه . فلم يصنع الزمخشري شيئا .

وأما قوله تعالى في سورة طه : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض

---

(١) انظر الكشاف (١ / ٦٣ ، ٦٤) .

عدو) [طه : ١٢٣] . فهذا خطاب لآدم وحواء . وقد جعل بعضهم لبعض عدوا ، فالضمير في قوله : (اهبطا منها) إما أن يرجع إلى آدم وزوجته ، وإما أن يرجع إلى آدم وإبليس ، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له .

وعلى هذا فالعدُوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط ، وهما آدم وإبليس فالأمر ظاهر .

وأما على الأول - وهو رجوعه إلى آدم وزوجه - فتكون الآية قد اشتملت على أمرين :

أحدهما : أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط .

والثاني : إخباره بالعداوة بين ادم وزوجه ، وبين إبليس . ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني ، دون الأول . ولابد أن يكون إبليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعاً . كما قال تعالى : (إن هذا عدو لك ولزوجك) [طه : ١١٧] . وقال لذريته : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) [فاطر : ٦] .

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع ، دون التثنية .

وأما الإهباط : فتارة يذكر بلفظ الجمع ، وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الإفراد ، كقوله في سورة الأعراف (قال اهبطوا منها) وكذلك في سورة صٓ ، وهذا لإبليس وحده . وحيث ورد بصيغة الجمع ، فهو لآدم وزوجه وإبليس ، إذ مدار القصة عليهم . وحيث ورد بلفظ التثنية ، فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على المعصية . وإما أن يكون لآدم وإبليس ، إذ هما أبوا الثقلين ، وأصلا الذرية . فذكر حالهما ومآل أمرهما ، ليكون عظة وعبرة لأولادهما ، وقد حكيت القولين في ذلك .

والذي يوضح أن الضمير في قوله : (اهبطا منها جميعا) لآدم وإبليس : أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم ، دون زوجه . فقال : (وعصى آدمُ ربَّه فغوى ثم اجتباه ربُّه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا) وهذا

يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم وإبليس الذي زين له المعصية . ودخلت الزوجة تبعا . فإن المقصود إخبار الله تعالى الثقلين بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر ، فذكرُ أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنسان فقط . وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم ، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة . فعلم أن حكم الزوجة كذلك ، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم . وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الإنس وأمهم ، فتأمله .

وبالجملة . فقوله : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾ ظاهر في الجمع ، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله : ﴿ **اهبطا** ﴾ من غير موجب[1] .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ .. ﴾ [البقرة : ٤٠] .

فإنما يذكرهم بنعمته على آبائهم ، ولهذا يعددها عليهم واحدة بأن أنجاهم من آل فرعون وأن فرق بهم البحر ، وأن وعد موسى أربعين ليلة فضلوا بعده ثم تاب عليهم وعفا عنهم وبأن ظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من نعمه التي يعددها عليهم وإنما كانت لأسلافهم وآبائهم فأمرهم أن يذكروها ليدعوهم ذكرهم لها إلى طاعته والإيمان برسله ، والتحذير من عقوبته بما عاقب به من لم يؤمن برسوله ، ولم ينقد لدينه وطاعته ، وكانت نعمته على آبائهم نعمة منه عليهم تستدعي منهم شكراً ، فكيف تجعلون مكان الشكر عليها كفركم برسولي وتكذيبكم له ، ومعادتكم إياه ، وهذا لا يدل على أن نعمته المطلقة التامة حاصلة لهم في حال كفرهم ، والله أعلم[2] .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٤١] . أي فيقتدي

(١) حادي الأرواح (٣٣) .
(٢) بدائع الفوائد (٢/٢٣) .

بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم ، وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها[١] .

قال تعالى : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٤٢] .

فنهى عن لبس الحق بالباطل وكتمانه . ولبسه به خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر ، ومن التلبيس ، وهو التدليس والغش الذي يكون باطنه خلاف ظاهره ، فكذلك الحق إذا لُبس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق ، وتكلم بلفظ له معنيان : معنى صحيح ومعنى باطل ، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح ومراده الباطل ، فهذا من الإجمال في اللفظ[٢] .

وقال : وقد اختلف في قوله : ﴿ **وتكتموا** ﴾ هل هو منصوب أو مجزوم على قولين مبنيين على « الواو » هل هي « واو » عطف أو « واو » صرف ؟

فمن جعلها « واو » عطف قال : النهي تعلق بكل واحد من الأمرين على انفراده ، ولو كانت « واو » صرف لكان المنهي عنه جمعهما لا أفرادهما ومن جعلها « واو » صرف قال : لبس الحق بالباطل مستلزم لكتمانه كما يكتم الحق من لبسه بما يستره ويغشيه فهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالنهي عن أحدهما نهي عن الآخر بطريق اللزوم ، ففي كون الواو « واو » جمع إفادة هذا المعنى ، وإن كتمان الحق ملازم للبسه بالباطل لا ينفك عنه ولا يمكن إيقاع أحدهما إلا بالآخر ، وهذا شأن كل متلازمين ، وهذا القول أميز من الأول وأعرب[٣] .

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٢٤) .
(٢) الصواعق المرسلة (٩٢٦/٣) .
(٣) الصواعق المرسلة (١٢١٤/٤) .

قال الله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة : ٤٣] .

فأمرنا بإقامتها ، وهو الإتيان بها قائمة تامة القيام والركوع والسجود والأذكار[١] .

قال الله تعالى : ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة : ٤٥، ٤٦] .

فإنما كبرت على غير هؤلاء لخلو قلوبهم من محبة الله تعالى وتكبيره وتعظيمه والخشوع له وقلة رغبتهم فيه ، فإن حضور العبد في الصلاة وخشوعه فيها وتكميله لها واستفراغه وسعه في إقامتها وإتمامها على قدر رغبته في الله[٢] .

---

(١) كتاب الصلاة (١٧٠) .

(٢) كتاب الصلاة (١٧١) .

في بيان تلاعب الشيطان بأمة اليهود

أنهم قيل لهم – وهم مع نبيهم – والوحي ينزل عليه من الله تعالى : ﴿ ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾ [البقرة : ٥٨] . قال قتادة – وابن زيد ، والسدي ، وابن جرير [١] وغيرهم : هي قرية بيت المقدس .

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا﴾ أي هنيئاً واسعاً ﴿وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾ قال السدي : هو باب من أبواب بيت المقدس – وكذلك قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : والسجود بمعنى الركوع .

وأصل السجود : الانحناء لَم تعظمه . فكل منحنٍ لشيء تعظيماً له فهو ساجد . قاله ابن جرير وغيره ، قلت : وعلى هذا فانحناء المتلاقيين عند السلام ، أحدهما لصاحبه من السجود المحرَّم . وفيه نهي صريح عن النبي صلى الله عليه وسلم [٢] .

ثم قيل لهم : ﴿ قُولُواْ حِطَّةٞ ﴾ أي حط عنا خطايانا . هذا قول الحسن ، وقتادة وعطاء .

وقال عكرمة وغيره : أي قولوا (لا إله إلا الله) .

وكأن أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تُحطُّ بها الخطايا . وهي كلمة التوحيد .

وقال : سعيد بن جبير عن ابن عباس « أمروا بالاستغفار »، وعلى القولين:

---

(١) تفسير الطبري (١ / ٢٩٩) .

(٢) روى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « سمعت رجلاً يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه ، أينحني له ؟ قال : لا ، قال : أفيلتزمه ويقبله ؟ قال : لا ، قال : أيأخذ بيده ويصافحه ؟ قال : نعم»

أخرجه الترمذي (٥ / ٧٠) في الاستئذان ، باب : في المصافحة .

وابن ماجه (٢ / ١٢٢٠) في الآداب ، باب : المصافحة .

فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار ، وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم . فتلاعب الشيطان بهم ، فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم ، وفعلاً غير الذي أمروا به .

فروى البخاري [(١)] في صحيحه ، ومسلم أيضاً من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قيل لبني إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم ، فبدلوا فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا: حبة في شعرة » . فبدلوا القول والفعل معاً ؛ فأنزل الله عليهم رجزاً من السماء .

قال أبو العالية : هي الغضب . وقال ابن زيد : هو الطاعون .

وعلى هذا ، فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولا وعملاً . اهـ[(٢)] .

قال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت** ﴾ [البقرة : ٦٥] . قال : رموا الحيتان في السبت ، ثم أرجئوها في الماء ، فاستخرجوها بعد ذلك ، فطبخوها ، فأكلوها والله أَوْخم أكلة ، أكلة أسرعت في الدنيا عقوبة ، وأسرعت عذاباً في الآخرة ، والله ما كانت لحوم الحيتان تلك بأعظم عند الله من دماء قوم مسلمين ، إلا أنه عجل لهؤلاء ، وأخر لهؤلاء . وقوله : (رموها في السبت) يعني : احتالوا على وقوعها في الماء يوم السبت كما بين غيره أنهم حفروا لها حياضاً ثم فتحوها عشية الجمعة ، ولم يرد أنهم باشروا رميها يوم السبت ، إذ لو اجترءوا على ذلك لاستخرجوها[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ- إلى قوله – تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ٧٢، ٧٣] .

(١) رواه البخاري في مواضع منها :
(٦ / ٥٠٢) في الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام .
ومسلم (٥ / ٨٦٨) في أول التفسير .
(٢) إغاثة اللهفان (٢/٣٠٨-٣٠٩) .
(٣) إعلام الموقعين (٣/٢١٢) .

فقوله تعالى : ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه ، وفائدته أن يقرر في أنفس المخاطبين وقلوب السامعين أن تدارؤ بني إسرائيل في قتل تلك النفس ، لم يكن نافعاً لهم في إخفائه وكتمانه لأن الله تعالى مظهر لذلك ومخرجه ، ولو جاء الكلام خالياً من هذا الاعتراض لكان - وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اضربوه ببعضها ، ولا يخفى على العارف بهذه الصناعة الفرق بين ذلك وبين كونه معترضاً فيه[1] .

تلاعب الشيطان باليهود

ومن تلاعبه بهم في حياه نبيهم أيضاً ما قصه الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً - إلى قوله تعالى - وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٦٧-٧٤] .

من قصة القتيل الذي قتلوه وتدافعوا فيه ، حتى أمروا بذبح بقرة ، وضربه ببعضها .

وفي هذه القصة أنواع من العبر .

منها : أن الإخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنها : الدلالة على نبوة موسى ، وأنه رسول رب العالمين .

ومنها : الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم : من معاد الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم .

ومنها : إثبات الفاعل المختار ، وأنه عالم بكل شيء ، قادر على كل شيء ، عَدْل لا يجوز عليه الظلم والجور ، حكيم لا يجوز عليه العبث .

ومنها : إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هدى المهتدي ، وإعذاراً وإنذاراً للضال .

---

(١) الفوائد المشوق (٩٥) .

ومنها : أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت ، وكثرة الأسئلة ، بل يبادر إلى الامتثال ، فإنهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت ، فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال ، بل هو بمنزلة قوله : أعتق رقبة ، وأطعم مسكيناً ، وصم يوماً ، ونحو ذلك ، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة .

فإن الآية غنية عن البيان المفصل ، مبينة بنفسها ، ولكن لما تعنتوا وشددوا شُدِّد عليهم .

قال أبو جعفر بن جرير[1] عن الربيع عن أبي العالية لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها . ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

ومنها : أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار . وذلك نوع من الكفر . فإن القوم لما قال لهم نبيهم : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم : ﴿ **أتتخذنا هزواً** ﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه – قالوا : ﴿ **أتتخذنا هزوا** ﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله .

فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ، ولم يكن هو الآمر به . ولو كان هو الآمر به لمن يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك . فلما قال لهم : ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك ، أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها ، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عن عينها . فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال ، توقفوا في الامتثال . ولم يكادوا يفعلون .

ثم من أقبح جهلهم وظلمهم : قولهم لنبيهم : ﴿ **الآن جئت بالحق** ﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر.

---

(١) تفسير الطبري (١ / ٣٣٦) وما بعدها .

وإن أرادوا : أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها . فذلك جهل ظاهر . فإن البيان قد حصل بقوله : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ فإنه لا إجمال في الأمر ، ولا في الفعل ، ولا في المذبوح . فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة .

قال محمد بن جرير [١] : وقد كان بعض السلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم ، وكفروا بقولهم لموسى : ﴿ **الآن جئت بالحق** ﴾ وزعم أن ذلك نفي منهم ، قال : وليس الأمر كما قال عندنا ، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها ، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم ، وهفوة من هفواتهم .

فصــــل

ومنها : الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها ، وعدم تمكن الإيمان منها .

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب : كان ابن عباس يقول : « إن القوم بعد أن أحيى الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله » .

وقالوا : والله ما قتلناه ، بعد أن رأوا الآيات والحق ، قال الله تعالى : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ [البقرة : ٧٤] .

ومنها : مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدراً .

فإن القاتل قصده ميراث المقتول ، ودفع القتل عن نفسه ، ففضحه الله تعالى وهتكه ، وحرمه ميراث المقتول .

ومنها : أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب . ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة . والبقر من أبلد الحيوان ، حتى ليضرب به المثل .

---

١) المصدر السابق .

والظاهر : أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي لا يصلح أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله تعالى ، وأنه إنما يصلح للذبح والحرث والسقي والعمل . اهـ[١] .

قول الله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة : ٧٤] .

أي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة ، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة ، لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل « أو » في هذه المواضع بمعنى « بل » ، ومن قال « من » جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي ، وقول من جعلها بمعنى الواو[٢] .

قال تعالى : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ - إلى قوله - وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة : ٧٥-٧٩] .

فذم سبحانه وتعالى المحرفين لكتابه ، والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة ، وهي الأماني والذين يكتبون الباطل ، ويقولون هذا حق وهو من عند الله ، وذم في عدة مواضع الذين يكتمون ما أنزله من الكتاب والبينات والهدى وهذه الأنواع الأربعة المذمومة موجودة في هؤلاء المعرضين عن نصوص الوحي المعارضين لها بآرائهم وعقولهم وأهوائهم ، فإنهم تارة يكتمون الأحاديث والآيات المخالفة لأقوالهم ، ومنهم طوائف تضع أحاديث على وفق مذاهبهم وأهوائهم في الأصول والفروع ، ويقولون هذا من عند الله ، وتارة يضعون كتباً بآرائهم وعقولهم ، وأذواقهم وخيالاتهم ويدعون أنها الدين الذي يجب اتباعه ويقدمونها على نصوص الوحي[٣] .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣١٤-٣١٧) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن (٢٥٠-٢٥١) .

(٣) الصواعق المرسلة (٣/١٠٤٩-١٠٥٠) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٨٠] .

فهذا مطالبته لهم بتصحيح دعواهم ، وترديد لهذه المطالبة بين أمرين لابد من واحد منهما وقد تعين بطلان أحدهما فلزم ثبوت الآخر فإن قولهم لن تمسنا النار إلا أياما معدودة خبر عن غيب لا يعلم إلا بالوحي فإما أن يكون قولا على الله بلا علم فيكون كاذباً ، وإما أن يكون مستندا إلى وحي من الله ، وعهد عهده إلى المخبر ، وهذا منتف قطعا فتعين أن يكون خبرا كاذبا قائله كاذب على الله تعالى(١) .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٨٤ ، ٨٥] . فهذه حجة من الله احتج بها على أهل الكتاب فإنه كان قد أخذ عليهم الميثاق أن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يجليه عن دياره وأن يفدي بعضهم بعضا من الأسر فهذه ثلاثة عهود خالفوا منها عهدين وأخذوا بالثالث ؛ فقتل بعضهم بعضا وأخرجه من دياره ، ثم فادوا أسراهم لأن الله أمرهم بذلك فإن كنتم قد فاديتم الأسارى لأن الله أمركم بفدائهم فلم قتلتم بعضكم بعضا وأخرجتموهم من ديارهم ، والله قد نهاكم عن ذلك والأخذ ببعض الكتاب يوجب عليكم الأخذ بجميعه فكيف تكفرون ببعض الكتاب وتؤمنون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون(٢) .

---

(١) بدائع الفوائد (١٤٣/٤) .
(٢) بدائع الفوائد (١٤٣/٤-١٤٤) .

وقال رحمه الله تعالى :

وقد سمى الله - سبحانه وتعالى - من عمل ببعض كتابه ، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٤،٨٥] .

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به ، والتزموه . وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقاً ، وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب ، ثم أخبر أنهم يفدون من أسر ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما عليهم في الكتاب ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه ، فالإيمان العملي يضاده الكفر العملي ، والإيمان الاعتقادي يضاده الكفر الاعتقادي(١) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٧] . فهذا هو الذي تسميه النظار والفقهاء : التشهي والتحكم فيقول أحدهم لصاحبه : لا حجة لك على ما ادعيت سوى التشهي والتحكم الباطل ، فإن جاءك ما لا تشتهيه دفعته ورددته . وإن كان القول موافقا لما تهواه وتشتهيه إما من تقليد من تعظمه أو موافقة ما تريده قبلته وأجزته فترد ما خالف هواك ، وتقبل ما وافق هواك وهذا الاحتجاج والذي

(١) كتاب الصلاة (٥٥ - ٥٦) .

قبله مفحمان للخصم لا جواب له عليهما البتة ، فإن الأخذ ببعض الكتاب يوجب الأخذ بجميعه ، والتزام بعض شرائعه يوجب التزام جميعها ، ولا يجوز أن تكون الشرائع تابعة للشهوات إذ لو كان الشرع تابعا للهوى والشهوة لكان في الطباع ما يغني عنه وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعا له : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)[١] [المؤمنون : ٧١] .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : ٨٨] . قد اختلف في معنى قولهم : ﴿ **قلوبنا غلف** ﴾ .

فقالت طائفة : المعنى قلوبنا أوعية للحكمة والعلم ، فما بالها لا تفهم عنك ما أتيت به ؟ أو لا تحتاج إليك ؟ وعلى هذا فيكون « غلُف » جمع غلاف .

والصحيح قول أكثر المفسرين : أن المعنى قلوبنا لا تفقهه ، ولا تفهم ما تقول . وعلى هذا فهو جمع أغلف ، كأحمر وحمر .

قال أبو عبيدة : كل شيء في غلاف فهو أغلف ، كما يقال : سيف أغلف ، وقوس أغلف ، ورجل أغلف ، غير مختون .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى : ﴿ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة : ٨٨] . قال[٢] أوعية : (قلت) هذا أحد القولين والقول الثاني وهو أرجح غلف أي في غشاوة لا نفقه عنك ما تقول نظيره قوله وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يضعف قول من قال أوعية جداً وقال : إنما هي جمع أغلف ، ويقال للقلب الذي في الغشا أغلف وجمعه غلف ، كما يقال للرجل غير المختون أقلف وجمعه قلف[٣] .

---

(١) بدائع الفوائد (١٤٤/٤) .
(٢) أي الإمام أحمد رضي الله عنه .
(٣) بدائع الفوائد (١١٦/٣) .

وقال رحمه الله تعالى :-

وقال ابن عباس وقتادة : على قلوبنا غشاوة ، فهي في أوعية ، فلا تعي ولا تفقه ما تقول .

وهذا هو الصواب في معنى الآية لتكرر نظائره في القرآن . كقولهم : (قلوبنا في أكنة) [فصلت : ٥] . وقوله تعالى : (كانت أعينهم في غطاء عن ذكري) [الكهف : ١٠٢] ونظائر ذلك .

وأما قول من قال : هي أوعية للحكمة ، فليس في اللفظ ما يدل عليه البتة . وليس له في القرآن نظير يحمل عليه ، ولا يقال مثل هذا اللفظ في مدح الإنسان نفسه بالعلم والحكمة ، فأين وجدتم في الاستعمال قول القائل : قلبي غلاف ، وقلوب المؤمنين العالمين غلف ، أي أوعية للعلم .

والغلاف قد يكون وعاءً للجيد والردىء . فلا يلزم من كون القلب غلافاً أن يكون داخله العلم والحكمة . وهذا ظاهر جدا .

فإن قيل : فالإضراب : بـ « بل » على هذا القول الذي قويتموه ، ما معناه ؟

أما على القول الآخر فظاهر ، أي ليست قلوبكم محلا للعلم والحكمة ، بل مطبوع عليها .

قيل : وجه الإضراب في غاية الظهور . وهو أنهم احتجوا بأن الله لم يفتح لهم الطريق إلى فهم ما جاء به الرسول ومعرفته ، بل جعل قلوبهم داخلة في غلف فلا تفقهه . فكيف تقوم به عليهم الحجة ؟ وكأنهم ادعوا أن قلوبهم خلقت في غلف ، فهم معذورون في عدم الإيمان . فأكذبهم الله وقال : ﴿ **بل لعنهم الله بكفرهم** ﴾ وفي الآية الأخرى : (بل طبع الله عليها بكفرهم) [النساء : ١٥٥] . فأخبر سبحانه أن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي اختاروه لأنفسهم ، وآثروه على الإيمان . فعاقبهم عليه بالطبع واللعنة .

والمعنى : لم يخلق قلوبهم غلفاً لا تعي ولا تفقه ، ثم أمرهم بالإيمان ، وهم لا يفقهون ، بل اكتسبوا أعمالاً عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب ، والختم عليها[١] .

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٨٩] فهذه حجة أخرى على اليهود في تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فإنهم كانوا يحاربون جيرانهم من العرب في الجاهلية ويستنصرون عليهم بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره فيفتح لهم وينصرون فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به وجحدوا نبوته فاستفتاحهم به وجحد نبوته مما لا يجتمعان فإن كان استفتاحهم به لأنه نبي ، كان جحد نبوته محالا وإن كان جحد نبوته كما يزعمون حقا كان استفتاحهم به باطلا فإن كان استفتاحهم به حقا فنبوته حق وإن كانت نبوته كما يقولون باطلا ، فاستفتاحهم به باطل وهذا مما لا جواب لأعدائه عنه البتة ويمكن تقريرها على صور عديدة :

(**منها**) أن يقال قد أقررتم بنبوته قبل ظهوره باستفتاحكم به فتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره .

(**الثانية**) أن يقال كنتم تستفتحون به وذلك إقرار منكم بنبوته قبل ظهوره استنادا إلى ما عندكم من العلم بظهوره ، فلما شاهدتموه وصار المعلوم معاينا بالرؤية فالتصديق به حينئذ يكون أولى فكفرتم به عند كمال المعرفة ، وآمنتم به حين كانت غيبا لم تكتمل فآمنتم به على تقدير وجوده ، وكفرتم به عند تحقق وجوده فأي تناقض وعناد أبلغ من هذا .

(**الثالثة**) أن يقال إيمانكم به لازم لاستفتاحكم به ووجود الملزوم بدون لازمه محال .

---

(١) شفاء العليل (٩٣) .

(**الرابعة**) أن يقال استفتاحكم به هل كان عن دليل أو لا عن دليل ، فلابد أن يقولوا كان عن دليل ، وحينئذ يجب طرد الدليل والقول بموجبه حيث وجد فإما أن يقال بموجبه في موضع ويجحد موجبه في موضع أقوى منه ؛ فمن أبطل الباطل .

(**الخامسة**) أن يقال إن كان الاستفتاح به تصديقا للنبي الذي أخبر بظهوره وقامت البراهين على صدقه ؛ فالإيمان به متعين تصديقا للنبي الأول أيضاً وإن كان ترك الإيمان قبل ظهوره تكذيبا للنبي الأول ؛ فترك الإيمان به بعد ظهوره أشد تكذيبا ، فأنتم في كفركم به مكذبون للنبي الأول والثاني ، وهذا من أحسن الوجوه .

(**السادسة**) أن يقال إن كان الاستفتاح به حقا لما ظهر على يد النبي المبشر به من المعجزات ، فالإيمان به عند ظهوره يكون أقوى لانضمام المعجزات التي ظهرت على يده ، وهي تستلزم لصدقه إلى المعجزات التي ظهرت على يد النبي المبشر به ، فقويت أدلة الصدق ، وتظافرت براهينه .

(**السابعة**) أن يقال أحد الأمرين لازم ولابد إما خطأكم في استفتاحكم به وإما في كفركم وتكذيبكم به فإنهما لا يمكن اجتماعهما فأيهما كان خطأ كان الآخر صوابا لكن استفتاحكم به مستند إلى الإيمان بالنبي الأول فهو مستند إلى حق فتعين أن يكون كفرهم به هو الباطل ولا يمكن أن يقال إن التكذيب به هو الحق ، والاستفتاح به كان باطلا لأنه يستلزم تكذيب من أقررتم بصدقه ولابد .

(**الثامنة**) أن يقال التصديق به قبل ظهوره من لوازم التصديق بالنبي الأول والتكذيب به حينئذ كفر ، فالتصديق به بعد ظهوره كذلك وإن كان التكذيب به قبل ظهوره مستلزما للكفر بالنبي الأول فهو بعد ظهوره أشد استلزاما فلا يجتمع التكذيب به والإيمان بالنبي الأول أبدا لا قبل ظهوره ولا بعده أما قبل ظهوره فباعترافكم وأما بعد ظهوره فلأن دلالة صدقه حينئذ أظهر وأقوى كما تقدم بيانه .

(**التاسعة**) أن يقال الاستفتاح به تصديق وإقرار بنبوته ، وتكذيبه جحد وكفر بها والإيمان والتصديق برسالة الرجل الواحد والتكذيب والجحد بها مستلزم للكفر ولابد ، فإنه يستلزم أحد الأمرين . إما التصديق بنبوة من ليس بنبي وإما جحد نبوة من هو نبي وأيهما كان فهو كفر ، وقد أقررتم على أنفسكم بالكفر ولابد ، فلعنة الله على الكافرين .

(**العاشرة**) تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف فيقال لهم ألستم كنتم تستفتحون به ؟ فيقولون بلى ! فيقال أليس الاستفتاح به إيماناً به فلابد من الاعتراف بذلك ، فيقال أفليس ظهور من كنتم تؤمنون به قبيل وجوده موجبا عليكم الإيمان به فلابد من الاعتراف أو العناد الصريح وليس لأعداء الله على هذه الوجوه اعتراض البتة سوى أن قالوا هذا كله حق ولكن ليس هذا الموجود بالذي كنا نستفتح به ، وهذا من أعظم البهت والعناد فإن الصفات والعلامات التي فيه طابقت ما كانت عندهم مطابقة المعلوم لعلمه فإنكار أن يكون هو إنما يكون جحدا للحق وإنكاراً له باللسان ، والقلب يعرفه ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ فأغنى عن هذه الوجوه والتقريرات كلها قوله تعالى : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقا لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ والمادة الحق يمكن إبرازها في الصور المتعددة وفي أي قالب أفرغت ، وصورة أبرزت ظهرت صحيحة ، وهذا شأن مواد براهين القرآن في أي صورة أبرزتها ؛ ظهرت في غاية الصحة والبيان فالحمد لله المان بالهدى على عباده المؤمنين(١) .

قال تعالى : ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة : ٩٠] .

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٤-١٤٧) .

فالغضب الأول : بسبب كفرهم بالمسيح .

والغضب الثاني : بسبب كفرهم بمحمد ، صلوات الله وسلامه عليهما . اهـ[١] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة : ٩١] . هذه حكاية مناظرة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين اليهود كأنه لما قال لهم **﴿آمنوا بما أنزل الله﴾** فأجابوه بأن قالوا **﴿نؤمن بما أنزل إلينا﴾** ومرادهم بهذا التخصيص أن نؤمن بالمنزل علينا دون غيره ؛ فظهرت عليهم الحجة بقولهم هذا من وجهين دل عليهما قوله تعالى : **﴿ويكفرون بما وراءه وهو الحق﴾** إلى آخر الآية . قال إن كنتم قد آمنتم بما أنزل عليكم لأنه حق فقد وجب عليكم أن تؤمنوا بما جاء به محمد لأنه حق مصدق لما معكم ، وحكم الحق الإيمان به أين كان ومع من كان فلزمكم الإيمان بالحقين جميعاً ، والكفر الصراح . وفي قوله : **﴿ويكفرون بما وراءه وهو الحق﴾** نكتة بديعة جدا وهي أنهم لما كفروا به وهو حق ؛ لم يكن إيمانهم بما أنزل عليهم لأجل أنه حق فإذا لم يتبعوا الحق فيما أنزل عليهم ولا فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم لو آمنوا بالمنزل عليهم أنه حق لآمنوا بالحق الثاني ، وأعطوا الحق حقه من الإيمان ، ففي ضمن هذه الشهادة عليهم بأنهم لم يؤمنوا بالحق الأول ولا بالثاني وهكذا الحكم في كل من فرق الحق فآمن ببعضه وكفر ببعضه كمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض وكمن آمن ببعض الأنبياء وكفر ببعض لم ينفعه إيمانه بما كفر به حتى يؤمن بالجميع ، ونظير هذا التفريق تفريق من يرد آيات الصفات وأخبارها ويقبل آيات الأوامر والنواهي فإن ذلك لا ينفعه لأنه آمن ببعض الرسالة وكفر ببعض فإن كانت الشبهة التي عرضت لمن كفر ببعض الأنبياء غير نافعة له ، فالشبهة التي عرضت لمن رد بعض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣٢٠) .

أولى أن لا تكون نافعة وإن كانت هذه عذرا له فشبهة من كذب بعض الأنبياء مثلها وكما أنه لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع الأنبياء ومن كفر بنبي من الأنبياء فهو كمن كفر بجميعهم فكذلك لا يكون مؤمنا حتى يؤمن بجميع ما جاء به الرسول فإذا آمن ببعضه ورد بعضه فهو كمن كفر به كله فتأمل هذا الموضع واعتبر به الناس على اختلاف طوائفهم يتبين لك أن أكثر من يدعي الإيمان بريء من الإيمان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(الوجه الثاني) من النقض قوله : ﴿**فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**﴾ ووجه النقض أنكم إن زعمتم أنكم تؤمنون بما أنزل إليكم وبالأنبياء الذين بعثوا فيكم فلم قتلتموهم من قبل وفيم أنزل إليكم الإيمان بهم وتصديقهم فلا آمنتم بما أنزل إليكم ولا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ثم كأنه توقع منهم الجواب بأنا لم نقتل من ثبتت نبوته ، ولم نكذب به فأجيبوا على تقدير هذا الجواب الباطل منهم بأن موسى قد جاءكم بالبينات ، وما لا ريب معه في صحة نبوته ثم عبدتم بعد غيبته عنكم وأشركتم بالله ، وكفرتم به وقد علمتم نبوة موسى وقيام البراهين على صدقه فقال : ﴿**ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون**﴾ [البقرة : ٩٢] .

فهكذا تكون الحجج والبراهين ومناظرات الأنبياء لخصومهم[(١)] .

قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة : ٩٤] . كانوا يقولون نحن أحباء الله ولنا الدار الآخرة خالصة من دون الناس وإنما يعذب منا من عبد العجل مدة ثم يخرج من النار وذلك مدة عبادتهم له فأجابهم تبارك وتعالى عن قولهم إن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة بالمطالبة ، وتقسيم الأمر بين أن يكون لهم عند الله عهد عهده إليهم وبين أن يكونوا قد قالوه عليه ما لا يعلمون ، ولا سبيل لهم إلى ادعاء العهد فتعين الثاني وقد تقدم . ثم أجابهم عن دعواهم خلوص الآخرة لهم بقوله : ﴿**فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**﴾ لأن الحبيب لا يكره لقاء حبيبه ،

(١) بدائع الفوائد (٤/١٤٨-١٤٩) .

والابن لا يكره لقاء أبيه لاسيما إذا علم أن كرامته ومثوبته مختصة به بل أحب شيء إليه لقاء حبيبه وأبيه فحيث لم يحب ذلك و لم يتمنه فهو كاذب في قوله مبطل في دعواه ونظير هذا قوله في سورة المائدة ردا عليهم قولهم : (نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم) [المائدة : ١٨] . يعني أن الأب لا يعذب ابنه ، والحبيب لا يعذب حبيبه . وههنا نكتة لطيفة جدا قل من ينتبه لها ، ونحن نقررها بسؤال وجواب (فإن قيل) معلوم أن الأب قد يؤدب ولده إذا أذنب ، والحبيب قد يهجر حبيبه إذا رأى منه بعض ما يكره (قيل) لو تأملت أيها السائل قوله : (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) لعلمت الفرق بين هذا التعذيب ، وبين الهجران والتأديب فإن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب المنافي للمحبة ، فلو كانت المحبة قائمة كما زعموا لم يكن هناك ذنوب يستوجبون عليها العذاب من المسخ قردة وخنازير ، وتسلط أعدائهم عليهم يستبيحونهم ويستعبدونهم ويخربون متعبداتهم ، ويسبون ذراريهم فالمحب لا يفعل هذا بحبيبه ولا الأب بابنه .

ومعلوم أن الرحمن الرحيم لا يفعل هذا بأمة إلا بعد فرط إجرامها ، وعتوها على الله ، واستكبارها عن طاعته وعبادته وذلك ينافي كونهم أحبابه فلو أحبوه لما ارتكبوا من غضبه وسخطه ما أوجب لهم ذلك ولو أحبهم لأدبهم و لم يعذبهم فالتأديب شيء ، والتعذيب شيء والتأديب يراد به التهذيب والرحمة والإصلاح والتعذيب للعقوبة والجزاء على القبائح فهذا لون وهذا لون وفي ضمن هذه المناظرة معجزة باهرة للنبي صلى الله عليه وسلم وهي أنه في مقام المناظرة مع الخصوم الذين هم أحرص الناس على عدوانه وتكذيبه وهو يخبرهم خبرا جزما أنهم لن يتمنوا الموت أبدا ولو علموا من نفوسهم أنهم يتمنونه لوجدوا طريقا إلى الرد عليه بل ذلوا وغلبوا وعلموا صحة قوله ، وإنما منعهم من تمني الموت معرفتهم بما لهم عند الله من الخزي والعذاب الأليم بكفرهم بالأنبياء وقتلهم لهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (فإن قيل) فهلا أظهروا التمني وإن كانوا كاذبين فقالوا فنحن نتمناه (قيل) وهذا أيضا معجزة أخرى وهي أن الله تعالى حبس عن تمنيه قلوبهم وألسنتهم فلم ترده قلوبهم ، و لم تنطق به ألسنتهم تصديقا لقوله :

﴿ولن يتمنوه أبدا﴾(١) .

قول الله تعالى :

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة : ٩٤] .

هذه الآية فيها للناس كلام معروف .

قالوا : إنها معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أعجز بها اليهود ، ودعاهم إلى تمني الموت ، وأخبر أنهم لا يتمنونه أبداً . وهذا علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم ، إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بإخبار عالم الغيب ، ولن يُنطق الله ألسنتهم بتمنيه أبداً ، وقالت طائفة : لما ادعت اليهود أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته كذبهم الله في دعواهم .

وقال : إن كنتم صادقين فتمنوا الموت إلى الجنة دار النعيم ، فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه ، ثم أخبر سبحانه أنهم لا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه ، فقال : **﴿ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين﴾** [البقرة : ٩٥] . وقالت طائفة منهم محمد بن إسحاق وغيره : هذه من جنس آية المباهلة ، وأنهم لما عاندوا ، ودفعوا الهدى عياناً ، وكتموا الحق دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه وهو أن يدعوا بالموت على الكاذب المفتري ، والتمني : سؤال ودعاء ، فتمنوا الموت : أي سلوه ، وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري .

وعلى هذا : فليس المراد تمنوه لأنفسكم خاصة ، كما قاله أصحاب القولين الأولين بل ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل . وهذا أبلغ في إقامة الحجة ، وبرهان الصدق ، وأسلم من أن يعارضوا بقولهم : فتمنوه أنتم أيضاً إن كنتم محقين في دعواكم أنكم أهل الجنة ، لتقدموا على ثواب الله وكرامته ، وكانوا أحرص شيء على معارضته . فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله . وأيضاً فإنا نشاهد

---

(١) بدائع الفوائد (١٤٩/٤–١٥٠) .

كثيراً منهم يتمنى الموت لفقره وبلائه ، وشدة حاله ، ويدعو به ، وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة . فإن هذا لا يكون أبدا ، ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم البتة ؛ وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه ، وكفرهم به حسداً وبغياً ، فلا يتمنونه أبداً ، لعلمهم أنهم هم الكاذبون . وهذا القول هو الذي نختاره . والله أعلم بمراد كتابه(١) .

قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٩٨] . أعاد الله ذكر جبريل وميكال مع أنهما من الملائكة بلا خلاف لخصوصية فيهما، إما لأمر اختص بعلمه بهما اقتضى تخصيصهما أو لأن جبريل روح الله وأمينه على وحيه ، وميكال أمينه على خزائن فتحه ورحمته(٢) .

قوله تعالى في هذه الآية : ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة :١٠١] .كيف نجد تحته برهانا عظيما على صدقه وهو مجيء الرسول الثاني بما يطابق ما جاء به الرسول الأول، ويصدقه مع تباعد زمنهما، وشهادة أعدائه، وإقرارهم له بأنه لم يتلقه من بشر ، ولهذا كانوا يمتحنونه بأشياء يعلمون أنه لا يخبر بها إلا نبي أو من أخذ عنه ، وهم يعلمون أنه لم يأخذ عن أحد البتة ، ولو كان ذلك لوجد أعداؤه السبيل إلى الطعن عليه ، ولعارضوه بمثل ما جاء به إذ من الممكن أن لو كان ما جاء به . مأخوذا عن بشر أن يأخذوا هم عن ملك، أو عن نظيره فيعارضوا ما جاء به . والمقصود أن مطابقة ما جاء به لما أخبر به الرسول الأول من غيره مواطأة ولا تشاعر ولا تلقي منه ولا ممن أخذ عنه دليل قاطع على صدق الرسولين معاً . ونظير هذا أن يشهد الرجل بشهادة فيخبر فيها بما يقطع به أنه صادق في شهادته صدقا لا يتطرق إليه شبهة فيجيء آخر من بلاد أخرى لم يجتمع به ولا تلقاها عن أحد اجتمع به فهذا يكفي في صدقه إذا تجرد الإخبار ، فكيف إذا اقترن بأدلة يقطع بها بأنه صادق أعظم من الأدلة التي

(١) مدارج السالكين (٢/٢٧٧) .

(٢) الفوائد المشوق (١٥٤) .

اقترنت بخبر الأول فكيف في العلم بصدق الثاني مطابقة خبره لخبر الأول فكيف إذا بشر به الأول فكيف إذا اقترن بالثاني من البراهين الدالة على صدقه نظير ما اقترن بالأول وأقوى منها والله أعلم(١) .

وقال تعالى عن السحرة من اليهود : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

أي علموا : من أخذ السحر وقبله لا نصيب له في الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترون به ويقبلونه ويتعلمونه(٢) .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم ، فإنهم كانوا يخاطبون(٣) بها النبي - صلى الله عليه وسلم - ويقصدون بها السبَّ ، يقصدون فاعلاً من الرعونة ، فنهي المسلمون عن قولها سداً لذريعة المشابهة ، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي - صلى الله عليه وسلم - تشبهاً بالمسلمين يقصدون بها غير ما قصده المسلمون(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١]. هذه دعوى من كل واحد من الطائفتين أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهما فقالت اليهود لا يدخلها إلا من كان هوداً وقالت النصارى: لا يدخلها إلا من كان نصرانياً، فاختصر الكلام أبلغ اختصار وأوجزه مع أمن اللبس، ووضوح المعنى فطالبهم الله تعالى

(١) بدائع الفوائد (١٤٧/٤-١٤٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٩) .

(٣) راجع الطبري (١ / ٤٦٩) .
وابن كثير (١ / ١٥٢) .

(٤) إعلام الموقعين (١٨٢/٣) .

بالبرهان على صحة الدعوى فقال : ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾ وهذا هو المسمى سؤال المطالبة بالدليل فمن ادعى دعوى بلا دليل يقال له هات برهانك إن كنت صادقا فيما ادعيت ويحتج بهذه الآية من يقول بلزوم النافي الدليل كما يلزم المثبت وحكوا في ذلك ثلاث مذاهب (**ثالثها**) يلزمه في الشرعيات دون العقليات واستدلالهم بالآية لا يصح لأن الله تعالى لم يطالبهم بدليل النفي المجرد بل ادعوا دعوى مضمونها إثبات دخولهم هم الجنة وأن غيرهم لن يدخلها فطولبوا بالدليل الدال على هذه الدعوى المركبة من النفي والإثبات وصاحب هذه الدعوى يلزمه الدليل باتفاق الناس وإنما الخلاف في النفي المجرد . ولو استدل هؤلاء بقوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة** ﴾ [البقرة : ٨٠] . لكان أقرب مع كونه متضمنا للنفي والإثبات لكن الدعوى فيه إنما توجهت إلى النفي . ومقصود الكلام أنا لا نعذب بعد تلك الأيام فلم ينكر عليهم اعترافهم بالتعذيب تلك الأيام بل دعواهم أنهم لا يعذبون بعدها وذلك نفي محض فلذلك قلنا إن الاستدلال بها أقرب من هذه الآية . وبعد فالتحقيق في مسألة النافي هل عليه دليل أن النفي نوعان :

(**نوع**) مستلزم لإثبات ضد المنفي فهذا يلزم النافي فيه الدليل كمن نفى الإباحة فإنه يطالب بالدليل قطعا لأن نفيها يستلزم ثبوت ضد من أضدادها ولابد من دليل وكذلك نفي التعذيب بالنار بعد الأيام المعدودة يستلزم دخول الجنة والفوز بالنعيم ولابد له من دليل .

(**النوع الثاني**) نفي لا يستلزم ثبوتا كنفي صحة عقد من العقود أو شرط أو عبادة في الشرعيات ونفي إمكان شيء ما من الأشياء في العقليات فالنافي إن نفى العلم به لم يلزمه دليل وإن نفى المعلوم نفسه وادعى أنه منتف في نفس الأمر فلابد له من دليل[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ﴾ إلى قوله : ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٦، ١١٧] . فرد عليهم سبحانه دعواهم له اتخاذ الولد ونزه

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٠-١٥٢) .

نفسه عنه ثم ذكر أربع حجج على استحالة اتخاذه الولد .

أحدها : كون ما في السموات والأرض ملكا له ، وهذا ينافي أن يكون فيهما ولد له ؛ لأن الولد بعض الوالد وشريكه ، فلا يكون مخلوقا له مملوكا له ؛ لأن المخلوق مملوك مربوب عبد من العبيد ، والابن نظير الأب ؛ فكيف يكون عبده تعالى ومخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره فهذا من أبطل الباطل وأكد مضمون هذه الحجة بقوله : ﴿ **كل له قانتون** ﴾ فهذا تقرير لعبوديتهم له ، وأنهم مملوكون مربوبون ليس فيهم شريك ولا نظير ولا ولد ، فإثبات الولد لله من أعظم الإشراك به فإن المشرك به جعل له شريكا من مخلوقاته مع اعترافه بأنه مملوك كما كان المشركون يقولون في تلبيتهم (لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك) فكانوا يجعلون من أشركوا به مملوكا له عبداً مخلوقا ، والنصارى جعلوا له شريكا هو نظير وجزء من أجزائه كما جعل بعض المشركين الملائكة بناته وقال تعالى : (وجعلوا له من عباده جزءا) [الزخرف : ١٥] . فإذا كان له ما في السموات والأرض عبيد قانتون مربوبون مملوكون ؛ استحال أن يكون له منهم شريك ، وكل من أقر بأن لله ما في السموات وما في الأرض لزمه أن يقوله بالتوحيد ، ولابد ولهذا يحتج سبحانه على المشركين بإقرارهم بذلك كقوله : (قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون) وسيأتي إن شاء الله تعالى مزيد بيان لهذا في موضعه .

(**الحجة الثانية**) قوله تعالى : ﴿ **بديع السموات والأرض** ﴾ وهذه من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه ، ولهذا قال في سورة الأنعام : (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد) [الأنعام : ١٠١] . أي من أين يكون لبديع السموات والأرض ولد . ووجه تقرير هذه الحجة أن من اخترع هذه السموات والأرض مع عظمهما وآياتهما ، وفطرهما وابتدعهما فهو قادر على اختراع ما هو دونهما ولا نسبة له إليهما البتة فكيف يخرجون هذا الشخص بالعين عن قدرته وإبداعه ، ويجعلونه نظيرا وشريكا وجزءاً مع أنه تعالى بديع العالم العلوي والسفلي وفاطره ومخترعه وبارئه ، فكيف يعجزه أن يوجد هذا الشخص من غير أب حتى

يقولوا إنه ولده فإذا كان قد ابتدع العالم علويه وسفليه فما يعجزه ويمنعه عن إبداع هذا العبد وتكوينه وخلقه بالقدرة التي خلق بها العالم العلوي والسفلي فمن نسب الولد لله فما عرف الرب تعالى ولا آمن به ولا عبده ، فظهر أن هذه الحجة من أبلغ الحجج على استحالة نسبة الولد إليه ، وإن شئت أن تقرر الاستدلال بوجه آخر وهو أن يقال إذا كان نسبة السموات والأرض وما فيهما إليه إنما هي بالاختراع والخلق والإبداع أنشأ ذلك وأبدعه من العدم إلى الوجود فكيف يصح نسبة شيء من ذلك إليه بالبنوة وقدرته على اختراع العالم وما فيه لم تزل ولم يحتج فيها إلى معاون ولا صاحب ولا شريك ، وإن شئت أن تقررها بوجه آخر فتقول النسبة إليه بالبنوة تستلزم حاجته وفقره إلى محل الولادة ، وذلك ينافي غناه وانفراده بإبداع السموات والأرض ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض) [يونس : ٦٨] . فكمال قدرته وكمال غناه وكمال ربوبيته يحيل نسبه الولد إليه ونسبته إليه تقدح في كمال ربوبيته وكمال غناه وكمال قدرته . ولذلك كان نسبة الولد إليه مسبة له تبارك وتعالى كما ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تعالى شتمني عبدي ابن آدم وما ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته »[1] وقال عمر بن الخطاب في النصارى « أذلوهم ولا تظلموهم فلقد سبوا الله مسبة ما سبه إياها أحد من البشر » وقال تعالى : (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم) الآية . وأخبر تعالى (أن السموات كادت تتفطر من قولهم هذا أو تنشق

---

(١) رواه البخاري (٨ / ١٨) في التفسير ، باب (وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه) .
و (٨ / ٦١١) باب : سورة (قل هو الله أحد) .
والنسائي (٤ / ١١٢) في الجنائز ، باب أرواح المؤمنين .
ولم يخرجه مسلم ، والله أعلم ! .

الأرض منه وتخر الجبال هدا)[١] وما ذاك إلا لتضمنه شتم الرب تبارك وتعالى والتنقص به ، ونسبة ما يمنع كمال ربوبيته وقدرته ، وغناه إليه .

(**الحجة الثالثة**) : قوله تعالى : ﴿ **وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ وتقرير هذه الحجة أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله كن فأي حاجة به إلى ولد وهولا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به ، ولا يستعين به ، ولا يعجز عن خلق ما يريد خلقه ، وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق ولا إذا أراد شيئا قال له كن فيكون . وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد ، وقد ذكر تعالى حججا أخرى على استحالة نسبة الولد إليه فنذكرها في هذا الموضع (فمنها) كمال علمه وعموم خلقه لكل شيء واستحالة نسبة الصاحبة إليه فقال تعالى في سورة الأنعام : (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة) الآية [الأنعام : ١٠١] . فأما منافاة عموم خلقه لنسبة الولد إليه فظاهر فإنه لو كان له ولد لم يكن مخلوقا بل جزءا ، وهذا ينافي كونه خالق كل شيء وبهذا يعلم أن الفلاسفة الذين يقولون بتولد العقول والنفوس عنه بواسطة أو بغير واسطة شر من النصارى ، وأن من زعم أن العالم قديم فقد أخرجه عن كونه مخلوقا لله وقوله أخبث من قول النصارى ، لأن النصارى أخرجوا عن عموم خلقه شخصا واحدا أو شخصين ومن قال بقدم العالم فقد أخرج العالم العلوي والسفلي والملائكة عن كونه مخلوقا لله ، والنصارى لم يصل كفرهم إلى هذا الحد . وأما منافاة عدم المصاحبة للولد فظاهر أيضا لأن الولد إنما يتولد من أصلين فاعل ومحل قابل يتصلان اتصالا خاصا فينفصل من أحدهما جزء في الآخر يكون منه الولد فمن ليس له صاحبة كيف يكون له ولد ولذلك لما فهم عوام النصارى أن الابن يستلزم الصاحبة لم يستنكفوا من دعوى كون مريم إلهة وأنها والدة الإله عيسى فيقول عوامهم يا والدة الإلهة اغفري لي، ويصرح بعضهم بأنها زوجة الرب ، ولا ريب

---

(١) في قوله تعالى : (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا) [مريم : ٨٨-٩٠] .

أن القول بالإيلاد يستلزم ذلك وإثبات إيلاد لا يعقل ولا يتوهم فخواص النصارى في حيرة وضلال ، وعوامهم لا يستنكفون أن يقولوا بالزوجة والإيلاد المعقول تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، والقول في المذهب الخبيث أضل خلق الله ، فهم كما وصفهم الله بأنهم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل .

وأما منافاة عموم علمه تعالى للولد فيحتاج إلى فهم خاص وتقريره أن يقال لو كان له ولد لعلمه لأنه بكل شيء عليم وهو تعالى لا يعلم له ولد فيستحيل أن يكون له ولد لا يعلمه وهذا استدلال بنفي علمه للشيء على نفيه في نفسه إذ لو كان لعلمه فحيث لم يعلمه فهو غير كائن[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ [البقرة : ١٢٧] . ولم يقل قواعد البيت لما في إبهام القواعد ولما في تبيينها بعد ذلك من الإيضاح و تفخيم حال المبهم بما ليس في الإضافة[2] .

قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾فأجيبوا عن هذه الدعوى بقوله : ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] . وهذا الجواب مع اختصاره قد تضمن المنع والمعارضة أما المنع فما تضمنه حرف بل من الإضراب أي ليس الأمر كما قالوا . وأما المعارضة ففي قوله ملة إبراهيم حنيفا أي أتبع أو يتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وفي ضمن هذه المعارضة إقامة الحجة على أنها أولى بالصواب مما دعوتم إليه من اليهودية والنصرانية ، لأنه وصف صاحب الملة بأنه حنيف غير مشرك ، ومن كانت ملته الحنيفية والتوحيد فهو أولى بأن يتبع ممن ملته اليهودية والنصرانية فإن الحنيفية والتوحيد هي دين جميع الأنبياء الذي لا يقبل الله من أحد دينا سواه وهو الفطرة التي فطر الله عليها عباده فمن كان عليها فهو المهتدي لأن من كان يهوديا أو نصرانيا فإن الحنيفية تتضمن الإقبال على الله بالعبادة والإجلال والتعظيم والمحبة والذل .

---

(١) بدائع الفوائد (١٥٢/٤-١٥٥) .

(٢) الفوائد المشوق (٨٠) .

والتوحيد يتضمن إفراده بهذا الإقبال دون غيره فيعبد وحده ويحب وحده ويطاع وحده ، ولا يجعل معه إلهاً آخر فمن أولى بالهداية صاحب هذه الملة أو ملة اليهودية والنصرانية ولا يبقى بعد هذا للخصوم إلا سؤال واحد .

وهو أن يقولوا فنحن على ملته أيضا لم نخرج عنها وإبراهيم وبنوه كانوا هوداً أو نصارى ، فأجيبوا عن هذا السؤال بأنهم كاذبون فيه ، وأن الله تعالى قد علم أنه لم يكن يهوديا ولا نصرانيا فقال تعالى : ﴿ **أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى** ﴾ الآية [البقرة : ١٤٠] . وقرر تعالى هذا الجواب في سورة آل عمران بقوله : (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا) إلى قوله : (والله ولى المؤمنين) [آل عمران : ٦٧، ٦٨] (فإن قالوا) فهب أن إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا فنحن على ملته وإن انتحلنا هذا الاسم (فأجيبوا) عن هذا بقوله تعالى : ﴿ **قولوا آمنا بالله** ﴾ أي قوله : ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ فهذه حال المؤمنين ، ثم قال : ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا** ﴾ وإن أتوا من الإيمان بمثل ما أتيتم به فهم على ملة إبراهيم وهم مهتدون وإن لم يأتوا بإيمان مثل إيمانكم فليسوا من إبراهيم وملته في شيء وإنما هم في شقاق وعداوة فإن ملة إبراهيم الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وأن لا يفرق بين أحد منهم فيؤمن ببعضهم ويكفر ببعضهم فمن لم يأت بمثل هذا الإيمان فهو بريء من ملة إبراهيم مشاق لمن هو على ملته ، وقوله تعالى : ﴿ **قل أأنتم أعلم أم الله** ﴾ .

أي الله تعالى يعلم ما كان عليه إبراهيم والنبيون من الملل ، وأنهم لم يكونوا يهودا ولا نصارى ، فالله تعالى يعلم ذلك فلو كانوا يهودا أو نصارى والله تعالى لا يعلم ذلك لكنتم أعلم من الله بهم هذا مع أن عندكم شهادة وبينة من الله بما كان عليه إبراهيم وبأن هذا النبي على ملته ولكنكم كتمتم هذه الشهادة عن أتباعكم فلم تؤدوها إليهم مع تحققكم لها ولا أظلم ممن كتم شهادة استشهده الله بها فهي عنده من الله إلا أنه كتمها من الله فالمجرور متعلق بما تضمنه الظرف الذي هو

عنده من الكون والحصول[١] .

قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة : ١٣٧] وليس له مثل والجواب من أوجه :

(**الأول**) : أن المراد به التبكيت والمعنى حصلوا ديناً آخر مثله وهو لا يمكن .

(**الثاني**) : أن المثل صلة .

(**الثالث**) : أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ولا تحريف فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف فقد اهتدوا .

(**الرابع**) : أن المراد إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين ، روى ابن جرير أن ابن عباس قال قولوا فإن آمنوا بالذي آمنتم به . قال عبد الجبار : ولا يجوز ترك القراءة المتواترة[٢] .

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ–إلى قوله–صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة : ١٤٢]. هذا سؤال من السفهاء أورده على المؤمنين ، ومضمونه أن القبلة الأولى إن كانت حقا فقد تركتم الحق وإن كانت باطلا فقد كنتم على باطل ، ولفظ الآية وإن لم يدل على هذا فالسفهاء المجادلون في القبلة قالوه فأجاب الله تعالى عنه بجواب شاف بعد أن ذكر قبله مقدمات تقرره وتوضحه ، والسؤال من جهة الكفار أورده على صور متعددة ترجع إلى شيء واحد فقالوا ما تقدم ، وقالوا لو كان نبياً ما ترك قبلة الأنبياء قبله ، وقالوا لو كان نبيا ما كان يفعل اليوم شيئاً وغدا خلافه وقال المشركون قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم ، وقال أهل الكتاب لو كان نبيا ما فارق قبلة الأنبياء ، وكثر الكلام ، وعظمت المحنة على بعض الناس كما قال تعالى : ﴿ **وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾.

---

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٥–١٥٧) .

(٢) وانظر ص (٣٦٧–٣٦٨) .

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفه وإرشاده في هذه القصة لما علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطأه ومهده وذلله بقواعد قبله فذكر النسخ وأنه إذا نسخ شيئا أتى بمثله أو خير منه ، وإنه قادر على ذلك فلا يعجزه ، ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغي أن يعترض عليه ويسأل تعنتا كما جرى لموسى مع قومه ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته وذكر بانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع ملته فقرر في النفوس بذلك توجهها إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة ، وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا ، فالقلوب عاكفة على محبته دائمة الاشتياق إليه ، متوجهة إليه حيث كانت ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله أن طهرا بيتي وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت وهي التي أقبلت بأفئدة العالم إليه فلما استقرت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان وذكروا بها فكأنها نادتهم أن استقبلوه في الصلاة ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت فلما برز مرسوم فول وجهك شطر المسجد الحرام تلقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم والراسخون في الإيمان بالبشرى والقبول وكان عيداً عندهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) كان كثيرا ما يقلب وجهه في السماء ينتظر أن يحوله الله عن قبلة أهل الكتاب فولاه الله القبلة التي يرضاها ، وتلقى ذلك الكفار بالمعارضة وذكر الشبهات الداحضة وتلقاه الضعفاء من المؤمنين بالإغماض والمشقة ، فذكر تعالى أصناف الناس عند الأمر باستقبال الكعبة وابتدأ ذلك بالتسلية لرسوله والمؤمنين عما يقول السفهاء من الناس فلا تعبأوا بقولهم فإنه قول سفيه ثم قال : **﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾** فأخبر تعالى أن المشرق والمغرب له وأنه رب ذلك فأين ما تعبد له عبادة بأمره إلى أي جهة كانت فهم مطيعون له كما قال : **﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾** [البقرة : ١١٥] . فلم يصل مستقبل الجهات بأمره إلا له تعالى ، فإذا كنتم تصلون إلى غير

---

(١) راجع تفسير الطبري (٢ / ١٩) طبعة الحلبي . و (٣ / ١٧٢) طبعة المعارف .

الكعبة بأمره ثم أمركم أن تصلوا إليها فما صليتم إلا له أولا وآخرا وكنتم على حق في الاستقبال الأول والآخر لأن كليهما كان بأمره ورضاه فانتقلتم من رضاه إلى رضاه ثم نبه على فضل الجهة التي أمرهم بالاستقبال إليها ثانيا بأنه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، كما هداكم للقبلة التي جعلها قبلتكم وشرعها لكم ورضيها ولكن أمركم باستقبال غيرها أولا لحكمة له في ذلك وهو أن يعلم سبحانه من يتبع الرسول ويدور معه حيثما دار ويأتمر بأوامره كيف تصرفت وهو العالم بكل شيء ، ولكن شاء أن يعلم معلومه الغيبي عيانا مشاهدا فيتميز بذلك الراسخ في الإيمان المسلم للرسول المنقاد له ممن يعبد الله على حرف فينقلب على عقبه بأدنى شبهة ، فهذا من بعض حكمه في أن جعل القبلة الأولى غير الكعبة فلم يشرع ذلك سدى ولا عبثا ، ثم أخبر سبحانه أنه كما جعل لهم أوسط الجهات قبلة بتعبدهم فكذلك جعلهم أمة وسطا فاختار القبلة الوسط في الجهات للأمة الوسط في الأمم ثم ذكر أن هذا التفضيل والاختصاص ليستشهدهم على الأمم فيقبل شهادتهم على الخلائق يوم القيامة ثم أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون من صلاتهم إلى القبلة الأولى وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل فقال : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ وفيه قولان :

أحدهما : ما كان ليضيع صلاتكم إلى بيت المقدس بل يجازيكم عليها لأنها كانت بأمره ورضاه .

والثاني : ما كان ليضيع إيمانكم بالقبلة الأولى ، وتصديقكم بأن الله شرعها ورضيها ، وأكثر السلف والخلف على القول الأول وهو مستلزم للقول الآخر . ثم ذكر منته على رسوله وإطلاعه على حرصه على تحويله عن قبلته الأولى فقال : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ [البقرة : ١٤٤] . ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب بأنهم يعلمون أنه الحق من ربهم ولم يذكر للضمير مفسرا غير ما في السياق ، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام ، وأن أهل الكتاب عندهم من علامات هذا النبي أن يستقبل بيت الله الذي بناه إبراهيم في صلاته ،

ثم أخبر تعالى عن شدة كفر أهل الكتاب بأنهم لو أتاهم الرسول بكل آية ما تبعوا قبلته ، ففي ذلك التسلية له وتركهم وقبلتهم ثم برأه من قبلتهم فقال : ﴿ **وما أنت بتابع قبلتهم** ﴾ [البقرة : ١٤٥] . ثم ذكر اختلافهم في القبلة ، وأن كل طائفة منهم لا تتبع قبلة الطائفة الأخرى ، لأن القبلة من خواص الدين وأعلامه وشعائره الظاهرة ، فأهل كل دين لا يفارقون قبلتهم إلا أن يفارقوا دينهم فأخبر تعالى في هذه الجمل الثلاث بثلاث إخبارات تتضمن براءة كل طائفة من قبلة الطائفة الأخرى وتتضمن الإخبار بأن أهل الكتاب لو رأوا كل آية تدل على صدق الرسول لما تبعوا قبلته عنادا وتقليداً لآبائهم ، وأنهم وإن اشتركوا في خلاف القبلة الحق ، فهم مختلفون في باطلهم فلا تتبع طائفة قبلة الأخرى فهم متفقون على خلاف الحق ، مختلفون في اختيار الباطل ، وفي هذه الآية أيضا تثبيت للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على لزوم قبلتهم ، وأنه لا يشتغل بما يقوله أهل الكتاب ارجعوا إلى قبلتنا فنتبعكم على دينكم ، فإن هذا خداع ومكر منهم فإنهم لو رأوا كل آية تدل على صدقك ما تبعوا قبلتك لأن الكفر قد تمكن من قلوبهم فلا مطمع للحق فيها ولست أيضا بتابع قبلتهم فليقطعوا مطامعهم من موافقتك لهم وعودك إلى قبلتهم ، وكذلك هم أيضا مختلفون فيما بينهم فلا يتبع أحد منهم قبلة الآخر فهم مختلفون في القبلة ولستم أيها المؤمنون موافقين لأحد منهم في قبلته بل أكرمكم الله بقبلة غير قبلة هؤلاء المختلفين اختارها الله لكم ورضيها وأكد تعالى هذا المعنى بقوله : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين** ﴾ [البقرة : ١٤٥] . فهذا كله تثبيت وتحذير من موافقتهم في القبلة وبراءة من قبلتهم كما هم براء من قبلتك ، وكما بعضهم بريء من قبلة بعض فأنتم أيها المؤمنون أولى بالبراءة من قبلتهم التي أكرمكم الله بالتحويل عنها ، ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ [البقرة : ١٤٦] . ثم أخبر تعالى عن اختصاص كل أمة بقبلتهم فقال : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها** ﴾ [البقرة : ١٤٨] . وأصح القولين أن المعنى هو متوجه إليها أي موليها وجهه فالضمير راجع إلى كل – وقيل إلى الله أي الله موليها إياه وليس بشيء لأن الله لم يول القبلة الباطلة أبدا ولا أمر النصارى باستقبال الشرق قط بل هم تولوا هذه القبلة

من تلقاء أنفسهم وولوها وجوههم وقوله : ﴿ **فاستبقوا الخيرات** ﴾ مشعر بصحة هذا القول أي إذا كان أهل الملل قد تولوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات ، وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا) يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة كما تجتمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التي تأمونها فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذي يؤمه الخلائق وهذا نظير قوله تعالى : (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) [المائدة : ٤٨] . وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم . فقال : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا** ﴾ وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه ، وهو أنه عند الاختلاف في الطرائق والمذاهب والشرائع والقبل ؛ يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد فهكذا ينبغي أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلهم إليه وحده في الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق في الدنيا والآخرة فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفورا وذهابا في الطريق الباطلة وعبادة غيره وإن دانوا غير دينه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات وبادروا إليها ولا تذهبوا مع الذين يسارعون في الباطل والكفر (فتأمل) هذا السر البديع في السورتين . وفي قوله : (فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) [المائدة : ٤٨] . سر آخر أيضا وهو أن هذا الاختلاف دليل على يوم الفصل وهو اليوم الذي يفصل الله فيه بين الخلائق ويبين لهم حقيقة ما اختلفوا فيه ، فنفس الاختلاف دليل على يوم الفصل والبعث ، وقد أوضح ذلك قوله تعالى في سورة النحل : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ [النحل : ٣٨،٣٩] .

فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثه الأموات بعد ما أماتهم :

إحداهما : أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه ، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم ، والذي حصل في الدنيا بيان إيماني اختص به بعضهم .

الحكمة الثانية : علم المبطل بأنه كان كاذبا وإن كان على باطل وأن نسبة أهل الحق إلى الباطل من افترائه وكذبه وبهتانه فيخزيه ذلك أعظم خزي فتأمل أسرار كلام الرب تعالى وما تضمنته آيات الكتاب المجيد من الحكمة البالغة الشاهدة بأنه كلام رب العالمين والشاهدة لرسوله بأنه الصادق المصدوق وهذا كله من مقتضى حكمته وحمده تعالى وهو معنى كونه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق ولم يخلق ذلك باطلا بل خلقه خلقا صادراً عن الحق ، آيلا إلى الحق مشتملا على الحق فالحق سابق لخلقها مقارن له غاية له ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة لمعنى الغاية وحدها ، فالباء مفيدة معنى اشتمال خلقها على الحق السابق والمقارن والغاية فالحق السابق صدور ذلك عن علمه وحكمته فمصدر خلقه تعالى وأمره عن كمال علمه وحكمته ، وبكمال هاتين الصفتين يكون المفعول الصادر عن الموصوف بهما حكمة كله ومصلحة وحقا ولهذا قال تعالى : (وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) [النمل : ٦] . فأخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته وما كان كذلك كان صدقا وعدلا وهدى وإرشاداً وكذلك قالت الملائكة لامرأة إبراهيم حين قالت : (أألد وأنا عجوز عقيم)(١) قالوا : (كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) [الذاريات : ٣٠] . وهذا راجع إلى قوله وخلقه وهو خلق الولد لها على الكبر وأما مقارنة الحق لهذه المخلوقات فهو ما اشتملت من الحكم والمصالح والمنافع والآيات الدالة للعباد على الله ووحدانيته وصفاته وصدق رسله وأن لقاءه حق لا ريب فيه ، ومن نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بذلك ، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد لأنها شهادة حال لا يقبل كذبا فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقا حق تأمله إلا وجده دالاً على فاطره وبارئه وعلى

---

(١) في هذا السياق خلط بين آيتين الأولى قوله تعالى : (قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا) [هود : ٧٢] .
والثانية : (فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) [الذاريات : ٢٩] .

وحدانيته ، وعلى كمال صفاته وأسمائه وعلى صدق رسله ، وعلى أن لقاءه حق لا ريب فيه ، وهذه طريقة القرآن في إرشاده الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات فمرة يخبر أنه لم يخلق خلقه باطلا ولا عبثا ومرة يخبر أنه خلقهم بالحق ومرة يخبرهم وينبههم على وجوه الاعتبار والاستدلال بها على صدق ما أخبرت به رسله حتى يبين لهم أن الرسل إنما جاءوهم بما يشاهدون أدلة صدقة وبما لو تأملوه لرأوه مركوزا في فطرهم مستقرا في عقولهم ، وأن ما يشاهدونه من مخلوقاته شاهد بما أخبرت به رسله عن أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه ووجود ملائكته وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان إنما يفتحه الله على من سبقت له منه سابقة السعادة ، وهذا أشرف علم يناله العبد في هذه الدار ، وقد بينت في موضع آخر أن كل حركة تشاهد على اختلاف أنواعها فهي دالة على التوحيد والنبوات والمعاد بطريقة سهلة واضحة برهانية ، وكذلك ذكرت في رسالة إلى بعض الأصحاب بدليل واضح أن الروح مركوز في أصل فطرتها وخلقتها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن الإنسان لو استقصى التفتيش لوجد ذلك مركوزاً في نفس روحه وذاته وفطرته ، فلو تأمل العاقل الروح وحركتها فقط لاستخرج منها الإيمان بالله وصفاته ، والشهادة بأنه لا إله إلا هو ، والإيمان برسله وملائكته ولقائه وإنما يصدق بهذا من أشرقت شمس الهداية على أفق قلبه ، وانجابت عنه سحائب غيبه وانكشف عن قلبه حجاب : (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف : ٢٣]. فهنالك يبدو له سر طال عنه اكتتامه ويلوح له صباح هو ليله وظلامه فقف الآن عند كل كلمة من قوله تعالى : (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون) [الجاثية : ٣-٥] . ثم تأمل وجه كونها آية وعلى ماذا جعلت آية أعلى مطلوب واحد ، أم مطالب متعددة وكذلك سائر ما في القرآن من هذا النمط كآخر آل عمران [آل عمران : ١٩٠] . وقوله في سورة الروم [الروم : ٢٠] : (ومن آياته) إلى آخرها وقوله في سورة النمل : (قل الحمد لله وسلام على عباده

الذين اصطفى) [النمل : ٥٩] . إلى آخر الآيات وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن ، وكقوله في سورة الذاريات : (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [الذاريات : ٢٠] . (وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) [يوسف : ١٠٥] .

فهذا كله من الحق الذي خلقت به السموات والأرض وما بينهما وهو حق مقارن لوجود هذه المخلوقات سطور في صفحاتها يقرأه كل موفق كاتب ، وغير كاتب كما قيل :

تأمل سطور الكائنات فإنها　　　من الملأ الأعلى إليك رسائل
قد خط فيها لو تأملت خطها　　　ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وأما الحق الذي هو غاية خلقها فهو غاية تراد من العباد وغاية تراد بهم فالتي تراد منهم أن يعرفوا الله تعالى وصفات كماله عز وجل وأن يعبدوه لا يشركوا به شيئا فيكون هو وحده إلههم ومعبودهم ومطاعهم ومحبوبهم قال تعالى : (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) [الطلاق : ١٢] . فأخبر أنه خلق العالم ليعرف عباده كمال قدرته وإحاطة علمه ، وذلك يستلزم معرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وتوحيده . وقال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات : ٥٦] . فهذه الغاية هي المرادة من العباد وهي أن يعرفوا ربهم ويعبدوه وحده وأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب والعقاب قال تعالى : (ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) [النجم : ٣١] . وقال تعالى : (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) [طه : ١٥] . وقال تعالى : (ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) [النمل : ٣٩] . وقال تعالى : (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا

الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب إليم بما كانوا يكفرون) [يونس : ٣،٤] . فتأمل الآن كيف اشتمل خلق السموات والأرض وما بينهما على الحق أولا وآخرا ووسطا وأنها خلقت بالحق وللحق ، وشاهدة بالحق ، وقد أنكر تعالى على من زعم خلاف ذلك فقال : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) [المؤمنون : ١١٥] . ثم نزه نفسه عن هذا الحسبان المضاد لحكمته وعلمه وحمده فقال : (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) [المؤمنون : ١١٦] . وتأمل ما في هذين الاسمين وهما الملك الحق من إبطال هذا الحسبان الذي يكون له الأمر والنهي فيتصرف في خلقه بقوله وأمره وهذا هو الفرق بين الملك والمالك ، إذ المالك هو المتصرف بفعله والملك هو المتصرف بفعله وأمره ، والرب تعالى مالك الملك فهو المتصرف بفعله وأمره فمن ظن أنه خلق خلقه عبثا لم يأمرهم ولم ينههم ؛ فقد طعن في ملكه ولم يقدره حق قدره كما قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) [الأنعام : ٩١] . فمن جحد شرع الله وأمره ونهيه وجعل الخلق بمنزلة الأنعام المهملة فقد طعن في ملك الله ، ولم يقدره حق قدره وكذلك كونه تعالى إله الخلق يقتضي كمال ذاته وصفاته وأسمائه ، ووقوع أفعاله على أكمل الوجوه وأتمها فكما أن ذاته الحق فقوله الحق ، ووعده الحق ، وأمره الحق ، وأفعاله كلها حق ، وجزاؤه المستلزم لشرعه ودينه ولليوم الآخر حق ، فمن أنكر شيئا من ذلك فما وصف الله بأنه الحق المطلق من كل وجه وبكل اعتبار فكونه حقا يستلزم شرعه ودينه وثوابه وعقابه فكيف يظن بالملك الحق أن يخلق خلقه عبثا ، وأن يتركهم سدى لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم ، كما قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) [القيامة : ٣٦] . قال الشافعي رحمه الله : مهملا لا يؤمر ولا ينهى . وقال غيره : لا يجزى بالخير والشر ولا يثاب ولا يعاقب . والقولان متلازمان ، فالشافعي ذكر سبب الجزاء والثواب والعقاب وهو الأمر والنهي ، والآخر ذكر غاية الأمر والنهي وهو الثواب والعقاب ثم تأمل قوله تعالى بعد ذلك : (ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقه فخلق فسوى) [القيامة : ٣٧،٣٨] . فمن لم يتركه وهو نطفة سدى بل قلب النطفة وصرفها حتى

صار أكمل مما هي : وهي العلقة ثم قلب العلقة ؛ حتى صارت أكمل مما هي حتى خلقها فسوى خلقها فدبرها بتصريفه وحكمته في أطوار كمالاتها حتى انتهى كمالها بشرا سويا . فكيف يتركه سدى لا يسوقه إلى غاية كماله الذي خلق له فإذا تأمل العاقل البصير أحوال النطفة من مبدئها إلى منتهاها دلته على المعاد والنبوات كما تدله على إثبات الصانع وتوحيده وصفات كماله ، فكما تدل أحوال النطفة من مبدئها إلى غايتها على كمال قدرة فاطر الإنسان وبارئه ، فكذلك تدل على كمال حكمته وعلمه وملكه وأنه الملك الحق المتعال عن أن يخلقها عبثا ويتركها سدى بعد كمال خلقها ، وتأمل كيف لما زعم أعداؤه الكافرون أنه لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله وأنه لا يبعثهم للثواب والعقاب كيف كان هذا الزعم منهم قولا بأن خلق السموات والأرض باطل فقال تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) [ص : ٢٧] . فلما ظن أعداؤه أنه لم يرسل إليهم رسولا ، ولم يجعل لهم أجلا للقائه كان ذلك ظناً منهم أنه خلق خلقه باطلا ، ولهذا أثنى تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقها باطلا وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه وذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار) فلما علموا أن خلق السموات والأرض يستلزم الثواب والعقاب تعوذوا بالله من عقابه ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السموات والأرض فقالوا : (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا) [آل عمران : ١٩٣] . فكانت ثمرة فكرهم في خلق السموات والأرض ، الإقرار به تعالى وبوحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه فتوسلوا إليه بإيمانهم الذي هو من أعظم فضله عليهم إلى مغفرة ذنوبهم ، وتكفير سيئاتهم وإدخالهم مع الأبرار إلى جنته التي وعدهموها وذلك تمام نعمته عليهم فتوسلوا بإنعامه عليهم أولا إلى إنعامه عليهم آخرا ، وتلك وسيلة بطاعته إلى كرامته وهي إحدى الوسائل إليه ، وهي الوسيلة التي أمرهم بها في قوله : (يا أيها الذين آمنوا

اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة)[المائدة : ٣٥] . وأخبر عن خاصه عبادة أنهم يبتغون الوسيلة إليه إذ يقول تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) [الإسراء : ٥٧] . على أن في هاتين الآيتين أسراراً بديعة ذكرتها في كتاب (التحفة المكية) في بيان الملة الإبراهيمية فأثمر لهم فكرهم الصحيح في خلق السموات والأرض أنها لم يخلقها باطلا ، وأثمر لهم الإيمان بالله ورسوله ودينه وشرعه وثوابه وعقابه والتوسل إليه بطاعته والإيمان به وهذا الذي ذكرناه في هذا الفصل قطرة من بحر لا ساحل له ، فلا تستطله فإنه كنز من كنوز العلم لا يلائم كل نفس ولا يقبله كل محروم ، والله يختص برحمته من يشاء . ولترجع إلى ما كنا بصدده من الكلام في ذكر محاجة أهل الباطل للمسلمين في القبلة ، ونصر الله لهم بالحجة عليهم . وقد رأيت لأبي القاسم السهيلي [١] في الكلام على هذه الآيات فصلا أذكره بلفظه قال في قول النبي صلى الله عليه وسلم للبراء بن معرور قد كنت على قبلة لو صبرت عليها يعني لما صلى إلى الكعبة قبل الأمر بالتوجه إليها و لم يأمره بالإعادة لأنه كان متأولاً .

قلت : ونظير هذا أنه لم يأمر من أكل في نهار رمضان بالإعادة لما ربط الخيطين في رجليه وأكل حتى تبينا له لأجل التأويل .

ونظيره أنه لم يأمر أبا ذر [٢] بإعادة ما ترك من الصلاة مع الجنابة إذ

---

(١) في « الروض الأنف » للسهيلي (٤ / ١١٣ ، ١١٤) .
والحديث ذكره ابن إسحاق في السيرة .
السيرة النبوية لابن هشام (٢ / ٨٦ -٨٨) .
وانظر الإصابة لابن حجر (١ / ٢٣٨) .
وذكر صاحب كنز العمال الحديث ، وعزاه لأبي نعيم (٨ / ٢٨) .

(٢) لم أجد الحديث بهذا السياق عن أبي ذر رضي الله عنه إنما عن قوم جاءوا النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عن ذلك .
راجع نصب الراية (١ / ١٥٦) .
وأبو يعلى (١٠ / ٢٦٩) .

لم يعرف شرع التيمم للجنب فقال يا رسول الله إني تصيبني الجنابة فأمكث الشهر والشهرين لا أصلي يعني في البادية فقال « أين أنت عن التيمم » .

ونظيره أيضـا أنه لم يأمر المستحاضة[1] بالإعـادة وقد قالت:إني أستحيض حيضة شديدة وقد منعتني الصوم والصلاة فأمرها أن تجلس أيام الحيض ثم تصلي ولم يأمرها بإعادة ما تركت .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المسيء [2] في صلاته بإعادة ما تقدم له من الصلوات التي لم تكن صحيحة وإنما أمره بالإعادة في الوقت ؛ لأنه لم يؤد فرض وقته مع بقائه بخلاف ما تقدم له .

ونظيره أيضاً أنه لم يأمر المتمعك [3] في التراب ، كما تتمعك الدابة لأجل

= وسنن الدارقطني (١ / ١٨٧ ، ١٨٨) .
أما حديث أبي ذر رضي الله عنه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « الصعيد الطيب وضوء المسلم ولو إلى عشر سنين ، فإذا وجدت الماء فأمسَّه جلدك ، فإن ذلك خير » .
رواه أبو داود (١ / ٥٢٤) في الطهارة ، باب : الجنب يتيمم .
والترمذي (١ /٢١٢) في الطهارة ، باب : ما جاء في التيمم للجنب .
والنسائي (١ / ١٧١) في الطهارة ، باب : الصلوات بتيمم واحد . والله أعلم .

(١) رواه أبو داود بسنده عن حِمنَة بنت جحش (١ / ٤٧٥) كتاب الطهارة ، باب إذا أقبلت الحيضة تدع الصلاة .
والترمذي (١ / ٢٢١) في الطهارة ، باب : ما جاء في المستحاضة .
وانظر المغني (١ / ٤٠٣ ، ٤٠٤) .

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة ، رضي الله عنه في مواضع منها :
(٢ / ٣٢٣) في الآذان ، باب : أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا يتم ركوعه بالإعادة .
ومسلم عنه (١ / ٣١) في الصلاة ، باب : قراءة سورة عقب الفاتحة .
وأبو داود (٣ / ٩٣) في الصلاة ، باب : صلاة من لا يقيم صلبه .
ورواه الترمذي عن رفاعة بن رافع (٢ / ١٠٠) في الصلاة ، باب : ما جاء في وصف الصلاة .

(٣) رواه البخاري في مواضع منها (١ / ٥٢٨) في التيمم ، باب : المتيمم هل ينفخ فيها ؟
والإمام أحمد (٤ / ٢٦٣) .
وأبو داود (١ / ٥١٦) في الطهارة ، باب : التيمم .
والنسائي (١ / ١٦٥ و ١٦٦) في التيمم .
وابن ماجه (١ / ١٨٨) في الطهارة ، باب : ما جاء في التيمم ضربة واحدة .

التيمم بالإعادة مع أنه لم يصب فرض التيمم .

ونظيره أيضا أنه لم يأمر معاوية [(١)] بن الحكم السلمي بإعادة الصلاة وقد تكلم فيها بكلام أجنبي ليس من مصلحتها . ونظيره أيضاً أنه لم يضمن [(٢)] أسامة قتيله بعد إسلامه بقصاص ولا دية ولا كفارة . ولا تجد هذه النظائر مجموعة في موضع فالتأويل والاجتهاد في إصابة الحق منع في هذه المواضع من الإعادة والتضمين (وقاعدة) هذا الباب أن الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه هو فكذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه وهذا مجمع عليه في الحدود أنها لا تقام إلا على من بلغه تحريم أسبابها . وما ذكرناه من النظائر ؛ يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود ويدل عليه أيضا في المعاملات قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين) [البقرة : ٢٧٨] . فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض ، ولم يأمرهم برد المقبوض لأنهم قبضوه قبل التحريم فأقرهم عليه بل أهل قباء صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها ، ولم يعيدوا ما صلوا بل استداروا في صلاتهم وأتموها لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم .

وفي هذا الأصل ثلاثة أقوال للفقهاء وهي لأصحاب أحمد .

هذا أحدها : وهو أصحها وهو اختيار شيخنا رضي الله عنه .

والثاني : أن الخطاب إذا بلغ طائفة ترتب في حق غيرهم ولزمهم كما لزم من بلغه وهذا اختيار كثير من أصحاب الشافعي وغيرهم .

---

(١) رواه مسلم (٢ / ١٧٠) في المساجد ، باب : تحريم الكلام في الصلاة .
وأبو داود (٣ / ١٩٨) في الصلاة ، باب : تشميت العاطس في الصلاة .
والنسائي (٣ / ١٤ - ١٨) في السهو ، باب : الكلام في الصلاة .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٧ / ٥٩٠) في المغازي باب : بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة ابن زيد إلى الحرقات .
ومسلم (١ / ٢٩١) في الإيمان ، باب : تحريم قتل الكافر بعد قوله لا إله إلا الله .
وأبو داود (٧ / ٣٠٢) في الجهاد ، باب : على ما يقاتل المشركون .

الثالث : الفرق بين الخطاب الابتدائي والخطاب الناسخ ، فالخطاب الابتدائي يعم ثبوته من بلغه وغيره ، والخطاب الناسخ لا يترتب في حق المخاطب إلا بعد بلوغه ، والفرق بين الخطابين أنه في الناسخ مستصحب لحكم مشروع مأمور به بخلاف الخطاب الابتدائي ذكره القاضي (١) أبو يعلى في بعض كتبه ونصوص القرآن والسنة تشهد للقول الأول وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة وإنما أشرنا إليها إشارة ، فقال أبو القاسم : وفي الحديث دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة إلى بيت المقدس وهو قول ابن عباس يعني قوله للبراء «لقد كنت على قبلة» (٢) وقالت طائفة ما صلى إلى بيت المقدس إلا منذ قدم المدينة سبعة عشر شهرا أو ستة عشر شهرا ، فعلى هذا يكون في القبلة نسخان نسخ سنة بسنة ونسخ سنه بقرآن ، وقد بين حديث ابن عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة فروي عنه من طرق صحاح (٣) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بمكة استقبل بيت المقدس وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس فلما كان صلى الله عليه وسلم يتحرى القبلتين جميعا لم يبين توجهه إلى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة ولذلك والله أعلم قال الله تعالى في الآية الناسخة : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ [البقرة : ١٤٩-١٥٠] . أي من أي جهة جئت إلى الصلاة وخرجت إليها ؛ فاستقبل الكعبة كنت مستدبرا بيت المقدس أن تكون الكعبة بين يديه . قال وتدبر قوله : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك** ﴾ وقال لأمته : ﴿ **وحيث**

---

(١) الإمام العلامة ، شيخ الحنابلة ، القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسن بن محمد بن خلف بن أحمد البغدادي الحنبلي .
ولد في أول سنة ثمانين وثلاث مائة وتوفي سنة ثمان وخمسين وأربع مائة من مصنفاته النفيسة « أحكام القرآن » .
و « مسائل الإيمان » و « العدة » في أصول الفقه وهو مطبوع .
سير أعلام النبلاء (١٨ / ٨٩) .
طبقات الحنابلة (٢ / ١٩٣ - ٢٣٠) وغيرهما .

(٢) راجع هامش رقم ٢ ص ٣٥٠ .

(٣) راجع الطبري (٢ / ١٩) .

ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ ولم يقل حيث ما خرجتم وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان إمام المسلمين فكان يخرج إليهم في كل صلاة ليصلي بهم وكان ذلك واجباً عليه إذ كان الإمام المقتدى به فأفاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى ولم يكن حكم غيره هكذا يقتضي الخروج ، ولاسيما النساء ، ومن لا جماعة عليه .

قلت : ويظهر في هذا معنى آخر وهو أن قوله : ﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ [البقرة : ١٤٤-١٥٠] . خطاب عام له صلى الله عليه وسلم ولأمته يقتضي أمرهم بالتوجه إلى المسجد الحرام في أي موضع كانوا من الأرض ، وقوله : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾خطاب بصيغة الإفراد والمراد هو والأمة كقوله : (يا أيها النبي اتق الله) [الأحزاب : ١] . ونظائره ، وهو يفيد الأمر باستقبالها من أي جهة ومكان خرج منه . وقوله : ﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ يفيد الأمر باستقبالها في أي موضع استقر فيه وهو تعالى لم يقيد الخروج بغاية بل أطلق غايته كما عم مبدأه ، فمن حيث خرج إلى أي مخرج كان من صلاة أو غزو أو حج أو غير ذلك فهو مأمور باستقبال المسجد الحرام هو والأمة . وفي أي بقعة كانوا من الأرض فهو مأمور هو والأمة باستقباله ، فتناولت الآيتان أحوال الأمة كلها في مبدأ تنقلهم من حيث خرجوا وفي غايته إلى حيث انتهوا وفي حال استقرارهم حيث ما كانوا ، فأفاد ذلك عموم الأمر بالاستقبال في الأحوال الثلاث التي لا ينفك منها العبد ، فتأمل هذا المعنى ووازن بينه وبين ما أبداه أبو القاسم يتبين لك الرجحان والله أعلم بما أراد من كلامه وإنما هو كد أفهام أمثالنا من القاصرين . فقوله : ﴿ **من حيث خرجت** ﴾ يتناول مبدأ الخروج وغايته له وللأمة وكان أولى بهذا الخطاب لأن مبدأ التوجه على يديه كان ، وكان شديد الحرص على التحويل ، وقوله : ﴿ **وحيثما كنتم** ﴾ يتناول أماكن الكون كلها له وللأمة وكانوا أولى بهذا الخطاب لتعدد أماكن أكوانهم وكثرتها بحسب كثرتهم واختلاف بلادهم وأقطارهم واستدارتها حول الكعبة شرقا وغربا ويمنا وعراقا ، فكان الأحسن في حقهم أن يقال لهم : ﴿ **وحيث ماكنتم** ﴾ أي من أقطار الأرض في شرقها وغربها وسائر جهاتها ،

ولا ريب أنهم أدخل في هذا الخطاب منه صلى الله عليه وسلم ، فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في موضع غير هذا والله أعلم . قال أبو القاسم : وكرر الباري تعالى الأمر بالتوجه إلى البيت الحرام في ثلاث آيات [البقرة : ١٤٤-١٤٩-١٥٠] لأن المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة أصناف من الناس : اليهود لأنهم لا يقولون بالنسخ في أصل مذهبهم ، وأهل الريب والنفاق اشتد إنكارهم له لأنه كان أول نسخ نزل ، وكفار قريش قالوا : ندم محمد على فراق ديننا فسيرجع إليه كما رجع إلى قبلتنا ، وكانوا قبل ذلك يحتجون عليه فيقولون : يزعم محمد أنه يدعونا إلى ملة إبراهيم وإسماعيل ، وقد فارق قبلة إبراهيم وإسماعيل وآثر عليها قبلة اليهود فقال الله له حين أمره بالصلاة إلى الكعبة : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ [البقرة : ١٥٠]. على الاستثناء المنقطع أي لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون وقال : ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ [البقرة : ١٤٧]. أي من الذين شكوا وامتروا ، ومعنى الحق من ربك أي الذي أمرتك به من التوجه إلى البيت الحرام هو الحق الذي كان عليه الأنبياء قبلك فلا تمتر في ذلك فقال : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ [البقرة : ١٤٤] . وقال : ﴿ **وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٤٦] . أي يكتمون ما علموا أن الكعبة هي قبلة الأنبياء ثم ساق من طريق أبي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ قال : حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا عنبسة عن يونس عن ابن شهاب قال : كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم إيليا كما يعظمها أهل بيته قال فسرت معه وهو ولي عهد قال ومعه خالد بن يزيد بن معاوية فقال سليمان وهو جالس فيه « والله إن في هذه القبلة التي صلى إليها المسلمون والنصارى لعجب كذا رأيته » . والصواب اليهود قال خالد بن يزيد : « أما والله إني لأقرأ الكتاب الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم وأقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي أنزله الله عليهم ولكن تابوت السكينة كان على الصخرة فلما غضب الله عز وجل على بني إسرائيل رفعه فكانت صلاتهم إلى الصخرة عن مشاورة منهم » . وروى أبو داود أيضا أن يهوديا خاصم أبا العالية في القبلة فقال أبو العالية : إن

موسى كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه ، وقال اليهودي : بيني وبينك مسجد صالح النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو العالية : فإني صليت في مسجد صالح وقبلته الكعبة . انتهى .

(**قلت**) وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة وهي أن استقبال أهل الكتاب لقبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله ، بل كان عن مشورة منهم واجتهاد ، أما النصارى فلا ريب أن الله لم يأمرهم في الإنجيل ولا في غيره باستقبال المشرق أبدا وهم مقرون بذلك ، ومقرون أن قبلة المسيح كانت قبلة بني إسرائيل وهي الصخرة ، وإنما وضع لهم شيوخهم وأسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم بأن المسيح فوض إليهم التحليل والتحريم وشرع الأحكام وأن ما حللوه وحرموه فقد حلله هو وحرمه في السماء ، فهم مع اليهود متفقون على أن الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله أبدا ، والمسلمون شاهدون عليهم بذلك ، وأما قبلة اليهود فليس في التوراة الأمر باستقبال الصخرة البتة وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث خرجوا فإذا قدموا نصبوه على الصخرة وصلوا إليه فلما رفع صلوا إلى موضعه وهو الصخرة . وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام ، يعظمونه ويحجون إليه ، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس ، وناظرت فضلاءهم في استقباله ، وقلت : هو قبلة باطلة مبتدعة فقال مشار إليه في دينهم هذه هي القبلة الصحيحة ، واليهود أخطأوها لأن الله تعالى أمر في التوراة باستقباله عيناً ثم ذكر نصاً يزعمه من التوراة في استقباله فقلت له هذا خطأ قطعاً على التوراة لأنها إنما أنزلت على بني إسرائيل فهم المخاطبون بها وأنتم فرع عليهم فيها وإنما تلقيتموها عنهم وهذا النص ليس في التوراة التي بأيديهم وأنا رأيتها وليس هذا فيها فقال لي : صدقت إنما هو في توراتنا خاصة ، قلت له فمن المحال أن يكون أصحاب التوراة المخاطبون بها وهم الذين تلقوها عن الكليم وهم متفرقون في أقطار الأرض قد كتموا هذا النص وأزالوه وبدلوا القبلة التي أمروا بها وحفظتموها أنتم وحفظتم النص بها فلم يرجع إلى الجواب :

(**قلت**) وهذا كله مما يقوي أن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ **ولكل وجهة هو موليها** ﴾ راجعا إلى كل أي هو موليها وجهة ليس المراد أن الله موليه إياها

لوجوه هذا أحدها .

(**الثاني**) أنه لم يتقدم لاسمه تعالى ذكر يعود الضمير عليه في الآية وإن كان مذكورا فيما قبلها ففي إعادة الضمير إليه تعالى دون كل رد الضمير إلى غيره من هو أولى به ومنعه من القريب منه الملاحق به .

(**الثالث**) أنه لو عاد الضمير عليه تعالى لقال هو موليه إياها هذا وجه الكلام كما قال تعالى : (نوله ما تولى) فوجه الكلام أن يقال ولاه القبلة لا يقال ولى القبلة إياه فتأمله . وقول أبي القاسم أنه تعالى كرر ذكر الأمر باستقبالها ثلاثاً ردا على الطوائف الثلاث ليس بالبين ولا في اللفظ إشعار بذلك والذي يظهر فيه أنه أمر به في كل سياق لمعنى يقتضيه ، فذكره أول مرة ابتداء للحكم ونسخا للاستقبال الأول فقال : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ [البقرة : ١٤٣]. ثم ذكر أن أهل الكتاب يعلمون أن هذا هو الحق من ربهم حيث يجدونه في كتبهم كذلك ، ثم أخبر عن عنادتهم وكفرهم ، وأنه لو أتاهم بكل آية ما تبعوا قبلته ، ولا هو أيضا بتابع قبلتهم ولا بعضهم بتابع قبلة بعض ثم حذره من اتباع أهوائهم ثم كرر معرفة أهل الكتاب به كمعرفتهم بأبنائهم ، وأنهم ليكتمون الحق عن علم ، ثم أخبر أن هذا هو الحق من ربه فلا يلحقه فيه امتراء ، ثم أخبر أن لكل من الأمم وجهة هو مستقبلها وموليها وجهه فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون الخيرات ، ثم أعاد الأمر باستقبالها من حيث خرج في ضمن هذا السياق الزائد على مجرد النسخ ثم أعاد الأمر به غير مكرر له تكرراً محضا بل في ضمنه أمرهم باستقبالها حيثما كانوا ، كما أمرهم باستقبالها أولاً حيثما كانوا ، عند النسخ وابتداء شرع الحكم ، فأمرهم باستقبالها حيثما كانوا عند شرع الحكم ، وابتدائه وبعد المحاجة والمخاصمة والحكم لهم وبيان عنادهم ومخالفتهم مع علمهم فذكر الأمر بذلك في كل موطن لاقتضاء السياق له فتأمله والله أعلم .

وقوله إن الاستثناء في قوله إلا الذين ظلموا منهم منقطع قد قاله أكثر الناس ، ووجهه أن الظالم لا حجة له ؛ فاستثناؤه مما ذكر قبله منقطع ، وسمعت

شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : « ليس الاستثناء بمنقطع بل هو متصل على بابه ، وإنما أوجب لهم أن حكموا بانقطاعه حيث ظنوا أن الحجة ههنا المراد بها الحجة الصحيحة الحق » والحجة في كتاب الله يراد بها نوعان .

أحدهما : الحجة الحق الصحيحة كقوله : (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) [الأنعام : ٨٣]. وقوله : (قل فلله الحجة البالغة) [الأنعام : ١٤٩]. ويراد بها مطلق الاحتجاج بحق أو بباطل كقوله : (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله) [آل عمران : ٢٠]. وقوله : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) [الجاثية : ٢٥]. وقوله : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) [البقرة : ٢٥٨]. وقوله : (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم) [الشورى : ١٦]. وإذا كانت الحجة اسما لما يحتج به من حق أو باطل صح استثناء حجة الظالمين من قوله : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ وهذا في غاية التحقيق والمعنى : أن الظالمين يحتجون عليك بالحجة الباطلة الداحضة فلا تخشوهم واخشوني . ومن ذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) [البقرة : ١٧٠] . فهذه مناظرة حكاها الله بين المسلمين والكفار ، فإن الكفار لجئوا إلى تقليد الآباء ، وظنوا أنه منجيهم لإحسانهم ظنهم بهم ، فحكم الله بينهم بقوله : (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وفي موضع آخر : (أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) [لقمان : ٢١] . وفي موضع آخر: (قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) [الزخرف : ٢٤] . فأخبر عن بطلان هذه الحجة وأنها لا تنجي من عذاب الله ؛ لأن تقليد من ليس عنده علم ولا هدى من الله ضلالة وسفه . والمعنى : ولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير يقلدونهم ولو كانوا لا علم عندهم ولا هدى يقلدونهم أيضاً ، وهذا شأن من لا غرض له في الهدى ولا في اتباع الحق . إن غرضه بالتقليد إلا دفع الحق ، والحجة إذا لزمته لأنه لو كان مقصوده الحق لاتبعه إذا ظهر له ، وقد جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم فلو كنتم ممن يتبع الحق لاتبعتم ما جئتكم به ، فأنتم لم تقلدوا الآباء لكونهم على حق ، فقد جئتكم

أهدى مما وجدتموهم عليه ، وإنما جعلتم تقليدهم جنة لكم تدفعون بها الحق الذي جئتكم به[١] .

(١) بدائع الفوائد (٤/١٥٧-١٧٤) .

تحويل القبلـة

من قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية ... ﴾[البقرة : ١٠٦] . إلى قوله تعالى : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

وتأمل حكمته الباهرة في شرع الصلاة أولاً إلى بيت المقدس إذ كانت قبلة الأنبياء ، فبعث بما بعث به الرسل ، وبما يعرفه أهل الكتاب ، وكان استقبال بيت المقدس مقرراً لنبوته ، وأنه بعث به الأنبياء قبله ، وأن دعوته هي دعوة الرسل بعينها ، وليس بدعاً ، ولا مخالفاً لهم ، بل مصدقاً لهم مؤمناً بهم ، فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب وقامت شواهد صدقة من كل جهة ، وشهدت القلوب له بأنه رسول الله حقاً ، وإن أنكروا رسالته عناداً وحسداً وبغياً ، وعلم سبحانه أن المصلحة له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله ، وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها قرر قبله أموراً كالمقدمات بين يديه ؛ لعظم شأنه فذكر النسخ أولاً :

وأنه إذا نسخ آية أو حكماً أتى بخير منه ، أو مثله ، وأنه على كل شيء قدير ، وأنه له ملك السموات والأرض ، ثم حذرهم التعنت على رسوله ، والإعراض كما فعل أهل الكتاب قبلهم ، ثم حذرهم من أهل الكتاب ، وعداوتهم ، وأنهم يودون لو ردوهم كفاراً ، فلا يسمعوا منهم ، ولا يقبلوا قولهم ، ثم ذكر تعظيم دين الإسلام وتفضيله على اليهودية والنصرانية ، وأن أهله هم السعداء الفائزون لا أهل الأماني الباطلة ، ثم ذكر اختلاف اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء ، فحقيق بأهل الإسلام أن لا يقتدوا بهم ، وأن يخالفوهم في هديهم الباطل ، ثم ذكر جرم من منع عباده من ذكر اسم في بيوته ومساجده ، وأن يعبد فيها ، وظلمه وأنه بذلك ساع في خرابها ؛ لأن عمارتها إنما هي : بذكر اسمه ، وعبادته فيها .

ثم بين أن له المشرق والمغرب ، وأنه سبحانه لعظمته وإحاطته حيث استقبل

المصلى فثم وجهه تعالى ، فلا يظن الظان أنه إذا استقبل البيت الحرام خرج عن كونه مستقبلاً ربه وقبلته ، فإن الله واسع عليم .

ثم ذكر عبودية أهل السموات والأرض له ، وأنهم كل له قانتون ، ثم نبه على عدم المصلحة في موافقة أهل الكتاب ، وأن ذلك لا يعود باستصلاحهم ولا يرجى معه إيمانهم ، وأنهم لن يرضوا عنه ؛ حتى يتبع ملتهم ، وضمن هذا تشبيه لطيف على أن موافقتهم في القبلة لا مصلحة فيها ، فسواء وافقتهم فيها أو خالفتهم ؛ فإنهم لن يرضوا عنك ؛ حتى تتبع ملتهم .

ثم أخبر أن هداه هو الهدى الحق ، وحذره من اتباع أهوائهم ، ثم انتقل إلى تعظيم إبراهيم صاحب البيت وبانيه ، والثناء عليه ، وذكر إمامته للناس وأنه أحق من اتبع .

ثم ذكر جلالة البيت ، وفضله ، وشرفه ، وأنه أمن للناس ، وأنه مثابة لهم يثوبون إليه ، ولا يقضون منه وطرا ، وفي هذا تنبيه على أنه أحق بالاستقبال من غيره ثم أمرهم أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ثم ذكر بناء إبراهيم وإسماعيل البيت وتطهيره بعهده ، وإذنه ورفعهما قواعده وسؤالهما ربهما القبول منهما وأن يجعلهما مسلمين له ، ويريهما مناسكهما ، ويبعث في ذريتهما رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ثم أخبر عن جهل من رغب عن ملة إبراهيم وسفهه ونقصان عقله ، ثم أكد عليهم أن يكونوا على ملة إبراهيم وإنهم إن خرجوا عنها إلى يهودية أو نصرانية أو غيرها ؛ كانوا ضلالا غير مهتدين ، وهذه كلها مقدمات بين يدي الأمر باستقبال الكعبة ، لمن تأملها وتدبرها ، وعلم ارتباطها بشأن القبلة فإنه يعلم بذلك عظمة القرآن ، وجلالته ، وتنبيه على كمال دينه وحسنه ، وجلالته ، وأنه هو عين المصلحة لعباده لا مصلحة لهم سواه ، وشوق بذلك النفوس إلى الشهادة له بالحسن . والكمال والحكمة التامة . فلما قرر ذلك كله ؛ أعلمهم بما سيقول السفهاء من الناس إذا تركوا قبلتهم ، لئلا يفجأهم من غير علم به ، فيعظم موقعه عندهم فلما وقع لم يهلهم ولم يصعب عليهم ، بل أخبر أنه له المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ثم

أخبر أنه كما جعلهم أمة وسطاً خياراً اختار لهم أوسط وجهات الاستقبال وخيرها ، كما اختار لهم خير الأنبياء ، وشرع لهم خير الأديان ، وأنزل عليهم خير الكتب ، وجعلهم شهداء على الناس كلهم ؛ لكمال فضلهم وعلمهم وعدالتهم . وظهرت حكمته في أن اختار لهم أفضل قبلة وأشرفها لتتكامل جهات الفضل في حقهم بالقبلة والرسول والكتاب والشريعة ، ثم نبه سبحانه على حكمته البالغة في أن جعل القبلة أولاً هي بيت المقدس ؛ ليعلم سبحانه واقعاً في الخارج ما كان معلوماً له قبل وقوعه من يتبع الرسول في جميع أحواله ، وينقاد له ، ولأوامر الرب تعالى ، ويدين بها كيف كانت ، وحيث كانت ، فهذا هو المؤمن حقاً الذي أعطى العبودية حقها . ومن ينقلب على عقبيه ممن لم يرسخ في الإيمان قلبه ، ولم يستقر عليه قدمه ؛ فعارض وأعرض ، ورجع على حافره ، وشك في النبوة ، وخالط قلبه شبهة الكفار الذين قالوا إن كانت القبلة الأولى حقاً ؛ فقد خرجتم عن الحق ، وإن كانت باطلاً ؛ فقد كنتم على باطل ، وضاق عقله المنكوس عن القسم الثالث الحق ، وهو أنها كانت حقاً ومصلحة في الوقت الأول ، ثم صارت مفسدة باطلة الاستقبال في الوقت الثاني ؛ ولهذا خبر سبحانه عن عظم شأن هذا التحويل ، والنسخ في القبلة فقال : ﴿ **وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ [البقرة : ١٤٣] . ثم أخبر أن سبحانه لم يكن يضيع ما تقدم لهم من الصلوات إلى القبلة الأولى ، وأن رأفته ورحمته بهم ؛ تأبى إضاعة ذلك عليهم ، وقد كان طاعة لهم فلما قرر سبحانه ذلك كله ، وبين حسن هذه الجهة بعظمة البيت ، وعلو شأنه وجلالته قال : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ [البقرة : ١٤٤] . وأكد ذلك عليهم مرة بعد مرة اعتناء بهذا الشأن وتفخيماً له ، وأنه شأن ينبغي الاعتناء به ، والاحتفال بأمره . فتدبر هذا الاعتناء ، وهذا التقرير ، وبيان المصالح الناشئة من هذا الفرع من فروع الشريعة ، وبيان المفاسد الناشئة من خلافه ، وأن كل جهة في وقتها كان استقبالها هو لمصلحة ، وإن للرب تعالى الحكمة البالغة في شرع القبلة الأولى، وتحويل عباده عنها إلى المسجد الحرام[١] .

---

(١) مفتاح دار السعادة (٣٥٨- ٣٦١) وإعلام الموقعين (٤/٢٠٨-٢٠٩) .

تحويل القبلـــة والتمهيد له

قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ... ﴾ [البقرة : ١٤٣-١٥٣] .

وكانت محنة من الله امتحن بها عباده ؛ ليرى من يتَّبعُ الرسول منهم ممن ينقلب على عقبيه ، ولما كان أمر القبلة وشأنها عظيماً وطأ - سبحانه - قبلها أمر النسخ وقدرته عليه ، وأنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله .

ثم عقب ذلك بالتوبيخ لمن تعنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقد له .

ثم ذكر بعده اختلاف اليهود والنصارى ، وشهادة بعضهم على بعض بأنهم ليسوا على شيء ، وحذر عباده المؤمنين من موافقتهم ، واتباع أهوائهم .

ثم ذكر كفرهم وشركهم به وقولهم : إن له ولداً ، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً .

ثم أخبر أن له المشرق والمغرب .

وأينما يولي عباده وجوههم ، فثم وجهه ، وهو الواسع العليم ، فلعظمته وسعته ، وإحاطته أينما يُوجِّهُ العبد ؛ فثم وجه الله .

ثم أخبر أن لا يسأل رسوله عن أصحاب الجحيم الذين لا يُتابعونه ولايصدقونه ، ثم أعلمه أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم ، وأنه إن فعل - وقد أعاذه الله من ذلك - فماله من الله من ولي ولا نصير .

ثم ذكَّر أهل الكتاب بنعمته عليهم ، وخوفهم من بأسه يوم القيامة .

ثم ذكر خليله باني بيته الحرام ، وأثنى عليه ، ومدحه ، وأخبر أنه جعله

إماماً للناس ، يأتم به أهل الأرض ، ثم ذكر بيته الحرام ، وبناء خليله له ، وفي ضمن هذا أن باني البيت كما هو إمام للناس : فكذلك البيت الذي بناه إمام لهم .

ثم أخبر أنه لا يرغب عن ملة هذا الإمام إلا أسفه الناس ، ثم أمر عباده أن يأتموا برسوله الخاتم ، ويؤمنوا بما أُنزل إليه وإلى إبراهيم ، وإلى سائر النبيين ، ثم رد على من قال : إن إبراهيم وأهل بيته كانوا هوداً أو نصارى ، وجعل هذا كله ، توطئة ومقدِّمة بين يدي تحويل القبلة ، ومع هذا كله ، فقد كبر ذلك على الناس إلا من هدى الله منهم ، وأكد سبحانه هذا الأمر مرة بعد مرة ، بعد ثالثة ، وأمر به رسوله حيثما كان ، ومن حيث خرج ، وأخبر أن الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ؛ هو الذي هداهم إلى هذه القبلة ، وأنها هي القبلة التي تليق بهم ، وهم أهلها ؛ لأنها أوسط القبل لأفضل الأمم .

كما اختار لهم أفضل الرسل ، وأفضل الكتب ، وأخرجهم من خير القرون ، وخصهم بأفضل الشرائع ، ومنهم خير الأخلاق ، وأسكنهم خير الأرض ، وجعل منازلهم في الجنة خير المنازل ، وموقفهم في القيامة خير المواقف ، فهم على تل عال ، والناس تحتهم ، فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ، وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ؛ لئلا يكون للناس عليهم حجة ، ولكن الظالمون الباغون سيحتجون عليهم بتلك الحجج التي ذكرت ، ولا يعارض الملحدون الرسل إلا بها وبأمثالها من الحجج الداحضة ، وكل من قدَّم على أقوال الرسول سواها ؛ فحجته من جنس حجج هؤلاء .

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك ؛ ليُتم نعمته عليهم ، وليهديهم ، ثم ذكرهم نعمته عليهم بإرسال رسوله إليهم ، وإنزال كتابه عليهم ، ليزكيهم ويُعلِّمَهم الكتاب والحكمة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، ثم أمرهم بذكره وشكره ، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه ، والمزيد من كرامته ، ويستجلبون ذكره لهم ، ومحبته لهم ، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به ، وهو الصبر والصلاة ، وأخبرهم أنه مع الصابرين[١] .

---

(١) زاد المعاد (٣/٦٧-٦٩) .

وقال رحمه الله تعالى :

وتأمل قصة نسخ القبلة – لما كانت شديدة على النفوس جداً كيف وطأ سبحانه قبلها عدة موطئات :

منها : ذكر النسخ .

ومنها : أنه يأتي بخير من المنسوخ أو مثله .

ومنها : أنه على كل شيء قدير ، وأنه بكل شيء عليم ، فعموم قدرته ، وعلمه صالح لهذا الأمر الثاني ، كما كان صالحاً للأول .

ومنها : تحذيرهم الاعتراض على رسوله ، كما اعترض من قبلهم على موسى ، بل أمرهم بالتسليم والانقياد .

ومنها : تحذيرهم بالإصغاء إلى اليهود ، وأن لا تستخفهم شبههم ، فإنهم يودُّون أن يردوهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الحق .

ومنها : إخباره أن دخول الجنة ليس بالتهود ولا بالتنصر ، وإنما هو بإسلام الوجه والقصد والعمل ، والنية لله مع متابعة أمره .

ومنها : إخباره سبحانه عن سعته ، وأنه حيث ولى المصلي وجهه ؛ فثم وجهه تعالى ، فإنه واسع عليم ، فذكر الإحاطتين الذاتية والعلمية ، فلا يتوهمون أنهم في القبلة الأولى لم يكونوا مستقبلين وجهه تبارك وتعالى ولا في الثانية ، بل حيثما توجهوا ؛ فثم وجهه تعالى .

ومنها : أنه سبحانه وتعالى حذر نبيه – صلى الله عليه وسلم – عن اتباع أهواء الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، بل أمر أن يتبع هو وأمته ما أوحي إليه فيستقبلونه بقلوبهم وحده .

ومنها : أنه ذكر عظمة بيته الحرام ، وعظمة بانيه وملته ، وسَفَّه مَنْ يرغب عنها ، وأمر باتباعها ، فنوَّه بالبيت وبانيه وملته ، وكل هذا توطئة بين يدي التحويل ، مع ما في ضمنه من المقاصد الجليلة ، والمطالب السنية .

ثم ذكر فضل هذه الأمة ، وأنهم الأمة الوسط العدل الخيار ، فاقتضى ذلك أن يكون نبيهم صلى الله عليه وسلم أوسط الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وخيارهم ، وكتابهم كذلك ، ودينهم كذلك ، وقبلتهم التي يستقبلونها كذلك ؛ فظهرت المناسبة شرعاً وقدراً في أحكامه تعالى الأمرية والقدرية ؛ وظهرت حكمته الباهرة ، وتجلت للعقول الزكية المستنيرة بنور ربها تبارك وتعالى[1] .

وقال تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة : ١٢١] .

واختلف في الضمير في يتلونه حق تلاوته ، فقيل : هو ضمير الكتاب الذي أوتوه .

قال ابن مسعود : يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويقرؤنه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه .

قالوا : وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب ، وقيل : هذا وصف للمسلمين والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن ، وهذا بعيد إذ عرف القرآن يأباه ولا يرد على ما ذكرت قوله تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

بل هذه حجة لنا أيضا لما ذكرنا ، فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ، ودينه وقبلته ، كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثناء عليهم ، ولهذا ذكر المفسرون أنهم : عبد الله بن سلام وأصحابه ، وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم ؛ فدل على أن الأولين غير مذمومين ، وكونهم دخلوا في جملة الأولين بلفظ المضمر ؛ لا يوجب أن يقال آتيناهم الكتاب الإطلاق فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضمناً وتبعاً ، فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً[2] .

---

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٠٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (١١٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

فلما أتم ما أمر به من الكلمات ؛ جعله الله إماما للخلائق يأتمون به[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

فإن الله عز وجل لما عاهد إبراهيم ووعده أن يجعله للناس إماما ؛ وعده أن يكون أبا لشعوب كثيرة ، وأن تكون الأنبياء والملوك من صلبه ، وأن يكثر نسله ، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامة العهد أن يختنوا كل مولود منهم ، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجسادهم ، فالختان علم للدخول في ملة إبراهيم ، وهذا موافق لتأويل من تأول قوله تعالى : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) [البقرة : ١٣٨] على الختان[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

أي : لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً ، وكل من اتبع هواه فهو ظالم ، كما قال تعالى : (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) [الروم : ٢٩][٣] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله عليه وسلم[٤] .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

وليس له مثل ؟

والجواب من وجوه :

الأول : أن المراد به التبكيت، والمعنى حصلوا ديناً آخر مثله، وهو لا يمكن.

(١) جلاء الأفهام (١٥٩) .

(٢) تحفة الودود (١٦٢) .

(٣) روضة المحبين (٤٢٦) .

(٤) جلاء الأفهام (١٦٠) .

الثاني : أن المثل صلة .

الثالث : أنكم آمنتم بالفرقان من غير تصحيف ، ولا تحريف ، فإن آمنوا بالتوراة من غير تصحيف ولا تحريف ؛ فقد اهتدوا .

الرابع : أن المراد إن آمنوا بمثل ما صرتم به مؤمنين . روى ابن جرير [(١)] أن ابن عباس قال : قولوا ، فإن آمنوا بالذي آمنتم به .

قال عبد الجبار : ولا يجوز ترك القراءة المتواترة [(٢)] .

وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

ووجه الاستدلال بالآية [(٣)] أنه تعالى أخبر أنه جعلهم أمة خياراً عدولاً ،

---

(١) لم أقف على هذا عند ابن جرير والذي وجدته هو : قال ابن جرير : وقد روي عن ابن عباس في ذلك قراءة جاءت مصاحف المسلمين بخلافها ، وأجمعت قراءة القرآن على تركها وذلك ما حدثنا به محمد بن المثنى ، قال : ثنا محمد بن جعفر ، قال : ثنا شعبة ، عن أبي حمزة ، قال : قال ابن عباس : لا تقولوا (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) فإنه ليس لله مثل ، ولكن قولوا : فإن آمنوا بالذي آمنتم به فقد اهتدوا ، أو قال : فإن آمنوا بما آمنتم به ، فكأن ابن عباس في هذه الرواية إن كانت صحيحة عنه يوجه تأويل قراءة من قرأ (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) فإن آمنوا بمثل الله ، وبمثل ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل ، وذلك إذا صرف إلى هذا الوجه شرك لاشك بالله العظيم ، لأنه لا مثل لله تعالى ذكره ، فنؤمن أو نكفر به ، ولكن تأويل ذلك على غير المعنى الذي وجه إليه تأويله ، وإنما معناه ما وصفناه ، وهو: فإن صدقوا مثل تصديقكم بما صدقتم به من جميع ما عددنا عليكم من كتب الله وأنبيائه ؛ فقد اهتدوا فالتشبيه إنما وقع بين التصديقين والإقرارين اللذين هما إيمانُ هؤلاء وإيمان هؤلاء .. اهـ .
تفسير الطبري (١ / ٥٦٩) .
ثم إن هذا لم يصح عن ابن عباس رضي الله عنه لأن في سنده « أبو حمزة ، وهو ميمون الأعور القصاب » ضعيف جداً . تهذيب التهذيب (١٠ / ٣٩٥) .

(٢) بدائع الفوائد (٤/٢٠٨) .

(٣) على وجوب اتباع الصحابة رضي الله عنهم .

هذا حقيقة الوسط ، فهم خير الأمم ، وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإرادتهم ونياتهم ، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة ، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم ، فهم شهداؤه ، ولهذا نوه بهم ، ورفع ذكرهم ، وأثنى عليهم ؛ لأنه تعالى لما اتخذهم شهداء أعلم خلقه من الملائكة وغيرهم بحال هؤلاء الشهداء ، وأمر ملائكته أن تصلي عليهم ، وتدعو لهم وتستغفر لهم .

والشاهد المقبول عند الله الذي يشهد بعلم وصدق ؛ فيخبر بالحق مستنداً إلى علمه به ، كما قال تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) [الزخرف : ٨٦] .

فقد يخبر الإنسان بالحق اتفاقا من غير علمه به ، وقد يعلمه ولا يخبر به ، فالشاهد المقبول عند الله هو الذي يخبر به عن علم ، فلو كان علمهم : أن يفتي أحدهم بفتوى وتكون خطأ مخالفة لحكم الله ورسوله ، ولا يفتي غيره بالحق الذي هو حكم الله ورسوله إما مع اشتهار فتوى الأول ، أو بدون اشتهارها كانت هذه الأمة العدل الخيار قد أطبقت على خلاف الحق . بل انقسموا قسمين : قسماً أفتى بالباطل ، وقسماً سكت عن الحق . من المستحيل ، فإن الحق لا يَعْدُوهم ويخرج عنهم إلى من بعدهم قطعاً ، ونحن نقول لمن خالف أقوالهم : لو كان خيراً ما سبقونا إليه[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وإذا كان الرب تعالى لا حَجْر عليه ، بل يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ويبتلي عباده بما شاء ، ويحكم ولا يحكم عليه ، فما الذي يحيل عليه ، ويمنعه أن يأمر أمة بأمر من أوامر الشريعة ، ثم ينهى أمة أخرى عنه ، أو يحرم محرماً على أمة ويبيحه لأمة أخرى ؟

بل أي شيء يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك في الشريعة الواحدة في وقتين مختلفين ، بحسب المصلحة ، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **ما ننسخ**

(١) إعلام الموقعين (٤/١٦٦-١٦٧) .

من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ﴾ [البقرة : ١٠٦-١٠٧] .

فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه ، وتصرفه في مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ، ويثبت ما يشاء كما أنه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت فهكذا أحكامه الدينية الأمرية ، ينسخ منها ما يشاء ، ويثبت منها ما يشاء ، فمن أكفر الكفر ، وأظلم الظلم : أن يعارض الرسول الذي جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته ، وتجحد رسالته : بكونه أتى بإباحة بعض ما كان محرماً على من قبله ، أو تحريم بعض ما كان مباحاً لهم . وبالله التوفيق ، يضل من يشاء ويهدي من يشاء[1] . اهـ .

وقد وعد الله الصابرين بثلاثة أشياء ، وكل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم ، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى :

﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾ [البقرة: ١٥٧].

وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « نعم العدلان ، ونعمت العلاوة » فبالهدى خلصوا من الضلال ، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب ، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة ، والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة : الضلال عن طريق السعادة ، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب ، والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة[3] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ

(١) إغاثة اللهفان (٢/٣٢٦-٣٢٧) .

(٢) عدة الصابرين (١١٣) .

(٣) إغاثة اللهفان (٢/١٧٢-١٧٣) .

﴿مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة : ١٥٩].

فلعنة الله لهم تتضمن مقته وإبعاده وبغضه لهم ، ولعنة العبد تتضمن سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة(١) .

وقال رحمه الله تعالى :-

قال الله تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى ؛ فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً ، فهذا نِدٌّ في المحبة ، لا في الخلق والربوبية . فإن أحدا من أهل الأرض لم يثبت هذا الند ، بخلاف ند المحبة ، فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادا في الحب والتعظيم .

ثم قال : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ وفي تقدير الآية قولان :

أحدهما : والذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم ، وآلهتهم التي يحبونها ، ويعظمونها من دون الله .

والثاني : والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة المشركين بالأنداد لله . فإن محبة المؤمنين خالصة ، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها . والمحبة الخالصة أشد من المحبة المشركة .

والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى : ﴿ **يحبونهم كحب الله** ﴾ فإن فيها قولين :

أحدهما : يحبونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة لله ، ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أندادا .

والثاني : أن المعنى يحبون أندادهم ، كما يحب المؤمنون الله ، ثم بين أن محبة

---

(١) جلاء الأفهام (٨٦) .

المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن شرَّكوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله ، كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم ، وهم في النار : أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم ، وهي محضرة معهم في العذاب : (تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين) [الشعراء : ٩٧،٩٨] . ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية ، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وأصح القولين أن المعنى : يحبونهم كما يحبون الله .

وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب ، ثم نفى ذلك عن المؤمنين : ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ فإن الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله ، ولم يشركوا به معه غيره ، وأما المشركون فلم يخلصوه لله[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

والصحيح أن معنى الآية : والذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم ، كما تقدم بيان أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً ، كما لا يماثل محبوبهم غيره . وكل أذى في محبة غيره ؛ فهو نعيم في محبته ، وكل مكروه في محبة غيره ؛ فهو قرة عين في محبته[٣] .

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٠-٢١) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٧٦-٢٧٧) .

(٣) روضة المحبين (١٩٨) .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به نداً يحبه كما يحب الله ، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وقيل[١] : بل المعنى أنهم أشد حباً لله ، فإنهم وإن أحبوا الله ، لكن لما شرَّكوا بينه وبين أندادهم في المحبة ؛ ضعفت محبتهم لله ، والموحدون لله لما حصلت محبتهم له ؛ كانت أشد من محبة أولئك ، والعدل برب العالمين ، والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ، كما تقدم[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

فالمعنى في أظهر الوجهين : لو يرى الذين ظلموا في الدنيا إذ يرون العذاب في الآخرة ، والجواب محذوف ، ثم قال : ﴿ **أن القوة لله جميعاً** ﴾ كما قال تعالى : (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) [سبأ : ٥١] . (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة) [الأنفال : ٥٠] . أي : لو ترى ذلك الوقت وما فيه[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقد اختلف في تعلق قوله : ﴿ **أن القوة لله جميعاً** ﴾ بماذا ؟ .

فقالت طائفة : هو مفعول يرى ، أي : ولو يرون أن القوة لله جميعاً ؛ لما عصوه ولما كذبوا رسله ، وقدموا عقولهم على وحيه .

---

(١) والصحيح الأول كما سبق ورجحه .

(٢) الجواب الكافي (الداء والدواء) (٢٨٣-٢٨٤) .

(٣) أقسام القرآن (٣) .

وقالت طائفة : بل المعنى لأن القوة لله جميعاً وجواب « لو » محذوف على التقديرين : أي : لو يرى هؤلاء حالهم ، وما أعد الله لهم إذ يرون العذاب لرأوا أمراً عظيماً ، ثم قال : ﴿ **أن القوة لله جميعا** ﴾ وهو متضمن للتهديد الشديد والوعيد(١) .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦] .

فالأسباب التي تقطعت بهم هي : العلائق التي بغير الله ، ولغير الله ، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها ، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت ؛ اضمحلت أسبابها وبطلت ، فإن الأسباب تبطل ببطلان غايتها ، وتضمحل باضمحلالها ، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه ، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل ، وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال ، فإذا زال ذلك الذي عمل له ؛ عدم ذلك العمل ، وبطل ذلك السعي ، ولم يبق في يده سوى الحرمان ، ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة : « أليس عدل مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا . فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم ؛ فتتساقط بهم في النار ، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم فإذا كورت الشمس ، وانتثرت النجوم ؛ اضمحلت تلك العبادة وبطلت ، وصارت حسرة عليهم .

﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٧] .

ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده ، فإنه يحال على مفلس كل الإفلاس بل على عدم ، والموحد حوالته على المليء الكريم فما بعد ما بين الحوالتين(٢) .

---

(١) الصواعق المرسلة (١٠٨١/٣) .

(٢) طريق الهجرتين (١٢٦) .

وقال رحمه الله تعالى :-

قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦] . يعني : الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا .

وقال ابن عباس وأصحابه : يعني أسباب المودة الواصلات التي كانت بينهم في الدنيا .

وقال ابن زيد : هي الأعمال التي كانوا يؤملون أن يصلوا بها إلى ثواب الله .
وقيل : هي الأرحام التي كانوا يتعاطفون بها .

وبالجملة فسمى الله سبحانه ذلك كله أسباباً لأنها كانت يتوصل بها إلى مسبباتها ، وهذا كله عند نفاة الأسباب مجاز لا حقيقة له . وبالله التوفيق (١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٦، ١٦٧] .

فالأسباب التي تقطعت بهم أهل الوصل والعلائق والموادات التي كانت لغير الله وفي غير ذات الله ، وهي التي يقدم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً ، فكل محبة لغيره ؛ فهي عذاب على صاحبها ؛ وحسرة عليه إلا محبته ، ومحبة ما يدعو إلى محبته ، ويعين على طاعته ومرضاته ، فهذه التي تبقى في القلب يوم تبلى السرائر ، كما قال :

سيبقى لكم في مضمر القلب والحشا		سريرة حب يوم تبلى السرائر

---

(١) شفاء العليل (١٩٠) .

وقـال آخـر :

إذا تصدع شمل الوصل بينهم فللمحبين شمـلٌ غيـرُ منصـدعِ
وإنْ تقطعَ حبلُ الوصل يومئذٍ فللمحبين حبـلٌ غيـرُ منقطـعِ(١)

وقال رحمه الله تعالى :

وأما الأتباع المخالفون لمتبوعيهم ، العادلون عن طريقتهم الذين يزعمون أنهم لهم تبع وليس متبعين لطريقتهم ، فهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة : ١٦٦،١٦٧] .

فهؤلاء المتبوعون كانوا على هدى ، وأتباعهم ادعوا أنهم كانوا على طريقتهم ومنهاجهم ، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقتهم ، يزعمون أنهم يحبونهم ، وأن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم ، يتبرءون منهم يوم القيامة ، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله وظنوا أن هذا الاتخاذ ينفعهم .

وهذه حال كل من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله ، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله وقطع تلك الأسباب . فينقطع يوم القيامة كل وصلة ووسيلة ومودة ، وموالاة كانت لغير الله تعالى ، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه ؛ وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله ، وتجريد عبادته له وحده ولوازمها من الحب والبغض ، والعطاء والمنع ، والموالاة والمعاداة والتقريب والإبعاد ، وتجريده متابعة رسوله وترك أقوال غيره ، وترك ما خالف ما جاء به ، والإعراض عنه وعدم

(١) روضة المحبين (٢٦٣) .

الاعتناء به ، وتجريد متابعته تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره ، فضلا عن الشركة بينه وبين غيره ، فضلا عن تقديم قول غيره عليه .

فهذا هو السبب الذي لا ينقطع بصاحبه ، وهذه هي النسبة التي بين العبد وبين ربه ، وهي نسبة العبودية المحضة ، وهي آخيته التي يحول ما يحول ، ثم إليها مرجعه .

نقِّل فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَىٰ ... مَـا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِـيبِ الْأَوَّلِ
كَم منْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ ... وَحَنِينُـهُ أَبَـداً لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

وهذه هي النسبة التي تنفع العبد ، فلا ينفعه غيرها في الدور الثلاثة : أعني دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار ، فلا قوام له ، ولا عيش ولا نعيم ، ولا فلاح إلا بهذه النسبة . وهي السبب الواصل بين العبد وبين الله ، ولقد أحسن القائل :

إِذَا تَقَطَّعَ حَبْلُ الْوَصْلِ بَيْنَهُـمُ ... فَلِلْمُحِبِّيـنَ حَبْـلٌ غَيْـرُ مُنْقَطِـعِ
وَإِنْ تَصَدَّعَ شَمْلُ الْقَوْمِ بَيْنَهُمُ ... فَلِلْمُحِبِّينَ شَمْلٌ غَيْـرُ مُـنْصَدِعِ

والمقصود أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها ، ولا يبقى إلا السبب والوصلة بين العبد وبين الله فقط ، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم ، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم . وقد قال تعالى : ﴿ وَقدمنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَملٍ فَجعلْنَاهُ هَبَاءً منثُوراً ﴾ [الفرقان : ٧٣] .

فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ، ولغير وجهه ، يجعلها الله هباءاً منثوراً . ولا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلا ؛ وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة ، أن يرى سعيه كله ضائعا لم ينتفع منه بشيء ، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله ، وقد سعد أهل السعى النافع بسعيهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

فتضمن هذا المثل : ناعقا ، أي : مصوتا بالغنم وغيرها ، ومنعوقاً به . وهو الدواب .

فقيل : الناعق العابد ، وهو الداعي للصنم . والصنم : هو المنعوق به المدعو ، وأن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه . هذا قول طائفة ، منهم عبد الرحمن بن زيد وغيره .

واستشكل صاحب الكشاف [(١)] وجماعة معه هذا القول ، وقالوا قوله : ﴿ **إلا دعاءً ونداء** ﴾ لا يساعد عليه . لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداءً .

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بثلاثة أجوبة :

أحدها : أن « إلَّا » زائدة . والمعنى بما لا يسمع دعاء ونداء .

قالوا : وقد ذكر ذلك الأصمعي في قول الشاعر :

حراجيج ما تنفك إلا مناخة [(٢)]

أي : ما تنفك مناخة . وهذا جواب فاسد . فإن « إلا » لا تزاد في الكلام المثبت .

الجواب الثاني : أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء ، لا في خصوصيات المدعو .

الجواب الثالث : أن المعنى : أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه هو في دعاء ونداء . وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته وليه الميت إلا العناء .

(١) انظر الكشاف للزمخشري (١ / ١٠٧) .
وراجع الطبري (٢ / ٧٩) .

(٢) الشعر لذي الرمة في وصف إبل وشطره الآخر :
على الخف أو نرمي بها بلداً قفراً

وقيل : المعنى : ومثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه مما يقول الراعي أكثر من الصوت . فإن الراعي هو داعي الكفار ، والكفار هم البهائم المنعوق بها .

قال سيبويه : المعنى : ومثلك يامحمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به .

وعلى قوله : فيكون المعنى : مثل الذين كفروا وداعيهم كمثل الغنم والناعق بها ولك أن تجعل هذا من التشبيه المركب ، وأن تجعله من التشبيه المفرق .

فإن جعلته من المركب كان تشبيهاً للكفار في عدم فقههم وانتفاعهم بالغنم التي ينعق بها الراعي ، فلا تفقه من قوله شيئا غير الصوت المجرد الذي هو الدعاء والنداء ، وإن جعلته من التشبيه المفرق ، فالذين كفروا بمنزلة البهائم ودعاء داعيهم إلى الطريق والهدى بمنزلة الذي ينعق بها ، ودعاؤهم إلى الهدى بمنزلة النعق وإدراكهم مجرد الدعاء والنداء كإدراك البهائم ، مجرد صوت الناعق . والله أعلم[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

وقال تعالى : ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتاً مجردة . أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء ؛ فالقولان متلازمان بل هما واحد ، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى ، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام ، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يتميز بها صاحبها عن سائر الحيوان[2] .

---

(١) إعلام الموقعين (١/٢٣٧-٢٣٨) .

(٢) مفتاح دار السعادة (٨٦) .

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

الذي حسن مجيء « إن » ههنا الاحتجاج والإلزام .

فإن المعنى : إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له بل هي الشكر نفسه . فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين في جملتها ؛ فكلوا من رزقه واشكروه على نعمه . وهذا كثيراً ما يورد في الحجاج كما تقول للرجل إن كان الله ربك وخالقك فلا تعصه ، وإن كان لقاء الله حقاً فتأهب له ، وإن كانت الجنة حقاً فتزود إليها وهذا أحسن من جواب من أجاب بأن « إن » هنا قامت مقام إذا[(١)] .

التعجب منه في القرآن العظيم كثير . من ذلك قوله تعالى:﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة : ١٧٥] – ما – ها هنا تعجب . والتقدير : تعجبوا من صبرهم على النار . وقيل هي الاستفهامية . والتقدير : فأي شيء صبرهم على النار[(٢)] .

وقد جمع الله خصال البر في قوله : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ – إلى قوله – وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] فأخبر سبحانه أن البر هو الإيمان بالله وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وهذه هي أصول الإيمان الخمس التي لا قوام للإيمان إلا بها . وأنه الشرائع الظاهرة : من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنفقات الواجبة . وأنه الأعمال القلبية التي هي حقائقه ، من الصبر والوفاء بالعهد فتناولت هذه الخصال جميع أقسام الدين ، حقائقه وشرائعه والأعمال المتعلقة بالجوارح والقلب ، وأصول الإيمان الخمس . ثم أخبر سبحانه عن هذه أنها هي خصال التقوى بعينها فقال : ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧][(٣)] .

قول الله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة :١٧٩] .

(١) بدائع الفوائد (٤٨/١) .

(٢) الفوائد المشوق (١٦١).

(٣) الرسالة التبوكية (١٥) .

في ضمن هذا الخطاب : ما هو كالجواب لسؤال مقدر : إن في إعدام هذه البنية الشريفة ، وإيلام هذه النفس وإعدامها في عدم مقابلة إعدام المقتول ؛ تكثيراً لمفسدة القتل ، فلأية حكمة صدر هذا ممن وسعت رحمته كل شيء ، وبهرت حكمته العقول ؟ فتضمن الخطاب جواب ذلك بقوله : **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**

وذلك لأن القاتل إذا توهم أنه يقتل قصاصاً بمن قتله كَفَّ عن القتل وارتدع ، وآثر حب حياته ونفسه . فكان فيه حياة له ولمن أراد قتله .

ومن وجه آخر : وهو أنهم كانوا إذا قتل الرجل من عشيرتهم وقبيلتهم قتلوا به كل من وجدوه من عشيرة القاتل وحَيِّه وقبيلته . وكان في ذلك من الفساد والهلاك ما يعم ضرره ، وتشتد مؤنته ، فشرع الله تعالى القصاص ، وأن لا يقتل بالمقتول غير قاتله . ففي ذلك حياة عشيرته وحَيِّه وأقاربه . ولم تكن الحياة في القصاص من حيث إنه قتل ، بل من حيث كونه قصاصاً ، يؤخذ القاتل وحده بالمقتول لا غيره ، فتضمن القصاص الحياة في الوجهين .

وتأمل ما تحت هذه الألفاظ الشريفة من الجلالة والإيجاز ، والبلاغة والفصاحة ، والمعنى العظيم .

فصدر الآية بقوله ﴿ **ولكم** ﴾ المؤذن بأن منفعة القصاص مختصة بكم ، عائدة إليكم ، فشرعه إنما كان رحمة بكم وإحسانا إليكم ، فمنفعته ومصلحته لكم ، إلا لمن لا يبلغ العباد ضره ونفعه .

ثم عقبه بقوله ﴿ **في القصاص** ﴾ إيذاناً بأن الحياة الحاصلة إنما هي في العدل ، وهو أن يفعل به كما فعل بالمقتول .

و « القصاص » في اللغة : المماثلة ، وحقيقته راجعة إلى الاتباع ، ومنه قوله تعالى : (وقالت لأخته قُصيه) [القصص : ١١] . أي : اتبعي أثره . ومنه قوله : (فارتَدا على آثارهما قصصاً) [الكهف : ٦٤] . أي : يقصان الأثر ويتبعانه . ومنه : قص الحديث واقتصاصه ، لأنه يتبع بعضه بعضاً في الذكر ، فسمي جزاء الجاني قصاصا . لأنه يتبع أثره ، فيفعل به كما فعل ، وهذا أحد ما يستدل به على أن يفعل بالجاني كما فعل، فيقتل بمثل ما قتل به ، لتحقيق معنى القصاص.

ونكر سبحانه الحياة تعظيماً وتفخيماً لشأنها ، وليس المراد حياة ما ، بل المعنى أن في القصاص حصول هذه الحقيقة المحبوبة للنفوس المؤثرة عندها المستحسنة في كل عقل ، والتنكير كثيراً ما يجيء للتعظيم والتفخيم ، كقوله : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة) وقوله : (ورضوان من الله أكبر) وقوله : (إن هو إلا وحي يوحى) ثم خص أولي الألباب ، وهم : أولو العقول التي عقلت عن الله أمره ونهيه وحكمته ، إذ هم المنتفعون بالخطاب ، ووازن بين هذه الكلمات وقولهم « القتل أنفى للقتل » ليتبين مقدار التفاوت ، وعظمة القرآن وجلالته[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] . وهذا أحسن من قولهم : « القتل أنفى للقتل » لوجوه سبعة :

الأول : أن قولهم : « القتل أنفى للقتل » في ظاهره متناقض ؛ لأنه جعل حقيقة الشيء منافية لنفسه وإن قيل إن المراد منه أن كل واحد من أفراد هذا النوع ينفي غيره فهو أيضاً ليس أنفى للقتل قصاصاً بل أدعى له ، وإنما يصح إذا خصص فقيل : القتل قصاصاً أنفى للقتل ؛ فيصير كلاماً طويلاً مع أن التقييدات بأسرها حاصلة في الآية .

الثاني : أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً من حيث إنه قتل بل من حيث إنه قصاص ، وهذه الجملة غير معتبرة في كلامهم .

الثالث : أن حصول الحياة هو المقصود الأصلي ، ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة ، والتنصيص على الغرض الأصلي أولى من التنصيص على غيره .

الرابع : أن التكرار عيب ، وهو موجود في كلامهم دون الآية .

الخامس : أن حروف « في القصاص حياة » اثنا عشر . وحروف « القتل

---

(١) مفتاح دار السعادة (٤٣١-٤٣٢) .

أنفى للقتل » أربعة عشر .

السادس : أنه ليس في كلامهم كلمة يجمع فيها حرفان متلاصقان متحركان إلا في موضع واحد ، بل ليس فيها الأسباب حقيقة متوالية ، وقد عرف أن ذلك مما ينقص من سلاسة الكلام بخلاف الآية .

السابع : أن الدافع لصدور القتل عن الإنسان كراهته لذلك ، وصارفه القوي عنه ، حتى إنه ربما يعلم أنه لو قتل قتل ، ثم لا يرتدع ، وإنما رادعه القوي هو إما الطمع في الثواب أو الذكر الجميل ، وإذا كان كذلك فليس أنفى الأسباب للقتل هو القتل بل الأنفى لذلك هو الصارف القوي . وقوله تعالى ﴿ **فى القصاص حياة** ﴾ لم يجعل القصاص مقتضياً الحياة على الإطلاق بل الحياة منكرة ، والسبب فيه أن شرعية القصاص تكون رادعة عن الإقدام على القتل غالباً . ثم لتعلم أن في هذا التنكير فائدة أخرى لطيفة ، وهي : أن الإنسان إذا علم أنه إذا قتل قتل ؛ ارتدع بذلك عن القتل ؛ فسلم صاحبه ؛ فصارت حياة هذا الموهوم قتله في المستقبل مستفادة بالقصاص ، وصار كأنه قد حي في بقي عمره ، ولذلك وجب التنكير ، وامتنع التعريف من جهة أن التعريف يقتضي أن تكون الحياة قد كانت بالقصاص من أصلها ، وليس الأمر كذلك[١] .

قول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : ١٨٢] .

فرفع الإثم عمن أبطل الجنف والإثم من وصية الموصي، ولم يجعلها بمنزلة نص الشارع الذي تحرم مخالفته ، وكذلك الإثم مرفوع عمن أبطل من شروط الواقفين ما لم يكن إصلاحاً ، وما كان فيه جنف أو إثم ، ولا يحل لأحد أن يجعل هذا الشرط الباطل المخالف لكتاب الله بمنزلة نص الشارع ، ولم يقل هذا أحد من أئمة الإسلام[٢] .

(١) الفوائد المشوق (٦٩-٧٠) .

(٢) إعلام الموقعين (١٢٩/٣)

قال : فرق الشارع بين أيام رمضان، وبين أيام القضاء، فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين، لا يجوز تقدمها، ولا تأخرها وأطلق أيام قضائه. فقال سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ ﴾ [البقرة : ١٨٣-١٨٤] .

فأطلق العدة ولم يوقتها ، وهذا يدل على أنها تجزىء في أي أيام كانت ولم يجيء نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقييدها بأيام لا تجزىء في غيرها .

وليس في الباب إلا حديث عائشة رضي الله عنها : « كان يكون عليّ الصوم من رمضان ، فلا أقضيه إلا في شعبان ، من الشغل برسول الله صلى الله عليه وسلم »[(١)] .

ومعلوم أن هذا ليس صريحاً في التوقيت بما بين الرمضانين كتوقيت أيام رمضان . بما بين الهلالين . فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع . وجمع بين ما فرق الله بينهما . فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد ، لا تتقدم عنه ولا تتأخر .

وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله ﴿ أخر ﴾ وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضان آخر ، جبراً لزيادة التأخير عن المدة التي بين الرمضانين ، ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء ، بل هي قضاء . وإن فعلت بعد رمضان آخر ؛ فحكمها في القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر ؛ لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله البتة . ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام اليوم الذي بعده مقامه .

---

(١) رواه البخاري (٤ / ٢٢٣) في الصوم ، باب : حتى يقضي قضاء رمضان .
ومسلم (٣ / ١٩٩) في الصيام ، باب جواز تأخير قضاء رمضان .

وسر الفرق : أن المعذور لم يتعين في حقه أيام القضاء . بل هي مخير فيها . وأي يوم صامه قام مقام الآخر . وأما غير المعذور : فأيام الوجوب متعينة في حقه ، لا يقوم غيرها مقامها[١] .

قول الله تعالى : ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ الآية [البقرة : ١٨٤] . اختلف السلف في هذه الآية على أربعة أقوال :

أحدها : أنها ليست بمنسوخة ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها منسوخة ، كما قاله سلمة والجمهور .

الثالث : أنها مخصوصة ، خص منها القادر الذي لا عذر له ، وبقيت متناولة للمرضع والحامل .

الرابع : أن بعضها منسوخ ، وبعضها محكم[٢] .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

يتناول نوعي الدعاء[٣] وبكل منهما فسرت الآية قيل : أعطيه إذا سألني ، وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه . بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً فتأمله ، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له . وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا : هي من هذا القبيل[٤] .

وقال :

وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا : يارسول الله ربنا قريب فنناجيه

(١) مدارج السالكين (١/٣٨٣-٣٨٤) .
(٢) تهذيب السنن (٣/٢٠٧-٢٠٨) .
(٣) دعاء العبادة ودعاء المسألة راجع الآية (٥٤ ، ٥٥) من سورة الأعراف .
(٤) بدائع الفوائد (٣/٣) .

أم بعيد فنناديه ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ ، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت ، فإنهم عن هذا سألوا ؛ فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المتناجى لا مسألة البعيد المنادى . وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص ، ليس قرباً عاماً من كل أحد ، فهو قريب من داعيه ، وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل قرب خاص من الداعي والعابد كما قال النبي صلى الله عليه وسلم راوياً عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً »[١] فهذا قربه من عابده ، وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[٢] .

قال الله تعالى : ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة : ١٨٧] . فروى شعبة عن الحكم عن مجاهد ، قال : هو الولد ، وقاله الحكم وعكرمة والحسن البصري والسدي والضحاك ، وأرفع ما فيه ما رواه محمد بن سعد عن أبيه : حدثني عمي عن أبيه ، حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال : هو الولد[٣] .

وقال ابن زيد : هو الجماع .

وقال قتادة : ابتغوا الرخصة التي كتب الله لكم ، وعن ابن عباس رواية أخرى ، قال : ليلة القدر .

والتحقيق أن يقال لما خفف الله عن الأمة بإباحة الجماع ليلة الصوم إلى

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٣٩٥) في التوحيد ، باب : (ويحذركم الله نفسه) .
ومسلم (٥ / ٥٣٣) في الذكر والدعاء . ويأتي برقم (٣) (٢ / ٢٢٦) الأعراف .

(٢) بدائع الفوائد (٣/٧-٨) .

(٣) الطبري (٢ / ١٦٩) .

طلوع الفجر ، وكان المجامع يغلب عليه حكم الشهوة ، وقضاء الوطر حتى لا يخطر بقلبه غير ذلك، أرشدهم سبحانه إلى أن يطلبوا رضاه في مثل هذه اللذة ولا يباشروها بحكم مجرد الشهوة ، بل يبتغوا بها ما كتب الله لهم من الأجر ، والولد الذي يخرج من أصلابهم يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ويبتغون ما أباح الله لهم من الرخصة بحكم محبته لقبول رخصه ، فإن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معصيته ، ومما كتب لهم ليلة القدر ، فأمروا أن يبتغوها ، لكن يبقى أن يقال مما تعلق ذلك بإباحة مباشرة أزواجهم، فيقال: التي هي خير من ألف شهر، فكأنه سبحانه يقول: اقضوا وطركم من نسائكم ليلة الصيام، ولا يشغلكم ذلك عن ابتغاء ما كتب لكم من هذه الليلة التي فضلكم بها . والله أعلم[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

أي : تضيفوا ذلك إلى الحكام ، وتتوصلوا بحكمهم إلى أكلها .

فإن قيل : لو أراد هذا المعنى لقال : وتدلوا بالحكام إليها ، وأما الإدلاء بها إلى الحكام ؛ فهو التوصل بالبراطيل بها إليهم ، فترشوا الحاكم ؛ لتتوصلوا برشوته إلى الأكل بالباطل .

قيل : الآية تتناول النوعين ، فكل منهما إدلاء إلى الحكام بسببها ، فالنهي عنهما معاً[٢] .

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

سألوه [٣] عن سبب ظهور الهلال خفياً ثم لا يزال يتزايد فيه النور على التدريج حتى يكمل ، ثم يأخذ في النقصان ، فأجابهم عن حكمة ذلك من ظهور

(١) تحفة الودود (١٣) .
(٢) إعلام الموقعين (١/١٢٩) .
(٣) الطبري (٢/ ١٨٥) .

مواقيت الناس التي بها تمام مصالحهم في أحوالهم ومعاشهم ومواقيت أكبر عبادتهم وهو الحج ، وإن كانوا سألوا عن السبب ؛ فقد أجيبوا بما هو أنفع لهم مما سألوا عنه ، وإن كانوا إنما سألوا عن حكمة ذلك فقد أجيبوا عن عين ما سألوا عنه . ولفظ سؤالهم محتمل ، فإنهم قالوا : ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يأخذ في الزيادة حتى يتم ، ثم يأخذ في النقص[١] .

قوله تعالى[٢] : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] .

فمد قتالهم إلى أن ينتهوا عن أسباب الفتنة ، وهي الشرك ، وأخبر أنه لا عدوان إلا على الظالمين ، والمجاهر بالسب والعدوان على الإسلام غير مُنْتَهٍ ، فقتاله واجب إذا كان غير مقدور عليه ، وقتله مع القدرة حتم ، وهو ظالم ، فعليه العدوان الذي نفاه عمن انتهى ، وهو القتل والقتال ، وهذا بحمد الله في غاية الوضوح[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . أمر الحجيج بأن يتزودوا لسفرهم ،ولا يسافروا بغير زاد . ثم نبههم على زاد سفر الآخرة ، وهو التقوى .

فكما أنه لا يصل المسافر إلى مقصده إلا بزاد يُبلغه إياه ، فكذلك المسافر إلى الله تعالى، والدار الآخرة لا يصل إلا بزاد من التقوى فجمع بين الزادين[٤] . اهـ .

وقال : فذكر الزاد الظاهر ، والزاد الباطن .

وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة[٥] .

---

(١) إعلام الموقعين (٤/٢٠١-٢٠٢) .

(٢) في بيان ما ينقض العهد ومالا ينقض .

(٣) أحكام أهل الذمة (٢/٨٢٩) .

(٤) إغاثة اللهفان (١/٥٨) .

(٥) روضة المحبين (٢٢٦) .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله، وقال بعض العارفين : لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ، ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاته أعظم مما حصله(١) .

قال الله تعالى :﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

قال سعيد (٢) عن قتادة : « ذُكر لنا : أنه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله عز وجل نوحاً ، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وبُعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق » .

وقال ابن عباس: « كان الناس أمة واحدة كانوا على الإسلام كلهم » (٣) .

وهذا هو القول الصحيح في الآية .

وقد روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنهما : « كانوا أمة واحدة ، كانوا كفاراً » (٤) .

وهذا قول الحسن وعطاء ، قالا : « كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح عليهما السلام أمة واحدة على ملة واحدة ، وهي الكفر ، كانوا كفاراً

---

(١) الوابل الصيب (٥٩) .

(٢،٣،٤) راجع هذه الأقوال في الآية في تفسير :

الطبري (٢ / ٣٣٤) .

والقرطبي (١ / ٨٣٨) .

فتح القدير للشوكاني : (١ / ٢١٤) .

والدر المنثور (١ / ٥٨٢) .

كلهم أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وإبراهيم والنبيين » .

وهذا القول ضعيف جداً ، وهو منقطع عن ابن عباس ، والصحيح عنه خلافه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : « كانوا على الإسلام كلهم »[١] .

وهذا هو الصواب قطعاً ، فإن قراءة أُبي بن كعب : « فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » ويشهد لهذه القراءة : قوله تعالى في سورة يونس : (وما كان الناسُ إلا أمة واحدة فاختلفوا) [يونس : ١٩] . والمقصود : أن العدو كادهم ، وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين - كفاراً ومؤمنين - فكادهم بعبادة الأصنام ، وإنكار البعث . اهـ[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

فأخبر سبحانه أن الذين آمنوا هدوا لما اختلف فيه أهل التأويل الباطل الذي أوقعهم في الاختلاف ، والتفرق[٣] .

قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٥] . فسألوه عن المنْفَق فأجابهم بذكر المصْرِف ، إذ هو أهم مما سألوه عنه ونبههم عليه بالسياق، مع ذكره لهم في موضع آخر، وهو قوله تعالى: (قل العفو) وهو ما سهل عليهم إنفاقه ولا يضرهم إخراجه[٤] .

---

(١) راجع هذه الأقوال في الآية في تفسير :
الطبري (٢/٣٣٤) - والقرطبي (١/٨٣٨) .
فتح القدير للشوكاني : (١/٢١٤) - والدر المنثور (١/٥٨٢) .

(٢) إغاثة اللهفان (٢/٢٠٣-٢٠٤) .

(٣) الصواعق المرسلة (٢/٥١٢) .

(٤) إعلام الموقعين (٤/٢٠١) .

قول الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

في هذه الآية عدة حكم وأسرار ، ومصالح للعبد ، فإن العبد إذا علم أن المكروه قد يأتي بالمحبوب ، والمحبوب قد يأتي بالمكروه ؛ لم يأمن أن توافيه المضرة من جانب المسرة ، ولم ييأس أن تأتيه المسرة من جانب المضرة ؛ لعدم علمه بالعواقب فإن الله يعلم منها ما لا يعلمه العبد – أوجب له ذلك أموراً :

منها : أنه لا أنفع له من امتثال أمر ربه ، وإن شق عليه في الابتداء ؛ لأن عواقبه كلها خيرات ومسرات ولذات وأفراح ، وإن كرهته نفسه فهو خير لها ، وأنفع ، وكذلك لا شيء أضر عليه من ارتكاب المنهي ، وإن هويته نفسه ، ومالت إليه ، وأن عواقبه كلها آلام وأحزان وشرور ومصائب ؛ وخاصية العاقل تحمل الألم اليسير لما يعقبه من اللذة العظيمة والخير الكثير ، واجتناب اللذة اليسيرة لما يعقبها من الألم العظيم والشر الطويل .

فنظر الجاهل لا يجاوز المبادىء إلى غايتها ، والعاقل الكيس دائما ينظر إلى الغايات من وراء ستور مباديها ؛ فيرى ما وراء تلك الستور من الغايات المحمودة والمذمومة ؛ فيرى المناهي كطعام لذيذ قد خلط فيه سم قاتل ، فكلما دعته لذته إلى تناوله نهاه عنه ما فيه من السم ، ويرى الأوامر كدواء مر المذاق مفض إلى العافية والشفاء ، وكلما نهاه مرارة مذاقه عن تناوله ؛ أمره نفعه بالتناول ، ولكن هذا يحتاج إلى فضل علم ، تدرك به الغايات من مبادئها وقوة صبر يوطن به نفسه على تحمل مشقة الطريق لم يؤمل عند الغاية فإذا فقد اليقين والصبر تعذر عليه ذلك ، وإذا قوي يقينه وصبره ؛ هان عليه كل مشقة يتحملها في طلب الخير الدائم ، واللذة الدائمة .

ومن أسرار هذه الآية أنها : تقتضي من العبد التفويض إلى من يعلم عواقب الأمور والرضا بما يختاره له ، ويقتضيه له لما يرجو من حسن العاقبة .

ومنها : أنه لا يقترح على ربه ، ولا يختار عليه ، ولا يسأله ما ليس له به علم فلعل مضرته وهلاكه فيه ، وهو لايعلم فلا يختار على ربه شيئاً بل يسأله حسن الاختيار له ، وأن يرضيه بما يختاره ، فلا أنفع له من ذلك .

ومنها : أنه إذا فوض إلى ربه ، ورضي بما يختاره له أمره فيما يختاره له بالقوة عليه ، والعزيمة والصبر ، وصرف عنه الآفات التي هي عرضة اختيار العبد لنفسه وأراه من حسن عواقب اختياره ما لم يكن ليصل إلى بعضه بما يختاره هو لنفسه .

ومنها : أن يريحه من الأفكار المتعبة في أنواع الاختيارات ، ويفرغ قلبه من التقديرات والتدبيرات ، التي يصعد منها في عقبة ، وينزل في أخرى ، ومع هذا فلا خروج له عما قدر عليه ، فلو رضي باختيار الله ؛ أصابه القدر وهو محمود مشكور ملطوف به فيه ، وإلا جرى عليه القدر ، وهو مذموم عنده غير ملطوف به فيه ، مع اختياره لنفسه .

ومتى صح تفويضه ورضاه ؛ اكتنفه في المقدور العطف عليه ، واللطف به فيصير بين عطفه ولطفه . فعطفه يقيه ما يحذره ، ولطفه يهون عليه ما قدره ، إذا نفذ القدر في العبد كان من أعظم أسباب نفوذه : تحيله في رده ، فلا أنفع له من الاستسلام وإلقاء نفسه بين يدي القدر طريحاً كالميت . فإن السبع لا يرضى أن يأكل الجيف[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

بين سبحانه أن ما أمرهم به يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم التي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم ، وإما لنفور الطبع . فهذا علمه بما في عواقب أمره . مما لا يعلمونه ، وذلك علمه بما في اختياره من خلقه بما لا يعلمونه .

فهذه الآية تضمنت الحض على التزام أمر الله وإن شق على النفوس ، وعلى

(١) الفوائد (١٣٤-١٣٥) .

الرضا بقضائه وإن كرهته النفوس[(١)] .

القتال في الأشهر الحرم :

قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

يقول سبحانه : هذا الذي أنكرتموه عليهم ، وإن كان كبيراً ، فما ارتكبتموه أنتم من الكفر بالله ، والصد عن سبيله ، وعن بيته ، وإخراج المسلمين الذين هم أهله منه ، والشرك الذي أنتم عليه ، والفتنة التي حصلت منكم به أكبر عند الله من قتالهم في الشهر الحرام ، وأكثر السلف فسروا الفتنة ها هنا بالشرك ، كقوله : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) [البقرة : ١٩٣] . ويدل عليه قوله : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) [الأنعام : ٢٣] : أي : لم يكن مآل شركهم ، وعاقبته ، وآخر أمرهم ، إلا أن تبرؤوا منه ، وأنكروه .

وحقيقتها : أنها الشرك الذي يدعو صاحبه إليه ، ويقاتل عليه ، ويعاقب من لم يفتتن به ، ولهذا يقال لهم وقت عذابهم بالنار وفتنتهم بها : (ذوقوا فتنتكم) [الذاريات : ١٤] . قال ابن عباس : تكذيبكم . وحقيقته : ذوقوا نهاية فتنتكم ، وغايتها ومصير أمرها ، كقوله : (ذوقوا ما كنتم تكسبون) [الزمر : ٢٤] . وكما فتنوا عباده على الشرك ، فتنوا على النار ، وقيل لهم : ذوقوا فتنتكم ، ومنه قوله تعالى : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا) [البروج : ١٠] . فسرت الفتنة ها هنا بتعذيبهم المؤمنين وإحراقهم إياهم بالنار ، واللفظ أعم من ذلك ، وحقيقته : عذبوا المؤمنين ليفتتنوا عن دينهم ، فهذه الفتنة المضافة إلى المشركين .

وأما الفتنة التي يضيفها الله سبحانه إلى نفسه ، أو يضيفها رسوله إليه ، كقوله : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض) وقول موسى : (إن هي إلا فتنتك تضل

(١) شفاء العليل (٣٣) .

بها من تشاء وتهدي من تشاء) [الأعراف : ١٥٥] . فتلك بمعنى آخر ، وهي بمعنى الامتحان ، والاختبار ، والابتلاء من الله لعباده بالخير والشر ، بالنعم والمصائب ، فهذه لون ، وفتنة المشركين لون ، وفتنة المؤمن في ماله وولده وجاره لون آخر ، والفتنة التي يوقعها بين أهل الإسلام ، كالفتنة التي أوقعها بين أصحاب علي ومعاوية ، وبين أهل الجمل وصفين ، وبين المسلمين ، حتى يتقاتلوا ويتهاجروا لون آخر .

وهي الفتنة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي »[1] .

وأحاديث الفتنة التي أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها باعتزال الطائفتين[2] هي هذه الفتنة . وقد تأتي الفتنة ويراد بها المعصية كقوله تعالى : (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني) [التوبة : ٤٩] . يقوله الجد بن قيس ، لما ندبه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، يقول : ائذن لي في القعود ، ولا تفتني بتعرضي لبنات بني الأصفر ، فإني لا أصبر عنهن ، قال تعالى : (ألا في الفتنة سقطوا) [التوبة : ٤٩] أي : وقعوا في فتنة النفاق ، وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر[3] .

وقال رحمه الله تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

من باب بدل الاشتمال ، والسؤال إنما وقع عن القتال فيه ، فلم قدم الشهر وقد قلتم إنهم يقدمون ما هم ببيانه أهم ، وهم به أعنى ؟ .

---

(١) رواه البخاري (١٣ / ٣٣) في الفتن ، باب : تكون فتنة القاعد فيها خير من القائم . ومسلم في الفتن (٥ / ٧٣٤) في الفتن .

(٢) رواه البخاري في مواضع منها : (١٣ / ٣٨) الفتن ، باب كيف الأمر إذ لم تكن جماعة . ومسلم (٤ / ٥١٤) في الإمارة ، باب : وجوب ملازمة جماعة المسلمين .

(٣) زاد المعاد (٣/١٦٨-١٧٠) .

قيل : السؤال لم يقع منهم إلا بعد وقوع القتال في الشهر ، وتشنيع أعدائهم عليهم ، وانتهاك حرمته ، فكان اعتناؤهم واهتمامهم بالشهر فوق اهتمامهم بالقتال . فالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قُدم في الذكر ، وكان تقديمه بلفظ الظاهر . وهلا اكتفى بضميره فقال (قل هو كبير) وأنت إذا سألته عن زيد أهو في الدار كان أوجز من أن تقول أزيد في الدار .

(قيل) في إعادته بلفظ الظاهر نكتة بديعة وهي تعلق الحكم الخبري باسم القتال فيه عموماً ولو أتى بالمضمر وقال (وهو كبير) لتوهم اختصاص الحكم بذلك القتال المسئول عنه وليس الأمر كذلك ، وإنما هو عام في كل قتال وقع في شهر حرام(١) .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

ولم يقل « فيه » تعليقا لحكم الاعتزال بنفس الحيض ، وأنه هو سبب الاعتزال .

وقال تعالى : ﴿ **قل هو أذى** ﴾ ولم يقل الحيض ؛ لأن الآية جارية على الأصل ، ولأنه لو كرره لثقل اللفظ لتكرره ثلاث مرات ، وكان ذكره بلفظ الظاهر في الأمر بالاعتزال أحسن من ذكره مضمراً ؛ ليفيد تعليق الحكم بكونه حيضاً بخلاف قوله ﴿ **قل هو أذى** ﴾ فإنه إخبار بالواقع ، والمخاطبون يعلمون أن جهة كونه أذى هو نفس كونه حيضاً بخلاف تعليق الحكم ، فإنه إنما يعلم بالشرع فتأمله(٢) .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

أن الطهر طهران : طهر بالماء من الأحداث والنجاسات ، وطهر بالتوبة من الشرك والمعاصي ، وهذا الطهور أصل لطهور الماء ، وطهور الماء لا ينفع

---

(١) بدائع الفوائد (٤٧/٢) .
(٢) بدائع الفوائد (٤٨/٢) .

بدونه بل هو مكمل له معه مهيىء بحصوله ؛ فكان أولى بالتقديم ؛ لأن العبد أول ما يدخل في الإسلام فقد تطهر بالتوبة من الشرك، ثم يتطهر بالماء من الحدث[١].

والكسب قد وقع في القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها : عقد القلب وعزمه كقوله تعالى : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] . أي : بما عزمتم عليه وقصدتموه .

وقال الزجاج : أي: يؤاخذكم بعزمكم على أن لا تبروا ، وأن لا تتقوا ، وأن تعتلوا في ذلك بأنكم حلفتم وكأنه التفت إلى لفظ المؤاخذة ، وأنها تقتضي تعذيباً ؛ فجعل كسب قلوبهم عزمهم على ترك البر والتقوى لمكان اليمين . والقول الأول أصح ، وهو قول جمهور أهل التفسير ؛ فإنه قابل به لغو اليمين ، وهو أن لا يقصد اليمين ؛ فكسب القلب المقابل للغو اليمين هو : عقده وعزمه . كما قال في الآية الأخرى : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) فتعقيد الأيمان : هو كسب القلب . اهـ[٢] .

وقال :

فأخبر تعالى أنه إنما يعتبر في الأيمان قصد القلب وكسبه لا مجرد اللفظ الذي لم يقصده أو لم يقصد معناه ، على التفسيرين في اللغو ، فكيف إذا كان قاصداً لضد ما يتخيل عليه ؟![٣] .

(١) بدائع الفوائد (١/٦٨) .

(٢) شفاء العليل (١٢٠) .

(٣) إعلام الموقعين (٣/٣٩٢) .

حُكْم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في الإيلاء

ثبت في صحيح البخاري : عن أنس قال : آلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من نسائه ، وكانت انفكت رجلُه ، فأقام في مَشْرُبَةٍ له تِسعاً وعِشرين ليلة ، ثم نزل ، فقالُوا : يا رَسولَ الله : آليتَ شهراً ، فقال : « إنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعاً وعِشْرينَ »(١)

وقد قال سبحانه : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٦-٢٢٧] .

الإيلاء : لغة : الامتناع باليمين ، وخُصَّ في عرف الشرع بالامتناعِ باليمينِ مِن وطء الزوجة ، ولهذا عُدِّيَ فعله بأداة « مِن » تضميناً له معنى « يمتنعون » من نسائهم ، وهو أحسنُ من إقامةِ « من » مقام « عَلَى » وجعل سبحانه لِلأزواج مُدَّةَ أربعة أشهر يمتنعون فيها مِن وطء نسائهم بالإيلاء ، فإذا مضت فإما أن يَفيء / ، وإما أن يُطلّق ، وقد اشتهر عن علي ، وابنِ عباس : أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى ، كما وقع لِرسول الله صلى الله عليه وسلم مع نسائه ، وظاهرُ القرآن مع الجمهور .

وقد تناظر في هذه المسألة محمد بن سيرين ، ورجل آخر ، فاحتج على محمد بقول علي ؛ فاحتج عليه محمد بالآية ؛ فسكت .

وقد دلت الآية على أحكام :

منها : هذا .

ومنها : أن من حلف على ترك الوطء أقلَّ من أربعة أشهر لم يكن مؤلياً ،

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (٤ / ١٤٣) ، في الصوم ، باب : قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الهلال .. » .

وهذا قولُ الجمهور ، وفيه قول شاذ ، أنه مؤل .

ومنها : أنه لا يثبت له حكم الإيلاء حتى يَحْلِفَ على أكثر من أربعة أشهر ، فإن كانت مدة الامتناع أربعة أشهر ، لم يثبت له حكمُ الإيلاء ، لأن الله جعل لهم مدة أربعة أشهر ، وبعدَ انقضائها إما أن يُطلِّقوا ، وإما أن يفيؤوا ، وهذا قول الجمهور ، منهم : أحمد ، والشافعي ، ومالك ، وجعله أبو حنيفة مؤلياً بأربعة أشهر سواء ، وهذا بناء على أصله أن المدةَ المضروبة أجلٌ لوقوع الطلاق بانقضائها ، والجمهور يجعلون المدة أجلاً لاستحقاق المطالبة ، وهذا موضع اختلف فيه السلفُ من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومَنْ بعدهم .

فقال الشافعي : حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، عن سليمان بن يسار ، قال : أدركتُ بضعة عشرَ رجلاً مِن الصحابة ، كلهم يُوقِفُ المؤلي[1] . يعني : بعد أربعةِ أشهر . وروى سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، قال : سألتُ اثني عشر رجلاً مِن أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المؤلي ، فقالوا : ليس عليه شيء حتى تمضيَ أربعةُ أشهر[2] . وهذا قولُ الجمهور مِن الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم .

وقال عبد الله بن مسعود ، وزيدُ بن ثابت : إذا مضت أربعة أشهر و لم يفيء فيها ، طلقت منه بمضيها ، وهذا قولُ جماعةٍ من التابعين ، وقولُ أبي حنيفة وأصحابه ، فعند هؤلاء يستحِقُّ المطالبة قبل مضي الأربعة الأشهر ، فإن فاء وإلا طلقت بمضيها . وعند الجمهور : لا يستحق المطالبة حتى تمضي الأربعة الأشهر ، فحينئذ يقال : إما أن تفيء ، وإما أن تُطلق ، وإن لم يفيء ، أُخِذَ بإيقاع الطلاق ، إما بالحاكم ، وإما بحبسه حتى يطلِّق .

قال الموقعون للطلاق بمضي المدة : آية الإيلاء تدل على ذلك من ثلاثة أوجه .

---

(١) أخرجه الإمام الشافعي (٢ / ٢٩٤) . بدائع المنن .

(٢) رواه الدارقطني (٤ / ٦١) .

أحدها : أن عبدَ الله بن مسعود قرأ : (فَإِنْ فَاؤُوا فِيهِنَّ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم) فإضافة الفيئة إلى المدة تدل على استحقاق الفيئة فيها ، وهذه القراءة إما أن تُجرى مجرى خبر الواحد ، فتوجب العمل ، وإن لم تُوجب كونها مِن القرآن ، وإما أن تكون قرآناً نسخ لفظه ، وبقي حكمه لا يجوز فيها غير هذا البتة .

الثاني : أن الله سبحانه جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر ، فلو كانت الفيئةُ بعدها ، لزادت على مدة النص ، وذلك غيرُ جائز .

الثالث : أنه لو وطئها في مدة الإيلاء ، لوقعت الفيئةُ موقِعَها ، فدل على استحقاق الفيئة فيها .

قالوا : ولأن الله سبحانه وتعالى جعل لهم تربصَ أربعة أشهر ، ثم قال : ﴿ **فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وإن عَزَمُوا الطَّلَاق** ﴾ وظاهر هذا أن هذا التقسيم في المدة التي لهم فيها التربص ، كما إذا قال لغريمه : أصبر عليك بديني أربعة أشهر ، فإن وفيتني وإلا حبستك ، ولا يفهم من هذا إلا إن وفَّيتني في هذه المدة ، ولا يُفهم منه إن وفيتني بعدها ، وإلا كانت مدة الصبر أكثر من أربعة أشهر ، وقراءة ابن مسعود صريحة في تفسير الفيئة بأنها في المدة ، وأقلُّ مراتبها أن تكون تفسيراً .

قالوا: ولأنه أجلٌ مضروب للفرقة، فتعقبه الفرقة كالعدة، وكالأجل الذي ضُرِبَ لوقوع الطلاق ، كقوله : إذا مضت أربعة أشهر ، فأنت طالق .

قال الجمهور : لنا من آية الإيلاء عشرة أدلة .

أحدها : أنه أضاف مدة الإيلاء إلى الأزواج ، وجعلَها لهم ، ولم يجعلها عليهم ، فوجب ألا يستحق المطالبة فيها ، بل بعدَها ، كأجل الدَّين ، ومن أوجبَ المطالبة فيها لم يكن عنده أجلٌ لهم ، ولا يُعقل كونها أجلاً لهم ، ويستحق عليهم فيها المطالبة .

الدليل الثاني : قوله : ﴿ **فَإِنْ فاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ ، فذكر

الفيئةَ بعد المدة بفاء التعقيب ، وهذا يقتضي أن يكونَ بعدَ المدة ، ونظيرُه قولُه سبحانه : (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ) [البقرة : ٢٢٩]. وهذا بعدَ الطلاق قطعاً .

فإن قيل : فاء التعقيب تُوجب أن يكون بعد الإيلاء لا بعدَ المدة ؟

قيل : قَد تقدَّمَ في الآية ذكر الإيلاء ، ثم تلاه ذكر المدة ، ثم أعقبها بذكر الفيئة ، فإذا أوجبت الفاءُ التعقيبَ بعد ما تقدم ذكرهُ ، لم يجز أن يعود إلى أبعدِ المذكورين ، ووجب عودُها إليهما أو إلى أقربهما .

الدليل الثالث : قوله : ﴿ وإنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ ﴾ [البقرة : ٢٢٧] ، وإنما العزم ما عزم العازمُ على فعله ، كقوله تعالى : (وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الكِتَابُ أَجَلَهُ) [البقرة : ٢٣٥] .

فإن قيل : فتركُ الفيئة عزم على الطلاق ؟

قيل : العزمُ هو إرادة جازمة لفعل المجزوم عليه أو تركه ، وأنتم توقعون الطلاق بمجرد مضيِّ المدة وإن لم يكن منه عزم لا على وطء ولا على تركه ، بل لو عزم على الفيئة ، ولم يُجامع طلقتم عليه بمضيِّ المدة ، ولم يعزم الطلاق ، فكيفما قدرتم ، فالآية حجة عليكم .

الدليل الرابع : أن الله سبحانه خيَّره في الآية بين أمرين :الفيئةِ أو الطلاق ، والتخييرُ بين أمرين لا يكون إلا في حالة واحدة كالكفارات ، ولو كان في حالتين ، لكان ترتيباً لا تخييراً ، وإذا تقرر هذا . فالفيئة عندكم في نفس المدة ، وعزمُ الطلاق بانقضاء المدة ، فلم يقع التخييرُ في حالة واحدة ..

فإن قيل : هو مخيَّر بين أن يفيء في المدة ، وبين أن يترك الفيئة ، فيكون عازماً للطلاق بمضي المدة . قيل : ترك الفيئة لا يكون عزماً للطلاق وإنما يكون عزماً عندكم إذا انقضت المدة ، فلا يتأتَّى التخييرُ بين عزم الطلاق وبين الفيئة البتة ، فإنه بمضي المدة يقع الطلاق عندكم ، فلا يُمكنه الفيئة ، وفي المدة يمكنه الفيئة ، ولم يحضر وقتُ عزم الطلاق الذي هو مضي المدة ، وحينئذ فهذا

دليل خامس مستقل .

الدليل السادس : أن التخيير بين أمرين يقتضي أن يكون فِعلُهما إليه ، ليصح منه اختيارُ فعل كل منهما وتركه ، وإلا لبطل حكمُ خياره ، ومضي المدة ليس إليه .

الدليل السابع : أنه سبحانه قال : ﴿ **وإنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ ، فاقتضى أن يكون الطلاقُ قولاً يسمع ، ليحسن ختم الآية بصفة السمع .

الدليل الثامن : أنه لو قال لغريمه : لك أجلُ أربعة أشهر ، فإن وفيتني قبلتُ منك ، وإن لم تُوفني ، حبستُك ، كان مقتضاه أن الوفاء والحبس بعد المدة لا فيها ، ولا يَعْقِلُ المخاطبُ غيرَ هذا .

فإن قيل : ما نحن فيه نظيرُ قوله : لك الخيار ثلاثة أيام ، فإن فسخت البيع وإلا لزمك ، ومعلوم أن الفسخَ إنما يقع في الثلاث لا بعدها ؟ قيل : هذا من أقوى حُججنا عليكم ، فإن موجبَ العقد اللزومُ ، فجعل له الخيار في مدة ثلاثة أيام ، فإذا انقضت ولم يفسخ ، عاد العقدُ إلى حكمه ، وهو اللزومُ ، وهكذا الزوجة لها حقٌّ على الزوج في الوطء ، كما له حقٌّ عليها ، قال تعالى : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالمعْرُوفِ) [البقرة : ٢٢٨] ، فجعل له الشارعُ امتناعَ أربعة أشهر لا حقَّ لها فيهن ، فإذا انقضت المدةُ ، عادت على حقِّها بموجب العَقد ، وهو المطالبة لا وقوع الطلاق ، وحينئذ فهذا **دليل تاسع** مستقل .

الدليل العاشر : أنه سبحانه جعل للمؤلين شيئاً ، وعليهم شيئين ، فالذي لهم تربُّصُ المدة المذكورة ، والذي عليهم إما الفيئةُ وإما الطلاقُ ، وعندكم ليس عليهم إلا الفيئة فقط . وأما الطلاقُ ، فليس عليهم ، بل ولا إليهم ، وإنما هو إليه سبحانه عند انقضاء المدة ، فيُحكم بطلاقها عقيب انقضاء المدة شاء أو أبى . ومعلوم أن هذا ليس إلى المؤلي ولا عليه ، وهو خلافُ ظاهر النص . قالوا : ولأنها يمين بالله تعالى توجب الكفارةَ ، فلم يقع بها الطلاق كسائر الأيمان ، ولأنها مدة

قدرها الشرعُ ، لم تتقدمها الفرقة ، فلا يقع بها بينونة ، كأجل العنين ، ولأنه لفظ لا يَصِحُّ أن يقع به الطلاق المعجَّل ، فلم يقع به المؤجلُ كالظهار ، ولأن الإيلاء كان طلاقاً في الجاهلية ، فنسخ كالظهار ، فلا يجوز أن يقع به الطلاق لأنه استيفاء للحكم المنسوخ ، ولما كان عليه أهلُ الجاهلية .

قال الشافعي : كانت الفِرَقُ الجاهلية تَحلِفُ بثلاثة أشياء :بالطَّلاق ، والظِّهار ، والإيلاء ، فنقل الله سبحانه وتعالى الإيلاء والظِّهار عما كانا عليه في الجاهلية من إيقاع الفرقة على الزوجة إلى ما استقرَّ عليه حكمهما في الشرع ، وبقي حكمُ الطلاق على ما كان عليه ، هذا لفظه .

قالوا : ولأن الطلاقَ إنما يقع بالصريح والكناية ، وليس الإيلاء واحداً منهما ، إذ لو كان صريحاً ، لوقع معجَّلاً إن أطلقه ، أو إلى أجل مسمًّى إن قيَّده ، ولو كان كنايةً ، لرجع فيه إلى نيته ، ولا يَردُ على هذا اللعان ، فإنه يُوجب الفسخَ دونَ الطلاق ، والفسخُ يقع بغير قول ، والطلاقُ لا يقع إلا بالقول .

قالوا : وأما قراءةُ ابنِ مسعود ، فغايتُها أن تدُلَّ على جواز الفيئة في مدة التربُّص ، لا على استحقاق المطالبة بها في المدة ، وهذا حق لا ننكِرُه .

وأما قولُكم : جوازُ الفيئة في المدة دليلٌ على استحقاقها فيها ، فهو باطل بالدَّيْنِ المؤجَّلِ .

وأما قولُكم : إنه لو كانت الفيئة بعد المدة ، لزادت على أربعة أشهر ، فليس بصحيح ، لأن الأربعة الأشهر مدة لزمن الصبر الذي لا يستحِقُّ فيه المطالبة ، فبمجرد انقضائها يستحِقُّ عليه الحقُّ ، فلها أن تعجِّل المطالبة به . وإمَّا أن تُنْظِرَه . وهذا كسائرِ الحقوق المعلَّقة بآجال معدودة ، إنما تُستحق عند انقضاء آجالها ، ولا يُقال : إن ذلك يستلزمُ الزيادةَ على الأجل ، فكذا أجلُ الإيلاء سواء .

فصـــل

ودلت الآية على أن كلَّ مَنْ صحَّ منه الإيلاء بأيِّ يمين حلف ، فهو مؤلٍ حتى يَبَرَّ ، إما أن يفيءَ ، وإما أن يُطلِّقَ ، فكان في هذا حجةٌ لما ذهب إليه مَن يقول من السلف والخلفِ : إن المؤلي باليمين بالطلاق ، إما أن يفيء ، وإما أن يطلِّق ، ومن يُلزمه الطلاق على كل حال لم يُمكنه إدخال هذه اليمين في حكم الإيلاء ، فإنه إذا قال : إن وطئتك إلى سنة ، فأنت طالق ثلاثا ، فإذا مضت أربعةُ أشهر لا يقولون له : إما أن تطأ ، وإما أن تُطلِّقَ ، بل يقولون له : إن وطئتها طلقت ، وإن لم تطأها ، طلقنا عليك ، وأكثرُهم لا يُمكنه من الإيلاج لوقوع النزع الذي هو جزء الوطء في أجنبية ، ولا جواب عن هذا إلا أن يقال : بأنه غير مؤل ، وحينئذ فيقال : فلا تُوقفوه بعد مضي الأربعة الأشهر ، وقولوا : إن له أن يمتنع من وطئها بيمين الطلاق دائماً ، فإن ضربتم له الأجل ، أثبتم له حكم الإيلاء من غير يمين ، وإن جعلتموه مؤلياً ولم تجيزوه ، خالفتم حكم الإيلاء ، وموجب النص ، فهذا بعضُ حجج هؤلاء على منازعيهم .

فإن قيل : فما حكمُ هذه المسألة ، وهي إذا قال : إن وطئتُك ، فأنت طالق ثلاثاً .

قيل : اختلف الفقهاء فيها ، هل يكون مؤلياً أم لا ؟ على قولين ، وهما روايتان عن أحمد ، وقولان للشافعي في الجديد : أنه يكون مؤلياً ، وهو مذهب أبي حنيفة ، ومالك . وعلى القولين : فهل يُمكَّنُ من الإيلاجِ ؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد والشافعي .

أحدهما : أنه لا يُمكن منه ، بل يحرمُ عليه ، لأنها بالإيلاج تطلق عندهم ثلاثاً ، فيصيرُ ما بعد الإيلاج محرماً ، فيكون الإيلاج محرماً ، وهذا كالصائم إذا تيقن أنه لم يبق إلى طلوع الفجر إلا قدر إيلاج الذكر دون إخراجه ، حَرُمَ عليه الإيلاجُ ، وإن كان في زمن الإباحة ، لوجود الإخراج في زمن الحظر ، كذلك

ها هنا يَحرُم عليه الإيلاجُ ، وإن كان قبل الطلاق لوجود الإخراج بعده .

والثاني : أنه لا يحرم عليه الإيلاج ، قال الماوردي : وهو قولُ سائر أصحابنا ، لأنها زوجته ، ولا يحرم عليه الإخراج ، لأنه ترك . وإن طلقت بالإيلاج ، ويكون المحرمُ بهذا الوطء استدامة الإيلاج لا الابتداء والنزع ، وهذا ظاهر نص الشافعي ، فإنه قال : لو طلع الفجرُ على الصائم وهو مجامع وأخرجه مكانه كان على صومه ، فإن مكث بغير إخراجه ، أفطر ، ويكفِّرُ . وقال في كتاب الإيلاء : ولو قال : إن وطئتك فأنت طالق ثلاثاً ، وقف ، فإن فاء ، فإذا غيَّب الحشفة طلقت منه ثلاثاً ، فإن أخرجه ثم أدخله ، فعليه مهرُ مثلها . قال هؤلاء : ويدل على الجواز أن رجلاً لو قال لرجل : ادخل داري ، ولا تقم ، استباح الدخول لوجوده عن إذن ، ووجب عليه الخروجُ لمنعه من المقام ، ويكون الخروجُ - وإن كان في زمن الحظر - مباحاً ، لأنه تركٌ ، كذلك هذا المؤلي يستبيحُ أن يولج ، ويستبيحُ أن ينزع ، ويحرم عليه استدامةُ الإيلاج ، والخلاف في الإيلاج قبل الفجر والنزع بعده للصائم ، كالخلاف في المؤلي ، وقيل : يحرم على الصائم الإيلاج قبل الفجر ، ولا يحرم على المؤلي ، والفرق أن التحريم قد يطرأ على الصائم بغير الإيلاج ، فجاز أن يحرُمَ عليه الإيلاج ، والمؤلي لا يطرأ عليه التحريم بغير الإيلاج ، فافترقا .

وقالت طائفة ثالثة : لا يحرُمُ عليه الوطءُ ، ولا تطلق عليه الزوجةُ ، بل يُوقف ، ويقال له : ما أمر الله : إما أن تفيء ، وإما أن تُطلق . قالوا : وكيف يكون مؤلياً ولا يُمكن من الفيئة ، بل يلزم بالطلاق ، وإن مكن منها ، وقع به الطلاق ، فالطلاق واقع به على التقديرين مع كونه مؤلياً ؟ فهذا خلافُ ظاهر القرآن ، بل يقال لهذا : إن فاء لم يقع به الطلاقُ ، وإن لم يفيء، أُلزِمَ بالطلاق ، وهذا مذهبُ من يرى اليمينَ بالطلاق لا يُوجب طلاقاً ، وإنما يُجزئه كفارة يمين ، وهو قولُ أهل الظاهر وطاووس ، وعكرمة ، وجماعة من أهل الحديث ، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه[1] .

---

(١) زاد المعاد (٥/٣٤٤-٣٥٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٦، ٢٢٧] .

فختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضى الزوجة ، والإحسان إليها ، بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه والجزاء من جنس العمل .

فكما رجع إلى التي هي أحسن ، رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة ، وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ، فإن الطلاق لما كان لفظاً يسمع ومعنى يقصد ، عقبه باسم (السميع) للنطق به ، (العليم) بمضمونه[(١)] .

قال تعالى : ﴿ ... وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ... ﴾ [البقرة : ٢٢٨، ٢٢٩] .

فأخبر أن للمرأة من الحق مثل الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها فهو حق لها على الزوج بنص القرآن . وأيضاً فإنه سبحانه أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف ، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة . ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً عليه . والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا غيره ، فقال تعالى :

﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقالت طائفة : يجب عليه وطؤها في العمر مرة واحدة ليستقر بذلك لها الصداق . هذا من جنس القول الأول ، وهذا باطل من وجه آخر ، فإن المقصود

---

(١) جلاء الأفهام (٩٣-٩٤) .

إنما هو المعاشرة بالمعروف ، والصداق دخل في العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح ، فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق .

وقالت طائفة ثالثة : يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة ، واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمؤلي تربص أربعة أشهر ؛ وخير المرأة بعد ذلك ، إن شاءت أن تقيم عنده ، وإن شاءت أن تفارقه .

فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه في تلك المدة، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله فليس أيضا بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها .

وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج ، فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بمهم ، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر . ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كل أربعة أشهر مرة .

وقالت طائفة أخرى : بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف ، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف ، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف ، فالوطء داخل في هذه المعاشرة ولابد ، قالوا : وعليه أن يشبعها وطئاً إذا أمكنه ذلك ، كما عليه أن يشبعها قوتاً ، وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجح هذا القول ويختاره[(١)] .

الخلع

جواز الخلع كما دل عليه القرآن ، قال تعالى :﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

(١) روضة المحبين (٢١٠-٢١١) .

ومنع الخلع طائفة شاذة من الناس خالفت النص والإجماع .

وفي الآية دليل على جوازه مطلقاً بإذن السلطان وغيره ، ومنعه طائفة بدون إذن . والأئمة الأربعة والجمهور على خلافه .

وفي الآية دليل على حصول البينونة به ، لأنه سبحانه سماه فدية ، ولو كان رجعياً كما قال بعض الناس لم يحصل للمرأة الافتداء من الزوج بما بذلته له ، ودل قوله سبحانه : ﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾ ، على جوازه بما قل أو كثر ، وأن له أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قول الله تعالى في آية الخلع : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وهذا دليل على أن الخلع المأذون فيه إنما هو إذا خاف الزوجان أن لا يقيما حدود الله ، وأن النكاح الثاني إنما يباح إذا ظنا أن يقيما حدود الله ، فإنه شَرَطَ في الخلع عدم خوف إقامة حدوده ، وشرط في العودة ظن إقامة حدوده[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٣٠] .

أن الله سبحانه قال ذلك في المطلقة ثلاثًا .

أي إن طلقها الثاني فلا جناح عليها وعلى الزوج الأول أن يتراجعا ، والمراد به تجديد العقد ، وليس ذلك مختصاً بالصورة التي يطلق فيها الثاني فقط ، بل متى تفارقا بموت أو خلع أو فسخ أو طلاق ، حلَّت للأول قياساً على الطلاق[(٣)] .

---

(١) زاد المعاد (١٩٣/٥) .

(٢) إغاثة اللهفان (٣٧٧/١) .

(٣) إعلام الموقعين (٢٦٦/١-٢٦٧) .

قول الله تعالى في آية الخلع : ﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾ [البقرة : ٢٣١] . وذلك نص في أن الرجعة إنما تثبت لمن قصد الصلاح ، دون الضرار ، فإذا قصد الضرار لم يملكه الله تعالى الرجعة(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ ﴾ الآية إلى قوله تعالى : ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة : ٢٣٣] .

فدلت الآية على عدة أحكام :

أحدها : أن تمام الرضاع حولان ، وذلك حق للولد إذا احتاج إليه ، وأكد بكاملين لئلا يحمل اللفظ على حول وأكثر .

وثانيها : أن الأبوين إذا أرادا فطامه قبل ذلك بتراضيهما وتشاورهما مع عدم مضرة الطفل فلهما ذلك .

وثالثها : أن الأب إذا أراد أن يسترضع لولده مرضعة أخرى غير أمه فله ذلك ، وإن كرهت الأم إلا أن يكون مضاراً بها وبولدها فلا يجاب إلى ذلك ، ويجوز أن تستمر الأم على رضاعه بعد الحولين إلى نصف الثالث أو أكثر ، وأحمد أوقات الفطام إذا كان الوقت معتدلاً في الحر والبرد ، وقد تكامل نبات أسنانه وأضراسه ، وقويت على تقطيع الغذاء وصحته ، ففطامه عند ذلك الوقت أجود له ، ووقت الاعتدال الخريفي أنفع في الفطام من وقت الاعتدال الربيعي لأنه في الخريف يستقبل الشتاء والهواء يبرد فيه ، والحرارة الغريزية تنشأ فيه وتنموه ، والهضم يزداد قوة وكذلك شهوة(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ

(١) إغاثة اللهفان (٣٧٧/١) .

(٢) تحفة الودود (٢٠٥-٢٠٦) .

ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٥].

لما ذكر سبحانه التعريض بخطبة المرأة الدال على أن المعرض في قلبه رغبة فيها ومحبة لها ، وأن ذلك يحمله على الكلام الذي يتوصل به إلى نكاحها ، رفع الجناح عن التعريض، وانطواء القلب على ما فيه من الميل والمحبة، ونفي مواعدتهن سراً.

فقيل : هو النكاح . والمعنى : لا تصرحوا لهن بالتزويج ، إلا أن تُعرِّضوا تعريضاً . وهو القول المعروف .

وقيل : هو أن يتزوجها في عدتها سراً . فإذا انقضت العدة أظهر العقد ويدل على هذا قوله : ﴿ **ولا تعزموا عُقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله** ﴾ وهو انقضاء العدة . ومن رجح القول الأول قال : دلت الآية على إباحة التعريض بنفي الجناح ، وتحريم التصريح بالنهي عن المواعدة سراً ، وتحريم عقد النكاح قبل انقضاء العدة . فلو كان معنى مواعدة السر : هو إسرار العقد . كان تكرارا .

ثم عقب ذلك بقوله : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ أن تتعدوا ما حدّ لكم . فإنه مطلع على ما تسرون وماتعلنون .

ثم قال : ﴿ **واعلموا أن الله غفور حليم** ﴾ ولولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت ، فإنه سبحانه مطلع عليكم ، يعلم ما في قلوبكم ، ويعلم ما تعملون ، فإن وقعتم في شيء مما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار ، فإنه هو الغفور الحليم[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] .

قال المفسرون : التعريض بالخطبة أن يقول لها وهي في عدة الوفاة: إنك لجميلة، وإنك لحسنة، وإني إليك لشيق، وإن قدر الله شيئاً فهو يكون . وما أشبه ذلك[(٢)] .

(١) جلاء الأفهام (٩٤) .

(٢) الفوائد المشوق (١٣٤) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[البقرة : ٢٣٨]. قرنها بقوله : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] . وأتبعها بقوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا ﴾ [البقرة : ٢٤٠] .

(قيل) : فليس قبلها وبعدها ما يناسبها .

وأما آية الصلوات والمحافظة عليها فقد سئل عنها بعض أجلة أهل العلم رضي الله عنهم فقال لما أمر الله تبارك وتعالى بالمحافظة على حقوق الخلق ذكر لهم حقوقه وهو الصلاة ليجمع لهم في التعليم بين مراعاة حقوق الخلق والحق ليحصل لهم الكمال ثم لما كانت حقوق الآدميين منها ما هو متعلق بالحياة وقد ذكر ذلك قبلها ناسب أن يذكر الحقوق المتعلقة بالممات بعدها . وقد ذكر أهل التفسير رضي الله عنهم فيها أجوبة كثيرة اقتصرنا على هذا منها(١) .

قوله تعالى : ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة : ٢٤٠] . فإنها منسوخة بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾ [البقرة : ٢٣٤]. وهذا على خلاف الأصل، وقد يعتذر عن هذا بأن آية الحول إنما نسخت بالسنَّة ، لكن لا يتأتى هذا إلا على قول من يقول : إن السنة تنسخ الكتاب . وأما على قول إنها لا تنسخه فلا يتأتى هذا . وقد يقال : إن آية الحول نزلت قبل آية الأشهر ، ولكن آية الأشهر أثبتت في الصحف قبلها مكان آية الحول متقدمة في النزول متأخرة في التلاوة(٢).

قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[البقرة : ٢٤٧]. فكبر قدره في باطنه بالعلم ، وفي ظاهره باشتداد الجسم ، فكمل ظاهره وباطنه ومعناه وصورته ، وهذا أكمل من أن يكمل معناه وفكره دون ذاته وصورته ، وهذا **شأنه- سبحانه- فيما يريد تكميله من خلقه، فإنه يكمله ذاتاً ومعنى ظاهراً وباطناً**(٣).

---

(١) الفوائد المشوق (١٧٥-١٧٦) .

(٢) الفوائد المشوق (١٥٣) .

(٣) الصواعق المرسلة (١٣٧٦/٤) .

في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ... ﴾ [البقرة : ٢٤٨] .

قلت : اختلفوا هل هي عين قائمة بنفسها أو معنى ؟ على قولين :

أحدهما : أنها عين . ثم اختلف أصحاب هذا القول في صفتها . فروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « أنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الإنسان » .

ويروى عن مجاهد : أنها صورة هرة لها جناحان ، وعينان لهما شعاع . وجناحان من زمرد وزبرجد ، فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر .

وعن ابن عباس : هي طست من ذهب من الجنة . كان يغسل فيه قلوب الأنبياء .

وعن وهب بن منبه : هي روح من روح الله تتكلم . إذا اختلفوا في شيء أخبرتهم ببيان ما يريدون .

والثاني : أنها معنى . ويكون معنى قوله : ﴿ **وسكينة من ربكم** ﴾ أي ومجيئه إليكم : سكينة لكم وطمأنينة .

وعلى الأول : يكون المعنى : إن السكينة في نفس التابوت ويؤيده عطف قوله ﴿ **وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون** ﴾ قال عطاء بن أبي رباح ﴿ **فيه سكينة** ﴾ هي ما تعرفون من الآيات فتسكنون إليها .

وقال قتادة ، والكلبي : هي من السكون ، أي طمأنينة من ربكم ففي أي مكان كان التابوت اطمأنوا إليه وسكنوا[١] .

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٤-٥٠٥) .

سؤال الله تعالى الصبر

ولهذا أثنى على من يسأله أن يصبره فقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٠، ٢٥١] .

ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله تعالى الأعمال وتكوينه وإيجاده لها :

أحدها : قولهم ﴿ **أفرغ علينا صبرا** ﴾ والصبر فعلهم الاختياري ، فسألوه ممن هو بيده مشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه .

الثاني : قولهم ﴿ **وثبت أقدامنا**﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري ، ولكن التثبيت فعله والثبات فعلهم ، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله .

الثالث : قولهم : ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم ويصبرهم ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والخوف والرعب ؛ فيحصل النصر ، وأيضاً فإن كون الإنسان منصوراً على غيره إما أن يكون بأفعال الجوارح وهو واقع بقدرة العبد واختياره وإما أن يكون بالحجة والبيان والعلم وذلك أيضاً فعل العبد ، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه. وعند القدرية لا يدخل تحت مقدر الرب.

الرابع : قوله ﴿ **فهزموهم بإذن الله** ﴾ وإذنه ها هنا هو الإذن الكوني القدري أي بمشيئته وقضائه وقدره ليس هو الإذن الشرعي الذي بمعنى الأمر ، فإن ذلك لا يستلزم الهزيمة بخلاف إذنه الكوني وأمره الكوني فإن المأمور المكون لا يتخلف عنه البتة[(١)] .

قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ

---

(١) شفاء العليل (٦٣ - ٦٤) .

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة : ٢٥٥].

ففي آية الكرسي ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات ، وذكر معها قيوميته المقتضية لذاته وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من النوم والسِّنة والعجز وغيرها ، ثم ذكر كمال ملكه . ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه ، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته ، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلى علم شيء من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه ، ثم ذكر سعة كرسيه منبهاً به على سعته سبحانه وعظمته وعلوه ، وذلك توطئة بين يدي ذكر علوه وعظمته ، ثم أخبر عن كمال اقتداره ولا تعب . ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين على علو ذاته وعظمته في نفسه ، وقال في سورة طه :

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما) [طه : ١١٠] .

وقد اختلف في تفسير الضمير في (به) فقيل هو الله – سبحانه – أي ولا يحيطون بالله علما ، وقيل هو ما بين أيديهم وما خلفهم ، فعلى الأول يرجع إلى العالم ، وعلى الثاني يرجع إلى المعلوم ، وهذا القول يستلزم الأول من غير عكس لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم ، فأن لا يحيطوا علماً به – سبحانه – أولى وكذلك الضمير في قوله : ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه** ﴾ .

يجوز أن يرجع إلى الله ، ويجوز أن يرجع إلى ﴿ **ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ ، أي ولا يحيطون بشيء من علم ذلك إلا بما شاء ، فعلى الأول يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل ، وعلى الثاني : يكون مضافاً إلى المفعول ، والمقصود أنه لو كان ﴿ **العلي العظيم** ﴾ إنما يراد به اتصافه بالعلم والقدرة والملك ، وتوابع ذلك كان تكريراً بل دون التكرير ، فإنّ ذكر ذلك مفصلاً أبلغ من الدلالة عليه بما لا يفهم إلا بكلفة ، وكذلك إذا قيل : إن علوه وعظمته مجرد كونه أعظم من مخلوقاته وأفضل منها فهذا هضم عظيم لهاتين الصفتين العظيمتين ، وهذا لا يليق ولايحسن أن يذكر ويخبر به عنه إلا في معرض الرد لمن سوى بينه وبين غيره

في العبادة والتأله كقوله : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ءآلله خير أما يشركون) [النمل : ٥٩][١] .

يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وهذا نفي في معنى النهي ، أي لا تكرهوا أحداً على الدين ، نزلت هذه الآية في رجال من الصحابة كان لهم أولاد قد تهودوا وتنصروا قبل الإسلام ، فلما جاء الإسلام أسلم الآباء وأرادوا إكراه الأولاد على الدين ، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك حتى يكونوا هم الذين يختارون الدخول في الإسلام

والصحيح أن الآية على عمومها في حق كل كافر ، وهذا ظاهر على قول من يجوز أخذ الجزية من جميع الكفار ، فلا يكرهون على الدخول في الدين ، بل إما أن يدخلوا في الدين ، وإما أن يعطوا الجزية كما يقوله أهل العراق وأهل المدينة ، وإن استثنى هؤلاء بعض عبدة الأوثان . ومن تأمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبين له أنه لم يكره أحداً على دينه قط ، وأنه إنما قاتل من قاتله ، وأما من هادنه فلم يقاتله مادام مقيماً على هدنته لم ينقض عهده ، بل أمره الله تعالى أن يفي لهم بعهدهم ما استقاموا له ، كما قال تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) [التوبة : ٧] . ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرهم على دينهم ، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم ، فمَنَّ على بعضهم ، وأجلى بعضهم ، وقتل بعضهم . وكذلك لما هادن قريشاً عشر سنين لم يبدأهم بالقتال حتى بدأوا هم بقتاله ونقضوا عهده ، فعند ذلك غزاهم في ديارهم ، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق ، ويوم بدر أيضاً هم جاءوا لقتاله ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم[٢] .

---

(١) الصواعق المرسلة (١٣٧١/٤-١٣٧٢) .

(٢) هداية الحيارى (٣٧-٣٨) .

قوله تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

فوحد (ولي) الذين آمنوا وهو الله الواحد الأحد ، وجمع (ولي) الذين كفروا لتعددهم وكثرتهم . وجمع (الظلمات) وهي طرق الضلال والغي لكثرتها واختلافها ووحد (النور) وهو دينه الحق وطريقه المستقيم الذي لا طريق إليه سواه[١] .

وقال رحمه الله تعالى :

وهذا يتضمن إخراج الشياطين لهم من نور الفطرة إلى ظلمة الكفر والشرك، ومن النور الذي جاءت به الرسل من الهدى والعلم إلى ظلمات الجهل والضلال[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات[٣] .

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه : ﴿ **إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت** ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فهذا جعل نفسه نداً لله ، يحيي ويميت - بزعمه - كما يحيي الله ويميت ،

---

(١) بدائع الفوائد (١/١٢٠) .

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/٥٣٢) .

(٣) اجتماع الجيوش (٥) .

فألزمه إبراهيم أن طرد قولك أن تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التي يأتي بها الله منها ، وليس هذا انتقالاً كما زعم بعض أهل الجدل . بل إلزاماً على طرد الدليل إن كان حقاً(١) .

قصة إبراهيم :

القصة الثانية(٢) لإبراهيم : في محاجة المشرك الذي أخبر الله سبحانه عما جرى بينه وبينه في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فإن من تأمل موقع الاحتجاج وقطع المجادل فيما تضمنته هذه الآية وقف على أعظم برهان بأوجز عبارة ، فإن إبراهيم لما أجاب المحاج له في الله بأنه الذي يحيي ويميت ، أخذ عدو الله معارضته بضرب من المغالطة ، وهو أنه يقتل من يريد ويستبقي من يريد ، فقد أحيا هذا وأمات هذا ؛ فألزمه إبراهيم على طرد هذه المعارضة أن يتصرف في حركة الشمس من غير الجهة التي يأتي الله بها منها ، إذا كان بزعمه قد ساوى الله في الإحياء والإماتة . فإن كان صادقاً فليتصرف في الشمس تصرفاً تصح به دعواه . وليس هذا انتقالاً من حجة إلى حجة أوضح منها كما زعم بعض النظار ، وإنما هو إلزام للمدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة(٣) .

---

(١) الجواب الكافي (الداء والدواء) (١٩٤) .

(٢) وفي نسخة (الثابتة) .

(٣) الصواعق المرسلة (٢ / ٤٩٠ - ٤٩١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى ذكره : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١].

وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التي يضاعفها للمقرض ، ومثله سبحانه بهذا المثل إحضاراً لصورة التضعيف في الأذهان بهذه الحبة التي غيبت في الأرض ، فأنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، حتى كأن القلب ينظر إلى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين إلى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة ، فينضاف الشاهد العياني إلى الشاهد الإيماني القرآني ؛ فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالإنفاق .

وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة إذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات في قوله تعالى : (وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) [يوسف : ٤٣] . فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير. وقوله تعالى : ﴿ **والله يضاعف لمن يشاء** ﴾ قيل : المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق في نفسه لصفات المنفق وأحواله وفي شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع . وقيل : والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز المضاعفة في هذا المقدار إلى أضعاف كثيرة.

واختلف في تقدير الآية فقيل : مثل نفقة الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة ، وقيل : مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به فههنا أربعة أمور : منفق ، ونفقة ، وباذر ، وبذر ، فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه ؛ فذكر من شق الممثل المنفق ، إذ المقصود ذكر حاله وشأنه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها ، وذكر من شق الممثل به البذر ، إذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر الباذر لأن القرض

لا يتعلق بذكره ، فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والإيجاز المتضمن لغاية البيان .

وهذا كثير في أمثال القرآن بل عامتها ترد على هذا النمط ، ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة، ولا يضيق عنها عطاؤه فإن المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضي حصولها لكل منفق ، فإنه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ، ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها ؛ فإن كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته ؛ بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه . ثم قال تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ [البقرة : ٢٦٢] هذا بيان للقرض الحسن ما هو ؟ وهو أن يكون في سبيله أي في مرضاته ، والطريق الموصلة إليه ومن أنفعها سبيل الجهاد ، وسبيل الله خاص وعام ، والخاص جزء من السبيل العام ، وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى ، فالمَنُّ نوعان .

أحدهما : مَنٌّ بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه ، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه في عطائه المال ، وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه فلله المنة عليه من كل وجه . فكيف يشهد قلبه مِنَّة لغيره ؟ .

والنوع الثاني : أن يمُنَّ عليه بلسانه فيعتدي على من أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه اصطنعه ، وأنه أوجب عليه حقا وطوقه مِنَّة في عنقه فيقول : أما أعطيتك كذا وكذا ؟ ويعدد أياديه عنده . قال سفيان : يقول : أعطيتك فما شكرت . وقال عبد الرحمن بن زياد : كان أبي يقول : إذا أعطيت رجلاً شيئاً ورأيت أن سلامك يثقل عليه ، فكِنَّ سلامك عنه ، وكانوا يقولون : إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها ، وإذا أسدي إليكم صنيعة فلا تنسوها ، وفي ذلك قيل :

وإنَّ امرأ أهدى إلي صنيعة ... وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل : صنوان : من منح سائله ومنّ ، ومن منع نائله وضن ، وحظر الله

على عباده المنَّ بالصنيعة ، واختص به صفة لنفسه ؛ لأنه من العباد تكدير وتعيير ، ومن الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير .

وأيضا فإنه هو المنعم في نفس الأمر ، والعباد وسائط فهو المنعم على عبده في الحقيقة ، وأيضاً فالامتنان استعباد ، وكسر ، وإذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل إلا لله .

وأيضا فالمنة أن يشهد المعطي أنه هو رب الفضل ، والإنعام ، وأنه ولي النعمة ، ومسديها ، وليس ذلك في الحقيقة إلا لله ، وأيضاً فالمانُّ بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الآخذ مستعليا عليه غنيا عنه عزيزاً ، ويشهد ذل الآخذ وحاجته إليه وفاقته ولا ينبغي ذلك للعبد ، وأيضاً فإن المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى ، فبقي عوض ما أعطى عند الله . فأي حق بقي له قبل الآخذ ؟ فإذا امتن عليه فقد ظلمه ظلما بينا ، وادعى أن حقه في قبله .

ومن هنا والله أعلم بطلت صدقته بالمن ، فإنه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به ، ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنَّ عليه بما أعطاه ، بطلت معاوضته مع الله ومعاملته له ، فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته ، وإلٰهيته وحده ، وأنه يبطل عمل من نازعه في شيء من ربوبيته ، وإلٰهيته لا إله غيره ، ولا رب سواه .

ونبه بقوله : ﴿ **ثم لا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا ولا أذى** ﴾ على أن المن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه ، ولم يحصل له مقصود الإنفاق ، ولو أتى بالواو ، وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لأوهمت تقييد ذلك بالحال ، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلا لأثر الإنفاق مانعا من الثواب . فالمقارن أولى وأحرى ، وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال : ﴿ **هم أجرهم عند ربهم** ﴾ وقرنه بالفاء في قوله تعالى : (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم) [البقرة : ٢٧٤] فإن الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة ، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق

للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء ؛ فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله ، ولا يمن ولا يؤذي هو الذي يستحق الأجر المذكور ، لا الذي ينفق لغير الله ، ويمن ويؤذي بنفقته ؛ فليس المقام مقام شرط وجزاء . بل مقام بيان للمستحق دون غيره .

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سراً وعلانية . فذكر عموم الأوقات ، وعموم الأحوال فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية . فإنه سبب للجزاء على كل حال فليبادر إليه العبد ، ولا ينتظر به غير وقته وحاله ، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ، ولا نفقة النهار إلى الليل ، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ، ولا بنفقة السر وقت العلانية ، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه . فتدبر هذه الأسرار في القرآن فلعلك تظفر بها إذ تمر بك في التفاسير . والمنة والفضل لله وحده لا شريك له .

ثم قال تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٣] .

فأخبر أن القول المعروف وهو الذي تعرفه القلوب ولا تنكره . والمغفرة وهي العفو عمن أساء إليك خير من الصدقة بالأذى . فالقول المعروف إحسان . وصدقة بالقول والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة ، فهما نوعان من أنواع الإحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها ، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة . ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى لك بسبب رده ، فيكون عفوه عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه . هذا على المشهور من القولين في الآية .

والقول الثاني : أن المغفرة من الله أي : مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل ، خير من صدقة يتبعها أذى .

وفيها قول ثالث : أي : مغفرة وعفو من السائل إذ رُدَّ وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى ، وأوضح الأقوال هو الأول ، ويليه

الثاني ، والثالث ضعيف جداً لأن الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ . والمعنى : أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أن تصدق عليه وتؤذيه ، ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال : ﴿ **والله غني حليم** ﴾ وفيه معنيان .

أحدهما : أن الله غني عنكم لن يناله شيء من صدقاتكم وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة ، فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى ، فكيف يمنُّ بنفقته ويؤذي مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه ، ومع هذا فهو حليم إذ لم يعاجل المانَّ بالعقوبة . وفي ضمن هذا : الوعيد والتحذير .

والمعنى الثاني : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز ، والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة ، فكيف يؤذي أحدكم بمنه وأذاه مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره .

ثم قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

فتضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) [الحجرات : ٢] .

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة في أول هذه الرسالة فلا حاجة إلى إعادته .

وقد يقال : إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها إلا أنه ليس في اللفظ ما يدل على هذا التقييد، والسياق يدل على إبطالها به مطلقاً .

وقد يقال : تمثيله بالمرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المن والأذى المبطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان فإن الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله ، ويجاب عن هذا بجوابين :

أحدهما : أن التشبيه وقع في الحال التي يحبط بها العمل ، وهي حال المرائي والمانِّ المؤذي في أن كل واحد منهما يحبط العمل .

الثاني : أن الرياء لا يكون إلا مقارناً للعمل ؛ لأنه فعال من الرؤيا التي صاحبها يعمل ليرى الناس عمله ، فلا يكون متراخياً ؛ وهذا بخلاف المن والأذى فإنه يكون مقارناً ومتراخياً ؛ وتراخيه أكثر من مقارنته .

وقوله : ﴿ **كالذي ينفق** ﴾ إما أن يكون المعنى : كإبطال الذي ينفق فيكون قد شبه الإبطال بالإبطال ؛ أو المعنى : لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئاء الناس فيكون تشبيها للمنفق بالمنفق .

وقوله : ﴿ **فمثله** ﴾ أي : مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الأملس وفيه قولان : **أحدهما** : أنه واحد . **والثاني** : جمع صفوة ﴿ **عليه تراب فأصابه وابل** ﴾ وهو المطر الشديد ، فتركه صلداً وهو الأملس الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره ، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ؛ فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر ، لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به ، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر ، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها ، كما يذهب الوابل التراب الذي على الحجر ، فيتركه صلداً ، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله .

وفيه معنى آخر : وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملا يرتب عليه الأجر ، ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؛ ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه

وزكاته كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه . فلا ينبت ولا يخرج شيئاً .

ثم قال : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥].

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق . فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص . والتثبيت من النفس هو الصدق في البذل ؛ فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان ، إن نجا منهما كان مثله ما ذكره في هذه الآية .

إحداهما : طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضا من أغراضه الدنيوية . وهذا حال أكثر المنفقين .

الآفة الثانية : ضعف نفسه وتقاعسها وترددها . هل يفعل أم لا ؟

فالآفة الأولى : تزول بابتغاء مرضات الله .

والآفة الثانية : تزول بالتثبيت ، فإن تثبيت النفس تشجعها وتقويتها والإقدام بها على البذل .

وهذا هو صدقها وطلب مرضات الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها ، فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة – وهي البستان الكثير الأشجار – فهو مجتنٌّ بها أي مستتر ليس قاعا فارغا . والجنة بربوة وهو المكان المرتفع ، لأنها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض ، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدْرَجة الأهوية والرياح . وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها . فكانت أنضج ثمرا وأطيبه وأحسنه وأكثره ، فإن الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس ، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال ، وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى : ﴿ **أصابها وابل** ﴾ وهو المطر الشديد العظيم القدر ، فأدت ثمرتها وأعطت بركتها ، فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل . فهذا حال

السابقين المقربين ﴿ **فإن لم يصبها وابل فطل** ﴾ فهو دون الوابل . فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها تكتفي في إخراج بركتها بالطل ، وهذا حال الأبرار والمقتصدين في النفقة ، وهم درجات عند الله فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وأصحاب الطل مقتصدوهم .

فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف ، فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة ، بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم ، فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة .

واختلف في الضعفين . فقيل : ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه ، وضعفه مثله وقيل : ضعفه مثلاه وضعفاه ثلاثة أمثاله ، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله كلما زاد ضعفا زاد مثلا ، والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية ، فإنه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه ، فإذا زاد إلى المثل صار مثلين ، وهما الضعف . فلو قيل : لها ضعفان . لم يكن فرق بين المفرد والمثنى . فالضعفان عنده مثلان مضافان إلى الأصل ، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثاله مضافة إلى الأصل . وهكذا أبداً .

والصواب : أن الضعفين هما المثلان فقط ، الأصل ومثله . وعليه يدل قوله تعالى : ﴿ **فآتت أكلها ضعفين** ﴾ أي مثلين ، وقوله تعالى : (يضاعف لها العذاب ضعفين) [الأحزاب : ٣٠] . أي مثلين . ولهذا قال في الحسنات : (نؤتها أجرها مرتين) .

وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشؤه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل ، وليس كذلك ، بل المثل له اعتباران : إن اعتبر وحده فهو ضعف ، وأن اعتبر مع نظيره فهما ضعفان . والله أعلم .

واختلف في رفع قوله : ﴿ **فطل** ﴾ .

فقيل : هو مبتدأ خبره محذوف ، أي وطله يكفيها .

وقيل : خبر مبتدؤه محذوف تقديره . فالذي يرويها ويصيبها طل ، والضمير في ﴿ **أصابها** ﴾ إما أن يرجع إلى الجنة ، أو إلى الربوة ، وهما متلازمان .

ثم قال تعالى : ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ قال الحسن : هذا مثل ، قَلَّ والله من يعقله من الناس : شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته . وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا .

وفي صحيح البخاري عن عبيد بن عمير قال : قال عمر يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : « فيم هم يرون هذه الآية نزلت : ﴿ **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل** ﴾ الآية ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أولا نعلم . فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء ياأمير المؤمنين . فقال عمر : قل يابن أخي ، ولا تحقر بنفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل رجل عمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أحرق أعماله »[1] .

فقوله تعالى : ﴿ **أيود أحدكم** ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري ، وهو أبلغ من النفي والنهي وألطف موقعا ، كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا ، فتقول له : لا يفعل هذا عاقل ، أيفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة ؟

وقال تعالى : ﴿ **أيود أحدكم** ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام ، كما تقول أيفعل هذا أحد فيه خير ؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول : أيودون . وقوله : ﴿ **أيود** ﴾ أبلغ في الإنكار مما لو قيل : أيريد ، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها .

---

(١) رواه البخاري (٨ / ٤٩) في التفسير ، باب : قوله : (أيود أحدكم أن تكون له جنة ..) .

وقوله تعالى : ﴿ **أن تكون له جنة من نخيل وأعناب** ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار ، وأكثرها نفعا فإن منهما القوت والغذاء ، والدواء والشراب والفاكهة ، والحلو والحامض ، ويؤكلان رطبا ، ويابسا ، ومنافعهما كثيرة جداً .

وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما .

فرجحت طائفة النخيل ، ورجحت طائفة العنب ، وذكرت كل طائفة حججا لقولها ، فذكرناها في غير هذا الموضع .

وفصل الخطاب : أن هذا يختلف باختلاف البلاد . فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر . فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلا ولا كثيراً . لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة المعتدلة غير السبخة ، فينمو فيها فيكثر ، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة ، وهي لا تناسب العنب . فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها . والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها . والله أعلم .

والمقصود : أن هذين النوعين هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها . فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان ، ومع هذا فالأنهار تجري تحت هذه الجنة ، وذلك أكمل لها وأعظم في قدرها ، ومع ذلك فلم يعدم شيئا من أنواع الثمار المشتهاة ، بل فيها من كل الثمرات ، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب. فلا تنافي بين كونها من نخيل وأعناب، و ﴿ **فيها من كل الثمرات** ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى : (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أُكلها و لم تظلم منه شيئاً وفجَّرنا خِلالهما نهراً وكان له ثمر) [الكهف : ٣٢،٣٣] .

وقد قيل : إن الثمار في آية الكهف وفي آية البقرة المراد بها المنافع والأموال، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها . لقوله في البقرة : ﴿ **وله فيها من**

كل الثمرات ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **فأصابها** ﴾ أي الجنة ﴿ **إعصار فيه نار فاحترقت** ﴾ وفي الكهف (وأحيط بثمره فأصبح يُقلِّب كَفَّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها) وما ذلك إلا ثمار الجنة ، ثم قال تعالى : ﴿ **وأصابه الكبر** ﴾ هذا إشارة إلى شدة حاجته إلى جنته ، وتعلق قلبه بها من وجوه .

أحدها : أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها .

الثاني : أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه .

الثالث : أن له ذرية ، فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته .

الرابع : أنهم ضعفاء ، فهم كَلٌّ عليه ، لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم .

الخامس : أن نفقتهم عليه ، لضعفهم وعجزهم .

وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة ، لخطرها في نفسها ، وشدة حاجته وذريته إليها . فإذا تصورت هذا الحال وهذه الحاجة ، فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ، وهو الريح التي تستدير في الأرض ثم ترتفع في طبقات الجو كالعمود وفيها نار ، مرت بتلك الجنة فأحرقتها ، وصيرتها رماداً ، فصدق والله الحسن – هذا مثل قل من يعقله من الناس – ولهذا نبه الله سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل ، وحدا القلوب إلى التفكر فيه لشدة حاجتها إليه . فقال تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ .

فلو فكر العاقل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه ، فكذلك العبد إذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويحرقها من معاصي الله كانت كالإعصار ذي النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح .

فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغي لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها ، ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية . ولهذا استحق اسم الجهل . فكل من عصى الله فهو جاهل .

فإن قيل : الواو في قوله تعالى : ﴿ **وأصابه الكبر** ﴾ واو الحال أم واو العطف ؟ وإذا كانت للعطف فعلام عطفت ما بعدها ؟

قلت فيه وجهان :

أحدهما : أنها واو الحال ، اختاره الزمخشري [(١)] ، والمعنى : أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته .

والثاني : أن تكون للعطف على المعنى . فإن فعل التمني وهو قوله : ﴿ **أيود أحدكم** ﴾ لطلب الماضي كثيراً . فكان المعنى : أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر فجرى عليها ما ذكر .

وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن الإيمان : بالصفوان الذي عليه التراب ، فإنه لم ينبت شيئاً أصلا ، بل ذهب بذره ضائعاً لعدم إيمانه وإخلاصه . ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصاً بنيته لله ، ثم عرض له ما أبطل ثوابه : بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها ، ثم سلط عليها الأعصار الناري فأحرقها . فإن هذا نبت له شيء وأثمر له عمله ، ثم أحرقه ، والأول لم يحصل له شيء يدركه الحريق .

فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

ثم قال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة : ٢٦٧].

أضاف سبحانه الكسب إليهم ، وإن كان هو الخالق لأفعالهم ، لأنه فعلهم القائم بهم ، وأسند الإخراج إليه لأنه ليس فعلا لهم ، ولا هو مقدوراً لهم ، فأضاف مقدورهم إليهم وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه إليه . ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنه بالكلية .

---

(١) الكشاف للزمخشري (١ / ١٦٢) .

وخص سبحانه هذين النوعين وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي : إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك . فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب ، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع ، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما ، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ . فإن الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة ، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها ، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض ، فكان ذكرهما أهم .

ثم قال : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الردىء ، كما هو عادة أكثر النفوس : تمسك الجيد لها وتخرج الرديء للفقير .

ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم ، بل عن اتفاق إذ كان هو الحاضر إذ ذاك ، أو كان ماله من جنسه فإن هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم إخراج بعض ما من الله به عليه .

وموقع قوله : ﴿ **منه تنفقون** ﴾ موقع الحال، أي: لا تقصدوه منفقين منه.

ثم قال : ﴿ **ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه** ﴾ أي : لو كنتم أنتم المستحقين له وبُذل لكم ؛ لم تأخذوه في حقوقكم ، إلا بأن تتسامحوا في أخذه وتترخصوا فيه، من قولهم : أغمض فلان عن بعض حقه. ويقال للبائع : أغمض ، أي : لا تستقص . كأنك لا تبصر . وحقيقته : من إغماض الجفن ، فكأن الرائي لكراهته له لا يملأ عينه منه ، بل يغمض من بصره ، ويغمض عنه بعض نظره بغضا ، ومنه قول الشاعر :

لم يفتنا بالوتر قوم وللضـ　　ـيم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان :

أحدهما : كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون بذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له ؟ والله أحق من يختار له خيار الأشياء وأنفسها .

والثاني : كيف تجعلون له ما تكرهون لأنفسكم ، وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبا ؟ .

ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما ، فقال : ﴿ **واعلموا أن الله غني حميد** ﴾ فغناه وحمده يأبيان قبوله الردىء ، فإن قابل الرديء الخبيث إما أن يقبله لحاجته إليه ، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها ، وأما الغني عنه ، الشريف القدر الكامل الأوصاف فإنه لا يقبله .

ثم قال تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

هـذه الآيـة تتضمن الحض على الإنفاق ، والحث عليه بأبلغ الألفاظ ، وأحسن المعاني . فإنها اشتملت على بيان الداعي إلى البخل ، والداعي إلى البذل ، والإنفاق وبيان ما يدعو إليه داعي البخل ، وما يدعو إليه داعي الإنفاق ، وبيان ما يدعو به داعي الأمرين .

فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح : هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم . وهذا هو الداعي الغالب على الخلق ، فإن أحدهم يهم بالصدقة والبذل ؛ فيجد في قلبه داعياً يقول له : متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه ، وافتقرت إليه بعد إخراجه ، وإمساكه خير لك ، حتى لا تبقى مثل الفقير ، فغناك خير لك من غناه . فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل ، الذي هو من أقبح الفواحش . وهذا إجماع من المفسرين : أن الفحشاء ، هنا البخل . فهذا وعده ، وهذا أمره ، وهو الكاذب في وعده ، الغادر الفاجر في أمره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون ، فإنه يدلي من يدعوه بغروره ، ثم يورده شر الموارد . كما قيل :

دلاهمُ بغـرور ثـم أوردهـم إن الخبيـث لمـن والاه غـرار

هذا وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ، ولا نصيحة له ، كما ينصح الرجل أخاه ، ولا محبة في بقائه غنيا ، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته . وإنما وعده له بالفقر ، وأمره إياه بالبخل ؛ ليسيء ظنه بربه ، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه ؛ فيستوجب منه الحرمان .

وأما الله سبحانه فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه ، وفضلا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما في الدنيا ، أو في الدنيا والآخرة .

فهذا وعد الله ، وذاك وعد الشيطان . فلينظر البخيل والمنفق أيَّ الوعدين هو أوثق ؟ وإلى أيهما يطمئن قلبه ، وتسكن نفسه ؟ والله يوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء . وهو الواسع العليم .

وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ فإنه واسع العطاء ، عليم بمن يستحق فضله ، ومن يستحق عدله ؛ فيعطي هذا بفضله ، ويمنع هذا بعدله . وهو بكل شيء عليم .

فتأمل هذه الآيات ، ولا تستطل بسط الكلام فيها ، فإن لها شأناً لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه ، وفهم مراده : (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) [العنكبوت : ٤٣] .

وتأمل ختم هذه السورة ، التي هي سنام القرآن بأحكام الأموال ، وأقسام الأغنياء وأحوالهم . وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام : محسن ، وهم المتصدقون فذكر جزاءهم ومضاعفته ، وما لهم في قرض أموالهم للمليء الوفي سبحانه ، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ، ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والأذى ، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء ، ثم أمرهم أن يتقربوا إليه بأطيبها ، ولا يتيمموا أردأها وخبيثها ، ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش ، وأخبر أن استجابتهم لدعوته سبحانه ، وثقتهم بوعده أولى بهم . وأخبر أن هذا من حكمته التي يؤتيها من يشاء من عباده ، وأن من أوتيها ؛ فقد أوتي خيراً كثيراً : أوتي ما هو خير ، وأفضل من الدنيا كلها ؛ لأنه سبحانه وصف

الدنيا بالقلة ، فقال تعالى : (قل متاع الدنيا قليل) [النساء : ٧٧] . وقال تعالى : (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فدل على أن ما يؤتيه الله عبده من حكمته خير له من الدنيا وما عليها ، ولا يعقل هذا كل أحد ، بل لا يعقله إلا من له لب ، وعقل زكي . فقال تعالى : ﴿ **وما يذَّكَّر إلا أولوا الألباب** ﴾ .

ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به إليه من نذر ، فإنه يعلمه ، فلا يضيع لديه ، بل يعلم ما كان منه لوجهه ؛ فيتولى هو سبحانه مجازاته من واسع فضله ، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له ، فإنه ظالم لنفسه ، وما له من نصير .

ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم ، وأنه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها بعد أن تكون خالصة لوجهه ، فقال : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعمَّا هي** ﴾ [البقرة : ٢٧١] . أي : فنعم شيء هي ، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية ، فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه ؛ فيمنعه ذلك من إخراجها ، وينتظر بها الإخفاء ، فتفوت أو تعترضه الموانع ، ويحال بينه وبين قلبه ، أو بينه وبين إخراجها ، فلا يؤخر صدقته العلانية بعد حضور وقتها إلى وقت السر ، وهذه كانت حال الصحابة .

ثم قال : ﴿ **وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ فأخبر أن إعطاءها للفقير في خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها .

وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ، ولم يقل : وإن تخفوها فهو خير لكم ، فإن من الصدقة ما لم يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش ، وبناء قنطرة ، وإجراء نهر ، أو غير ذلك ، وأما إيتاؤها الفقراء ففي إخفائها من الفوائد : الستر عليه ، وعدم تخجيله بين الناس ، وإقامته مقام الفضيحة ، وأن يرى الناس أن هذه هي اليد السفلى ، وأنه لا شيء له فيزهدون في معاملته ومعاوضته ، وهذا قدر زائد عن الإحسان إليه بمجرد الصدقة ، مع تضمنه الإخلاص ، وعدم المراءاة وطلب المحمدة من الناس ، وكان إخفاؤها للفقير خيراً من إظهارها بين الناس ، ومن هذا مدح النبي صلى الله عليه وسلم صدقة السر ، وأثنى على فاعلها ، وأخبر

أنه أحد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيامة ، ولهذا جعله سبحانه خيراً للمنفق ، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته . ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم ؛ فإنه بما تعملون خبير .

ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم ، يعود عليهم أحوج ما كانوا إليه فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد إليها ، وإن نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصاً ؛ لأنها صادرة عن إيمانهم ، وإن نفقتهم ترجع إليهم وافية كاملة ، ولا يظلم منها مثقال ذرة .

وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادي الموفق لمعاملته . وإيثار مرضاته ، وأنه ليس على رسوله هداهم. بل عليه إبلاغهم. وهو سبحانه الذي يوفق من يشاء لمرضاته.

ثم ذكر المصرف الذي توضع فيه الصدقة ، فقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

فوصفهم بست صفات :

إحداها : الفقر .

الثانية : حبسهم أنفسهم في سبيله تعالى وجهاد أعدائه ، ونصر دينه ، وأصل الحصر : المنع ، فمنعوا أنفسهم من تصرفها في أشغال الدنيا ، وقصروها على بذلها لله ، وفي سبيله .

الثالثة : عجزهم عن الأسفار للتكسب ، والضرب في الأرض : هو السفر . قال تعالى : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) [المزمل : ٢٠] . وقال تعالى : (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) [النساء : ١٠١] .

الرابعة : شدة تعففهم : وهو حسن صبرهم ، وإظهارهم الغنى . يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم ، وعدم تعرضهم ، وكتمانهم حاجتهم .

الخامسة : أنهم يعرفون بسيماهم : وهي العلامة الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها . وهذا لا ينافي حسبان الجاهل أنهم أغنياء ، لأن الجاهل له ظاهر الأمر ، والعارف : هو المتوسم المتفرس الذي يعرف الناس بسيماهم . فالمتوسمون خواص المؤمنين ، كما قال تعالى : (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) [الحجر : ٧٥].

السادسة : تركهم مسألة الناس ، فلا يسألونهم إلحافاً . والإلحاف : هو الإلحاح . والنفي متسلط عليهما معا ، أي : لا يسألون ولايلحفون . فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف . وهذا كقوله :

على لاحب لا يهتدى لمناره

أي : ليس فيه منار فيهتدى به .

وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال : هو سؤال الإلحاف . فأما السؤال بقدر الضرورة – من غير إلحاف – فالأفضل تركه ولا يحرم .

فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة ، فألغاها أكثر الناس ، ولحظوا منها ظاهر الفقر ، وزيه من غير حقيقته . وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها ، ومن يعرفهم أعز . والله يختص بتوفيقه من يشاء ، فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم .

القسم الثاني : الظالمون ، وهم ضد هؤلاء ، وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر ، فإذا دعته الحاجة إليهم لم يُنفّسوا كُربته إلا بزيادة على ما يبذلونه له . وهم أهل الربا . فذكرهم تعالى بعد هذا فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨] .

فصدر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا ، وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية ، وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم ، ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم ، وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم ، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه . ثم أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء ، وأشده وهي محاربة

المرابي لله ورسوله ، فقال تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . ففي ضمن هذا الوعيد : أن المرابي محارب لله ولرسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجىء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا ، وقطع الطريق ، والسعي في الأرض بالفساد ؛ لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض ، قاطع الطريق على الناس : هذا بقهره وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله ، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله .

ثم قال : ﴿ **وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم** ﴾ يعني : إن تركتم الربا ، وتبتم إلى الله منه ، وقد عاقدتم عليه ، فإنما لكم رؤس أموالكم ، لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ ، ولا تنقصون منها ؛ فيظلمكم من أخذها . فإن كان هذا القابض معسراً ؛ فالواجب إنظاره إلى ميسرة ، وإن تصدقتم عليه ، وأبرأتموه ، فهو أفضل لكم وخير لكم ، فإن أبت نفوسكم ، وشحت بالعدل الواجب ، أو الفضل المندوب فذكروها يوماً ترجعون فيه إلى الله ، وتلقون ربكم ؛ فيوفيكم جزاء أعمالكم أحوج ما أنتم إليه ، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ، ثم عقبه بالظالم وهو المرابي ثم ذكر العادل : في آية التداين ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين** ﴾ [البقرة : ٢٨٢] . ولولا أن هذه تستدعي سفراً وحدها ، لذكرت بعض تفسيرها .

والغرض إنما هو التنبيه والإشارة ، وقد ذكر أيضاً العادل ، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان ، ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه ، والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه ، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الإسلام ، وأصول الإيمان ، ومقامات الإحسان ما يستدعي بيانه كتاباً مفرداً[١] .

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٩-٣٥٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١] . شبه سبحانه نفقة المنفق في سبيله ، سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر، بمن بذر بذراً؛ فأنبتت كل حبة منه سبع سنابل اشتملت كل سنبلة على مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه، ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها ؛ فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبيت عند النفقة ، وهو إخراج المال بقلب ثابت قد انشرح صدره بإخراجه ، غير جزع ولا هلع ولا متبعه نفسه ترجف يده وفؤاده ، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه بمواقعه ، وبحسب طيب المنفق وزكاته .

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه : شبه الإنفاق بالبذر ، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره ، باذر ماله في أرض زكية ، فمغله بحسب بذره وطيب أرضه وتعاهد البذر بالسقي ، ونفي الدغل ، والنبات الغريب عنه ، فإذا اجتمعت هذه الأمور لم تحرق الزرع نار ، ولا لحقته جائحة؛ جاء أمثال الجبال ، وكان مثله كمثل جنة بربوة : وهي المكان المرتفع الذي تكون الجنة فيه نصب الشمس والرياح ، فتتربى الأشجار هناك أتم تربية ، فنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر ، متتابع ؛ فرواها ونماها فآتت أكلها ضعفي ما يؤتيه غيرها ؛ بسبب ذلك الوابل ، فإن لم يصبها وابل فطل : مطر صغير القطر ، يكفيها لكرم منبتها ، يزكو على الطل ، وينمى عليه مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل .

فمن الناس من يكون إنفاقه وابلاً ، ومنهم من يكون إنفاقه طلا ، والله لا يضيع مثقال ذرة ، فإن عرض لهذا العامل ما يغرق أعماله ، ويبطل حسناته كان بمنزلة رجل له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، فإذا

كان يوم استيفاء الأعمال ، وإحراز الأجور ؛ وجد هذا العامل عمله قد أصابه ما أصاب صاحب هذه الجنة فحسرته حينئذ أشد من حسرة هذا على جنته .

فهذا مثل ضربه الله سبحانه في الحسرة لسلب النعمة عند شدة الحاجة إليها مع عظم قدرها ومنفعتها ، والذي ذهبت عنه قد أصابه الكبر والضعف فهو أحوج ما كان إلى نعمه ، ومع هذا فله ذرية ضعفاء لا يقدرون على نفعه ، والقيام بمصالحه ، بل هم في عياله فحاجته إلى نعمته حينئذ أشد ما كانت لضعفه وضعف ذريته ، فكيف يكون حال هذا إذا كان له بستان عظيم فيه من جميع الفواكه والثمر ، وسلطان ثمره أجل الفواكه وأنفعها ، وهو ثمر النخيل والأعناب ، فمغله يقوم بكفايته وكفاية ذريته ، فأصبح يوماً وقد وجده محترقاً كله كالصريم ، فأي حسرة أعظم من حسرته ؟ .

قال ابن عباس : هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره .

وقال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت .

وقال السدي : هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله ، ينقطع عند نفعها أحوج ما يكون إليه .

وسأل عمر بن الخطاب الصحابة يوماً عن هذه الآية ، فقالوا : الله أعلم ، فغضب عمر وقال : قولوا نعلم أو لا نعلم .

فقال ابن عباس : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، قال : قل يا ابن أخي ، ولا تحقر نفسك ، قال : ضرب مثلا لعمل ، قال : لأي عمل ؟ قال : لرجل غني يعمل بالحسنات ، ثم بعث الله له الشيطان ، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله كلها .

قال الحسن : هذا مثل ، قل والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه ، وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله ، إذا انقطعت عنه الدنيا .

فصـــل

فإن عرض لهذه الأعمال من الصدقات ما يبطلها من المن والأذى والرياء ، فالرياء يمنع انعقادها سبباً للثواب ، والمن والأذى يبطل الثواب الذي كانت سبباً له ، فمثل صاحبها ، وبطلان عمله كمثل صفوان ، وهو الحجر الأملس عليه تراب فأصابه وابل ، وهو المطر الشديد ، فتركه صلداً لا شيء عليه . وتأمل أجزاء هذا المثل البليغ ، وانطباقها على أجزاء الممثل به ؛ تعرف عظمة القرآن ، وجلالته فإن العجز في مقابلة قلب هذا المرائي والمان والمؤذي فقلبه في قسوته عن الإيمان والإخلاص والإحسان بمنزلة الحجر ، والعمل الذي عمله لغير الله بمنزلة التراب الذي على ذلك الحجر ، فقسوة ما تحته ، وصلابته تمنعه من النبات والثبات عند نزول الوابل فليس له مادة متصلة بالذي يقبل الماء ، وينبت الكلأ ، وكذلك قلب المرائي ليس له ثبات عند الأمر والنهي والقضاء والقدر ، فإذا نزل عليه وابل الوحي ؛ انكشف عنه ذلك التراب اليسير الذي كان عليه ، فبرز من تحته حجراً صلداً لا نبات فيه ، وهذا مثل ضربه الله سبحانه لعمل المرائي ونفقته لا يقدر يوم القيامة على ثواب شيء منه أحوج ما كان إليه ، وبالله التوفيق[1] .

قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

ممثلا لقبح الرياء المبطل للعمل ، والمن والأذى المبطل للصدقات بـ «صفوان» وهو الحجر الأملس ﴿ **عليه تراب** ﴾ غبار قد لصق به ﴿ **فأصابه مطر** ﴾ شديد ؛ فأزال ما عليه من التراب ﴿ **فتركه صلداً** ﴾ أملس لا شيء عليه .

وهذا المثل في غاية المطابقة لمن فهمه .

---

(١) إعلام الموقعين (١/٢٣٨-٢٤١) . ومدارج السالكين (١/٢٤١-٢٤٢) .

فـ « الصفوان » وهو الحجر . كقلب المرائي والمانّ .

و«الأذى» و«التراب» الذي لصق به: ما تعلق به من أثر عمله وصدقته .

و « الوابل » المطر الذي به حياة الأرض . فإذا صادفها لَيِّنة قابلة : نَبَتَ فيها الكلأ ، وإذا صادف الصخور والحجارة الصُّم : لم ينبت فيها شيئاً . فجاء هذا الوابل إلى التراب على الحجر ، فصادفه رقيقاً ؛ فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات . وهذا يدل على أن قبح « المن ، والأذى ، والرياء » مستقر في العقول ، فلذلك نبهها على شبهه ومثاله[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٥].

فإن كانت هذه الجنة التي بموضع عال حيث لا تحجب عنها الشمس والرياح ، وقد أصابها مطر شديد فأخرجت ثمرتها ضعفي ما يخرج غيرها ، إن كانت مستحسنة في العقل والحس . فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله لا لجزاء من الخلق ، ولا لشكور ، بل بثبات من نفسه ، وقوة على الإنفاق ، لا يخرج النفقة ، وقلبه يرجف على خروجها ، ويداه ترتعشان ، ويضعف قلبه ، ويخور عند الإنفاق ، بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة . ولما كان الناس في الإنفاق على هذين القسمين : كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت : كمثل الوابل ، ومثل نفقة الآخر كمثل الطل ، وهو المطر الضعيف . فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته ، وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه ، وضعفه . أفلا تراه سبحانه نبه العقول على ما فيها من استحسان هذا ، واستقباح فعل الأول[٢] .

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ، ونهيهم عن إخراج الرديء من المال : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٤٠-٢٤١) .

(٢) مدارج السالكين (١/٢٤١) .

أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] . يقول سبحانه : إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمداً ، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته ، وإنفاقكم إنما نفعه لكم ، وعائدته عليكم[١] .

قوله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

قيل : ﴿ **يعدكم الفقر** ﴾ يخوفكم به ، يقول : إن أنفقتم أموالكم ، افتقرتم . ﴿ **ويأمركم بالفحشاء** ﴾ قالوا : هي البخل في هذا الموضع خاصة ، ويُذكر عن مقاتل والكلبي : « كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فإنها البخل » .

والصواب : أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف ، فحذف موصوفها إرادة للعموم : أي بالفعْلَة الفحشاء ، والخلَّة الفحشاء ، ومن جملتها البخل ، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمْره : يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير ، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان ، فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه ، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها ، وسمى سبحانه تخويفه وعَدْ الانتظار الذي خوفه إياه ، كما ينتظر الموعود ما وعد به ، ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وهي المغفرة والفضل .

فالمغفرة : وقاية الشر .

والفضل : إعطاء الخير .

وفي الحديث المشهور[٢]: « إن للملك بقلب ابن آدم لمة ، وللشيطان لمة ،

---

(١) طريق الهجرتين (١٢٦) .

(٢) رواه الترمذي (٥ / ٢٠٤) في التفسير .
والطبري (٣ / ٦٦) .

فلمة الملك : إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾ الآية

فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار ، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره ، وآخر بضده ، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله ، وآخر بضده ، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان[1] .

قال تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

فقالت طائفة : يسألون الناس ما تدعو حاجتهم إلى سؤاله ، ولكن لا يلحفون فنفى الله عنهم سؤال الإلحاف ، لا مطلق السؤال .

قال ابن عباس : إذا كان عنده غداء ، لم يسأل عشاء ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء .

وقالت طائفة – منهم الزجاج ، والفراء وغيرهما – بل الآية اقتضت ترك السؤال مطلقا ؛ لأنهم وصفوا بالتعفف ، والمعرفة بسيماهم ، دون الإفصاح بالمسألة ؛ لأنهم لو أفصحوا بالسؤال ؛ لم يحسبهم الجاهل أغنياء .

ثم اختلفوا في وجه قوله تعالى : ﴿ **لا يسألون الناس إلحافاً** ﴾ .

فقال الزجاج : المعنى لا يكون منهم سؤال ، فيقع إلحاف ، كما قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) [المدثر : ٤٨] . أي : لا تكون شفاعة فتنفع . وكما في قوله : ﴿ **لا يقبل منها عدل** ﴾ [البقرة : ١٣٢] . أي : لا يكون عدل فيقبل ، ونظائره . قال امرؤ القيس :

على لاحب لا يُهتدى لمناره[2]

= وانظر كلام الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى على الحديث (٥٧١/٥، ٥٧٢) برقم ٦١٧٠) – تفسير الطبري ورواه ابن حبان (١٧١/٢) .

(١) إغاثة اللهفان (١٠٧/١–١٠٨) .

(٢) اللاحب : الطريق الواضح . (أساس البلاغة : ٤٠٤) .

أي : ليس له منار يهتدى به . قال ابن الأنباري ، وتأول الآية : لا يسألون البتة ؛ فيخرجهم السؤال في بعض الأوقات إلى الإلحاف ، فيجري هذا مجرى قولك : فلان لا يرجى خيره : أي ليس له خير فيرجى .

وقال أبو علي : لم يثبت في هذه الآية مسألة منهم لأن المعنى : ليس منهم مسألة ، فيكون منهم إلحاف .

قال : ومثل ذلك قول الشاعر :

لا يُفْـزِع الأرنبَ أهوالُهـا ولا تـرى الضَّبَّ بها ينحجـر

أي : ليس بها أرنب فتفزع لهولها ، ولا ضَبٌّ فينحجر .

وقال الفراء : نفى الإلحاف عنهم ، وهو يريد نفي جميع السؤال[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ .. ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

أي : الصدقات لهؤلاء . كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة ، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر ، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله. فكانوا وقفاً على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أهل الصفة . هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله .

وقيل : هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله .

وقيل : حبسهم الفقر والعُدْم عن الجهاد في سبيل الله .

وقيل : لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش . فلا يستطيعون ضرباً في الأرض . والصحيح : أنهم – لفقرهم وعجزهم وضعفهم – لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من يعرف حالهم أغنياء[(٢)] .

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٢) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٣٨) .

بطـــلان الحـــيل

وقد تبين بهذا بطلان الاستدلال على جواز الحيل الباطلة ، بقوله تعالى : ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فإن الله سبحانه قسم البياعات المقصودة التي شرعها لعباده ، ونصبها لمصالحهم في معاشهم ومعادهم إلى بيوع مؤجلة وبيوع حالة، ثم أمرهم أن يستوثقوا في البيوع المؤجلة بالكتاب ، والشهود ، وإن عدموا ذلك في السفر استوثقوا بالرهن ، حفظاً لأموالهم ، وتخلصاً من بطلان الحقوق بجحود أو نسيان ، ثم أخبرهم أنه لا حرج عليهم في ترك ذلك في البيوع الحالَّة ، لأمنهم فيها مفسدة التجاحد والنسيان .

فالمراد بالتجارة الدائرة : البيعات التي تقع غالباً بين الناس .

ولم يفهم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من التابعين ولا تابعيهم ، ولا أهل التفسير ، ولا أئمة الفقهاء منها : المعاملة الدائرة بالربا بين المترابيين ، بل فهموا تحريمها من نصوص تحريم الوبا ، ولا ريب أن دخولها في تلك النصوص أظهر من دخولها في هذه الآية .

ومما يدل عليه : أن هذه المعاملة الدائرة بينهما بالربا ، لا تكون في الغالب إلا مع أجل ، بأن يبتاع منه سلعة بثمن حال ، ثم يبيعها إياه بأكثر منه إلى أجل ، وذلك في الغالب مما يطلب عليه الشهود والكتاب - خشية الجحود .

قال : ﴿ **إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها** ﴾ ، فاستثنى هذا من قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ ، وهذه المعاملة الربوية قد اتفقا فيها على التداين إلى أجل مسمى ، واتفقا فيها على المائة بمائة وثلاثين ونحو ذلك ، فأين هي من التجارة الحاضرة ، التي يعرف الناس الفرق فيها بين التجارة والربا ؟ .

فالتجارة في كلام الله ورسوله ، ولغة العرب ، وعرف الناس : إنما تنصرف إلى البياعات المقصودة التي يقصد فيها الثمن والمثمن .

وأما ما تواطآ فيه على الربا محض ، ثم أظهرا بيعاً غير مقصودة لهما البتة ، يتوسلان به إلى أن يعطيه مائة حالة بمائة وعشرين مؤجلة ، فهذا ليس من التجارة المأذون فيها ، بل من الربا المنهي عنه . والله أعلم(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

فإن قيل : فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين ، وأنه لا يقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين .

قيل : القرآن لا يدل على ذلك ، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم ، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق ، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا إلى ما دونها ، فإن شهادة الرجل الواحد أقوى من شهادة المرأتين ، لأن النساء يتعذر غالباً حضورهن مجالس الحكام ، وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم ، ولم يقل سبحانه : احكموا بشهادة رجلين ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ، وقد جعل سبحانه المرأة على النصف من الرجل في عدة أحكام :

أحدها : هذا .

والثاني : في الميراث .

والثالث : في الدية .

والرابع : في العقيقة .

والخامس : في العتق .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٠٤-١٠٥) .

كما في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أعتق امرءاً مسلماً أعتق الله بكل عضو عنه عضواً من النار ، ومن أعتق امرأتين مسلمتين أعتق الله بكل عضو منهما عضواً من النار »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ فيها أن الشاهد إذا نسي شهادته فذكره بها غيره : لم يرجع إلى قوله حتى يذكرها ، وليس له أن يقلده ، فإنه سبحانه قال : ﴿ **فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ ولم يقل : فتخبرها ، وفيها قراءتان : التثقيل والتخفيف ، والصحيح أنهما بمعنى واحد من « الذّكر » وأبعد ممن قال : فيجعلها ذكراً لفظاً ومعنى ، فإنه سبحانه جعل ذلك علة للضلال الذي هو ضد الذكر ، فإذا ضلت أو نسيت ذكرتها الأخرى فذكرت ، وقوله ﴿ **أن تضل** ﴾ تقديره عند الكوفيين : لئلا تضل إحداهما ، ويطردون ذلك في كل ما جاء من هذا ، كقوله : (يبين الله لكم أن تضلوا) [النساء : ١٧٦] .

ويرد عليهم نص قوله : ﴿ **فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ إذ يكون تقديره لئلا تضل ، ولئلا تذكر .

وقدره البصريون بمصدر محذوف ، وهو الإرادة والكراهة والحذر ونحوها ، فقالوا : يبين الله لكم أن تضلوا ، أي : حذر أن تضلوا ، وكراهة أن تضلوا ونحوه ، ويشكل عليهم هذا التقدير في قوله : ﴿ **أن تضل إحداهما** ﴾ فإنهم إن قدره كراهة أن تضل إحداهما : كان حكم المعطوف عليه - وهو فتذكر - حكمه ، فيكون مكروهاً ، وإن قدروها : وإرادة أن تضل إحداهما كان الضلال مراداً .

---

(١) الذي في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منه عضواً من النار حتى فرجه بفرجه » .
البخاري (١١ / ٦٠٧) في كفارات الأعيان ، باب : قول الله تعالى (أو تحرير رقبة) .
ومسلم (٥ / ٧٤٣) في العتق .
وما ذكره المؤلف رحمه الله تعالى روى الترمذي قريباً منه (٤ / ١٠٠) في النذور والأيمان باب ما جاء في فضل من أعتق . والله أعلم .

والجواب عن هذا : أنه كلام محمول على معناه .

والتقدير : أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت ، وهذا مراد قطعاً . والله أعلم .

وقال شيخنا ابن تيمية رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ .

فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت . وهذا إنما يكون فيما يكون فيه الضلال في العادة ، وهو النسيان وعدم الضبط . وإلى هذا المعنى أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « أما نقصان عقلهن : فشهادة امرأتين بشهادة رجل » فبين أن شطر شهادتهن إنما هو لضعف العقل ، لا لضعف الدين . فعلم بذلك أن عدل النساء بمنزلة عدل الرجال . وإنما عقلها ينقص عنه . فما كان من الشهادة لا يخاف فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل . وما يقبل فيه شهادتهن منفردات إنما هو في أشياء تراها بعينها ، أو تلمسها بيدها ، أو تسمعها بأذنها ، من غير توقف على عقل ، كالولادة والاستهلال والارتضاع والحيض ، والنفاس ، والعيوب تحت الثياب . فإن مثل هذا لا ينسى في العادة ، ولا تحتاج معرفته إلى كمال عقل ، كمعاني الأقوال التي تسمعها من الإقرار بالدَّين وغيره . فإن هذه معان معقولة . ويطول العهد بها في الجملة[1] .

قوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

وقاست الأمة الرهن في الحضر على الرهن في السفر ، والرهن مع وجود الكاتب على الرهن مع عدمه ، فإن استدل على ذلك بأن النبي صلى الله عليه

(١) الطرق الحكمية (١٦٠ – ١٦١) .

وسلم رهن درعه في الحضر[(١)] ، فلا عموم في ذلك ، فإنما رهنها على شعير استقرضه من يهودي، فلابد من القياس، إما على الآية، وإما على السنة[(٢)].

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحملهم ما لا طاقة لهم به ، وقد فسر ذلك بالعشق ، وليس المراد اختصاصه به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به .

وقال مكحول : هو شدة الغلمة .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغي للمرء أن يذل نفسه »[(٣)] .

قال الإمام أحمد : تفسيره أن يتعرض من البلاء ما لا يطيق وهذا مطابقة لحال العاشق ، فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه . والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب[(٤)] .

* * *

(١) رواه البخاري في مواضع منها : (٦ / ١١٦) في الجهاد ، باب : ما قيل في ورع النبي صلى الله عليه وسلم .
ومسلم (٤ / ١٢٢) في المساقاة ، باب : جواز الرهن في الحضر والسفر .

(٢) إعلام الموقعين (١ / ٢٦٨) .

(٣) رواه الترمذي (٤ / ٤٥٣) في الفتن باب (٦٧) وقال : حسن غريب .
وابن ماجه (٢ / ١٣٣١) في الفتن ، باب : قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم) .
والطبراني في الكبير (١٢ / ٤٠٨) .
وقال الهيثمي : « رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير باختصار ، وإسناد الطبراني في الكبير جيد ، ورجاله رجال الصحيح غير زكريا بن يحيى بن أيوب الضرير ، ذكره الخطيب ، روى عن جماعة وروى عنه جماعة ولم يتكلم فيه أحد ... » . مجمع الزوائد (٧/٢٧٤) .
وحسنه الألباني (حديث رقم ٦١٣) من الصحيحة .

(٤) روضة المحبين (١٨١) .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٥، ٦] .

لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه في حاله وحدوثه وإتقان صنعه ، وعجائب خلقه ، وآيات قدرته ، وشواهد حكمته فيه[1] .

قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها ، وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة ، وهو سبعة أشياء : النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة ، والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه ، والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها ، والخيل المسومة التي هي عزّ أصحابها وفخرهم وحصونهم ، وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم ، والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم ، وغير ذلك من مصالحهم . والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم ، وغير ذلك .

(١) تحفة الودود (٢٣٣-٢٣٤) .

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة ، وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع ، وأبقى فقال : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد** ﴾ [آل عمران : ١٥] .

ثم ذكر سبحانه من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال : ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾ [آل عمران : ١٦] .

فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان : ثواب يتمتعون به وأكبر منه ، وهو رضوانه عليهم[١] .

قول الله تعالى ذكره .

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾
[آل عمران : ١٨،١٩] .

تضمنت هذه الآية الكريمة : إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع هذه الطوائف - التي فصل عقائدها الباطلة قبل هذا - والشهادة ببطلان أقوالهم ، ومذاهبهم . وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ، ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية ، والحقائق الإيمانية .

فتضمنت هذه الآية : أجل شهادة وأعظمها ، وأعدلها وأصدقها ، من أجلّ شاهد ، بأجل مشهود .

وعبارات السلف في « شهد » تدور على : الحكم والقضاء ، والإعلام والبيان والإخبار .

قال مجاهد : حكم وقضى . وقال الزجاج : بيّن . وقالت طائفة : أعلم وأخبر .

---

(١) عدة الصابرين (١٦٧-١٦٨) .

وهذه الأقوال كلها حق ، لا تنافي بينها . فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد ، وخبره وقوله ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه . فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة ، واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ونطقه به . وإن لم يُعلم به غيره ، بل يتكلم هو به مع نفسه ، ويذكرها وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ، ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط : تضمنت هذه المراتب الأربعة : علم الله سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره خلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

أما مرتبة العلم : فإن الشهادة بالحق تتضمنها ضرورة ، وإلا كان الشاهد شاهداً بما لا علم له به . قال الله تعالى : (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) [الزخرف : ٨٦] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على مثلها فاشهد » وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر : فمن تكلم بشيء وأخبر به فقد شهد به ، وإن لم يتلفظ بالشهادة . قال تعالى : (قل هَلُمَّ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) [الأنعام : ١٥٠] . وقال تعالى : (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويُسألون) [الزخرف : ١٩] . فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ، ولم يؤدوها عند غيرهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » وشهادة الزور : هي قول الزور ، كما قال تعالى : (واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) [الحج : ٣١] . وعند هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله » فسمى قول الزور شهادة ، وسمى الله تعالى إقرار العبد على نفسه شهادة ، قال تعالى : (يا أيها الذين

آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) [المائدة : ١٣٥] . فشهادة المرء على نفسه : هي إقرار المرء على نفسه . وفي الحديث الصحيح في قصة ماعز « فلما شهد على نفسه أربع مرات رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقال تعالى : (قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) [الأعراف : ٣٧] .

وهذا وأضعافه يدل على أن الشاهد عند الحاكم وغيره لا يشترط في قبول شهادته أن يتلفظ بلفظ الشهادة ، كما هو مذهب مالك وأهل المدينة ، وظاهر كلام أحمد ، ولا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين اشتراط ذلك . وقد قال ابن عباس « شهد عندي رجال مَرْضِيُّون –وأرضاهم عندي عمر– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الصلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس »(١) ومعلوم أنهم لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ، والعشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة : لم يتلفظ في شهادته لهم بلفظ الشهادة ، بل قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلى في الجنة – الحديث »(٢) .

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فقد دخل في الإسلام ، وشهد شهادة الحق ، ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة . وقد دخل في قوله صلى الله عليه وسلم « حتى يشهدوا : أن لا إله إلا الله » وفي اللفظ الآخر « حتى يقولوا : لا إله إلا الله » فدل على أن قولهم « لا إله إلا الله » شهادة منهم ، وهذا أكثر من أن تذكر شواهده في الكتاب والسنة ، فليس مع من اشترط لفظ الشهادة دليل يعتمد عليه . والله أعلم .

وأما مرتبة الإعلام والإخبار : فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل .

---

(١) رواه البخاري (٢ / ٦٩) في مواقيت الصلاة ، باب : الصلاة بعد الفجر .
ومسلم (٢ / ٤٧٦) في صلاة المسافرين ، باب : الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها .

(٢) رواه الترمذي (٥ / ٥٦٠) في المناقب ، باب : مناقب عبد الرحمن بن عوف .
وأبو داود (١٢ / ٤٠١ ، ٤٠٢) في السنة ، باب : في الخلفاء .

وهذا شأن كل مسلم معلِّم لغيره بأمر : تارة يعلمه بقوله ، وتارة بفعله . ولهذا كان من جعل داراً مسجداً وفتح بابها لكل من دخل إليها ، وأذن بالصلاة فيها — معلماً أنها وقف ، وإن لم يتلفظ به . وكذلك من وُجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسار — معلماً له ولغيره : أنه يحبه ، وإن لم يتلفظ بقوله . وكذلك بالعكس .

وكذلك شهادة الرب جل جلاله وبيانه وإعلامه : يكون بقوله تارة ، وبفعله تارة أخرى .

فالقول : هو ما أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، مما قد علم بالاضطرار : أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وأخبر بذلك ، وأمر عباده أن يشهدوا به .

وشهادته سبحانه ﴿ **أنه لا إله إلا هو** ﴾ معلومة من جهة كل من بلَّغ عنه كلامه .

وأما بيانه وإعلامه بفعله : فهو ما تضمنه خبره تعالى عن الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل والفطرة .

وهذا أيضاً يستعمل فيه لفظ الشهادة ، كما يستعمل فيه لفظ الدلالة ، والإرشاد والبيان ، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره ، كما يبينه الشاهد والمخبر بل قد يكون البيان بالفعل أظهر وأبلغ . وقد يسمى شاهد الحال نطقاً وقولا له وكلاما ، لقيامه مقامه ، وأدائه مؤداه . كما قيل :

وقالت العينان سمعاً وطاعة وحَدَّرتا بالدُّر لمَّا يُثَقَّب

وقال الآخر :

شكى إليَّ جملي طول السُّرى صبراً جُميلي فكلانا مبتلى

وقال الآخر :

امتلأ الحوض وقال قَطْني مهلاً رويداً قد ملأت بطني

ويسمى هذا شهادة أيضاً ، كما في قوله تعالى : (ما كان للمشركين أن

يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) [التوبة : ١٧] . فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلون من أعمال الكفر وأقواله ، فهي شهادة بكفرهم ، وهم شاهدون على أنفسهم بما شهدت بها عليهم .

والمقصود : أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه . فإن دلالتها إنما هي بخلقه وجعله ، ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية ، فتطابقت شهادة القول وشهادة الفعل ، كما قال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] . أي : أن القرآن هو الحق فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية الكلامية .

وهذه الشهادة الفعلية : قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير .

قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه : أنه لا إله إلا هو .

فصـــل

وأما المرتبة الرابعة : وهي الأمر بذلك والإلزام به ، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه ، وتتضمنه . فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به ، وقضى وأمر ، وألزم عباده به كما قال تعالى : (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) [الإسراء : ٢٣] . وقال تعالى : (وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد) [النحل: ٥١] وقال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [البينة : ٥] . وقال تعالى : (لا تجعل مع الله إلهاً آخر) [الإسراء : ٢٢] . وقال تعالى : (فلا تدع مع الله إلهاً آخر) [الشعراء : ٢١٣] . والقرآن كله شاهد بذلك .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد : « أنه لا إله إلا هو » فقد أخبر ، وبين ، وأعلم وحكم وقضى : أن ما سواه ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم . فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا

تصلح الإلهية لغيره . وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلهاً ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهاً . وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات ، كما إذا رأيت رجلا يستفتي ، أو يستشهد ، أو يستطب من ليس أهلا لذلك ، ويدع من هو أهل ، فتقول له : هذا ليس بمفت ، ولا شاهد ، ولا طبيب ، المفتي فلان ، والشاهد فلان ، والطبيب فلان . فإن هذا أمر منك ونهي .

وأيضاً فإن الآية دلت أنه وحده هو المستحق للعبادة . فإذا أخبر أنه وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم . فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده .

وأيضاً : فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية ، ويقال للجمل الخبرية : قضية وحكم ، وقد حكم فيها بكيت وكيت . قال تعالى : (ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله إنهم لكاذبون أ٭ طفى البنات على البنين ما لكم كيف تحكمون) [الصافات : ١٥١،١٥٢] لكن هذا حكم لا إلزام معه ، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو : متضمن للإلزام . والله سبحانه أعلم .

فصـــل

وقوله تعالى : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ .

« القسط » هو : العدل . فشهد سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده ، وبالوحدانية في عدله . والتوحيد والعدل : هما جماع صفات الكمال . فإن التوحيد يتضمن تفرده سبحانه بالكمال والجلال ، والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه . والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب ، وموافقة الحكمة .

فهذا توحيد الرسل وعدلهم : إثبات حقائق الأسماء والصفات على ما يليق بالرب سبحانه ، والأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإثبات القدر ، والحِكم

والغايات المحمودة بفعله وأمره ، لا توحيد الجهمية والمعتزلة والقدرية ، الذي هو إنكار الصفات ، وحقائق الأسماء الحسنى . وعدلهم ، الذي هو التكذيب بالقدر ، أو نفي الحكم والغايات ، والعواقب الحميدة التي يفعل الرب لأجلها ويأمر .

وقيامه سبحانه بالقسط في شهادته : يتضمن أموراً :

أحدها : أنه قائم بالقسط في هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق ، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق . فلا أعدل من توحيد الرسل ، ولا أظلم من الشرك . فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولا وفعلا ، حيث شهد بها وأخبر ، وأعلم عباده وبَيَّن لهم تحقيقها وصحتها ، وألزمهم بمقتضاها ، وحكم به ، وجعل الثواب والعقاب عليها ، وجعل الأمر والنهي من حقوقها وواجباتها .

فالدين كله من حقوقها . والثواب كله عليها . والعقاب كله على تركها . وهذا هو العدل الذي قام به الرب تعالى في هذه الشهادة .

فأوامره كلها تكميل لها ، وأمر بأداء حقوقها . ونواهيه كلها صيانة لها عما يهدمها ويضادها .

وثوابه كله عليها ، وعقابه كله على تركها ، وترك حقوقها .

وخلقه السموات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها .

وهي الحق الذي خلقت به المخلوقات . وضدها : هو الباطل والعبث الذي نزه الله نفسه عنه ، وأخبر أنه لم يخلق به السموات والأرض .

قال تعالى رداً على المشركين المنكرين لهذه الشهادة : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) [ص : ٢٧] . وقال تعالى : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون) [الأحقاف : ١-٣] . وقال تعالى : (وهو الذي جعل الشمس ضياء

والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) [يونس : ٥] ، (أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) [الروم : ٨] . وقال تعالى : (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق) [الحجر : ٨٥] . وهذا كثير في القرآن .

والحق الذي خلقت به السموات والأرض ، ولأجله : هو التوحيد وحقوقه : من الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، والشرع والقدر ، والخلق . والثواب والعقاب : قائم بالعدل . والتوحيد صادر عنهما . وهذا هو الصراط المستقيم الذي عليه الرب سبحانه وتعالى : قال تعالى حكاية عن نبيه هود أنه قال : (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) [هود : ٥٦] . فهو سبحانه على صراط مستقيم في قوله وفعله . فهو يقول الحق ويفعل العدل : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مُبَدِّل لكلماته وهو السميع العليم) [الأنعام : ١١٥] . (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) [الأحزاب : ٤] .

فالصراط المستقيم الذي عليه ربنا تبارك وتعالى : هو مقتضى التوحيد والعدل قال تعالى : (وضَرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم) [النحل : ٧٦] .

والصنم مثل العبد الذي هو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير .

والمقصود : أن قوله تعالى : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ هو كقوله : (إن ربي على صراط مستقيم) .

وقوله : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ نصب على الحال ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه حال من الفاعل في ﴿ **شهد الله** ﴾ والعامل فيه معنى الفعل ،

والمعنى على هذا : شهد الله حال قيامه بالقسط : أنه لا إله إلا هو .

والثاني : أنه حال من قوله « هو » والعامل فيها معنى النفي ، أي لا إله إلا هو حال كونه قائماً بالقسط .

وبين التقديرين فرق ظاهر : فإن التقدير الأول يتضمن أن المعنى : شهد الله متكلما بالعدل به ، آمراً به ، فاعلا له ، مجازيا عليه : أنه لا إله إلا هو . فإن العدل يكون في القول والفعل ، و « المقسط » هو العادل في قوله وفعله . فشهد الله قائماً بالعدل قولاً وفعلا : أنه لا إله إلا هو . وفي ذلك تحقيق لكون هذه الشهادة شهادة عدل وقسط . وهي أعدل شهادة ، كما أن المشهود به أعدل شيء ، وأصحه وأحقه . وذكر ابن السائب[1] وغيره في سبب نزول الآية : ما يشهد بذلك. وهو « أن حبرين من أحبار الشام قدما على النبي صلى الله عليه وسلم . فلما أبصرا المدينة ، قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بمدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان . فلما دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم قالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم قالا : وأحمد ؟ قال : نعم . قالا : نسألك عن شهادة . فإن أخبرتنا بها آمنا بك . قال سلاني قالا : أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله فنزلت (شهد الله أنه لا إله إلا هو) الآية » .

وإذا كان القيام بالقسط يكون في القول والفعل : كان المعنى : أنه كان سبحانه يشهد ، وهو قائم بالعدل عالم به ، لا بالظلم . فإن هذه الشهادة تضمنت قولا وعملا . فإنها تضمنت أنه هو الذي يستحق العبادة وحده دون غيره ، وأن الذين عبدوه وحده هم المفلحون السعداء . وأن الذين أشركوا به غيره : هم الضالون الأشقياء . فإذا شهد قائماً بالعدل المتضمن جزاء المخلصين بالجنة ، وجزاء المشركين بالنار : كان هذا من تمام موجب الشهادة ، وتحقيقها . وكان قوله : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ تنبيهاً على جزاء الشاهد بها والجاحد لها . والله أعلم .

---

(١) ابن السائب ، وهو الكلبي ، مرت ترجمته ص (١٢٦) في سورة الفاتحة .
وهو متروك الحديث .
ومن العجيب كثرة رواية المفسرين عنه مع المعرفة بحاله .

فصـــل

وأما التقدير الثاني : – وهو أن يكون قوله ﴿ **قائماً** ﴾ حالاً مما بعد ﴿ **إلا** ﴾ – فالمعنى : أنه لا إله إلا هو قائماً بالعدل ، فهو وحده المستحق الإلهية ، مع كونه قائماً بالقسط .

قال شيخنا : وهذا التقدير أرجح . فإنه يتضمن أن الملائكة وأولي العلم ، يشهدون له بأنه لا إله إلا هو وأنه قائم بالقسط .

قلت : مراده : أنه إذا كان قوله ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ حالاً من المشهود به : فهو كالصفة له . فإن الحال صفة في المعنى لصاحبها . فإذا وقعت الشهادة على ذي الحال وصاحبها ، كان كلاهما مشهوداً به . فيكون الملائكة وأولو العلم قد شهدوا بأنه قائم بالقسط ، كما شهدوا بأنه لا إله إلا هو .

والتقدير الأول لا يتضمن ذلك . فإنه إذا كان التقدير : شهد الله قائماً بالقسط : أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولوا العلم يشهدون أنه لا إله إلا هو – كان القيام بالقسط حالاً من اسم الله وحده .

وأيضاً : فكونه قائماً بالقسط فيما شهد به أبلغ من كونه حالا من مجرد الشهادة .

فإن قيل : فإذا كان حالا من ﴿ **هو** ﴾ فهلا اقترن به ؟ ولِمَ فُصِل بين صاحب الحال وبينها بالمعطوف ، فجاء متوسطاً بين صاحب الحال وبينها ؟

قلت : فائدته ظاهرة . فإنه لو قال : شهد الله أنه لا إله هو قائما بالقسط والملائكة وأولو العلم – أوهَمَ عطف الملائكة وأولي العلم على الضمير في قوله ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ ويحسن العطف لأجل الفصل .. وليس المعنى على ذلك قطعاً . وإنما المعنى على خلافه . وهو أن قيامه بالقسط مختص به كما أنه مختص بالإلهية . فهو وحده الإله المعبود المستحق للعبادة ، وهو وحده المجازي المثيب

المعاقب بالعدل .

قوله ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ ذكر محمد بن جرير الطبري أنه قال : الأولى وصف وتوحيد . والثانية : رسم وتعليم ، أي قولوا : لا إله إلا هو[١] .

ومعنى هذا : أن الأولى تضمنت أن الله سبحانه شهد بها وأخبر بها . والتالي للقرآن إنما يخبر عن شهادة الله ، لا عن شهادته هو ؛ وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه ، فأعاد سبحانه ذكرها مجردة ليقولها التالي ؛ فيكون شاهداً هو بها أيضاً .

وأيضاً : فالأولى خبر عن الشهادة بالتوحيد ، والثانية خبر عن نفس التوحيد . وختم بقوله ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ فتضمنت الآيات توحيده وعدله ، وعزته وحكمته .

فالتوحيد يتضمن ثبوت صفات كماله، ونعوت جلاله، وعدم المماثل له فيها، وعبادته وحده لا شريك له .

والعدل يتضمن وضعه الأشياء موضعها ، وتنزيلها منازلها ، وأنه لم يخص شيئاً منها إلا بمخصص اقتضى ذلك ، وأنه لا يعاقب من لا يستحق العقوبة ، ولا يمنع من يستحق العطاء ، وإن كان هو الذي جعله مستحقاً .

والعزة تتضمن كمال قدرته ، وقوته وقهره .

والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته ، وأنه أمر ونهى ، وخلق وقدر ، لما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد .

فاسمه « العزيز » يتضمن الملك . واسمه « الحكيم » يتضمن الحمد ، وأول الآية يتضمن التوحيد ، وذلك حقيقة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » .

---

(١) لم أجد هذا القول لابن جرير في تفسيره في النسختين اللتين بين يدي (٣ / ٢٠٩ ، ٢١٠) ط : الحلبي و (٦ / ٢٦٨ - ٢٧١) ط : المعارف تحقيق محمود وأحمد شاكر .

وذلك أفضل ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبيون من قبله[١] .

و « الحكيم » الذي إذا أمر بأمر كان المأمور به حسناً في نفسه ، وإذا نهى عن شيء كان المنهي عنه قبيحاً في نفسه ، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً ، وإذا فعل فعلا كان صواباً ؛ وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره .

وهذا الوصف على الكمال : لا يكون إلا لله وحده .

فتضمنت هذه الآية وهذه الشهادة وحدانيته المنافية للشرك ، وعدله المنافي للظلم ، وعزته المنافية للعجز ، وحكمته المنافية للجهل والعيب .

ففيها : الشهادة له بالتوحيد والعدل والقوة ، والعلم والحكمة ، ولهذا كانت أعظم شهادة .

ولا يقوم بهذه الشهادة على وجهها من جميع الطوائف . إلا أهل السنة . وسائر طوائف أهل البدع لا يقومون بها .

فالفلاسفة أشد الناس إنكاراً لها ، وجحوداً لمضمونها من أولها إلى آخرها .

وطوائف الاتحادية : هم أبعد خلق الله منها من كل وجه .

وطائفة الجهمية : تنكر حقيقتها من وجوه :

منها : أن الإله هو الذي تألهه القلوب محبة له واشتياقاً إليه ، وإنابة .

---

(١) رواه مالك في الموطأ عن طلحة بن عبد الله بن كريز ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له».
الموطأ (١ / ٤٢٢ ، ٤٢٣) في الحج ، باب : جامع الحج .
وقال الإمام الكبير ابن عبد البر رحمه الله تعالى « لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث ، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسنداً من وجه يحتج بمثله ، وقد جاء مسنداً من حديث علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمرو بن العاص » التمهيد (٦ / ٣٩) .
ورواه الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٥ / ٥٣٤) في الدعوات ، باب : في دعاء يوم عرفة .

وعندهم : أن الله لا يِحبُّ ، ولا يُحَبّ .

ومنها : أن الشهادة كلامه وخبره عما شهد به . وهو عندهم : لا يقول ولا يتكلم ، ولا يشهد ولا يخبر .

ومنها : أنها تضمنت مباينته لخلقه بذاته وصفاته وعند فرعونيهم : أنه لا يباين الخلق ولا يحايثهم ، وليس فوق العرش إله يعبد ، ولا رب يصلى له ويُسجد . وعند حلوليتهم : أنه حال في كل مكان بذاته ، حتى في الأمكنة التي يستحيى من ذكرها . فهؤلاء الجهمية ، وأولئك نفاتهم .

ومنها : أن قيامه بالقسط في أفعاله وأقواله ، وعندهم : أنه لم يقم به فعل ، ولا قول البتة ، وأن قوله مخلوق من بعض المخلوقات ، وفعله هو المفعول المنفصل ، فأما أن يكون له فعل يكون به فاعلا حقيقة فلا .

ومنها : أن القسط عندهم لا حقيقة له ، بل كل ممكن فهو قسط وليس في مقدوره ما يكون ظلماً ولا قسطا بل الظلم عندهم هو المحال الممتنع لذاته ، والقسط : هو الممكن . فنزه نفسه سبحانه - على قولهم - عن المحال الممتنع لذاته ، الذي لا يدخل تحت القدرة .

ومنها : أن العزة هي القوة والقدرة . وعندهم : لا يقوم به صفة .

ومنها : أن الحكمة هي الغاية التي يفعل لأجلها ، وتكون هي المطلوبة بالفعل ، ويكون وجودها أولى من عدمها . وهذا عندهم ممتنع في حقه سبحانه وتعالى . فلا يفعل لحكمة ، ولا غاية لفعله ولا أمره . وما ثم إلا محض المشيئة المجردة عن الحكمة والتعليل .

ومنها : أن الإله : هو الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى . وهو الذي يفعل بقدرته ، ومشيئته وحكمته . وهو الموصوف بالصفات والأفعال ، المسمى بالأسماء التي قامت به حقائقها ومعانيها . وهذا لا يثبته على الحقيقة إلا أتباع الرسل ، وهم أهل العدل والتوحيد على الحقيقة .

فصـــل

فالجهمية والمعتزلة[١] تزعم أن ذاته لا تحب ، ووجهه لا يراد ، ولا يلتذ بالنظر إليه ، ولا تشتاق القلوب إليه ، فهم في الحقيقة منكرون لإلهيته .

والقدرية : تنكر دخول أفعال الملائكة والجن والإنس وسائر الحيوان تحت قدرته ومشيئته وخلقه . فهم منكرون في الحقيقة لكمال عزته وملكه .

والجبرية : تنكر حكمته ، وأن يكون له في أفعاله وأوامره غاية يفعل ويأمر لأجلها . فهم منكرون في الحقيقة لحكمته وحمده .

وأتباع ابن سينا[٢] والنصير الطوسي[٣] وفروخهما : ينكرون أن يكون ربهم ماهية غير الوجود المطلق ، وأن يكون له وصف ثبوتي زائد على ماهية

---

(١) المعتزلة ، فرقة نشأت في العصر الأموي ورأسها (واصل بن عطاء) كان ممن يجلسون إلى الحسن البصري ، فتكلم في مسألة مرتكب الكبيرة ، فقال واصل « أنا أقول : إنه في منزلة بين المنزلتين ، واعتزلهم ، واستقل بمجلسه .
انظر : عقائدهم وفرقهم في مقالات الإسلاميين (١ / ٢٣٥) .
وتاريخ المذاهب الإسلامية (١٢٤) .

(٢) ابن سينا : الفيلسوف ، أبو علي ، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي .
صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق ، توفي في سنة ثمان وعشرين وأربع مئة .
قال ابن القيم : إمام الملحدين ، كان من القرامطة الباطنية – إغاثة اللّهفان (٢ / ٢٦٧) .
وصدق ابن القيم ، فالناظر بعين الإنصاف يرى مقدار ما سببه ابن سينا على المسلمين بتصانيفه ، وقد رد على ضلالاته وفندها شيخ الإسلام ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل) .
راجع سير أعلام النبلاء (١٧ / ٥٣٠ ، ٥٣١) وفيات الأعيان (٢ / ١٥٧) .

(٣) النصير الطوسي ، محمد بن محمد بن الحسن ، نصير الشرك والكفر الملحد ، وزير الملاحدة ، وزير هولاكو ، شفى نفسه من أتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأهل دينه ، فعرضهم على السيف ، حتى شفى إخوانه من الملاحدة ،..
كذا قال ابن القيم ولكلامه تتمة في إغاثة اللهفان (٢ / ٢٦٧) .
وانظر فوات الوفيات (٢ / ٣٠٧) .
شذرات الذهب (٥ / ٣٣٩) .

الوجود . فهم في الحقيقة منكرون لذات ربنا وصفاته وأفعاله ، لا يتحاشون من ذلك .

والاتحادية[1] : أدهى وأمرُّ . فإنهم رفعوا القواعد من الأصل ، وقالوا : ما ثم وجود خالق ووجود مخلوق ، بل الخلق المشبَّه هو عين الحق المنزه . كل ذلك من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .

فهذه الشهادة العظيمة : كل هؤلاء هم بها غير قائمين . وهي متضمنة لإبطال ما هم عليه ورده ، كما تضمنت إبطال ما عليه المشركون ورده . وهي مبطلة لقول طائفتي الشرك والتعطيل . ولا يقوم بهذه الشهادة إلا أهل التوحيد والإثبات الذين يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينفون عنه مماثلة المخلوقات ، ويعبدونه وحده لا يشركون به شيئاً .

فصـــل

وإذا كانت شهادته سبحانه تتضمن بيانه لعباده ، ودلالتهم وتعريفهم لما شهد به ، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها لم ينتفعوا بها ، ولم يقم عليهم بها الحجة ، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ، ولم يبينها ، بل كتمها : لم ينتفع بها أحد ، ولم تقم بها حجة .

وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها ، فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

أما السمع : فبسمع آياته المتلوة القولية ، المتضمنة لإثبات صفات كماله ، ونعوت جلاله وعلوه على عرشه فوق سبع سمواته ، وتكلمه بكتبه ، وتكليمه لمن يشاء من عباده تكلما وتكليما ، حقيقة لا مجازا .

(١) انظر مقالات (١ / ٨٠ ، ٨١) .
الفرق بين الفرق (٢٥٤) .
الصواعق (٥٤٣) أو (٣٠٣) .

وفي هذا إبطال لقول من قال : إنه لم يُرد من عباده ما دلت عليه آياته السمعية : من إثبات معانيها ، وحقائقها التي وضعت لها ألفاظها . فإن هذا ضد البيان والإعلام ، ويعود على مقصود الشهادة بالإبطال والكتمان ، وقد ذم الله من كتم شهادة عنده من الله ، وأخبر أنه من أظلم الظالمين .

فإذا كانت عند العبد شهادة من الله تحقق ما جاء به رسوله من أعلام نبوته ، وتوحيد مرسله ، وأن إبراهيم وأهل بيته كانوا على الإسلام كلهم ، وكتم هذه الشهادة — كان من أظلم الظالمين ، كما فعله أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود الذين كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

فكيف يُظن بالله سبحانه أنه كتم الشهادة الحقَّ التي يشهد بها الجهمية والمعتزلة والمعطلة ، ولايشهد بها لنفسه ، ثم يشهد لنفسه بما يضادها ويناقضها ، ولا يجامعها بوجه ما ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

فإن الله سبحانه شهد لنفسه بأنه استوى على العرش ، وبأنه القاهر فوق عباده ، وبأن ملائكته يخافونه من فوقهم ، وأن الملائكة تعرج إليه بالأمر ، وتنزل من عنده به ، وأن العمل الصالح يصعد إليه ، وأنه يأتي ويجيء ، ويتكلم ويرضى ويغضب ويحب وينادي ، ويفرح ويضحك ، وأنه يسمع ويبصر ، وأنه يراه المؤمنون بأبصارهم يوم لقائه — إلى غير ذلك مما شهد به لنفسه ، وشهد له به رسله ، وشهدت له الجهمية بضد ذلك ، وقالوا : شهادتنا أصح وأعدل من شهادة النصوص ، فإن النصوص تضمنت كتمان الحق ، وإظهار خلافه . فشهادة الرب تعالى تكذب هؤلاء أشد التكذيب ، وتتضمن أن الذي شهد به بَيَّنه وأوضحه وأظهره ، حتى جعله في أعلى مراتب الظهور والبيان ، وأنه لو كان الحق فيما يقوله المعطلة والجهمية لم يكن العباد قد انتفعوا بما شهد به سبحانه . فإن الحق الذي هو في نفس الأمر عندهم لم يشهد الله به لنفسه ، ولم يظهره ولم يوضحه . فليس بحق ، ولا يجوز أن يستفاد منه الحق واليقين .

وأما آياته العيانية الخلقية والنظر فيها ، والاستدلال بها . فإنها تدل على ما تدل عليه آياته القولية السمعية ، وآيات الرب : هي دلائله وبراهينه التي بها تعرف

لعباده . فبها يعرفون أسماءه وصفاته ، وتوحيده وأمره ونهيه .

فالرسل تخبر عنه بكلامه الذي تكلم به ، وهو آياته القولية ، ويستدلون على ذلك بمفعولاته التي تشهد على صحة ذلك ، وهي آياته العيانية . والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة .

وهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر ، وإقامته للحجة – لم يبعث نبياً من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به . قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) [الحديد : ٣٥] . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر) [النحل : ٤٤] . وقال تعالى : (قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم) [آل عمران: ١٨٣]، وقال تعالى: (وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات والزبر وبالكتاب المنير) [فاطر : ٢٥] . حتى أن من أخفى آيات الرسل : آيات هود حتى قال له قومه : (ياهود ما جئتنا ببينة) ومع هذا فبينته من أظهر البينات ، وقد أشار إليها بقوله : (إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم) [هود : ٥٤] . فهذا من أعظم الآيات : أن رجلاً واحداً يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب ، في غير جزع ولا فزع ، ولا خور ، بل هو واثق بما قاله جازم به . قد أشهد الله أولاً على براءته من دينهم وما هم عليه ، إشهاد واثق به ، معتمد عليه ، معلم لقومه أنه سبحانه وليه وناصره ، وغير مسلطهم عليه . ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة : أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون ، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتها ، ثم أكد عليهم ذلك بالاستهانة بهم ، واحتقارهم ، وازدرائهم ، وأنهم لو يجتمعون كلهم على كيده ، وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه ، وفي ضمن ذلك : أنهم أضعف وأعجز وأقل من ذلك ، وأنكم لو رمتموه لانقلبتم

بغيظكم مكبوتين مخذولين .

ثم قرر دعوته أحسن تقرير ، وبين أن ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله ، القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم . فلا يخذل من توكل عليه ، وآمن به ، ولا يشمت به أعداءه ، ولا يكون معهم عليه . فإن صراطه المستقيم الذي هو عليه في قوله وفعله : يمنع ذلك ويأباه .

وتحت هذا الخطاب : أن من صراطه المستقيم : أن ينتقم ممن خرج عنه ، وعمل بخلافه ، وينزل به بأسه . فإن الصراط المستقيم : هو العدل الذي الرب تعالى عليه . ومنه : انتقامه من أهل الشرك والإجرام ، ونصره أولياءه ورسله على أعدائهم ، وأن يذهب بهم ويستخلف قوماً غيرهم ، ولا يضره ذلك شيئاً ، وأنه القائم سبحانه على كل شيء : حفظاً ورعاية وتدبيراً وإحصاء .

فأي آية وبرهان ودليل أحسن من آيات الأنبياء وبراهينهم وأدلتهم ؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم ، بينها لعباده غاية البيان ، وأظهرها لهم غاية الإظهار ، بقوله وفعله ، وفي الصحيح[1] عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

ومن أسمائه تعالى « المؤمن » وهو في أحد التفسيرين : المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم . فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه ، وشهد لهم بأنهم صادقون بالدلائل التي دل بها على صدقهم ، قضاء وخلقاً . فإنه سبحانه أخبر ، وخبره الصدق . وقوله الحق : أنه لابد أن يري العباد من الآيات الأفقية والنفسية : ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه رسوله حق فقال تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتي يتبين لهم أنه الحق) [فصلت : ٥٣] . أي : القرآن . فإنه هو المتقدم في قوله : (قل أرأيتم إن كان من

(١) رواه البخاري (٨ / ٦١٩) في فضائل القرآن ، باب : كيف نزل الوحي .
ومسلم (١ / ٣٦٦ ، ٣٦٧) في الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

عند الله ثم كفرتم به) [فصلت : ٥٢] . ثم قال : (أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) [فصلت : ٥٣] .

فشهد سبحانه لرسوله بقوله : أن ما جاء به حق ، ووعده أن يري العباد من آياته الفعلية الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً .

ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل ، وهو شهادته سبحانه على كل شيء . فإن من أسمائه « الشهيد » الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزب عنه ، بل هو مطلع على كل شيء مشاهد له ، عليم بتفاصيله .

وهذا الاستدلال بأسمائه وصفاته . والأول : استدلال بقوله وكلماته ، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

فإن قلت : قد فهمت الاستدلال بكلماته ، والاستدلال بمخلوقاته ، فبين لي كيفية الاستدلال بأسمائه وصفاته . فإن ذلك أمر لا عهد لنا به في تخاطبنا وكتبنا .

قلت : أجل ، وهو لعمر الله كما ذكرت ، وشأنه أجل وأعلى . فإن الرب تعالى هو المدلول عليه ، وآياته هي الدليل والبرهان .

فاعلم أن الله سبحانه – في الحقيقة – هو الدال على نفسه بآياته . فهو الدليل لعباده في الحقيقة بما نصبه لهم من الدلالات والآيات ، وقد أودع في الفطر التي لم تتنجس بالتقليد والتعطيل والجحود : أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنه الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل عيب ونقص . فالكمال كله والجلال ، والبهاء والعزة والعظمة والكبرياء : كله من لوازم ذاته ، يستحيل أن يكون على غير ذلك . فالحياة كلها له ، والعلم كله له ، والقدرة كلها له ، والسمع ، والبصر والإرادة ، والمشيئة والرحمة ، والغناء والجود ، والإحسان والبر : كله خاص له ، قائم به . وما خفي على الخلق من كماله أعظم وأعظم مما عرفوه منه ، بل لا نسبة لما عرفوه من ذلك إلى ما لم يعرفوه .

ومن كماله المقدس : اطلاعه على كل شيء ، وشهادته عليه . بحيث لا يغيب

عنه وجه من وجوه تفاصيله ، ولا ذرة من ذراته باطناً وظاهراً . ومَنْ هذا شأنه ، كيف يليق بالعباد أن يشركوا به غيره ، وأن يعبدوا معه غيره ، ويجعلوا معه إلهاً آخر ؟ وكيف يليق بكماله أن يُقِرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب ، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه ، ثم ينصره على ذلك ، ويؤيده ويعلي كلمته ، ويرفع شأنه ويجيب دعوته ، ويهلك عدوه ، ويظهر على يديه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر؟ وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر، ساع في الأرض بالفساد.

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء ، وقدرته على كل شيء ، وحكمته وعزته وكماله المقدس : يأبى ذلك كل الإباء . ومن ظن ذلك به وجوزه عليه فهو من أبعد الخلق عن معرفته ، وإن عرف منه بعض صفاته كصفة القدرة ، وصفة المشيئة .

والقرآن مملوء من هذه الطريق . وهي طريق الخاصة ، بل خاصة الخاصة ، هم الذين يستدلون بالله على أفعاله ، وما يليق به أن يفعله ، وما لا يفعله .

وإذا تدبرت القرآن رأيته ينادي على ذلك . فيبديه ويعيده لمن له فهم ، وقلب واعٍ عن الله . قال الله تعالى : (ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) [الحاقة : ٤٤-٤٧] . أفلا تراه كيف يخبر سبحانه : أن كماله وحكمته وقدرته تأبى أن يقر من تقول عليه بعض الأقاويل ، بل أن يجعله عبرة لعباده . كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه . وقال تعالى : (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك) [الشورى : ٢٤] . ههنا انتهى جواب الشرط ، ثم أخبر خبراً جازماً غير معلق : (ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته) أنه يمحو الباطل، ويحق الحق.

وقال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) [الأنعام : ٩١] . فأخبر أن من نفى عنه الإرسال والكلام لم يقدره حق قدره ، ولا عرفه كما ينبغي ، ولا عظمه كما يستحق ، فكيف من ظن أنه ينصر الكاذب المفتري عليه ، ويؤيده ويظهر على يديه الآيات والأدلة ؟ وهذا في القرآن كثير جداً يستدل بكماله المقدس ، وأوصافه وجلاله على صدق رسله ، وعلى

وعده ووعيده ، ويدعو عباده إلى ذلك ، كما يستدل بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك كما في قوله : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) [الحشر : ٢٢،٢٣] . وأضعاف أضعاف ذلك في القرآن .

ويستدل سبحانه بأسمائه وصفاته على بطلان ما نسب إليه من الأحكام والشرائع الباطلة ، وأن كماله المقدس يمنع من شرعها ، كقوله : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) [الأنعام : ٢٨] . وقوله عقيب ما نهى عنه وحرمه من الشرك والظلم والفواحش ، والقول على الله بلا علم : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) [الإسراء : ٣٨] . فأعلمك أن ما كان سيئة في نفسه فهو سبحانه يكرهه ، وكماله يأبى أن يجعله شرعاً له وديناً ، فهو سبحانه يدل عباده بأسمائه وصفاته على ما يفعله ويأمر به ، ويحبه ويبغضه ، ويثيب عليه ويعاقب عليه ، ولكن هذه الطريقة لا يصل إليها إلا خاصة الخاصة . فلذا كانت طريقة الجمهور والدلالات بالآيات المشاهدة . فإنها أوسع وأسهل تناولا ، والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض ، ويرفع درجات من يشاء ، وهو العليم الحكيم .

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره ، فإنه الدعوة والحجة ، وهو الدليل والمدلول عليه ، وهو الشاهد والمشهود له ، وهو الحكم والدليل ، وهو الدعوى والبينة . قال الله تعالى : (أفمن كان على بَيِّنةٍ من ربه ويتلوه شاهد منه) [هود : ١٣]. أي من ربه وهو القرآن. وقال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله له: (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) [العنكبوت : ٥٠،٥١] .

فأخبر سبحانه أن الكتاب الذي أنزله على رسوله يكفي من كل آية ، ففيه الحجة والدلالة على أنه من الله ، وأن الله سبحانه أرسل به رسوله . وفيه

بيان ما يوجب لمن اتبعه السعادة والنجاة من العذاب . ثم قال : (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلم ما في السموات والأرض) [العنكبوت : ٥٢] . فإذا كان سبحانه عالما بجميع الأشياء كانت شهادته أصدق شهادة وأعدلها . فإنها شهادة بعلم تام محيط بالمشهود به . فيكون الشاهد به أعدل الشهداء وأصدقهم .

وهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته ، وقدرته وملكه عند مجازاته ، وحكمته عند خلقه وأمره ، ورحمته عند ذكره إرسال رسله ، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم ، وسمعه عند دعائه ومسألته وعزته ، وعلمه عند قضائه وقدرته .

فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه ، وارتباطها بالخلق والأمر ، والثواب والعقاب .

فصـــل

ومن هذا قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) [الرعد : ٤٣] .

فاستشهد على رسالته بشهادة الله له ، ولابد أن تعلم هذه الشهادة ، وتقوم بها الحجة على المكذبين له .

وكذلك قوله : (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم) [الأنعام : ١٩] .

وكذلك قوله : (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا) [النساء : ١٦٦] .

وكذلك قوله : (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم) [يسٓ : ١-٣] .

وقوله : (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) [البقرة : ٢٥٢].

وقوله : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ [المنافقون : ٢] . وقوله : ﴿ محمد رسول الله ﴾ [الفتح : ٢٩] .

فهذا كله شهادة منه لرسوله . قد أظهرها وبينها ، وبين صحتها غاية البيان ، بحيث قطع العذر بينه وبين عباده ، وأقام الحجة عليهم .

فكونه سبحانه شاهداً لرسوله معلوم بسائر أنواع الأدلة : عقليِّها ، ونقليِّها ، وفطريها ، وضروريها ، ونظريها .

ومن نظر في ذلك ، وتأمله علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة وأعدلها وأظهرها ، وصدقه بسائر أنواع التصديق : بقوله الذي أقام به البراهين على صدقه فيه ، وبفعله وإقراره ، وبما فطر عليه عباده ، من الإقرار بكماله ، وتنزيهه عن القبائح ، وعما لا يليق به . وكل وقت يحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة ، ويزيل به العذر ، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة ، والظفر والتأييد ، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به من الخزي والنكال ، والعقوبات المعجلة ، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ [الفتح : ٢٨] . فيظهره ظهورين : ظهوراً بالحجة والبيان والدلالة، وظهوراً بالنصر والغلبة والتأييد، حتى يظهر على مخالفيه ويكون منصورا.

وقوله : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ [النساء : ١٦٦] . فما فيه من الخبر عن علم الله الذي لا يعلمه غيره من أعظم الشهادة بأنه هو الذي أنزله ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : ١٤] .

وليس المراد مجرد الإخبار بأنه أنزله ، وأنه معلوم له ، كما يعلم سائر الأشياء فإن كل شيء معلوم له سبحانه : من حق وباطل – وإنما المعنى : إنزاله مشتملا

على علمه . فنزوله مشتملا على علمه هو آية كونه من عنده ، وأنه حق وصدق .

ونظير هذا قوله : (قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) [الفرقان: ٦]. ذكر سبحانه ذلك تكذيبا، ورداً على من قال: (افتراه) [الفرقان: ٤].

فصـــل

ومن شهادته أيضا : ما أودعه في قلوب عباده : من التصديق الجازم ، واليقين الثابت ، والطمأنينة بكلامه ووحيه .

فإن العادة تحيل حصول ذلك بما هو من أعظم الكذب والافتراء على رب العالمين ، والإخبار عنه بخلاف ما هو عليه من أسمائه وصفاته ، بل يوقع أعظم الريب والشك ، وتدفعه الفطر والعقول السليمة ، كما تدفع الفطر التي فطر عليها الحيوان الأغذية الخبيثة الضارة ، التي لا تغذي ، كالأبوال والأنتان . فإن الله سبحانه فطر القلوب على قبول الحق ، والانقياد له ، والطمأنينة والسكون إليه ، ومحبته . وفطرها على بغض الكذب والباطل ، والنفور عنه ، والريبة به ، وعدم السكون إليه . ولو بقيت الفطر على حالها لما آثرت على الحق سواه ، ولما سكنت إلا إليه ، ولا اطمأنت إلا به ، ولا أحبت غيره . ولهذا ندب الله عز وجل عباده إلى تدبر القرآن . فإن كل من تدبره أوجب له تدبُّره علما ضروريا ، ويقينا جازما أنه حق وصدق ، بل أحق كل حق ، وأصدق كل صدق . وأن الذي جاء به أصدق خلق الله ، وأبرهم ، وأكملهم علما وعملا ومعرفة ، كما قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا) [النساء : ٨٢] . وقال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) [محمد : ٢٤] . فلو رفعت الأقفال عن القلوب لباشرتها حقائق القرآن ، واستنارت فيها مصابيح الإيمان ، وعلمت علما ضرورياً يكون عندها كسائر الأمور الوجدانية : من الفرح والألم ، والحب والخوف - أنه من عند الله تكلم به حقا ، وبلغه رسوله جبريل عنه إلى رسوله محمد .

فهذا الشاهد في القلب من أعظم الشواهد . وبه احتج هرقل على أبي سفيان حيث قال له « فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فقال : لا . فقال له : وكذلك الإيمان ، إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد »[(١)] .

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قوله : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ [العنكبوت : ٤٩] . وقوله : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ [سبأ : ٦] . وقوله : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ [الحج : ٥٤] . وقوله : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ [الرعد : ٢٩] . وقوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ [الرعد : ٢٧] .

يعني أن الآية التي يقترحونها لا توجب هداية ، بل الله هو الذي يهدي ويضل ، ثم نبههم على أعظم آية وأجلها : وهي طمأنينة قلوب المؤمنين بذكر الله الذي أنزله فقال : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ [الرعد : ٢٨] . أي : بكتابه وكلامه : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ فطمأنينة القلوب الصحيحة ، والفطر السليمة به . وسكونها إليه : من أعظم الآيات ، إذ يستحيل في العادة : أن تطمئن القلوب ، وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل .

فإن قيل : فلم لم يذكر سبحانه شهادة رسله مع الملائكة . فقال : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة والرسل ، وهم أعظم شهادة من أولي العلم ؟ .

قيل : في ذلك عدة فوائد :

أحدها : أن أولي العلم أعم من الرسل والأنبياء ، فيدخلون هم وأتباعهم .

---

(١) رواه البخاري (١ / ٤٢ ، ٤٤) في بدء الوحي ، باب (٧) .
ومسلم (٤ / ٣٩١) في الجهاد ، باب : كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل .

وثانيهما : أن في ذكر أولي العلم في هذه الشهادة ، وتعليقها بهم : ما يدل على أنها من موجبات العلم ومقتضياته ، وأن من كان من أولي العلم ، فإنه يشهد بهذه الشهادة ، كما يقال : إذا طلع الهلال ، واتضح ؛ كل من كان من أهل النظر يراه ، وإذا فاحت رائحة ظاهرة ؛ كل من كان من أهل الشم يشم هذه الرائحة . قال تعالى : (وبرزت الجحيم لمن يرى) [النازعات : ٣٦] . كل من له رؤية يراها حينئذ عيانا .

ففي هذا بيان أن من لم يشهد له سبحانه بهذه الشهادة ، فهو من أعظم الجهال ، وإن علم من أمور الدنيا ما لم يعلمه غيره ، فهو من أولي الجهل ، لا من أولي العلم .

وقد بينا أنه لم يقم بهذه الشهادة ، وأداها على وجهها إلا أتباع الرسل : أهل الإثبات ، فهم أولو العلم ، وسائر من عداهم أولو الجهل ، وإن وسعوا القول ، وأكثروا الجدال .

ومنها : الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة : أنهم أولو العلم فشهادته سبحانه لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهال ، وأنهم حشوية ، وأنهم مشبهة ، وأنهم مجسمة ، ونوابت ونواصب فكفاهم شهادة أصدق الصادقين لهم : بأنهم من أولي العلم ، إذ شهدوا له بحقيقة ما شهد به لنفسه ، من غير تحريف ولا تعطيل ، وأثبتوا له حقيقة هذه الشهادة بكل مضمونها ، وخصومهم نفوا عنه حقائقها ، وأثبتوا له ألفاظها ومجازاتها .

فصل

وفي ضمن هذه الشهادة الإلهية : الثناء على أهل العلم الشاهدين بها وتعديلهم . فإنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته ، وشهادة ملائكته ، واستشهد بهم جل وعلا على أجل مشهود به ، وجعلهم حجة على من أنكر هذه الشهادة ، كما يحتج بالبينة على من أنكر الحق . فالحجة قامت بالرسل على الخلق ، وهؤلاء

نواب الرسل ، وخلفاؤهم في إقامة حجج الله على العباد .

فصـــل

قد فسرت شهادة أولي العلم : بالإقرار ، وفسرت بالتبيين والإظهار . والصحيح أنها تضمن الأمرين . فشهادتهم إقرار وإظهار وإعلام ، وهم شهداء الله على الناس يوم القيامة . قال الله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) [البقرة : ١٤٢] .

وقال تعالى : (هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس) [الحج : ٧٨] .

فأخبر أنه جعلهم عدولاً خياراً ، ونوه بذكرهم قبل أن يوجدهم ، لما سبق في علمه من اتخاذه لهم شهداء يشهدون على الأمم يوم القيامة فمن لم يقم بهذه الشهادة علما وعملا ومعرفة ، وإقراراً ودعوة وتعليماً وإرشاداً فليس من شهداء الله والله المستعان[1] .

وقال رحمه الله تعالى :

استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط** ﴾ وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه :

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

والثاني : اقتران شهادتهم بشهادته .

والثالث : اقترانها بشهادة ملائكته .

والرابع : أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم « يحمل

(١) مدارج السالكين (٣/٤٥٠-٤٧٤) .

هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[(١)] .

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة : رأيت رجلاً قدم رجلاً إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي ، فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعي ألك بينه ؟ قال نعم فلان وفلان . قال : أما فلان فمن شهودي ، وأما فلان فليس من شهودي ، قال : فيعرفه القاضي ؟ قال : نعم . قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث ! قال فكيف تعرفه في كتبه الحديث ؟ قال : ما علمت إلا خيراً . قال : فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله » ، فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى ممن عدلته أنت قال : قم فهاته فقد قبلت شهادته[(٢)] .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولي العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه ، وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ، ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً .

السابع : أنه استشهد بهم على أجل مشهود به ، وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وسادتهم .

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته

---

(١) حديث صحيح أخرجه جمع من الحفاظ وصححه الإمام أحمد رضي الله عنه ، كما ذكر الخطيب البغدادي رحمه الله في (شرف أصحاب الحديث) . حديث رقم (٢٨) .

ومنهم الحافظ العلائي رحمه الله في بغية الملتمس (صـ ٣٤) وقد خرجت الحديث ، وبينت جميع طرقه وأقوال سائر العلماء في سنده ومعناه في تخريجي لكتاب « شرف أصحاب الحديث » تحت رقم (٢٥ و ٢٧ و ٢٨) يسّر الله تعالى طبعه .

(٢) ذكر ذلك الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث . انظر الحديث السابق .

وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته. ومنهم من لم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ؛ فثبت الحق المشهود به ؛ فوجب على الخلق الإقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره ، وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً فهذه عشرة أوجه في هذه الآية[1] .

قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

اختلف المفسرون[2] : هل هو كلام مستأنف ، أو داخل في مضمون هذه الشهادة ، فهو بعض المشهود به .

وهذا الاختلاف مبني على القراءتين في كسر « إن » وفتحها . فالأكثرون على كسرها على الاستئناف ، وفتحها الكسائي وحده .

والوجه : هو الكسر . لأن الكلام الذي قبله قد تم . فالجملة الثانية : مقررة مؤكدة لمضمون ما قبلها . وهذا أبلغ في التقرير ، وأدخل في المدح والثناء ولهذا كان كسر « إن » من قوله : (إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم)

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٢-٥٣) .

(٢) انظر الطبري (٣ / ٢٠٩ ، ٢١٠) .

[الطور : ٢٨] . أحسن من الفتح . وكان الكسر في قول الملبي « لبيك إن الحمد والنعمة لك » أحسن من الفتح .

وقد ذكر في توجيه قراءة الكسائي ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين . فهي واقعة على : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ وهو المشهود به . ويكون فتح « أنه » من قوله : ﴿ **أنه لا إله إلا هو** ﴾ على إسقاط حرف الجر ، أي : بأنه لا إله إلا هو . وهذا توجيه الفراء . وهو ضعيف جداً . فإن المعنى على خلافه ، وأن المشهود به : هو نفس قوله : « أنه لا إله إلا هو » فالمشهود به « إن » وما في حيّزها . والعناية إلى هذا صرفت ، وبه حصلت .

ولكن لهذا القول – مع ضعفه – وجه . وهو أن يكون المعنى : شهد الله بتوحيده : أن الدين عند الله الإسلام ، والإسلام : هو توحيده سبحانه .

فتضمنت الشهادة توحيده وتحقيق دينه : أنه الإسلام لا غيره .

الوجه الثاني : أن تكون الشهادة واقعة على الجملتين معاً ، كلاهما مشهود به على تقدير حذف الواو وإرادتها . والتقدير : وأن الدين عنده الإسلام . فتكون جملة استغنى فيها عن حرف العطف بما تضمنت من ذكر المعطوف عليه ، كما وقع الاستغناء عنها في قوله : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) [الكهف : ٢٢] . فيحسن ذكر الواو وحذفها ، كما حذفت ههنا ، وذكرت في قوله : (ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) [الكهف : ٢٢] .

الوجه الثالث : وهو مذهب البصريين – أن يجعل « إن » الثانية بدلا من الأولى . والتقدير : شهد الله أن الدين عند الله الإسلام . وقوله : ﴿ **أنه لا إله إلا هو** ﴾ توطئة للثانية وتمهيد . ويكون هذا من البدل الذي الثاني فيه نفس الأول ، فإن الدين الذي هو نفس الإسلام عند الله ، هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها . ولك أن تجعله على هذا الوجه – من باب بدل الاشتمال ، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد .

فإن قيل : فكان ينبغي – على هذه القراءة – أن يقول : إن الدين عند الله الإسلام . لأن المعنى : شهد الله أن الدين عنده الإسلام . فلم عدل إلى لفظ الظاهر ؟

قيل : هذا يرجح قراءة الجمهور ، وأنها أفصح وأحسن . ولكن يجوز إقامة الظاهر مقام المضمر . وقد ورد في القرآن ، وكلام العرب كثيراً .

قال الله تعالى : (واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب) [البقرة : ١٩٦] . وقال : (واعلموا أن الله غفور حليم) [البقرة : ٢٣٥] . وقال تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين) [الأعراف : ١٧٠] .

قال ابن عباس : افتخر المشركون بآبائهم ، فقال كل فريق : لا دين إلا دين آبائنا وما كانوا عليه ، فأكذبهم الله تعالى فقال : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ يعني الذي جاء به محمد ، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) [آل عمران : ٨٥] .

وقد دل قوله : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ، ولا يكون له دين سواه . قال أول الرسل نوح : (فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين) [يونس : ٧٢] وقال إبراهيم وإسماعيل : (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) [البقرة : ١٢٨] . (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنَيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون) [البقرة : ١٣٢] . وقال يعقوب لبنيه عند الموت : (ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلّهك – إلى قوله – ونحن له مسلمون) [البقرة : ١٣٣] . وقال موسى لقومه : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) [يونس : ٨٤] . وقال الله تعالى : (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) [آل عمران : ٥٢] . وقالت

ملكة سبأ : (رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) [النمل : ٤٤] .

فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض ، لا يقبل الله من أحد ديناً سواه . فأديان أهل الأرض ستة : واحد للرحمن وخمسة للشيطان . فدين الرحمن هو الإسلام ، والتي للشيطان : اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئه ودين المشركين .

فهذا بعض ما تضمنته هذه الآيات العظيمة من أسرار التوحيد والمعارف ولاتستطل الكلام فيها[١] .

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾ [آل عمرن : ٢٦] .

﴿ **اللهم** ﴾ لا خلاف أن لفظ « اللهم » معناها : يا الله ولهذا لاتستعمل إلا في الطلب . فلا يقال : اللهم غفور رحيم ، بل يقال : اللهم اغفر لي وارحمني .

واختلف النحاة في الميم المشددة من آخر الاسم :

فقال سيبويه : زيدت عوضاً من حرف النداء . ولذلك لا يجوز عنده الجمع بينهما في اختيار الكلام ، فلا يقال « يا اللهم » إلا فيما ندر ، كقول الشاعر :

إنّي إذا ما حدثٌ ألمّا أقولُ يا اللهمَّ يا اللهمَّ

ويسمى ما كان من هذا الضرب عوضاً . إذ هو في غير محل المحذوف . فإن كان في محله سمي بدلا ، كالألف في « قام وباع » فإنها بدل عن الواو والياء . ولا يجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضا : فلا يقال : « ياالله الرحيم ارحمني » ولا يبدل منه .

---

(١) مدارج السالكين (٣/٤٧٤-٤٧٦) .

والضمة التي على الهاء ضمة الاسم المنادى المفرد، وفتحت الميم لسكونها وسكون الميم التي قبلها ، وهذا من خصائص هذا الاسم ، كما اختص بالتاء في القسم ، وبدخول حرف النداء عليه مع لام التعريف ، وبقطع همزة وصله في النداء ، وتفخيم لامه وجوباً غير مسبوقة بحرف إطباق . هذا ملخص مذهب الخليل وسيبويه .

وقيل : الميم عوض عن جملة محذوفة ، والتقدير : « يا الله أُمَّنا بخير » ، أي : اقصدنا ، ثم حذف الجار والمجرور ، وحذف المفعول ، فبقي في التقدير : « يا الله أُمَّ » ثم حذفت الهمزة ، لكثرة دوران هذا الاسم في الدعاء على ألسنتهم ، فبقي « يا اللهم » وهذا قول الفراء :

وصاحب هذا القول يجوِّز دخول « يا » عليه . ويحتج بقول الشاعر :

يا اللَّهم ارْدُدْ علينا شَيْخَنَا مُسَلَّما[1]

وبالبيت المتقدم وغيرهما .

ورد البصريون هذا بوجوه :

أحدها : أن هذه تقادير لا دليل عليها ، ولا يقتضيها القياس ، فلا يصار إليها بغير دليل .

---

(١) في المطبوع : يا اللهم ما اردد علينا سحا مسلما .
هكذا شطر البيت في نسختي كتاب « جلاء الأفهام » (صـ ٨٤) الطبعة المنيرية .
و (صـ ٧٣) طبعة دار الطباعة المحمدية وهي مطبوعة عن الأولى كلمة كلمة وسطرًا سطرًا حتى تحريفاتها والبيت محرف كما ترى وصحتها كما جاء في الطبري (٦ / ٢٩٧) :

وَمَا عَلَيْكِ أنْ تقولي كلَّما صليت أو كبرت يا اللَّهما
اردد علينا شيْخنا مسلّما

قال محققا الطبري الأستاذان أحمد ومحمود شاكر :
لم يعرف قائله ، والأبيات في معاني القرآن للفراء (١ / ٢٠٣) ، والجمل للزجاجي : (١٧٧) .
والإنصاف : (١٥١) ، والخزانة (١ / ٣٥٩) .. إلخ .
الطبري (٦ / ٢٩٧) هامش (٢) .

الثاني : أن الأصل عدم الحذف ، فتقدير هذه المحذوفات الكثيرة خلاف الأصل .

الثالث : أن الداعي بهذا قد يدعو بالشر على نفسه وعلى غيره ، فلا يصح هذا التقدير فيه .

الرابع : أن الاستعمال الشائع الفصيح يدل على أن العرب لم تجمع بين « يا » و « اللهم » ولو كان أصله ما ذكره الفراء لم يمتنع الجمع . بل كان استعماله فصيحا شائعا ، والأمر بخلافه .

الخامس : أنه لا يمتنع أن يقول الداعي : « اللهم أُمَّنا بخير » . ولو كان التقدير كما ذكره ، لم يجز الجمع بينهما ، لما فيه من الجمع بين العوض والمعوض عنه .

السادس : أن الداعي بهذا الاسم لا يخطر ذلك بباله ، وإنما تكون عنايته مجردة إلى المطلوب بعد ذكر الاسم .

السابع : أنه لو كان التقدير ذلك لكان « اللهم » جملة تامة ، يحسن السكوت عليها ، لاشتمالها على الاسم المنادى وفعل الطلب ، وذلك باطل .

الثامن : أنه لو كان التقدير ما ذكره لكتب فعل الأمر وحده ، ولم يوصل بالاسم المنادى ؛ كما يقال : « يا الله قِهْ » ، و« يا زيد عِهْ » ، و « ياعَمرو فِهْ »[1] . لأن الفعل لا يوصل بالاسم الذي قبله حتى يجعلا في الخط كلمة واحدة ، هذا لا نظير له في الخط ، وفي الاتفاق على وصل الميم باسم الله دليل على أنها ليست بفعل مستقل .

التاسع : أنه لا يسوغ ولا يحسن في الدعاء أن يقول العبد : « اللهم أُمَّنى بكذا » ، بل هذا مستكره من اللفظ والمعنى ، فإنه لا يقال : اقصدني بكذا إلا

---

(١) « قه » فعل أمر من الوقاية .
و « عه » فعل أمر من الوَغي .
و « فه » فعل أمر من الإيفاء .

لمن كان يعرض له الغلط والنسيان ، فيقول له : اقصدني ، وأما من كان لا يفعل إلا بإرادته ، ولا يضل ولا ينسى فلا يقال له : اقصد كذا .

العاشر : أنه يسوغ استعمال هذا اللفظ في موضع لا يكون بعده دعاء ، كقوله صلى الله عليه وسلم في الدعاء « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلا بك »(١) وقوله « اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حَمَلة عرشك ، وملائكتك وجميع خلقك : أنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك »(٢) وقوله تعالى : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعِزُّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء) [آل عمران : ٢٦] . وقوله : (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) [الزمر : ٤٦] . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي »(٣) .

فهذا كله لا يسوغ فيه التقدير الذي ذكروه . والله أعلم .

---

(١) رواه الطبراني في الصغير رقم (٣٣١) .
وقال الهيثمي « رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم » مجمع الزوائد (١٠/١٨٣) .

(٢) رواه الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه (٥ / ٤٩٣) في الدعوات باب رقم (٧٩) وقال : حديث غريب .
وأبو داود (١٣ / ٤٠٨) في الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح .
والطبراني في الدعاء رقم (٢٩٧) .
وجود إسناده النووي في الأذكار (صـ ٦٥) .
وتعقبه ابن حجر بقوله في وصفه أنه جيد نظر ! .
ولكنه حسن. نتائج الأفكار (٢ / ٣٥٧) .

(٣) رواه البخاري (٢ / ٣٤٩) في الأذان ، باب : التسبيح والدعاء في السجود .
والنسائي (٢ / ٢١٩ و ٢٢٠) في الافتتاح ، باب : الدعاء في السجود .
وعبد الرزاق في مصنفه (٢ / ١٥٥ و ١٥٦) .
والطبراني في الدعاء (٢ / ١٠٦٩) .

وقيل : زيدت الميم للتعظيم والتفخيم ، كزيادتها في « زُرْقُم » ، لشديد الزرقة ، و « ابْنم » في ابن .

وهذا القول صحيح لكن يحتاج إلى تتمة ، وقائله لحظ معنى صحيحاً ، لابد من بيانه .

وهو أن الميم تدل على الجمع وتقتضيه ، ومخرجها يقتضي ذلك ، وهذا مطرد على أصل من أثبت المناسبة بين اللفظ والمعنى . كما هو مذهب أساطين العربية ، وعقد له أبو الفتح ابن جني بابا في الخصائص[1] . وذكره عن سيبويه . واستدل عليه بأنواع من تناسب اللفظ والمعنى .

ثم قال : ولقد مكثت برهة يرد علي اللفظ لا أعلم موضوعه ، وآخذ معناه من قوة لفظه ، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى . ثم أكشفه فأجده كما فهمته أو قريبا منه . فحكيت لشيخ الإسلام هذا عن ابن جني . فقال : وأنا كثيراً ما يجري لي ذلك . ثم ذكر لي فصلا عظيم النفع في التناسب بين اللفظ والمعنى ، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ ، وأنهم في الغالب يجعلون الضمة التي هي أقوى الحركات للمعنى الأقوى، والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف، والمتوسطة للمتوسط . فيقولون : « عَزَّ يَعَزُّ » ، بفتح العين إذا صلب « وأرض عزاز » : صلبة . ويقولون : «عز يعِزُّ» - بكسرها - إذا امتنع ، والممتنع فوق الصلب ، فقد يكون الشيء صلبا ولا يمتنع على كاسره . ثم يقولون : « عَزَّه يَعِزُّه » إذا غلبه . قال الله تعالى في قصة داود عليه السلام : (وعَزني في الخطاب) [ص : ٢٣] . والغلبة أقوى من الامتناع ، إذ قد يكون الشيء ممتنعا في نفسه ، متحصنا عن عدوه ، ولا يغلب غيره . فالغالب أقوى من الممتنع ؛ فأعطوه أقوى الحركات - وهو الضمة - والصلب أضعف من الممتنع ؛ فأعطوه أضعف الحركات - وهو الفتحة - والممتنع المتوسط بين المرتبتين حركة الوسط .

ونظير هذا قولهم « ذبح » -بكسر أوله- للمحل المذبوح : و « ذَبح »-

(١) انظر الخصائص للإمام ابن الجني (٢ / ١٤٨) وما بعدها .

بفتحه- لنفس الفعل . ولا ريب أن الجسم أقوى من العرض ، فأعطوا الحركة القوية للقوي ، والضعيفة للضعيف ، وهو مثل قولهم « نِهبْ » و « نِهَبَ » بالكسر للمنهوب ، وبالفتح للفعل . وكقولهم « مِلء ، ومَلء » بالكسر ، لما يملأ الشيء ، وبالفتح للمصدر ، الذي هو الفعل . وقولهم « حِمْل ، وحَمْل » فبالكسر لما كان قويا مثقلا لحامله على ظهره أو رأسه ، أو غيرهما من أعضائه ، و « الحَمْل » بالفتح ، لما كان خفيفا غير مثقل لحامله ، كحمل الحيوان ، وحمل الشجرة به أشبه ، ففتحوه .

وتأمل هذا في « الحِبّ والحُبّ » فجعلوا المكسور الأول لنفس المحبوب ، ومضمومه للمصدر ، إيذانا بخفة المحبوب على قلوبهم ، ولطف موقعه من أنفسهم وحلاوته عندهم ، وثقل حمل الحُبّ ولزومه ، كما يلزم الغريم غريمه . ولهذا يسمى غراما . ولهذا كثر وصفهم لتحمله بالشدة والصعوبة ، وإخبارهم بأن أعظم المخلوقات وأشدها من الصخر والحديد ونحوهما لو حمله لذاب من حمله ، ولم يستقل به . كما هو كثير في أشعار المتقدمين والمتأخرين وكلامهم . فكان الأحسن : أن يعطوا المصدر هنا الحركة القوية ، والمحبوب الحركة التي هي أخف منها .

ومن هذا : قولهم « قَبْض » بسكون وسطه للفعل ، و « قَبَضَ » بتحريكه للمقبوض . والحركة أقوى من السكون . والمقبوض أقوى من المصدر .

ونظيره : « سَبْق » بالسكون للفعل ، و « سَبَق » بالفتح : للمال المأخوذ في هذا العقد .

. وتأمل قولهم « دار ، دورانا » و « فارت القدر ، فوراناً » و « وغلت ، غليانا » كيف تابعوا بين الحركات في هذه المصادر لتتابع حركة المسمى . فطابق اللفظ المعنى .

وتأمل قولهم « حجر » و « هواء » كيف وضعوا للمعنى الثقيل الشديد هذه الحروف الشديدة ، ووضعوا للمعنى الخفيف : الهوائية ، التي هي من أخف الحروف .

وهذا أكثر من أن يحاط به ، وإن مد الله في العمر ؛ وضعت فيه كتابا مستقلا إن شاء الله تعالى .

ومثل هذه المعاني يستدعي لطافة ذهن ، ورقة طبع . ولا تتأتى مع غلظ القلوب ، والرضى بأوائل مسائل النحو والتصريف ، دون تأملها وتدبرها ، والنظر إلى حكمة الواضع ، ومطالعة ما في هذه اللغة الباهرة من الأسرار التي تدق على أكثر العقول ، وهذا باب ينبه الفاضل على ما وراءه : (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) [النور : ٤٠] .

وانظر إلى تسميتهم الغليظ الجافي « بالعُتُلِّ » و « الجَعْظَرِيّ »، و « الجَوَّاظ »، كيف تجد هذه الألفاظ تنادي على ما تحتها من المعاني .

وانظر إلى تسميتهم الطويل بالعَشنَّق . وتأمل اقتضاء هذه الحروف ومناسبتها لمعنى الطول ، وتسميتهم القصير « بالبُحْتُر » ، وموالاتهم بين ثلاث فتحات في اسم الطويل ، وهو « العشنق » ، وإتيانهم بضمتين بينهما سكون في البحتر ، كيف يقتضي اللفظ الأول : انفتاح الفم ، وانفراج آلات النطق ، وامتدادها ، وعدم ركوب بعضها بعضا ، وفي اسم البحتر الأمر بالضد .

وتأمل قولهم : طال الشيء ، فهو طويل ، وكبر فهو كبير . فإن زاد طوله وكبره قالوا : طوالا ، وكباراً . فأتوا بالألف التي هي أكثر مدا ، وأطول من الياء في الأطول . فإن زاد كبر الشيء ، وثقل موقعه من النفوس ثَقَّلوا اسمه ، فقالوا : كُبَّاراً بتشديد الباء .

ولو أطلقنا عنان القلم في ذلك لطال مداه ، واستعصى على الضبط . فلنرجع إلى ما جرى الكلام بسببه فنقول :

« الميم » حرف شفهي يجمع الناطق به شفتيه ، فوضعته العرب علما على الجمع ، فقالوا للواحد : « أنت » ، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا : « أنتم » . وقالوا للواحد الغائب : « هو » ، فإذا جاوزوه إلى الجمع ، قالوا : « هم » . وكذلك في المتصل يقولون : ضربت ، وضربتم ، وإياك ، وإياكم ، وإياه ،

وإياهم ، ونظائره ، نحو : به وبهم . ويقولون للشيء الأزرق : أزرق ، فإذا اشتدت زرقته واجتمعت واستحكمت قالوا : « زُرْقُم » ويقولون للكبير الاسْتِ : « سُتْهُم » .

وتأمل الألفاظ التي فيها الميم ، كيف تجد الجمع معقوداً بها ، مثل : لَمَّ الشيء يَلُمُّه ، إذا جمعه . ومنه : « لَمَّ الله شَعَثَه » ، أي : جمع ما تفرق من أموره . ومنه قولهم : « دار لمومة » . أي : تلم الناس وتجمعهم . ومنه : الأكل اللَّمُّ [(١)] ، جاء في تفسيرها : يأكل نصيبه ونصيب صاحبه . وأصله من « اللم » ، وهو الجمع ، كما يقال : « لفه يَلُفُّه » . ومنه : « ألم بالشيء » إذا قارب الاجتماع به ، والوصول إليه . ومنه « اللمَمُ » وهو مقاربة الاجتماع بالكبائر . ومنهُ « الملمة » ، وهي النازلة التي تصيب العبد . ومنه « اللِّمَّة » ، وهي الشعر الذي قد اجتمع ، وتقلص حتى جاوز شحمة الأذن ، ومنه لَمَّ الشيء ، وما تصرف منها .

ومنه : « بدر التِّم » : إذا كمل واجتمع نوره .

ومنه : « التوأم » للولدين المجتمعين في بطن .

ومنه : « الأم » وأم الشيء : أصله الذي تفرع منه ، فهو الجامع له ، وبه سميت مكة أم القرى ، والفاتحة أم القرآن ، واللوح المحفوظ : أم الكتاب .

قال الجوهري [(٢)] : أم الشيء أصله ، ومكة : أم القرى . وأم مثواك : صاحبة منزلك . يعني التي تأوي إليها وتجمع معها ، وأم الدماغ : الجلدة التي تجمع الدماغ ويقال لها : أم الرأس . وقال تعالى في الآيات المحكمات : (هُنَّ أُمُّ الكتاب) [آل عمران : ٧] . والأمة : الجماعة المتساوية في الخلقة ، أو الزمان ،

---

(١) هكذا في المطبوعتين المعتمد عليهما وفي ثالثة : (أكلًا لمّا) [الفجر : ١٩] .

(٢) إمام اللغة ، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي ، الأتراري .
مصنف كتاب «الصحاح» .
وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة ..
سير أعلام النبلاء (١٧ / ٨٠) .

أو اللسان ، قال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ [الأنعام :٣٨] . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها »(١) .

ومنه : الإمام الذي يجتمع المقتدون به على اتباعه .

ومنه : أَمَّ الشيء يؤمه إذا جمع قصده وهمه إليه .

ومنه : رَمَّ الشيء يَرُمه ، إذا أصلحه . وجمع متفرقه .

قيل : ومنه سمي الرمان : لاجتماع حبه وتضامه .

ومنه : ضم الشيء يضمه : إذا جمعه .

ومنه هم الإنسان ، وهمومه ، وهي إرادته وعزائمه التي تجتمع في قلبه .

ومنه : قولهم للأسود : أَحَم ، والفحمة السوداء : حممة ، وحم رأسه إذا اسود بعد حلقه كله ، هذا لأن السواد لون جامع للبصر ، لا يدعه يتفرق . ولهذا يجعل على عيني الضعيف البصر لوجع أو غيره شيء أسود ، من شعر أو خرقة ، ليجمع عليه بصره فتقوى القوة الباصرة .

وهذا باب طويل . فلنقتصر منه على هذا القدر .

وإذا علم هذا من شأن الميم ، فهم قد ألحقوها في آخر هذا الاسم « اللهم » الذي يسأل العبد به ربه سبحانه في كل حاجة ، وكل حال ، إيذانا بجمع أسمائه تعالى وصفاته . فإذا قال السائل : اللهم إني أسألك ، كأنه قال : أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته . فأتى بالميم المؤذنة بالجمع في آخر هذا الاسم ، إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « ما أصاب عبداً قط هَمٌّ ولا حَزَن ، فقال : اللهم

(١) رواه أبو داود (٨ / ٤٧) في الصيد باب : اتخاذ الكلب للصيد وغيره .
والترمذي (٤ / ٦٧) في الأحكام والفوائد ، باب : ما جاء في قتل الكلاب .
والنسائي (٧ / ١٨٥) في الصيد والذبائح ، باب : صفة الكلاب التي أمر بقتلها .
وابن ماجه (٢ / ٢١٣) صحيح ابن ماجه :
في الصيد ، النهي عن اقتناء الكلب ..

إني عبدك ، ابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتي بيديك ، ماض فيَّ حكمك ، عَدْل فيَّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكانه فرحا . قالوا : يارسول الله ، أفلا نتعلمهن ؟ قال : بلى ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن »(١) .

فالداعي مندوب إلى أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، كما في الاسم الأعظم : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، الحنان المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم »(٢) وهذه الكلمات تتضمن الأسماء الحسنى ، كما ذُكر في غير هذا الموضع(٣) .

---

(١) كما قال العلامة أحمد شاكر رحمه الله من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .
رواه الإمام أحمد بسند صحيح (١ / ٣٧١٢) المحققة .
ورواه الحاكم (١ / ٥٠٩ ، ٥١٠) وصححه على شرط مسلم ، وتعقبه الذهبي .
وابن حبان (٢٣٧٢) موارد .
وأبو يعلى (٩ / ١٩٨) وما بعدها .
وقد فصل « المحقق » القول فيه بما يغني عن المزيد .
وانظر مجمع الزوائد (١٠ / ١٣٦) .

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٣ / ١٢٠) .
والترمذي (٥ / ٥١٤) في الدعوات ، باب : خلق الله مائة رحمة .
وأبو داود (٤ / ٣٦٣) في الصلاة ، باب : الدعاء .
وابن ماجه (٢ / ٣٢٩) في الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم ، وقال فضيلة الشيخ الألباني حفظه الله تعالى : حسن صحيح .
والحاكم في المستدرك (١ / ٥٠٣ ، ٥٠٤) .
وصححه ووافقه الذهبي .
ورواه غيرهم .

(٣) أفرد الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، للدعاء وأقسامه ومعانيه كتاباً مستقلاً مفيداً وهو « الوابل الصيّب » طبع مراراً ، ومن أتقنها طبعة الأستاذ الشيخ / عبد القادر الأرناؤوط حفظه الله تعالى ، وقد وقعت بين يدي بعد الانتهاء من جمع التفسير ، واستفدت منها ، والحمد لله .

والدعاء ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وهذا أحد التأويلين في قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) [الأعراف : ١٨٠] .

والثاني : أن تسأله بحاجتك وفقرك ، وذُلِّك . فتقول : أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ، ونحو ذلك .

والثالث : أن تسأل حاجتك ولاتذكر أحدا من الأمرين .

فالأول أكمل من الثاني ، والثاني أكمل من الثالث ، فإذا جمع الدعاء الأمور الثلاثة كان أكمل .

وهذه عامة أدعية النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي الدعاء الذي علمه صدِّيقَ الأمة رضي الله عنه[1] ذكر الأقسام الثلاثة . فإنه قال في أوله « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيرا » وهذا حال السائل ، ثم قال : « وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وهذا حال المسئول ، ثم قال« فاغفر لي » فذكر حاجته ، وختم الدعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه .

وهذا القول الذي اخترناه قد جاء عن غير واحد من السلف . قال الحسن البصري « اللهم » مجمع الدعاء ، وقال أبو رجاء العطاردي : إن الميم في قوله « اللهم » فيها تسعة وتسعون اسما من أسماء الله تعالى ، وقال النضر بن شميل : من قال « اللهم » فقد دعا الله بجميع أسمائه .

وقد وجه طائفة هذا القول بأن الميم هنا بمنزلة الواو الدالة على الجمع ، فإنها من مخرجها ، فكأن الداعي بها يقول : ياالله الذي اجتمعت له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، ولذلك شددت لتكون عوضاً عن علامة الجمع .

---

(١) رواه البخاري (٢ / ٣٧٠) في الأذان باب : الدعاء قبل السلام .
ومسلم (٥ / ٥٥٦) في الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر ..

وهي الواو والنون في « مسلمون » ونحوه .

وعلى الطريقة التي ذكرناها وهي أن نفس الميم دالة على الجمع لا يحتاج إلى هذا . بقي أن يقال : فهلا جمعوا بين « يا » وبين هذه الميم ، على المذهب الصحيح ؟

فالجواب : أن القياس يقتضي عدم دخول حرف النداء على هذا الاسم ، لمكان الألف واللام منه ، وإنما احتملوا ذلك فيه لكثرة استعمالهم دعاءه ، واضطرارهم إليه ، واستغاثتهم به . فإما أن يحذفوا الألف واللام منه . وذلك لايسوغ للزومهما ، وإما أن يتوصلوا إليه بأي ، وذلك لا يسوغ ؛ لأنها لا يتوصل بها إلا إلى نداء اسم الجنس المحلى بالألف واللام ، كالرجل والرسول والنبي . وأما في الأعلام فلا .

فخالفوا قياسهم في هذا الاسم لمكان الحاجة . فلما أدخلوا الميم المشددة في آخره عوضاً عن جمع الاسم ؛ جعلوها عوضاً عن حرف النداء ، فلم يجمعوا بينهما . والله أعلم[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال الله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فصدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله ، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء لا غيره . **فالأول**: تفرده بالملك **والثاني** : تفرده بالتصرف فيه ، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز ، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه ، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء ، ثم ختمها بقوله : ﴿ **إنك على كل شيء قدير** ﴾فتناولت الآية ملكه وحده

(١) جلاء الأفهام (٧٢-٨٠) .

وتصرفه ، وعموم قدرته ، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده وأنها كلها خير . فسلبه الملك عمن يشاء ، وإذلاله من يشاء خير وإن كان شراً بالنسبة إلى المسلوب الذليل فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك ، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثني عليه به ، كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر ، وأنه ليس إليه كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله : « لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت »[1] فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير ، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه فلو أضيف إليه لم يكن شراً كما سيأتي بيانه .

وهو سبحانه خالق الخير والشر فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله ، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله ، ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما تقدم ، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها وذلك خير كله ، والشر وضع الشيء في غير محله فإذا وضع في محله ؛ لم يكن شراً فعلم أن الشر ليس إليه ، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك ، فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر . فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب[2] .

وقال رحمه الله تعالى :

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فما الموجب لذلك إن كان تأكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ في بابه

---

(١) مر ص (١٢٧) في تفسير الفاتحة .

(٢) شفاء العليل (١٧٨-١٧٩) .

من الاقتصار على أحدهما دون الآخر ، فقد كان يجب عند ذكر الله تعالى نفسه لأنه أحق بالأبلغ من العلاء وإن كان الأمر بخلاف ذلك فكيف قلنا إن توكيد الضمير المتصل بالمنفصل أبلغ . الجواب عن ذلك : أنا نقول توكيد المتصل بالمنفصل إنما يرد في الكلام لتقرير المعنى ، وإثباته في الذهن ، وما يختص بالله تعالى لا يفتقر إلى تقرير ولا إثبات ؛ لأنه إذا قيل عنه « أنه على كل شيء قدير » لم يحتج في ذلك إلى توكيد حتى يتحقق ويتبين أنه على كل شيء قدير . بل علم وعرف أنه على كل شيء قدير وأن قدرته جارية على كل مخلوق ؛ فصار هذا من الأمر المعروف الذي لا يعتريه شك ، ولا يعترضه ريب وما هذا سبيله في الوضوح والبيان فلا حاجة فيه إلى التوكيد إذ كان التوكيد من شأنه التقرير للمعنى المراد إثباته في النفس ، وكون الله سبحانه على كل شيء قدير ثابت في النفوس ؛ فلم يحتج إلى تقرير وإثبات فإن قيل : فقد ورد في القرآن العزيز عند ذكر الله تعالى نفسه التأكيد بالضمير المنفصل للضمير المتصل كقوله تعالى : (وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) إلى قوله : (إنك أنت علام الغيوب) [المائدة : ١١٦] . كما أنك على كل شيء قدير فما السبب في هذا أو هل كان الجميع شرعاً واحداً . فالجواب على ذلك أنا نقول : توكيد الضميرين أحدهما بالآخر في هذه الآية لا ينقض علينا ما أشرنا إليه أولاً ، لأنه إن وقع الاقتصار على أحدهما دون الآخر فإن القول في ذلك ما تقدم في الآية الأولى، وإن جيء بهما معاً فإن ذلك أبلغ في بابه وآكد والله تعالى أحق بما هو أبلغ من الكلام وآكد ولنمثل لك في استعمال الضميرين معاً ؛ والاقتصار على أحدهما دون الآخر مثالاً تتبعه فنقول إذا كان المعنى المقصود أمراً معلوماً قد ثبت في النفس ورسخ في الألباب فأنت بالخيار بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه ، وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر لأنك إن وكدت الكلام فيه أعطيت المعنى حقه وإن لم توكد فإنه لا يحتاج إلى تأكيد لبيانه وظهوره فإن كان المعنى المقصود خفياً ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى توكيد أحد الضميرين بالآخر ؛ لتقرره وتكسبه وضوحاً وبياناً ألا ترى إلى قوله لموسى – عليه السلام – (قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى) فإنه كان ظهور موسى عليه السلام على السحرة

وقهره لهم أمراً مستقراً في ضمن الغيب لا يعلم ولا يعرف ، وأراد الله عز وجل أن يخبره بذلك ليذهب عنه الخوف والحذر بالأبلغ من الكلام ليكون ذلك أثبت في نفس موسى وأقوى دليلاً عنده في انتفاء الخوف عنه فوكد الضمير المتصل بالمنفصل فجاء المعنى كما ترى ، ولو لم يؤكد كان ذلك أيضاً إخباراً لموسى عليه الصلاة والسلام بنفي الخوف عنه واستظهاره على السحرة ، ولكن ليس له من التقرير في نفس موسى عليه الصلاة والسلام ما لقوله إنك أنت الأعلى. فاعرف[1].

قوله تعالى : ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران : ٢٨] .

ومعلوم أن التقاة ليست بموالاة ، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم ، والبراءة منهم ، ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية ، وليست التقية موالاة لهم. والدخول ههنا ظاهر فهو إخراج من متوهم غير مراد[2] .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له ، وكون العبد محبوباً لله أعلى من كونه محباً لله ، فليس الشأن أن تحب الله ولكن الشأن أن يحبك الله .

فالطاعة للمحبوب عنوان محبته ، كما قيل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[3]

وقال رحمه الله تعالى :

وقد قال غير واحد من السلف : « ادعى قوم محبة الله تعالى ، فأنزل الله

(١) الفوائد المشوق (٢٠٥-٢٠٦) .
(٢) بدائع الفوائد (٦٩/٣) .
(٣) روضة المحبين (٢٥١) .

تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ »[١] .

فلم يقل فارقصوا وغنوا وطربوا على صوت المزامير والشبابات والألحان المطربات بالتوقعات والنغمات ، فمن أضل سبيلاً ممن يدعي محبة الله ، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني الذي هو حظ النفس والشيطان[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :-

قالت طائفة من السلف : ادعى قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله ؛ فأنزل الله آية المحبة : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ فجعل حب العبد لربه موجباً مقتضياً لمحبة الرب عبده[٣] .

قوله تعالى : ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٣] .

فقد أبعد النجعة[٤] فيما تعسفه من فائدة التقديم وأتى بما ينبو اللفظ عنه .

وقال غيره : السجود كان في دينهم قبل الركوع ، وهذا قائل ما لا علم له به .

والذي يظهر في الآية ، والله أعلم بمراده من كلامه : أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها ، فذكر الأعم ، ثم ما هو أخص منه ، ثم ما هو أخص من الأخص فذكر القنوت أولاً وهو الطاعة الدائمة فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة ، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر ، والتلاوة ويشرع في الصلاة فهو أخص من مطلق القنوت ، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة فلا يسن الإتيان به

---

(١) الطبري (٣ / ٢٣٢) .

(٢) الكلام عن مسألة السماع (١٤٧) .

(٣) الكلام عن مسألة السماع (٢٨٩-٢٩٠) .

(٤) بدائع الفوائد (١/٨٠-٨١) .

منفرداً فهو أخص مما قبله ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه ، وهما طريقتان معروفتان في الكلام النزول من الأعم إلى الأخص وعكسها ، وهو الترقي من الأخص إلى ما هو أعم منه إلى ما هو أعم ، ونظيرها : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير) [الحج : ٧٧] فذكر أربعة أشياء أخصها الركوع ثم السجود أعم منه ، ثم العبادة أعم من السجود ، ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله(١) .

قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

قال قتادة : « كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل ، فاقترعوا عليها بسهامهم ، أيهم يكفلها ، فقرع زكريا ، وكان زوج أختها ، فضمها إليه »(٢) .

وروي نحوه عن مجاهد وقال ابن عباس : « لما وضعت مريم المسجد اقترع عليها أهل المصلى ، وهم يكتبون الوحي ، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها »(٣) وهذا متفق عليه بين أهل التفسير(٤) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران : ٤٥] .

تجوز بالكلمة عن المسيح لكونه تكون بها من غير أب بدليل قوله تعالى : ﴿ **وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين** ﴾ ولا تتصف الكلمة بذلك وأما قوله اسمه المسيح فإن الضمير فيه عائد إلى مدلول الكلمة ، والمراد بالاسم المسمى فالمعنى المسمى المبشر به المسيح بن مريم(٥) .

(١) بدائع الفوائد (١ / ٨٠ – ٨١) .
(٢) ذكره الطبري في تفسيره (٣ / ٢٦٧ ، ٢٦٨) .
(٣) الطبري (٣ / ٢٦٨) .
(٤) الطرق الحكمية (٢٩٤) .
(٥) الفوائد المشوق (١٤) .

قال تعالى للمسيح : ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران : ٥٥].

فلما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة ، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة[١] .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

فأخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بمجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات ، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه ، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ، ووجود حواء من غير أم ؟ فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به[٢] .

وقال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٠،٧١] .

يعني : تكفرون بالقرآن وبمن جاء به ، وأنتم تشهدون بصحته ، وبأنه الحق فكفركم كفر عناد وجحود من علم وشهود لا عن جهل وخفاء[٣] .

قال تعالى : ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٠ – ٧١] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما[٤] : هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم

(١) إغاثة اللهفان (٢ / ١٨٥) .

(٢) إعلام الموقعين (١/١٨١) .

(٣) مفتاح دار السعادة (٩٩) .

(٤) في الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه « أنها نزلت في رجل من الأنصار » وله قول آخر « أنها نزلت في أهل الكتاب » .
الطبري (٣ / ٣٤٠ ، ٣٤١) .

كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغياً وحسداً .

قال الزجاج : أعلم الله عز وجل أنه لا جهة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم ، لأنهم كفروا بعد البيانات(١) ، ومعنى كيف يهديهم أي : أنه لا يهديهم لأن الوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمداً . فمن أين تأتيهم الهداية فإن الذي ترتجى هدايته من كان ضالاً ولا يدري أنه ضال بل يظن أنه على الهدى فإذا عرف الهدى اهتدى ، وأما من عرف الحق وتيقنه ، وشهد به قلبه ، ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدي الله مثل هذا(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٣-٩٥] .

تضمنت هذه الآيات بيان كذبهم(٣) صريحا في إبطال النسخ فإنه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلالاً لبني إسرائيل ، قبل نزول التوراة ، سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه .

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته ، وأن الذي كان لهم حلالاً إنما هو بإحلال الله تعالى له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم ، التي كانت حلالاً لبني إسرائيل ، وهذا محض النسخ .

وقوله تعالى : ﴿ **من قبل أن تنزل التوراة** ﴾ أي : كانت حلالاً لهم قبل نزول التوراة ، وهم يعلمون ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة

= أسباب النزول للواحدي (٨٣) .

(١) هكذا في المطبوعة .

(٢) مفتاح دار السعادة (٩٩-١٠٠) .

(٣) أي اليهود .

عليكم ؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم ؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة وإذا كان إنما حرم هذا وحده ، وكان ما سواه حلالاً له ولبنيه ، وقد حرمت التوراة كثيراً منه ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع والحجر على الله تعالى في نسخها فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين ، وما وردوه .

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والأفعال والأقوال وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية ، فإن هذه المناظرة ضعيفة جداً فإن القوم لم ينكروا دفع البراءة الأصلية بالتحريم والإيجاب إذ هذا شأن كل الشرائع ، وإنما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى فيجعله حراماً أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحاً ، وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل(١) .

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] .

حج البيت مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله ، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله على الناس ؛ لأنه وجوب ، والوجوب يقتضي على ، ويجوز أن يكون في قوله : « ولله » ؛ لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق ، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها ، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير ، وكان الأحق أن يكون « ولله » ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله : « حج البيت على الناس » أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال «حج البيت لله» أي : حق واجب لله . فتأمله . وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان :

إحداهما : أنه اسم للموجب للحج ؛ فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع. **أحدها** الموجب لهذا الغرض فبدىء بذكره .

---

(١) إغاثة اللهفان (٣٢١-٣٢٢) .

والثاني : مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس.

والثالث : النسبة والحق المتعلق به إيجاباً ، وبهم وجوباً وأداء وهو الحج .

والفائدة الثانية : أن الاسم المجرور من حيث كان لله اسماً سبحانه ؛ وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه ، وتخويفا من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره . وأما قوله « من » فهي بدل وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل المصدر كأنه قال : أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وهذا القول يضعف من وجوه :

منها : أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية ؛ لأنه إذا حج المستطيعون ؛ برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى ولله على الناس أن يحج البيت مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب ؛ لم يبق واجبا على غير المستطيعين ، وليس الأمر كذلك بل الحج فرض عين على كل أحد ، حج المستطيعون أو قعدوا ، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذه به ، ولا يطالبه بأدائه . فإذا حج أسقط الفرض عن نفسه ، وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين ، وإن أردت زيادة إيضاح .

(**فإذا قلت**) واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعة للجهاد فإذا جاهدت تلك الطائفة ؛ انقطع تعلق الوجوب من غيرهم .

(**وإذا قلت**) واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع كان الوجوب متعلقاً بالجميع ، وعذر العاجز بعجزه ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال ولله حج البيت على المستطيعين هذه النكتة البديعة فتأملها .

الوجه الثاني : أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول ، فلو كان « من » هو الفاعل لأضيف المصدر إليه ، وكان يقال ولله على الناس حج من استطاع ، وحمله على باب يعجبني ضرب زيداً عمرو مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول ، والظرف حمل على المكثور – المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل

أولادهم) ، بفتح الدال (شركائهم) [الأنعام : ١٣٧] فلا يصار إليه وإذا ثبت أن « من » بدل بعض من كل ؛ وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس ، كأنه قيل من استطاع منهم وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن وحسنه ههنا أمور :

منها : أن « من » واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به .

ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد ومثال ذلك (إذا قلت) رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق ، تريد من ذهب منهم لكان قبيحاً ، لأن الذاهب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : ألبس الثياب ما حسن وجمل : تريد منها ولم تذكر الضمير لكن أبعد في الجواز ؛ لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب ، وباب بدل البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ؛ ارتفع العموم وبقي الخصوص ، ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول وأما المجرور من قوله إليه فيحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون في موضع حال من سبيل كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر ؛ لكان في موضع النعت لسبيل .

الثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل (فإن قيل) كيف يتعلق به ، وليس فيه معنى الفعل قيل : السبيل كان ههنا عبارة عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلح تعلق المجرور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ؛ لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وببيانه أعنى هذا تعبير السهيلي ، وهو بعيد جداً ، بل الصواب في متعلقه الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ولا يليق بالآية سواه : وهو الوجوب المفهوم من قوله (على الناس) أي يجب على الناس الحج فهو حق واجب ، وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها ففي

غاية البعد فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما يقول لله عليك الحج ، ولله عليك الصلاة والزكاة ، ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر أو بلفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو : (كتب عليكم الصيام) (حرمت عليكم الميتة) (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم) وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه :

أحدها : أنه قدم اسمه تعالى ، وأدخل عليه لام الاستحقاق، والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على) ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال : (ومن كفر) أي : بعدم التزام هذا الواجب وتركه ، ثم عظم الشأن ، وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له ، وسخطه عليه ، وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم رب العالمين عموماً ولم يقل فإن الله غني عنه ؛ لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار . وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه . ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم ، وتأمل سر البدل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين . مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البدل : تقوية المعنى ، وتأكيده بتكرار الإسناد ، ولهذا كان في نية تكرار العامل وإرادته . ثم تأمل مافي الآية من الإيضاح بعد الإبهام ، والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به ، وتأكيداً لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها . فقال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌ بَيِّنَٰتٌ

﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران : ٩٦، ٩٧] . فوصفه بخمس صفات .

أحدها : أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض .

الثاني : أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم وأنفع للخلائق .

الثالث : أنه هدى ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع : ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية .

الخامس : الأمن لداخله . وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار ، وتناءت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله : (وطهر بيتي للطائفين) لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً . وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباً له ، وشوقاً إلى رؤيته ، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ، ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ؛ ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً فلا الوصال يشفيهم ، ولا البعاد يسليهم . كما قيل[1] .

قال الله تعالى : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران :١٠٣].

وقال : (واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير) [الحج : ٧٢] . والاعتصام : افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ، ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة : الحمية، والاعتصام : الاحتماء. ومنه سميت القلاع : العواصم لمنعها وحمايتها .

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية : على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين .

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٤٥-٤٦) .

فأما الاعتصام بحبله : فإنه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به : يعصم من الهلكة . فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها ؛ فلا يضل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وأن يهديه إلى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل الله : يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلم بها في طريقه . ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله ، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى .

فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله .

وقال ابن مسعود : هو الجماعة . وقال عليكم بالجماعة . فإنها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة خير مما تحبون في الفرقة .

وقال مجاهد وعطاء « بعهد الله » وقال قتادة والسدي وكثير من أهل التفسير : « هو القرآن » . قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا القرآن هو حبل الله ، ونوره المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسّك به ، ونجاة من تبعه »[1] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن « هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء . ولا تختلف به الألسن ، ولا يَخلق على

---

(١) ضعيف .
رواه الدارمي (٣٣١٨) في فضائل القرآن باب : فضل من قرأ القرآن .
وعبد الرزاق (٣ / ٣٧٥) برقم (٦٠١٧) .
والطبراني في الكبير (٩ / ١٣٩) رقم (٨٦٤٦) .
وفي جميعها « مسلم بن إبراهيم الهجري » : « متروك » .
انظر التهذيب (١ / ١٦٤) .
والمجروحين (١/١٠٠) .
وميزان الاعتدال (١ / ٦٥) .

كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء »[١] . وقال مقاتل : بأمر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى وفي الموطأ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثا . يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ويسخط لكم : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال »[٢] رواه مسلم في الصحيح[٣] .

أن الله سبحانه قال : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤].

فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم ، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله لا الداعون إلى رأي فلان وفلان[٤] .

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠]. شهد لهم[٥] الله تعالى بأنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر، فلو كانت الحادثة في زمانهم لم يفت فيها ، إلا من أخطأ منهم لم يكن أحد منهم قد أمر فيها بمعروف ولا نهى فيها عن منكر ، إذ الصواب معروف بلا شك ، والخطأ منكر من بعض الوجوه ، ولولا ذلك ما صح التمسك بهذه الآية على كون الإجماع حجة ، وإذا كان هذا باطلاً علم أن خطأ من يعلم منهم في العلم إذا لم يخالفه غيره ممتنع وذلك يقتضي

---

(١) ضعيف .

مر ص (١٦٠) في تفسير الفاتحة .

(٢) رواه مسلم (٤ / ٣٠٧) في الأقضية باب : النهي عن كثرة السؤال .

والموطأ (٩٩٠) في الكلام ، باب : ما جاء في إضاعة المال .

(٣) مدارج السالكين (١/٤٦٠-٤٦١) .

(٤) إعلام الموقعين (٢/٢٢٤) .

(٥) أي الصحابة رضي الله عنهم .

أن قوله حجة[١] .

قوله تعالى : ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران : ١١١] . وتقدير الدخول في هذا أظهر إذ المعنى لن ينالوا منكم إلا أذى ، وأما الضرر فإنهم لن ينالوه منكم ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ فنفى لحوق ضرر كيدهم بهم مع أنهم لا يسلمون من أذى يلحقهم بكيدهم ، ولو أنه بالإرهاب والكلام وإلجائهم إلى محاربتهم وما ينالهم بها من الأذى ، والتعب ولكن ليس ذلك بضارهم . ففرق بين الأذى والضرر[٢] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١١٦،١١٧] . هذا مثل ضربه الله تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته ، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر ، وكسب الثناء وحسن الذكر ، لا يبتغون به وجه الله ، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل الله ، وأتباع رسله بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره ، فأصابته ريح شديدة البرد جداً يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار ، فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته .

واختلف في الصِّرِّ ، فقيل : البرد الشديد ، وقيل : النار ، قاله ابن عباس .

قال ابن الأنباري : وإنما وصفت النار بأنها صِرٌّ لتعديتها عند الالتهاب .

وقيل : الصِّرُّ : الصوت الذي يصحب الريح من شدة هبوبها ، والأقوال الثلاثة متلازمة ، فهو برد شديد محرق بيبسه للحرث كما تحرقه النار ، وفيه صوت شديد .

وفي قوله : ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴾ تنبيه على أن سبب

(١) إعلام الموقعين (١٦٥/٤) .
(٢) بدائع الفوائد (٧٢/٣) .

إصابته لحرثهم هو ظلمهم ، فهو الذي سلط عليهم الريح المذكورة ، حتى أهلكت زرعهم وأيبسته ، فظلمهم هو الريح التي أهلكت أعمالهم ونفقاتهم وأتلفتها[١] .

فصــل

في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد

وقد أشار الله- سبحانه وتعالى - إلى أمهاتها وأصولها في سورة (آل عمران) حيث افتتح القصة بقوله : ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران : ١٢١] ، إلى تمام ستين آية .

فمنها : تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية ، والفَشَل ، والتنازُعِ ، وأن الذي أصابَهم إنما هو بشُؤم ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] .

فلما ذاقُوا عاقبة معصيتهم للرسول ، وتنازعهم ، وفشلهم ، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذراً ويقظة ، وتحرُّزاً مِن أسبابِ الخِذلان .

ومنها : أن حِكمة الله وسنَّته في رُسله ، وأتباعِهم ، جرت بأن يُدالوا مَرَّةً ، ويُدَالَ عليهم أخرى ، لكن تكونُ لهم العاقبةُ ، فإنهم لو انتصرُوا دائماً ، دخل معهم المؤمنون وغيرُهم ، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره ، ولو انُتصِرَ عليهم دائماً ، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة ، فاقتضت حِكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين ليتميز من يتبعُهم ويُطيعهُم للحق ، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة .

(١) إعلام الموقعين (١/٢٤١-٢٤٢) .

ومنها : أن هذا مِن أعلام الرسل ، كما قال هِرَقْل لأبي سفيان : هَلْ قَاتَلْتُمُوه ؟ قال : نعم قَالَ : كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَه ؟ قالَ : سِجَال ، يُدالُ علينا المرة ، ونُدالُ عليه الأخرى . قال : كَذٰلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى ، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَة (١) .

ومنها : أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافقِ الكاذبِ ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر ، وطار لهم الصِّيتُ ، دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً ، فاقتضت حكمةُ الله عز وجل أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق ، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسَهم في هذه الغزوة ، وتكلَّموا بما كانوا يكْتمونه، وظهرت مُخبَّآتهم، وعاد تلويحُهم تصريحاً ، وانقسم الناسُ إلى كافر ، ومؤمن ، ومنافق ، انقساماً ظاهراً ، وعَرَفَ المؤمنون أن لهم عدواً في نفس دُورهم . وهم معهم لا يُفارقونهم ، فاستعدُّوا لهم ، وتحرَّزوا منهم . قال الله تعالى : ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ﴾ [آل عمران : ١٧٩] . أي : ما كان الله ليذركم على ما أنتم عليه من التباس المؤمنين بالمنافقين ، حتى يميز أهلَ الإيمان من أهل النفاق ، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أحد ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب الذي يَميزُ به بين هؤلاء وهؤلاء ، فإنهم متميِّزون في غيبه وعلمه ، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزاً مشهوداً ، فيقع معلومهُ الذي هو غيبٌ شهادةً . وقوله : ﴿ **ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء** ﴾ استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب ، سوى الرسل ، فإنه يُطلعهم على ما يشاء من غيبه ، كما قال : (عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبه أحداً إلا منْ ارْتضى مِنْ رَسُولٍ) [الجن : ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتُكم في الإيمان بالغيب الذي يُطْلِعُ عليه رسله ، فإن آمنتم به وأيقنتم ؛ فلكم أعظمُ الأجر والكرامة .

ومنها : استخراجُ عبودية أوليائه وحزبه في السَّراء والضَّراء ، وفيما يُحبُّون وما يكرهون ، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم ، فإذا ثبتوا على الطاعة

---

(١) مرّ ص ٤٧٦ هامش (١) .

والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون ؛ فهم عبيدُه حقاً ، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السَّراء والنعمة والعافية .

ومنها : أنه سبحانه لو نصرهم دائماً ، وأظفرهم بعدوِّهم في كلِّ موطن ، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهَر لأعدائهم أبداً . لطغتْ نفوسهم وشمخت وارتفعت ، فلو بَسَطَ لهم النصر والظفر لكانوا فى الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرِّزْق ، فلا يُصْلِحُ عِباده إلا السَّراء والضَّراء ، والشدةُ والرخاءُ ، والقبضُ والبسطُ ، فهو المدبِّر لأمر عباده كما يليقُ .

ومنها : أنه إذا امتحنهم بالغَلَبةِ ، والكَسْرَةِ ، والهزيمة ، ذلوا وانكسروا ، وخضعُوا ، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ ، فإن خِلعة النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسار ، قال تعالى : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُم أَذِلَّة) [آل عمران : ١٢٣] . وقال : (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكم كَثْرَتُكُم فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُم شَيْئاً) [التوبة : ٢٥] . فهو – سبحانه – إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه ، ويجبُره ، وينصُره ، كسره أوَّلاً ، ويكونُ جبرُه له ، ونصره على مِقدار ذله وانكساره .

ومنها : أنه سبحانه هيَّأ لِعباده المؤمنين منازِلَ في دار كرامته ، لم تبلُغْها أعمالهم ، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ ، فقيَّض لهم الأسبابَ التي تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه ، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها .

ومنها : أن النفوس تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً ورُكوناً إلى العاجلة ، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها في سيرها إلى الله والدار الآخرة ، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته ؛ قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه ، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقي العليلَ الدواء الكريه ، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه ، ولو تركه ؛ لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه .

ومنها : أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه . والشهداء هم خواصه

والمقربون من عباده ، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ ، وهو سبحانه يُحب أن يَتخِذَ من عبادة شهداء . تُراقُ دماؤهم في محبته ومرضاته ، ويُؤْثِرون رضاه ومحابه على نفوسهم ، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو .

ومنها : أن الله سبحانه إذا أراد أن يُهْلِكَ أعداءه ويمحقهم ، قيَّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقَهم ، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيُهم ، وطغيانُهم ، ومبالغتُهم في أذى أوليائه ، ومحاربتُهم ، وقتالُهم ، والتسلط عليهم . فيتمحَّصُ بذلك أولياؤُه من ذنوبهم وعيوبهم ، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقِهم وهلاكهم . وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك في قوله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩-١٤١] .

فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم ، وإحياء عزائمهم وهممهم ، وبين حُسنِ التسلية ، وذكر الحِكمِ الباهِرَة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال : ﴿ **إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُه** ﴾ [آل عمران : ١٤٠] . فقد استويتُم في القرح والألم ، وتباينتم في الرجاء والثواب . كما قال : (إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فإنهم يألَمون كما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ) [النساء : ١٠٤] . فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفون عند القرحِ والألم ، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان ، وأنتم أصبتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي .

ثم أخبر أنه يُداوِلُ أيامَ هٰذه الحياة الدنيا بين الناس ، وأنها عَرَضٌ حاضر . يقسمها دُولاً بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخرةِ ، فإن عزَّها ونصرها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا .

ثم ذكر حكمة أخرى ، وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين ، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم الغيبي لا يترتَّب

عليه ثوابٌ ولا عقاب ، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحسِ .

ثم ذكر حكمة أخرى ، وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء ، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده ، وقد أعدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلها ، وقد اتخذهم لنفسه ، فلابدَّ أن ينيلهم درجة الشهادة . وقوله : ﴿ والله لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] . تنبيه لطيفُ الموقِع جداً على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أحد ، فلم يشهدوه ، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء ، لأنه لم يُحبهم ، فأركَسَهم ، وردَّهم لِيَحْرِمَهُم ما خص به المؤمنين في ذلكَ اليوم ، وما أعطاهُ من استشهد منهم ، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءَه وحِزبه .

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم ، وهو تمحيص الذين آمنوا ، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب ، ومن آفات النفوس ، وأيضاً فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين ، فَتَميَّزوا منهم ، فحصل لهم تمحيصان : تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم ، وهو عدوُّهم .

ثم ذكر حكمة أخرى ، وهي محقُ الكافرين بطغيانهم ، وبغيهم ، وعدوانهم ، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم ، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد في سبيله ، والصبرِ على أذى أعدائه ، وأن هذا ممتنع بحيثُ يُنكَرُ على من ظنه وحَسِبَه . فقال : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٢] . أي : ولما يَقَعْ ذلِكَ منكم ، فيعلمه ، فإنه لو وقع ، لعلمه ، فجازاكم عليه بالجنة ، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم ، لا على مجرد العلم ، فإن الله لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومُه ، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه . فقال : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٤٣] .

قال ابن عباس : ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة ، رغبوا في الشهادة ، فتمنوا قتالاً يستشهدُونَ فيه ، فيلحقُونَ

إخوانَهم ، فأراهم الله ذلك يوم أحد ، وسبّبه لهم ، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا إلا من شاء الله منهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ** ﴾ .

ومنها : أن وقعةَ أحدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثَبّتهم ، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أن ماتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو قُتِلَ ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه ، أو يُقتلُوا ، فإنهم إنما يعبدُونَ ربَّ محمد ، وهو حيٌّ لا يموت ، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ ؛ لا ينبغي لهم أن يَصْرِفَهم ذَلك عن دينه . وما جاء به ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، وما بُعِثَ محمد صلى الله عليه وسلم لِيخلَّد لا هُوَ ولا هُم ، بل لِيمُوتُوا على الإسلام والتَّوحيدِ ، فإن الموت لابُدَّ منه ، سواء ماتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بَقِيَ ، ولهذا وبَّخَهُمْ على رجوعِ من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيطَانُ : إنَّ محمداً قد قُتِلَ . فقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] . والشاكرون : هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا ، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ ، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه ، وثبت الشاكِرُون على دينهم ، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم ، ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لابُدَّ أن تستوفيه ، ثم تلحَق به ، فَيردُ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِداً واحِداً ، وإن تنوَّعت أسبابه ، ويصدرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى ، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير ، ثم أخبر سبحانه أن جماعة كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون ، فما وَهَنَ مَنْ بقي منهم لِما أصابهم في سبيله ، وما ضَعُفُوا ، وما استكانُوا ، وما وَهَنُوا عندَ القتل ، ولا ضعفُوا ، ولا استكانوا ، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ ، والعزيمةِ ، والإقْدَامِ ، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدَبِرِينَ مستكينين أذلة ، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِراماً مقبلينَ غير مدبرين ، والصحيح : أن الآية تتناول الفريقين كليهما .

ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم ، أن يُثَبِّت أقدامَهم ، وأن ينصُرَهم على أعدائهم ، فقال : ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٧] . لما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم ، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها ، وأنها نوعان : تقصيرٌ في حق أو تجاوزٌ لحد ، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة ، قَالُوا : ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا في أمرنا ، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم ؛ لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدامِ أنفسهم ، ونصرها على أعدائهم ، فسألُوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم ، وأنه إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصِروا ، فوفوا المقامَينِ حقهما : مقامَ المقتضي ، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه . ومقام إزالةِ المانع من النصرة ، وهو الذنوبُ والإسرافُ ، ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم ، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة ، وفي ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أحد .

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين ، وهو خير الناصرين ، فمن والاه فهو المنصور .

ثم أخبرهم أن سيُلقي في قلوب أعدائهم الرعب الذي يمنعهم من الهُجُومِ عليهم ، والإقدام على حربهم ، وأنَّه يُؤيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصِرونَ به على أعدائهم ، وذلك الرعبُ بسبب ما في قلوبهم مِن الشركِ بالله . وعلى قدر الشرِك يكون الرعبُ ؛ فالمشركُ بالله أشدُّ شيءٍ خوفاً ورُعباً ، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاح ، والمشرك له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ .

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه في نصرتهم على عدوهم ، وهو الصادقُ الوعد ، وأنهم لو استمروا على الطاعةِ ، ولزومِ أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم ،

ولكن انخلعوا عن الطاعة ، وفارقُوا مركزهم ؛ فانخلعوا عن عصمة الطاعة ، ففارقتهم النصْرَةُ ؛ فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاء ، وتعريفاً لهم بسوء عواقِب المعصيةِ ، وحُسنِ عاقبة الطاعة .

ثم أخبر أنه عَفَا عنهم بعد ذٰلك كُلِّه ، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين قيل للحسن : كيف يعفو عنهم ، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قتلُوا منهم من قتلوا ، ومثَّلُوا بهم ، ونالُوا منهم مَا نالوه ؟ فقال : لولا عفُوه عنهم ، لاستأصلَهم ، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم .

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقت الفرارِ مصعدين، أي : جادين في الهربِ، والذهاب في الأرضِ ، أو صاعدين في الجبلِ لا يَلْوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم ، والرسولُ يدعوهم في أخراهم : إلَيَّ عِبَادَ الله ، أَنَا رسُولُ الله ، فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ ، غمَّاً بعدّ غَمٍّ : غمَّ الهزيمة والكسرةِ ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمداً قد قتل .

وقيل : جازاكم غماً بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه ، وأسلمتموه إلى عدوِّهِ ، فالغمُّ الذي حصل لكم جزاءً على الغم الذي أوقعتموه بنبيه ، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه :

أحدها : أن قوله : ﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعد الغمِّ ، وهو أن يُنسيَهم الحزنَ على ما فاتهم مِن الظفر ، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراحِ ، فنسُوا بذٰلك السبب ، وهذا إنما يحصلُ بالغمِّ الذي يعقُبُه غم آخر .

الثاني : أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمٌّ فوات الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ ، ثم غمُّ الجراح التي أصابتهم ، ثم غَمُّ القتلِ ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُتِلَ ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم ، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة ، بل غماً متتابعاً لتمام الابتلاء والامتحان .

الثالث : أن قوله : « بغم » من تمام الثوابِ ، لا أنه سببُ جزاء الثواب .

والمعنى : أثابكم غماً متَّصِلاً بغم ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم ، ومخالفتهم له في لزومِ مركزهم ، وتنازعهم في الأمر ، وفشلهم ، وكلُّ واحد من هٰذِه الأمور يُوجب غمّاً يخصُّه ، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها ، ولولا أن تداركهم بعفوه ؛ لكان أمراً آخر وَمِن لطفه بهم ، ورأفته ، ورحمته ، أن هذه الأمور التي صدرت منهم ، كانت من موجبات الطباع ، وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة ؛ فقيَّض لهم بلطفه أسباباً أخرجها من القوة إلى الفعل ، فترتَّب عليها آثارها المكروهة ؛ فعلموا حينئذ أن التوبة منها والاحترازَ مِن أمثالها ، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيَّنٌ ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرة الدائمة المستقرة إلا به ، فكانوا أشدَّ حذراً بعدها ، ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها .

ورُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ .

ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته ، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاس الذي أنزله عليهم أمناً منه ورحمة، والنعاسُ في الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر ، وأخبر أن من لم يُصبْه ذلك النعاسُ ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينهُ ولا نبيُّه ولا أصحابُه ، وأنهم يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية ، وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذي لا يليقُ بالله : بأنه سبحانه لا ينصرُ رسولَه ، وأن أَمْرَهُ سيضمحلُّ ، وأنه يُسلِمُه للقتل ، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ، ولا حِكمة له فيه ، ففسر بإنكار الحِكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يُتمَّ أمر رسوله ويُظهِره على الدِّين كُلِّه ، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذي ظَنَّهُ المنافِقُونَ والمشركون به سبحانه وتعالى في (سورة الفتح) حيث يقول : (ويُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ والمُنَافِقَاتِ والمُشرِكِينَ والمُشرِكَاتِ الظَّانِّينَ بالله ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيهم دَائِرَةُ السَّوْءِ وغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً) [الفتح : ٦] . وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل ، وظنَّ غير الحق ، لأنه ظنّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى ، وصفاته العُليا ، وذاتِه المبرَّأة من

كُلِّ عيبٍ وسوء ، بخلاف ما يليقُ بحكمته وحمدِهِ ، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة ، وما يَليق بوعده الصادِقِ الذي لا يُخلفُهُ وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرُهم ولا يخذُلُهم ، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون ، فمن ظنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه ، ولا يُتمُّ أمرَه ، ولا يؤيِّده ، ويؤيد حزبه ، ويُعليهم ، ويظفرهم بأعدائه ، ويُظهرهم عليهم ، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه ، وأنه يُديل الشركَ على التوحيد ، والباطل على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً ؛ فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله ، وصفاته ونعوته ، فإنَّ حمده وعزَّته وحِكمته وإلهيته تأبى ذلك ، وتأبى أن يَذِلَّ حزبه وجنده ، وأن تكون النصرةُ المستقرة ، والظفرُ الدائم لأعدائه المشركين به ، العادلين به ، فمن ظن به ذٰلك ، فما عرفه ، ولا عرف أسماءَه ، ولا عرف صفاتِه وكماله ، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره ، فما عرفه ، ولا عرف ربوبيته ، وملكه وعظمته ، وكذلك من أنكر أن يكون قدَّر ما قدَّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة ، وغاية محمودة يستحقُّ الحمدَ عليها ، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردةٍ عن حكمة ، وغاية مطلوبة هي أحبُّ إليه من فوتها ، وأن تلك الأسبابَ المكروهة المفضية إليها لا يخرج تقديرُها عن الحكمة لإفضائِهَا إلى ما يُحِبُّ ، وإن كانت مكروهة له ، فما قدَّرها سُدى ، ولا أنشأها عبثا ، ولا خلقها باطلاً . ﴿ ذٰلك ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] . وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غير الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم ، وفيما يفعلُه بغيرهم ، ولا يسلَمُ عن ذٰلك إلا من عرف الله ، وعرف أسماءَه وصفاتِهِ ، وعرفَ موجب حمدِهِ وحكمته ، فمن قَنِطَ مِن رحمته ، وأيسَ مِن روحه ، فقد ظن به ظنَّ السوءِ .

ومن جوَّز عليه أن يعذِّبَ أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ، ويسوي بينهم وبين أعدائه ، فقد ظَنَّ به ظن السوءِ .

ومن ظنَّ به أن يترُك سُدى ، معطَّلينَ عن الأمر والنهي ، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظن السوء.

ومن ظن أنه لن يجمع عبيدَه بعد موتِهم للثوابِ والعِقاب في دار يُجازي المحسنَ فيها بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويبيِّنُ لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهرُ للعالمين كلِّهم صدقَه وصدقَ رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظنَّ أنه يُضيِّعُ عليه عَملَه الصالحَ الذي عملَه خالصاً لوجهه الكريم على امتثال أمره، ويُبطِلَه عليه بلا سبب من العبد، أو أنه يُعاقِبُه بما لا صُنْعَ فيه، ولا اختيار له، ولا قدرةَ، ولا إرادة في حصوله، بل يُعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظنَّ به أنه يجوزُ عليه أن يؤيِّدَ أعداءَه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يُؤيِّدُ بها أنبياءه ورسله، ويُجريها على أيديهم يُضِلُّونَ بها عباده، وأنه يحسُن منه كُلُّ شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته، فيخلدُه في الجحيم أسفل السافلينَ، ويُنعِمُ من استنفد عُمُرَه في عداوته وعداوة رسله ودينه، فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين عنده في الحسن سواء، ولا يعرف امتناعُ أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقُبح أحدهما وحُسنِ الآخر؛ فقد ظَنَّ به ظَنَّ السَّوْء.

ومن ظن به أنه أخبرَ عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل، وتشبيه، وتمثيل، وتركِ الحقَّ، لم يُخبر به، وإنما رَمزَ إليه رموزاً بعيدة، وأشار إليه إشارات مُلْغِزةً لم يُصرح به، وصرَّح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يُتعبُوا أذهانَهم وقُواهم وأفكارهم في تحريفِ كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلَّبوا له وجوهَ الاحتمالات المستكرهة، والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائِه وصفاته على عقولهم وآرائهم، لا على كتابِه، بل أراد منهم أن لا يحمِلوا كلامه على ما يعرفُون من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يُصرِّح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويُريحَهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل. فلم يفعل. بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان، فقد ظنَّ به ظن السَّوْءِ، فإنه إن قال: إنه غيرُ قادر على التعبير عن الحقِّ باللفظ الصريح الذي عبَّر به

هو وسلفُه ، فقد ظن بقُدرته العجز ، وإن قال : إنه قادِرٌ ولم يَبَيِّن ، وعدَلَ عن البيان ، وعن التصريح بالحقِّ إلى ما يُوهم ، بل يُوقِعُ في الباطل المحال ، والاعتقاد الفاسد ، فقد ظنَّ بحكمته ورحمته ظَنَّ السَّوءِ ، وظنَّ أنه ، هو وسلفُه عبروا عن الحق بصريحه دُونَ الله ورسوله ، وأن الهُدى والحق في كلامهم وعباراتهم ، وأما كلام الله ، فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه ، والتمثيل ، والضلال ، وظاهر كلام المتهوِّكين الحيارى ، هو الهُدى والحق ، وهذا من أسوأ الظن بالله . فكُلُّ هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ، ومن الظانين به غير الحق ظن الجاهلية .

ومن ظن به أن يكون في ملكه ما لا يشاء ولا يَقْدرُ على إيجاده وتكوينه ، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء .

ومن ظن به أنه كان مُعَطَّلاً من الأزل إلى الأبد عن أن يفعلَ ، ولا يُوصفُ حينئذ بالقدرة على الفعل ، ثم صارَ قادراً عليه بعد أن لم يكن قادراً . فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

ومن ظنَّ به أنه لا يَسمع ولا يُبصرُ ، ولا يعلم الموجودات ، ولا عَدد السماواتِ والأرض ، ولا النجوم ، ولا بني آدمَ وحركاتِهم وأفعالهم ، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأعيان ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

ومن ظنَّ أنه لا سمعَ له ، ولا بصرَ ، ولا عِلم له ، ولا إرادة ، ولا كلامَ يقولُ به ، وأنه لم يُكلِّم أحداً من الخلق ، ولا يتكلَّمُ أبداً ، ولا قال ولا يقولُ ، ولا له أمرٌ ولا نهي يقومُ به ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

ومن ظنَّ به أنه فوق سماواتِه على عرشه بائناً من خلقه ، وأن نِسبة ذاته تعالى إلى عرشه كنِسبتها إلى أسفلِ السافلين ، وإلى الأمكنة التي يُرغب عن ذكرها ، وأنه أسفلُ ، كما أنه أعلى ، فقد ظنَّ به أقبحَ الظنِّ وأسواه .

ومن ظنَّ به أنه يُحِبُّ الكفر ، والفسوقَ ، والعصيانَ ، ويحبُّ الفسادَ كما يُحبُّ الإيمان ، والبر ، والطاعة ، والإصلاح ، فقد ظنَّ به ظن السَّوء .

ومن ظنَّ به أنه لا يُحبُّ ولا يَرضى ، ولا يَغضب ولا يَسخط ، ولا يُوالي

ولا يُعادي ، ولا يقرب من أحد من خلقه ، ولا يقرُب منه أحد ، وأن ذوات الشياطين في القُرب مِن ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

ومن ظنَّ أنه يُسوي بين المتضادَّيْن ، أو يفرِّق بين المتساويين من كل وجه ، أو يُحْبِطُ طاعاتِ العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها ، فيخلد فاعل تلك الطاعات في النار أبدَ الآبدين بتلك الكبيرة ، ويُحبطُ بها جميع طاعاته ويُخَلِّدُه في العذاب ، كما يخلد من لا يؤمن به طرفة عين ، وقد استنفد ساعات عمره في مساخطه ومعاداة رسله ودينه . فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

وبالجملة فمن ظنَّ به خِلَافَ ما وصف به نَفسه ووصفَه به رسله ، أو عطَّل حقائق ما وصف به نفسه ، ووصفته به رُسله ، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوء .

ومن ظن أن له ولَدَاً ، أو شريكاً ، أو أن أحداً يشفعُ عنده بدون إذنه ، أو أن بينه وبين خلقه وسائطَ يرفعون حوائجهم إليه ، أو أنه نَصَبَ لعباده أولياء مِن دونه يتقربون بهم إليه ، ويتوسلون بهم إليه ، ويجعلونهم وسائط بينهم وبينه ، فيدعونهم ، ويحبونهم كحبه ، ويخافونهم ويرجونهم فقد ظنَّ به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته . كما يناله بطاعته والتقربِ إليه ، فقد ظنَّ به خلافَ حِكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته ، وهو من ظن السوء .

ومن ظنَّ به أنه إذا ترك لأجله شيئاً لم يُعوِّضه خيراً منه ، أو من فعل لأجله شيئاً لم يُعطه أفضل منه ؛ فقد ظنَّ به ظن السَّوءِ .

ومن ظنَّ به أنه يغضب على عبده ، ويُعاقبه ويحرمه بغير جُرم ، ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ، ومحض الإرادة ، فقد ظنَّ به ظن السوء .

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة ، وتضرَّع إليه ، وسأله ، واستعان به ، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبه ولا يُعطيه ما سأله ؛ فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه .

ومن ظنَّ به أنه يُثيبه إذا عصاه بما يُثيبه به إذا أطاعه ، وسأله ذلك في دعائه ، فقد ظنَّ به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده ، وخلافَ ما هو أهلُه وما لا يفعله .

ومن ظن به أنه إذا أغضبه ، وأسخطه ، وأوضع في معاصيه ، ثم اتخذ من دونه ولياً ، ودعا من دونه مَلَكاً ، أو بشراً حَياً ، أو ميتاً ، يرجُو بذلك أن ينفعَه عند ربِّه ، ويُخَلِّصَه مِن عذابه ، فقد ظنَّ به ظَنَّ السوء ، وذلك زيادة في بعده من الله ، وفي عذابه .

ومن ظنَّ به أنه يُسلِّطُ على رسولِهِ محمّد صلى الله عليه وسلم أعداءَهُ تسليطاً مستَقِرّاً دائماً في حياته وفي مماته وابتلاه بهم لا يُفارقونه ، فلما مات استبدُّوا بالأمر دون وصية ، وظلموا أهلَ بيته ، وسلبُوهم حقَّهُم ، وأذلُّوهم ، وكانت العزَّةُ والغلبةُ والقهرُ لأعدائِه وأعدائهم دائماً من غير جرم ولا ذنب لأوليائه ، وأهل الحق ، وهو يرى قهرَهم لهم ، وغصبهم إياهم حقَّهم ، وتبديلَهم دِيْنَ نبيهم ، وهو يقدر على نصرة أوليائه وحزبه وجنده ، ولا ينصرُهم ولا يُديلهم ، بل يُديل أعداءهم عليهم أبداً ، أو أنَّه لا يقدِرُ على ذٰلك ، بل حصل هذا بغير قُدرته ولا مشيئته ، ثم جعل المبدلين لدينه مضاجعيه في حفرته ، تُسَلِّمُ أمُته عليه وعليهم كل وقت كما تظنه الرافضةُ ، فقد ظنَّ به أقبح الظنِّ وأسوأه ، سواءً قالوا : إنه قادرٌ على أن ينصرَهم ، ويجعل لهم الدولة والظفرَ ، أو أنه غيرُ قادر على ذلك ، فهم قادِحون في قُدرته ، أو في حِكمته وحمده ، وذلك مِن ظنِّ السَّوءِ به ، ولا ريب أن الربَّ الذي فعل هذا بغيض إلى من ظن به ذلك غير محمود عندهم ، وكان الواجبُ أن يفعل خلاف ذلك ، لكن رَفَوْا هذا الظنَّ الفاسدَ بخرق أعظم منه ، واستجاروا من الرَّمضاء بالنار ، فقالوا : لم يكن هذا بمشيئة الله ، ولا له قدرةٌ على دفعه ونصر أوليائه ، فإنه لا يَقْدِرُ على أفعال عباده ، ولا هي داخلةٌ تحت قدرته ، فظنُّوا به ظَنَّ إخوانهم المجوس والثَّنويةِ بربهم ، وكل مبطل ، وكافر ، ومبتدع مقهور مستذل ، فهو يظن بربه هذا الظن ، وأنه أولى بالنصر والظفر ، والعلو من خصومه ، فأكثر الخلق ، بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غيرَ

الحقِّ ظنَّ السوء ، فإن غالبَ بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ، ناقصُ الحظ وأنه يستحق فوقَ ما أعطاهُ الله ، ولِسان حاله يقول : ظلمني ربِّي ، ومنعني ما أستحقُه ، ونفسهُ تشهدُ عليه بذٰلك ، وهو بلسانه يُنكره ولا يتجاسرُ على التصريح به ، ومن فتَّش نفسَه ، وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها ، رأى ذلك فيها كامِناً كُمونَ النار في الزِّناد ، فاقدح زناد من شئت يُنبئك شَرَارُه عما في زِناده ، ولو فتَّشت من فتشته ، لرأيت عنده تعتُّباً على القدر وملامة له ، واقتراحاً عليه خلاف ما جرى به ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقِلٌّ ومستكثِر ، وفتِّشْ نفسكَ هل أنت سالِمٌ مِن ذلك .

فَإنْ تَنجُ مِنْهَا تنج مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإلَّا فَإنِّي لَا إخَـالُكَ نَاجِيـاً

فليعتن اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا الموضعِ ، وليَتُبْ إلى الله تعالى وليستغفره كلَّ وقت من ظنه بربه ظن السوء ، وليظن السوءَ بنفسه التي هي مأوى كل سوء ، ومنبعُ كل شر ، المركبة على الجهل والظلم ، فهي أولى بظن السَّوءِ من أحكم الحاكمين ، وأعدلِ العادلين ، وأرحمِ الراحمين ، الغنيِّ الحميد ، الذي له الغنى التام ، والحمد التام ، والحكمةُ التامة ، المنزهُ عن كل سوء في ذاته وصفاتِهِ ، وأفعالِهِ وأسمائه ، فذاتُه لها الكمالُ المطلقُ مِن كل وجه ، وصفاته كذلك ، وأفعالُه كذلك ، كُلُّها حِكمة ومصلحة ، ورحمة وعدل ، وأسماؤه كُلُّها حسنى .

فَلا تَظْنُنْ بِرَبِّكَ ظَـنَّ سَوْءٍ ... فَـإنَّ الله أوْلَـى بالجَمِيـلِ
وَلا تظْنُنْ بِنَفْسِكَ قَـطُّ خَيْـراً ... وَكَيْـفَ بظالمٍ جَانٍ جَهُـولِ
وَقُلْ يَا نَفْسُ مَأْوَى كُلِّ سُوءٍ ... أَيُرجَى الخَيْرُ مِنْ مَيْتٍ بَخِيـلِ
وظُنَّ بِنَفْسِكَ السُّوآى تَجِدْهَـا ... كَـذَاكَ وَخَيْرُهَـا كَالمُسْتَحِيـلِ
وَمَا بِكَ مِنْ تُقًى فِيهَا وَخَيْرٍ ... فَتِـلْكَ مَـوَاهِبُ الرَّبِّ الجَلِيـلِ
وَلَيْسَ بِهَا وَلَا مِنْهَا وَلكِـنَ ... مِـنَ الرَّحْمٰنِ فَاشْكُـرْ لِلدَّلِيـلِ

والمقصود ما ساقنا إلى هذا الكلام مِن قوله : ﴿ **وطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بالله غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيَّةِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

ثم أخبر عن الكلام الذي صدَر عن ظنهم الباطل ، وهو قولهم : ﴿ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . وقولهم : ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . فليس مقصودُهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر ، ورد الأمر كُلّه إلى الله ، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى ، لما ذمُّوا عليه ، ولما حَسُنَ الردُّ عليه بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران :١٥٤] . ولا كان مصدرُ هذا الكلام ظَنَّ الجاهلية ، ولهذا قال غيرُ واحد من المفسرين : إن ظنَّهم الباطل ها هنا : هو التكذيب بالقدر ، وظنهم أن الأمرَ لو كان إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه تبعاً لهم يسمعُونَ منهم ، لما أصابهم القتل ، ولكان النصرُ والظفرُ لهم ، فأكذبهم الله عزَّ وجل في هذا الظنِّ الباطل الذي هو ظنُّ الجاهلية ، وهو الظنُّ المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذِ القضاء والقدر الذي لم يكن بُدٌّ من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه ، وأن الأمر لو كان إليهم ، لما نفذ القضاء ، فأكذَبَهم الله بقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه ، وجرى به عِلمه وكتابه السابق ، وما شاء الله كان ولابد ، شاءَ الناسُ أم أبَوْا ، وما لم يَشأ لم يكن ، شاءه الناسُ أم لم يَشاؤوه ، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل ، فبأمره الكوني الذي لا سبيلَ إلى دفعه ، سواء كان لكم من الأمر شيء ، أو لم يكن لكم ، وأنَّكم لو كنتم في بيوتكم ، وقد كُتِبَ القتلُ على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولابد ، سواء كان لهم من الأمر شيء ، أو لم يكن ، وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القَدَرِيَّةِ النفاة ، الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه الله ، وأن يشاء ما لا يقع .

فصل

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير ، هي ابتلاءُ ما في صدورهم ، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق ، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً ، والمنافقُ ومن في قلبه مرض ، لابد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه .

ثم ذكر حكمة أخرى : وهو تمحيصُ ما في قلوب المؤمنين ، وهو تخليصهُ وتنقيته وتهذيبه ، فإن القلوبَ يُخالطها بغلبات الطبائع ، وميل النفوس ، وحكم العادة ، وتزيين الشيطان ، واستيلاء الغفلة ما يضادُّ ما أُودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى ، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة ، لم تَتخلَّص من هذه المخالطة ، ولم تتمحَّص منه ، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده ، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ ، فكانت نعمتهُ سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة ، وقتل من قتل منهم . تُعادلُ نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم ، فله عليهم النعمةُ التامةُ في هذا وهذا .

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن تَوَلِّي مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم ، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم ، فاسْتزلَّهُمْ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا ، فكانت أعمالهم جنداً عليهم ، ازداد بها عدوُّهم قوة ، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه ، ولا بُدَّ . فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ من نفسه تَهزمُه ، أو تنصره ، فهو يمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها ، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه فأعمال العبد تسوقُهُ قسراً إلى مقتضاها مِن الخير والشر ، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى ، ففرارُ الإنسان من عدوه ، وهو يُطيقه إنما هو جند من عمله ، بعثه له الشيطان واستزلَّه به .

ثم أخبر سبحانه : أنه عفا عنهم ، لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شكٍ ، وإنما كان عارضاً ، عفا الله عنه ، فعادت شجاعة الإيمان وثباتُه إلى مركزها ونصابها ، ثم كرَّر عليهم سُبحانه : أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه مِن قِبل أنفسهم ، وبسبب أعمالهم ، فقال : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكية فقال : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِن مُصيبةٍ فبما كسبت أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثير) [الشورى : ٣٠] . وقال : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وما أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)

[النساء : ٧٩] . فالحسنة والسيئة ها هنا : النعمة والمصيبةُ ، فالنعمةُ مِن الله مَنَّ بها عليك ، والمصيبةُ إنما نشأت من قبل نفسِك وعملِك ، فالأول فضلُه ، والثاني عدلُه ، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله ، جار عليه فضلُهُ ، ماض فيه حكمه ، عدلٌ فيه قضاؤه . وختم الآية الأولى بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بعد قوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ إعلاماً لهم بعموم قدرته مع عدله ، وأنه عادلٌ قادر ، وفي ذلك إثبات القدرِ والسببِ ، فذكر السببَ ، وأضافه إلى نفوسهم ، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه ، فالأول ينفي الجَبْرَ ، والثاني ينفي القول بإبطال القدر ، فهو يشاكل قوله : (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُون إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ربُّ العَالَمِين) [الإنسان : ٣٠] .

وفي ذكر قدرته ها هنا نكتة لطيفة ، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرتِهِ ، وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم ، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره ، ولا تَتَّكِلُوا على سواه ، وَكَشَفَ هذا المعنى وأوضَحَه كُلَّ الإيضاح بقوله : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ . وهو الإذن الكوني القدري ، لا الشرعي الديني ، كقوله في السحر : (وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله) [البقرة : ١٠٢] . ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير ، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين عِلَمَ عَيان ورؤية يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزاً ظاهراً ، وكان من حكمة هذا التقدير تكلُّمُ المنافقين بما في نفوسهم ، فسمعه المؤمنون ، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم ، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه ، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة ، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة ، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغةٍ ، ونعمة ، على المؤمنين سابغةٍ ، وكم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه ، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر وما لهما وعاقبتهما .

ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسنَ تعزية ، وألطفها وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها ، فقال : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۞ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩، ١٧٠]. فجمع لهم إلى الحياة الدائمة منزلة القرب منه ، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله ، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى ، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمهُم ، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كلَّ وقت مِن نعمته وكرامته ، وذَكَّرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظمِ مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية ، تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة ، ولم يبق لها أثر البتة ، وهي منَّته عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم ، يتلُو عليهم آياته ، ويُزكيهم ، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة ، ويُنقذهم مِن الضلال - الذي كانوا فيه قبل إرساله - إلى الهدى ، ومِن الشقاء إلى الفلاح ، ومن الظُّلمة إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم . فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمرٌ يسيرٌ جداً في جنب الخير الكثير ، كما ينالُ الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير . فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا ، وأنها بقضائه وقدره لِيوحدُّوا ويتَّكِلُوا ، ولا يخافوا غيره . وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره ، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته ، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدراً ، وأعظم خطراً مما فاتهم من النصر والغنيمة ، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالُوه من ثوابه وكرامته ، لينافسوهم فيه ، ولا يحزنوا عليهم . فله الحمدُ كما هو أهلُه ، وكما ينبغي لكرم وجهه . وعزِّ جلاله .

فصـــل

ولما انقضت الحربُ انكفأ المشركون ، فظنَّ المسلمون أنهم قَصَدُوا المدينةَ لإحراز الذراري والأموال ، فَشَقَّ ذلك عليهم ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : « اخْرُجْ في آثارِ القَوْمِ فانْظُرْ مَاذَا يَصْنَعُونَ وَمَاذَا يُرِيدُونَ ، فَإِنْ هُمْ جنبوا الخَيْلَ وامْتَطَوا الإبلَ ، فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَكَّةَ ، وَإِنْ رَكِبُوا الخَيْلَ وَسَاقُوا الإبلَ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ المَدِينَةَ . فوالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَئِنْ أرادُوهَا لَأَسيرَنَّ إلَيْهِمْ ، ثُمَّ لأُنَاجزَنَّهُمْ فِيهَا » . قال علي : فخرجت في آثارهم

أنظرُ ماذا يصنعون ، فجنَّبوا الخيلَ ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكة . ولما عزمُوا على الرجوع إلى مكة أشرف على المسلمين أبو سفيان ، ثم ناداهم : مَوْعِدُكم المَوْسِمُ ببدر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قولوا : نَعَمْ قَدْ فَعَلْنَا » قال أبو سفيان : « فَذٰلِكُم المَوْعِد » ثم انصرف هو وأصحابه . فلما كان في بعض الطريق تلاوموا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعُوا شيئاً ، أصبتُم شوكتَهم وحدَّهم ، ثم تركتُموهم ، وقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم ، فارجعُوا حتى نستأصِل شأفَتهم . فبلغ ذٰلِكَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنادى في الناس ، وندبَهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم ، وقال : « لَا يَخْرُجْ مَعَنَا إلَّا مَنْ شَهِدَ القِتَالَ » ، فقال له عبد الله بن أبي : أركب معك ؟ قال : « لا » . فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوفِ ، وقالوا : سمعاً وطاعةً . واستأذنه جابرُ بنُ عبد الله ، وقال يارسول الله : إني أحب ألا تشهد مشهداً إلا كنت معك ، وإنما خلَّفني أبي على بناتِهِ ، فأذَنْ لي أسيرُ معك ، فأذن له ، فسارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه حتى بَلَغُوا حمراء الأسد(١) ، وأقبل معبدُ بن أبي معبد الخُزاعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم ، فأمره أن يلحقَ بأبي سفيان فيخذِّله ، فلحقه بالروحاء ، ولم يعلم بإسلامه ، فقال : ما وراءك يا معبدُ ؟ فقال : محمد وأصحابه ، قد تحرَّقوا عليكم ، وخرجُوا في جمع لم يخرجُوا في مثله ، وقد نَدم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم ، فقال : ما تقولُ ؟ فقال : ما أرى أن ترتَحِلَ حتى يطلع أولُ الجيش من وراء هذه الأكَمَة . فقال أبو سفيان : والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم قال : فلا تفعل ، فإني لك ناصح ، فرجعوا على أعقابهم إلى مكة ، ولقي أبو سفيان بعضَ المشركين يريد المدينة ، فقال : هل لك أن تُبلِّغ محمداً

---

(١) حمراءُ الأسد : الاسد مفرد الأُسد بالمد والإضافة ، وهي موضع على ثمانية أميال من المدينة . معجم البلدان (٢ / ٣٠١) .
وانظر سيرة ابن هشام (٣ / ٨٥) .
وتفسير الطبري (٤ / ١٧٦) .
وتفسير ابن كثير (١ / ٤٤٦ ، ٤٤٧) .

رسالة ، وأوقِرَ لك راحلتك زبيباً إذا أتيت إلى مكة ؟ قال : نعم . قال : أبلغ محمداً أنا قد أجمعنا الكَرَّةَ لِنستأصِلَه ونَسْتأْصِلَ أصحابَه . فلما بلغهم قولُه قالُوا : ﴿ حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ فانْقَلَبُوا بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٤][١] .

قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣-١٣٦] .

فأخبر أنه أعد الجنة للمتقين دون غيرهم ، ثم ذكر أوصاف المتقين فذكر بذلهم للإحسان في حالة العسر واليسر ، والشدة والرخاء . فإن من الناس من يبذل في حال اليسر والرخاء ، ولا يبذل في حال العسر والشدة . ثم ذكر كف أذاهم عن الناس بحبس الغيظ بالكظم ، وحبس الانتقام بالعفو ، ثم ذكر حالهم بينهم وبين ربهم في ذنوبهم ، وأنها إذا صدرت منهم قابلوها بذكر الله والتوبة والاستغفار وترك الإصرار ، فهذا حالهم مع الله وذاك حالهم مع خلقه[٢] .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٧] . أي : قد كان من قبلكم أمم أمثالكم فانظروا إلى عواقبهم السيئة ، واعلموا أن سبب ذلك ما كان من تكذيبهم بآيات الله ورسله ، وهم الأصل وأنتم الفرع ، والعلة الجامعة التكذيب ، والحكم الهلاك[٣] .

(١) زاد المعاد (٣/٢١٨-٢٤٤) .

(٢) حادي الأرواح (١٠٢-١٠٣) .

(٣) إعلام الموقعين (١/١٨١) .

قال تعالى : في حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد : ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩-١٤٤] . فذكر سبحانه أنواعاً من الحكم التي لأجلها أديل عليهم الكفار بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الإيمان، وسلاهم بأنهم– وإن مسهم القرح في طاعته وطاعة رسوله– فقد مسَّ أعداءهم القرح في عداوته وعداوة رسوله.

ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الأيام دولاً بين الناس ، فيصيب كلا منهم نصيبه منها . كالأرزاق والآجال ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم ، وهو سبحانه بكل شيء عليم قبل كونه وبعد كونه ، ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين ، فيعلم إيمانهم واقعاً .

ثم أخبر أنه يُحب أن يتخذ منهم شهداء ، فإن الشهادة درجة عالية عنده ، ومنزلة رفيعة لا تنال إلا بالقتل في سبيله ، فلولا إدالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التي هي من أحب الأشياء إليه ، وأنفعها للعبد .

ثم أخبر سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين أي : تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع إليه واستغفارهم من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو ، وأنه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم ، وعدوانهم إذا انتصروا . ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر ، وأن حكمته تأبى ذلك . فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر ، ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم . فهذا بعض حِكَمِهِ في نصرة عدوهم

عليهم ، وإدالته في بعض الأحيان[١] .

قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ الآية [آل عمرن : ١٤٢] . أي : أحسبتم أن تدخلوا الجنة بغير جهاد فتكونوا جاهلين أم لم تحسبوا ذلك فتكونوا مفرطين[٢] .

قال تعالى لخير الخلق بعد الرسل : ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . وهذا خطاب للذين شهدوا معه الوقعة و لم يكن فيهم منافق، ولهذا قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «ما شعرت أن أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُريد الدنيا ، حتى كان يوم أحد ، ونزلت هذه الآية » والذين أريدوا بهذه الآية هم الذين أخلوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه وهم من خيار المسلمين ، ولكن هذه إرادة عارضة حملتهم على ترك المركز ، والإقبال على كسب الغنائم ، بخلاف من كان مراده بعمله الدنيا وعاجلها ، فهذه الإرادة لون ، وإرادة هؤلاء لون[٣] .

وقال رحمه الله تعالى :

قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق الله وحق الخلق، فإنهم إما يسيئوا في حق الله وفي حق رسوله فإن أساءوا في حقك ، فقابل ذلك بعفوك عنهم ، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم وأستجلب قلوبهم ، وأستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم فإن ذلك أحرى في استجلال طاعتهم وبذل النصيحة ، فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك ، بل توكل وامض لما عزمت عليه من أمرك فإن الله يحب المتوكلين[٤] .

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/١٩٠-١٩١) .

(٢) بدائع الفوائد (١/٢٠٧) .

(٣) عدة الصابرين (١٦٦/١٦٧) .

(٤) الرسالة التبوكية (٨٦) .

أما الخذلان فقال تعالى : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وأصل الخذلان : الترك والتخلية ، ويقال للبقرة والشاة إذا تخلفت مع ولدها في المرعى وتركت صواحباتها : خذول .

قال محمد بن إسحاق في هذه الآية : إن ينصرك الله فلا غالب لك من الناس ولن يضرك خذلان من خذلك ، وإن يخذلك فلن ينصرك الناس ، أي : لا تترك أمري للناس ، وارفض الناس لأمري[١] .

والخذلان : أن يخلّي الله تعالى بين العبد وبين نفسه ويكله إليها . والتوفيق ضده : أن لا يدعه ونفسه ، ولا يكله إليها ، بل يصنع له ويلطف به ويعينه ، ويدفع عنه ، ويكلؤه كلاءة الوالد الشفيق للولد العاجز عن نفسه . فمن خلى بينه وبين نفسه فقد هلك كل الهلاك . ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم « ياحي ياقيوم يابديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت ، برحمتك أستغيث ، أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك »[٢] .

فالعبد مطروح بين الله وبين عدوه إبليس . فإن تولاه الله لم يظفر به عدوه ، وإن خذله وأعرض عنه افترسه الشيطان ، كما يفترس الذئب الشاة .

فإن قيل : فما ذنب الشاة إذا خلى الراعي بين الذئب وبينها ؟، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه ؟ .

قيل : لعمر الله ، إن الشيطان ذئب الإنسان ، كما قال الصادق المصدوق[٣] ،

---

(١) سيرة ابن هشام (٣ / ٨١) .
ولكن باختصار عما هنا .

(٢) انظر مقدمة الكتاب ص (٢٤) .

(٣) رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه (٥ / ٢٣٢ - ٢٣٣) . وهو في ضعيف الجامع الصغير برقم (١٤٧٧) .

ولكن لم يجعل الله لهذا الذئب اللعين على هذه الشاة سلطانا ، مع ضعفها . فإذا أعطت بيدها وسالمت الذئب ودعاها فلبت دعوته وأجابت أمره ولم تتخلف ، بل أقبلت نحوه سريعة مطيعة ، وفارقت حمى الراعي الذي ليس للذئاب عليه سبيل ، ودخلت في محل الذئاب الذي من دخله كان صيداً لهم ، فهل الذئب كل الذئب إلا الشاة ؟ فكيف والراعي يحذرها ويخوفها وينذرها ؟ وقد أراها مصارع الشاة التي انفردت عن الراعي ، ودخلت وادي الذئاب .

قال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة[1] : سمعت ابن أبي الدنيا يقول : إن لله سبحانه من العلوم ما لا يحصى ، يعطي كل واحد من ذلك ما لا يعطي غيره . لقد حدثنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن سعيد القطان حدثنا عبيد الله بن بكر السهمي عن أبيه : أن قوما كانوا في سفر فكان فيهم رجل يمر بالطائر ، فيقول : أتدرون ما تقول هؤلاء ؟ فيقولون : لا . فيقول : تقول كذا وكذا فيحيلنا على شيء لاندري : أصادق فيه أخاك هو أم كاذب ؟ إلى أن مروا على غنم وفيها شاة قد تخلفت على سخلة لها ، فجعلت تحنو عنقها إليها وتثغو ، فقال : أتدرون ما تقول هذه الشاة ؟ قلنا : لا . قال : تقول للسخلة : الحقي ، لا يأكلك الذئب كما أكل أخاك عام أول في هذا المكان . قال : فانتهينا إلى الراعي ، فقلنا له : ولدت هذه الشاة قبل عامك هذا ؟ قال : نعم ولدت سخلة عام أول ، فأكلها الذئب بهذا المكان ، ثم أتينا على قوم فيهم ظعينة على

---

(١) الفقيه العلامة المحدث ، أبو بكر .. من أهل مصر ، كان بصيراً بمذهب مالك ، وألف كتاباً في الرد على الشافعي ، وكتابا في مناقب مالك .
ضعفه أبو الحسن الدارقطني .
سير أعلام النبلاء (١٥ /٤٢٧) .
والديباج المذهب (١ / ١٥٢) وذكر وفاته .
ولسان الميزان (١ / ٣٠٩) .
وكلهم ذكر « كتاب المجالسة » .

جمل لها وهو يرغو. ويحنو عنقه إليها. فقال: أتدرون ما يقول هذا البعير؟ قلنا: لا. قال: فإنه يلعن راكبته ويزعم أنها رحلته على مخيط وهو في سنامه. قال: فانتهينا إليهم . فقلنا : ياهؤلاء : إن صاحبنا هذا يزعم أن هذا البعير يلعن راكبته ، ويزعم أنها رحلته على مخيط . وأنه في سنامه قال : فأناخو البعير وحطوا عنه ، فإذا هو كما قال .

فهذه شاة قد حذرت سخلتها من الذئب مرة فحذرت . وقد حذر الله سبحانه ابن آدم من ذئبه مرة بعد مرة ، وهو يأبى إلا أن يستجيب له إذا دعاه ، ويبيت معه ويصبح : (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم)[1] [إبراهيم : ٢٣] .

قال تعالى : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران : ١٦٥] .

فذكر السبب الذي أصيبوا به وذكر القدرة التي هي مناط الجزاء فذكر عدله فيهم بما ارتكبوه من السبب وقدرته عليهم بما نالهم به من المكروه[2] .

قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

من كيد عدو الله تعالى : أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ،ولا ينهونهم عن المنكر . وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾.

المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه . قال قتادة : « يعظمهم في

---

(١) شفاء العليل (١٠٠-١٠١) .

(٢) الصواعق المرسلة (١٣٩٤/٤) .

صدوركم ، ولهذا قال ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ فكلما قوي إيمان العبد ؛ زال من قلبه خوف أولياء الشيطان ، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم »[(١)] .

وقال رحمه الله تعالى :

قد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٧٥] . فجعل الخوف منه شرطاً في تحقق الإيمان ، وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى ، والخوف شرط في حصوله وتحققه ، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه ، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه ، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه ، وانتفاء الخوف عند انتفاء الإيمان للمعلول عند انتفاء علته . فتدبره . والمعنى : إن كنتم مؤمنين فخافوني . والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه ، أو هو المتقدم نفسه ، وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين . وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان . كل منهما مستلزم للآخر . لكن الاستلزام مختلف ، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر . لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم . والمقصود : أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٧٩] . هذه الآية من كنوز القرآن . نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تميز الخبيث من الطيب وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله فاجتبى منهم من شاء وأرسله إلى عباده فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب والولي من

---

(١) إغاثة اللهفان (١/١١٠) .

(٢) طريق الهجرتين (٢٦٣) .

العدو ومن يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لايصلح إلا للوقود . وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل وأنه لابد منه ، وأن الله تعالى لايليق به الإخلال به ، وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره ، ولا عرفه حق معرفته ، ونسبه إلى ما لا يليق به كما قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) [الأنعام : ٩١] . فتأمل هذا الموضع حق التأمل ، وأعطه حظه من الفكر فلو لم يكن في هذا الكتاب سواه لكان من أجل ما يستفاد ، والله الهادي إلى سبيل الرشاد(٢) .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٨] .

يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص(١) .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠،١٩١] . وتأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه دون إثبات الحكمة ن بيان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق أوغل في المعنى المقصود وأبلغ من إثبات الحكم . لأن بيان جميعها لا يفي به إفهام الخليقة ، وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة ، ونفي البطلان . والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم علويه وسفليه متضمن لحكم جمة وآيات باهرة . ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلاً خلوا عن الحكمة . ولا معنى لهذا التنزيه عند النفاة فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته . فعلى قولهم نزهوه

---

(٢) مفتاح دار السعادة (٤١٤) .

(١) مدارج السالكين (٨٤/١) .

عن المحال لذاته الذي ليس بشيء كالجمع بين النقيضين ، وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين ، ومعلوم قطعاً أن هذا ليس مراد الرب تعالى مما نزه نفسه عنه وأنه لا يمنح أحد بتنزيهه عن هذا ولا يكون المنزه به مثنياً ولا حامداً ، ولم يخطر هذا بقلب بشر حتى ينكره الله على من زعمه ونسبه إليه[٢] .

وقال رحمه الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ ولا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى خلقها ليستدل بتركيبها وتأليفها على وجود الصانع لأن هذا القدر حاصل في تركيب البقة والبعوضة وفي حصول الحياة في بنية الحيوانات على وجود الصانع أقوى دلالة من تركيب الأجرام الفلكية على وجود الصانع لأن الحياة لايقدر عليها إلا الله . أما تركيب الأجسام وتأليفها فقد يقدر على جنسه غير الله . فلما كان هذا النوع من الحكمة حاصلاً في غير الأفلاك ثم إنه تعالى خصها بهذا التشريف وهو قوله : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلاً** ﴾ علمنا أن له تعالى في تخليقها أسراراً عالية ، وحكما بالغة تتقاصر عقول البشر عن إدراكها . ويقرب من هذه الآية قوله تعالى : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) ولايمكن أن يكون المراد أنه تعالى خلقها على وجه يمكن الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم لأن كونها دالة على الافتقار إلى الصانع أمر ثابت لها لذاتها لأن كل متحيز فهو محدث ، وكل محدث فإنه مفتقر إلى الفاعل فثبت أن دلالة المتحيزات على وجود الفاعل أمر ثابت لها لذواتها وأعيانها وما كان كذلك لم يكن سبب الفعل والجعل فلم يكن حمل قوله : (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً) على هذا الوجه فوجب حمله على الوجه الذي ذكرناه[١] .

---

(٢) مفتاح دار السعادة (٤١٩/٤٢٠) .

(١) مفتاح دار السعادة (٥٢٩) .

قال الله تعالى حكاية عن أولي الألباب من عباده قولهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران : ١٩٣،١٩٤] .

والمعنى : وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة .

وقالت طائفة : معناه : وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك ، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معاً ، إلا أن يقدر على تصديق رسلك وطاعة رسلك . وحينئذ فيتكافأ التقديران ، ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم : ﴿ **ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا** ﴾ وهذا صريح في الإيمان بالرسول والمرسل ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم ما وعدهم على ألسنة الرسل ؛ فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم بذلك من الرسل وذلك أيضاً يتضمن التصديق بهم وأنهم بلغوهم وعده فصدقوا به ، وسألوه أن يؤتيهم إياه وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية(١) .

وقيل : المعنى آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر على ألسنة الرسل . والأول أعم وأكمل . وتأمل كيف تضمن إيمانهم به الإيمان بأمره ونهيه ، ورسله ووعده ووعيده وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وصدق وعده ، والخوف من وعيده ، واستجابتهم لأمره ، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم . فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه . وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم أن ينجز لهم وعده مع أنه فاعل لذلك ولابد .

وأجاب: بأن هذا تعبد محض كقوله: (رب احكم بالحق) [الأنبياء : ١١٢].

وقول الملائكة : (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) [غافر : ٧] .

---

(١) تفسير الطبري (٤ / ٢١٢ ، ٢١٣) .
ووقع فيه خطأ في ترقيم الآيات من (١٤٥) حتى نهاية السورة .

وخفي على هؤلاء أن الوعد معلق بشروط منها : الرغبة إليه سبحانه وتعالى وسؤاله أن ينجزه لهم ؛ كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به ، وأن لا يلحقه ما يحبطه . فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقهم وتثبيتهم وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده ، فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية[٢] .

قال تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ فعم بذكره أحوال العباد كلها ، لأن العبد إما أن يكون قائماً أو قاعداً أو مضطجعاً فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلها[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك** ﴾ . فنزه المؤمنون ، ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمة ولا غاية محمودة ، وهو سبحانه يحمد لهذه الغايات المحمودة كما يحمد لذاته وصفاته . فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها ، وخلق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وترتب المحبوب له عليه ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوب له أعظم منه ، أو حصول مكروه أكره ، إليه من ذلك المحبوب[١] .

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

فأمرهم بالصبر وهو حال الصابر في نفسه .

والمصابرة هي مقاومة الخصم في ميدان الصبر ، فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة .

---

(٢) حادي الأرواح (٨٠-٨١) .

(٣) الصواعق المرسلة (١٤٨٠/٤) .

(١) روضة المحبين (٧٠) في الكلام عن منزلة المحبة .

والمصابرة هي حالة في الصبر مع خصمه .

والمرابطة : وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة . فقد يصبر العبد ولا يصابر ، وقد يصابر ولا يرابط ، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى . فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى ، وأن الفلاح موقوف عليها فقال : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى، والشيطان فيزيله عن مملكته(٢) .

وقال : وقيل في قوله تعالى : ﴿ **اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى . « فالصبر » دون « المصابرة » و « المصابرة » دون « المرابطة » والمرابطة مفاعلة من الربط وهو الشد .

وسمي المرابط مرابطاً : لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها مرابط . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط . فذلكم الرباط »(١) .

وقال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها »(٢) .

---

(٢) عدة الصابرين (٢١) .

(١) رواه مسلم (١ / ٥٣٧) في الطهارة ، باب : فضل إسباغ الوضوء على المكاره .
والموطأ (١ / ١٦١) في قصر الصلاة ، باب : انتظار الصلاة والمشي إليها .
والترمذي (١ / ٧٢ ، ٧٣) في الطهارة ، باب ما جاء في إسباغ الوضوء .
والنسائي (١ / ٨٩ و ٩٠) في الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء .

(٢) رواه البخاري (٦ / ١٧) في الجهاد والسير ، باب : الغدوة والروحة في سبيل الله .
ومسلم (٤ / ٥٤٥) في الإمارة ، باب : فضل الغدوة والروحة في سبيل الله .

وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل : اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا مع الله .

وقيل : اصبروا على النعماء وصابروا على البأسا والضراء ، ورابطوا في دار الأعداء ، واتقوا إله الأرض والسماء ، لعلكم تفلحون في دار البقاء . فالصبر مع نفسك والمصابرة بينك وبين عدوك ، والمرابطة الثبات وإعداد العدة ، كما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب ، لئلا يهجم عليه الشيطان ، فيملكه أو يخربه أو يشعثه .

وقيل : تجرع الصبر ، فإن قتلك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزاً .

وقيل : الصبر لله غناء وبالله تعالى بقاء وفي الله بلاء ، ومع الله وقاء وعن الله جفاء . والصبر على الطلب عنوان الظفر ، وفي المحن عنوان الفرج .

وقيل : حال العبد مع الله رباطه ، وما دون الله أعداؤه(٣) .

وقال رحمه الله تعالى :

وعلم سبحانه عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ ولا يتم أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة . فلا يتم له الصبر إلا بمصابرة العدو وهي مقاومته ومنازلته ، فإذا صابر عدوه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة ، وهي لزوم ثغر القلب وحراسته لئلا يدخل معه العدو ، ولزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل . فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه . فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلي مكانها فيصادف العدو الثغر خالياً فيدخل منه .

---

(٣) مدارج السالكين (٢/١٥٩-١٦٠) .

فهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق بعد النبيين والمرسلين وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان ، وقد أخلوا المكان الذي أمروا بلزومه يوم أحد ، فدخل منه العدو فكان ما كان .

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى الله تعالى فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ، ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر[١] .

والحمد لله رب العالمين

* * *

(١) الجواب الكافي (١٣٩-١٤٠) .

الفهـــرس

فهرس مقدمة المحقق

الموضــوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
تقديم ، وبيان ضرورة الصحوة الصحيحة	٩
الفرار إلى الله تعالى	٩
عقبات وأعداء	٩
عودة حميدة ومنهج صحيح	١٠
تقريب المنهج و « بدائع التفسير »	١١
قصة الكتاب ، وبيان بعض صفات كتب ابن القيم	١٣
بداية العمل والفهرسة الموضوعية (ألف باء)	١٤
أهمية الفهرسة	١٤
التفسير وأمنية ابن القيم	١٦
كلام ابن القيم عن تأليف تفسير القرآن	١٧
التفسير القيم وجامعه الشيخ الندوي	١٧
من أشار من العلماء لأهمية جمع متفرقات تفسير ابن القيم	١٧
بيان السور التي جمع الشيخ الندوي منها التفسير ، وبيان عددها	١٧
بيان بعض الملاحظات على العمل ، وبيان الأمثلة :	١٩
ــ عدم الاستيفاء	١٩
ــ عدم التخريج	١٩
ــ التكلف في الرد من المحقق ، والتكلف فيه	٢٠
« بدائع التفسير » وبيان مزيد من الخطوات المتبعة في العمل	٢١
مرحلة ضبط النص ، وعدم توفر المخطوطات وأن كثيرًا من كتبه والتي بُدء العمل عليها خالية من الإشارة للمخطوطات عدا القليل	٢١

مرحلة التخريج ، وطريقتي في ذلك ـ على قدر استطاعتي ـ لا إفراط ولا تفريط ٢٢
ضرورة تيسير التحقيق خاصة والتأليف عمومًا على القارىء ٢٢
نقد بعض مناهج التحقيق ٢٢
تفصيل المنهج المتبع في التحقيق وبيان أهمية الاعتماد على أقوال أئمة هذا الشأن من السلف والخلف ومنزلة المعاصرين من فحول المحققين ٢٣
بيان بعض أساليب ابن القيم في التخريج وضرب ثلاثة أمثلة لذلك ٢٤
منزلة الإمام ابن القيم وملامح من ترجمته ٢٤
ابن القيم وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى ٢٩
لمحة من حياة شيخ الإسلام رضي الله عنه ٢٩
الشيخان وآلام مشتركة ٣٠
من علامات الخير لطالب العلم ٣١
بعض أشهر تلاميذه ٣١
تنبيه على مؤلف كتاب « منهج أهل السنة في التفسير » د/ صبري المتولى .. ٣١
تنبيه على مؤلف كتاب « ابن كثير ومنهجه في التفسير » د/ إسماعيل سالم ... ٣١
مكتبة ابن القيم ، وبيان أهمية الكتاب والمكتبة ٣٣
« الثمار » وبيان نشاطه العلمي ، وتدريسه في حياة شيخه ، وبيان بعض خلقه رحمه الله تعالى ٣٦
ذكر الكتب المستفادة منها ترجمته ، وذكر بعض المؤلفات المعاصرة عنه ٣٨
كتاب « ابن قيم الجوزية .. » للأستاذ الدكتور : عبد العظيم شرف الدين ، وأهمية هذا الكتاب ٤٠
مؤلفات الدكتور أحمد ماهر البقري رحمه الله تعالى عن ابن القيم في كتابين جيدين ، وقد أخبرت بوفاته رحمه الله قرب النهاية من فهرسة « بدائع التفسير » ، وأسفت لفوات مقابلته . أهمية الكتابين في إيضاح المنهج اللغوي للإمام ٤١
« ابن قيم الجوزية » من سلسلة « أعلام التربية » للأستاذ : عبد الرحمن

النحلاوي وهو بحق فريد في بابه ٤٢
« منهج أهل السنة في تفسير القرآن الكريم » « دراسة موضوعية لجهود ابن القيم التفسيرية » د / صبري المتولي ٤٢
مؤلفات الشيخ العلامة « بكر عبد الله أبو زيد » حفظه الله تعالى . عن ابن القيم وأنها قد قفلت الباب على الأقلام ، عدا بعض الجوانب في حياة ابن القيم كمنهجه في التفسير مثلًا ٤٣
التقريب لفقه ابن القيم ٤٣
التقريب لعلوم ابن القيم ٤٣
ابن قيم الجوزية ، حياته وآثاره وموارده وأن هذا الكتاب يعد أهم وأدق وأشمل ما أُلِّفَ عنه ٤٤
« منهج ابن القيم في التفسير » للسنباطي ويأتي الكلام عنه في الحديث عن المنهج ٤٤
وقفات ، الأولى بعض ما كتبه المعاصرون عنه ، وبيان ما في كلام الدكتور البنا من مبالغة ، والرد تفصيلًا ٤٥
الوقفة الثانية : التفسير العلمي وموقف العلماء منه ، والفرق بينه وبين الإعجاز العلمي ٤٩
مؤلفاته رحمه الله تعالى وسرد ما وصلنا منها مع التعليق ٥٢
تنبيهات هامة ٦١
اختصار الكتب وخطره ٦١
الفوائد المشوق لمن ؟ والتشكيك في نسبة بعض كتبه له ٦٤
بيان سرد الأدلة على بطلان نسبة هذا الكتاب لابن القيم وبيان مجهود الأخ د/ زكريا سعيد ، وذكر الأدلة تفصيلًا ، بما لم يوجد عند مثله ٦٦
وقفات ٧٣
نقد لبعض الباحثين في عدم رؤيتهم من صحة نسبة الكتاب لمؤلفه ٧٣
سبب احتواء « بدائع التفسير » لما ذكر من تفسير لآيات القرآن في الفوائد المشوق ٧٤

منهج ابن القيم في التفسير وفائدة مقدمات العلماء لتفاسيرهم ٧٦
كتاب الأستاذ السنباطي « منهج ابن القيم في التفسير » ٧٧
أهم قواعد منهج ابن القيم في تفسيره ٧٩
التفسير الموضوعي للسورة ٧٩
وضع ابن القيم القرآن حيث يجب أن يوضع ومثال لتفسيره سورة القيامة ٨٠
منزلة اللغة عنده ٨٢
عرف القرآن الذي يجب ألا يخالف أو يجهل ٨٤
نتيجة هامة ٨٥
تفسير الصحابة رضي الله عنهم ٨٧
الاسترواح في منهج ابن القيم ٨٧
موقف ابن القيم من تفسير الصحابة رضي الله عنهم ٨٨
تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع أم الموقوف ؟ ٨٨
قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ٨٩
موقف ابن القيم من الإسرائيليات ٩١
قاعدة في فائدة ذكر الخلاف لابن كثير رحمه الله تعالى ٩٢
إعراض ابن القيم عن الإسرائيليات ، وأمثلة ذلك ٩٢
بيان عظم القرآن عند ابن القيم ٩٤
ابن القيم والتفسير العلمي وبيان الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي ٩٧
وقبل الختام ١٠٠
الختام ١٠١

☐ الفهرس الموضوعي للمجلد الأول ☐

سورة الفاتحة

الموضـوع **الصفحة**

قوله تعالى : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ١٠٧
قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ١٠٧
الفرق بين الهداية القدرية والبيانية ١٠٨
بيان ما في الفاتحة من قوتين : ١٠٨
ــ قوة علمية نظرية .
ــ وقوة عملية إرادية .
ــ وتوقف السعادة عليهما
قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ١٠٩
اشتمال الفاتحة على الجمع الصحيح الذي عليه أهل الاستقامة ١١٠
المراتب العشر في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ١١٠
الوقوف عند كل آية من الفاتحة وينتظر ما وعد الله به عباده من فضله ١١١
اشتمال الفاتحة على أمهات المطالب العالية ١١٤
تضمن الفاتحة لإثبات النبوات من جهات عديدة ١١٥
الرسل هم جهة الهداية ١١٥
بيان الصراط المستقيم ١١٦
ذكر المنعم عليهم ١١٨
النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم ١١٩
فائدة : ذكر الصراط منفردًا ، معرفًا ١٢١
فائدة : ذكر « عليّ » دون « إليّ » في قوله تعالى ﴿ هذا صراط عليّ مستقيم ﴾ ١٢٢

تعريف الصراط المستقيم ١٢٥
الرفقاء على الصراط المستقيم ١٢٨
فوائد دعاء القنوت ١٢٩
اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة التي اتفقت عليها الرسل .. ١٣٢
بيان أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله وهي مشتقة من الصفات ١٣٥
معنى الإلحاد في أسمائه تعالى ١٣٧
ـ بيان أن الاسم من أسمائه تعالى كما يدل على الذات والصفة ... إلخ ١٣٧
اسمه تعالى « الظاهر » و « الحكيم » ١٣٨
اسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا ١٣٩
بيان ارتباط الخلق بهذه الأسماء الثلاثة « الله » « الرب » « الرحمن » ١٤١
بيان المعنى في ذكر الأسماء بعد الحمد ١٤٢
مراتب الهداية الخاصة والعامة وهي عشر مراتب ١٤٤
المرتبة الأولى : تكليم الله تعالى لعبده ١٤٤
المرتبة الثانية : الوحي المختص بالأنبياء ١٤٥
المرتبة الثالثة : إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري ١٤٥
المرتبة الرابعة : التحديث ١٤٦
المرتبة الخامسة : الإفهام ١٤٧
المرتبة السادسة : البيان العام ١٤٨
معرفة سر القدر ١٤٩
المرتبة السابعة : البيان الخاص ١٥٠
المرتبة الثامنة : الإسماع ١٥٠
المرتبة التاسعة : الإلهام ١٥١
المرتبة العاشرة : من مراتب الهداية الرؤيا الصادقة ١٥٢
سبب ظهور كثير من الكرامات بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم .. ١٥٣
بين الرؤيا والكشف ١٥٤

اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان وبيان علل القلوب ووسائل أهل الباطل ١٥٥
شواهد الطب لما فيها من شفاء ١٥٨
اشتمال الفاتحة في الرد على جميع المبطلين ١٦٠
معرفة ذلك تفصيلًا ١٦١
الرد على المبتدعة القائلين بوحدة الوجود ١٦٢
نوعا المقرين بالله تعالى أنه صانع العالم ١٦٣
نوعا المثبتين للخالق تعالى ١٦٤
في رد الفاتحة على الجهمية معطلة الصفات ١٦٦
في ردها على الجبرية ١٦٧
في ردها على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار ١٦٨
في ردها على منكري تعلق علمه تعالى بالجزئيات ١٦٩
في ردها على منكري النبوات ١٧٠
ثبوت النبوات والرسالة إثباتًا لصفة التكلم والتكليم ١٧٢
تضمن الفاتحة الرد على من قال بقدم العالم ١٧٣
ردها على الرافضة ١٧٤
التوكل ومداره على أصلين ١٧٧
أقسام الناس بالنسبة للعبادة والاستعانة ١٧٩
تحقيق ﴿إياك نعبد﴾ بأصلين ضروريين ١٨٤
أهل مقام ﴿إياك نعبد﴾ وأصنافهم ١٨٦
أفضل العبادات وأوقاتها ١٨٦
أصناف الناس في منفعة العبادة وطرقهم ١٩٢
الصنف الأول : نفاة الحكم والتعليل ١٩٢
الصنف الثاني : القدرية النفاة ١٩٤
الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ١٩٧
الصنف الرابع : الطائفة المحمدية ١٩٨

بناء ﴿ إياك نعبد ﴾ على أربع قواعد ٢٠١
دعوة الرسل واحدة ٢٠٢
درجة العبودية ٢٠٣
في لزوم ﴿ إياك نعبد ﴾ لكل عبد إلى الموت ٢٠٥
انقسام العبودية إلى عامة وخاصة ٢٠٦
في مراتب ﴿ إياك نعبد ﴾ علمًا وعملًا ٢٠٩
قواعد العبودية خمس عشرة قاعدة ٢١٠
أصناف الكبائر ٢١٤
أصناف الصغائر ٢١٤
عبودية اللسان خمس ٢١٥
العبوديات الخمس على الجوارح ٢١٧
في قوله تعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ عشرون مسألة وفيها نفائس وفتوحات عجيبة ومسائل لغوية بارعة واجتهادات صائبة ٢٢٣

سورة البقرة

فائدة في معنى ﴿ الٓمٓ ﴾ وغيرها من الحروف في أول السور ٢٥٧
قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ذلك الكتاب ﴾ الآية (١-٢) ٢٦٠
الآيات من (١-٥) ٢٦١
قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم ... ﴾ الآية (٦) ٢٦١
قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ... ﴾ إلى قوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ (٦-٧) وبيان الطبع والختم والحائل بين الكافر وبين الإيمان ٢٦٥
قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ الآية (١٠) ٢٦٦
قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا ﴾ الآية (١١-١٢) ٢٦٨
قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا... ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ الآيات من (١٧-٢٠) . وبيان ما ضربه الله للمنافقين من مثلين ٢٧٠
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم... ﴾ الآيات من (٢١-٢٤) ٢٨٧

قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين ءامنوا ... ﴾ الآية (٢٥) ٢٩٣
قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ... ﴾ الآية (٢٦) ٢٩٨
قوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله ... ﴾ الآية (٢٨) ٢٩٨
قوله تعالى : ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ... ﴾ الآية من (٣٠-٣٤) بيان فضل العلم من هذه الآية من وجوه ٢٩٩
ذكر مناظرة إبليس عدو الله في شأن آدم وإبائه من السجود له وبيان فسادها وبطلانها من خمسة عشر وجهًا ٣٠٤
قوله تعالى : ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ... ﴾ الآيات من (٣٥-٣٦) ٣٠٨
رد قول الزمخشري في المراد من الخطاب بالآية ٣١٠
قوله تعالى : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ... ﴾ الآية (٤٠) .. ٣١٢
قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ... ﴾ الآية (٤١) ٣١٢
قوله تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ... ﴾ الآية (٤٢) ٣١٣
قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة ... ﴾ الآية (٤٣) ٣١٤
قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ... ﴾ ٣١٤
قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ... ﴾ الآية (٥٨) وبيان تلاعب الشيطان باليهود ٣١٥
قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسًا فادارءتم فيها ... ﴾ الآيتان (٧٢-٧٣) ٣١٦
قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ... ﴾ الآيات (٦٧-٧٤) وبيان قصة قتيل اليهود ، وتلاعب الشيطان بهم ٣١٧
بيان قسوة قلوب اليهود ٣١٩
قوله تعالى : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ... ﴾ الآيات (٧٥-٧٩) ٣٢٠
قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة ... ﴾ الآية (٨٠) ٣٢١
قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ... ﴾ الآيتان (٨٤-٨٥) ٣٢١
قوله تعالى : ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم ...﴾ الآية (٨٧) ٣٢٢

قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا غلف ... ﴾ الآية (٨٨) وبيان الراجح في تفسيرها ٣٢٣
قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق... ﴾ الآية (٨٩) وبيان ما فيها من تقريرات لبيان ضلال اليهود وكفرهم عنادًا وحسدًا، وبيان معنى الاستفتاح به صلى الله عليه وسلم ٣٢٥
قوله تعالى: ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ...﴾ الآية (٩٠) ٣٢٧
قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا ... ﴾ الآية (٩١) وبيان لنكت بديعة في قوله تعالى : ﴿ ويكفرون بما وراءه وهو الحق ﴾ ٣٢٨
قوله تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله ... ﴾ الآية (٩٤) ٣٢٩
قوله تعالى : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق ... ﴾ الآية (١٠١) ٣٣٢
قوله تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق .. ﴾ الآية (١٠٢) ٣٣٣
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا ... ﴾ الآية (١٠٤) ٣٣٣
قوله تعالى : ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى .. ﴾ الآية (١١١) وبيان نوعي النفي ٣٣٣
قوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه ...﴾ الآيتان (١١٦-١١٧)، وبيان الحجج على استحالة اتخاذه سبحانه ولدًا ٣٣٤
قوله تعالى : ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ... ﴾ الآية (١٣٥) ٣٣٨
بيان ما في بعثة الأموات بعد موتهم من حكمتين بالغتين ٣٤٤
قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام...﴾ الآيات (١٠٦-١٥٠)
بيان الحكمة الباهرة في شرع الصلاة أولًا إلى بيت المقدس ٣٦٠

قوله تعالى : ﴿ وإن كانت لكبيرة ... ﴾ الآيات (١٤٣-١٥٣) بيان التمهيد لتحويل القبلة وأغلوطات أهل الكتاب ٣٦٣
الموطئات لنسخ القبلة ٣٦٥
قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته...﴾ الآية (١٢١) ٣٦٦
قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ... ﴾ الآية (١٢٤) ٣٦٧
قوله تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس ... ﴾ الآية (١٢٥) ٣٦٧
قوله تعالى : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما ءامنتم به ... ﴾ الآية (١٣٧) ... ٣٦٧
قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا ... ﴾ الآية (١٤٣)، وبيان وجوب اتباع الصحابة ٣٦٨
قوله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى .. ﴾ الآية (١٥٩) ٣٧٠
قول الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا ... ﴾ الآية (١٦٥) ٣٧١
قول الله تعالى: ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب...﴾ الآية (١٦٥) ٣٧٣
قوله تعالى ذكره: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا...﴾ الآية (١٦٦) ٣٧٤
قوله تعالى: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم...﴾ الآية (١٦٧) ٣٧٤
قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق ... ﴾ الآية (١٧١) ٣٧٨
قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مـا رزقناكم...﴾ الآية (١٧٢) ٣٨٠
قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ... ﴾ الآية (١٧٩) ... ٣٨٠
قوله تعالى : ﴿ فمن خاف من موص جنفًا ... ﴾ الآية (١٨٢) .. ٣٨٣
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ... ﴾ الآيتان (١٨٣-١٨٤) ٣٨٤
قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ... ﴾ الآية (١٨٦) ٣٨٥
قول الله تعالى: ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم...﴾ الآية (١٨٧) ٣٨٦
قوله تعالى: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل...﴾ الآية (١٨٨) ٣٨٧

قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة ... ﴾ الآية (١٨٩) ٣٨٧
قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله...﴾ الآية (١٩٣) ٣٨٨
قوله تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ... ﴾ الآية (١٩٧) ٣٨٨
قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ... ﴾ الآية (٢٠٠) ٣٨٩
قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ... ﴾ الآية (٢١٣) وبيان الصحيح في تفسير الآية ٣٨٩
قوله تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ... ﴾ الآية (٢١٥) ٣٩٠
قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال ... ﴾ الآية (٢١٦) وبيان الحكم والأسرار في امتثال أمر الله تعالى وما فيه مصلحته ٣٩١
قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ... ﴾ الآية (٢١٧) وبيان معنى الفتنة التي يضيفها الله لنفسه أو يضيفها إليه نبيه صلى الله عليه وسلم ٣٩٣
قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض ... ﴾ الآية (٢٢٢) ٣٩٥
قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ... ﴾ الآية (٢٢٥) ٣٩٦
قوله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر ... ﴾ الآيتان (٢٢٦-٢٢٧) وبيان حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإيلاء ، وبيان أحكامه وأقوال العلماء ٣٩٧
بيان من يصح منه الإيلاء ٤٠٣
قوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف...﴾ الآيتان (٢٢٨-٢٢٩) .. ٤٠٥
قوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما ءاتيتموهن شيئا ... ﴾ الآية (٢٢٩) وبيان أحكام الخلع ٤٠٦
قوله تعالى : ﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجًا غيره ... ﴾ الآية (٢٣٠) ٤٠٧
قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا ... ﴾ الآية (٢٣١) ٤٠٨
قوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين .. ﴾ الآية (٢٣٣) ٤٠٨
قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء

... ﴾ الآية (٢٣٥) ٤٠٨
قوله تعالى : ﴿ متاعًا إلى الحول غير إخراج ... ﴾ الآية (٢٤٠) ... ٤١٠
قوله تعالى : ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ... ﴾ الآية (٢٤٧) ٤١٠
قوله تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن آية ملكه ... ﴾ الآية (٢٤٨) .. ٤١١
قوله تعالى : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده ... ﴾ الآيتان (٢٥٠-٢٥١) ٤١٢
قوله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ... ﴾ آية الكرسي (٢٥٥) ٤١٢
قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ... ﴾ الآية (٢٥٦) وبيان أن الآية على عمومها في حق كل كافر ٤١٤
قوله تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ... ﴾ الآية (٢٥٧) ٤١٥
قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ... ﴾ الآية (٢٥٨) ٤١٦
قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ... ﴾ الآية (٢٦١) وبيان ما فيها من حكم وأحكام ٤١٧
قوله تعالى : ﴿ قول معروف ومغفرة خير ... ﴾ الآية (٢٦٣) وبيان الراجح في معنى المغفرة ٤٢٠
قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى...﴾ الآية (٢٦٤) ٤٢١
قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ... ﴾ الآية (٢٦٥) وبيان الآفات التي تعتري المنفق وكيف ينجو منها ، ومعنى الضعفين على الصواب ٤٢٣
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ... ﴾ الآية (٢٦٧) ٤٢٨
قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...﴾ الآية (٢٦٨) ٤٣٠
قوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ الآية (٢٧٣) ٤٣٣
قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ... ﴾ الآية (٢٧٨) ٤٣٤

قوله تعالى: ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة ... ﴾ الآية (٢٦١) ٤٣٦
قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم...﴾ الآية (٢٦٤) ٤٣٨
قوله تعالى: ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ... ﴾ الآية (٢٦٥) ٤٣٩
قوله تعالى: ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ... ﴾ الآية (٢٦٧) ٤٣٩
قوله تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء...﴾ الآية (٢٦٨) ٤٤٠
قوله تعالى: ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ... ﴾ الآية (٢٧٣) ٤٤١
قوله تعالى: ﴿ للفقراء الذين أحصروا ... ﴾ الآية (٢٧٣) ٤٤٢
قوله تعالى: ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة ... ﴾ الآية (٢٨٢) وبيان فساد وبطلان الحيل ٤٤٣
قوله تعالى: ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبًا ... ﴾ الآية (٢٨٣) ٤٤٦
قوله تعالى: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...﴾ الآية (٢٨٦) ٤٤٧

سورة آل عمران

قوله تعالى: ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء ... ﴾ الآيات (٥-٦) ٤٥١
قوله تعالى: ﴿ زين للناس حب الشهوات .. ﴾ الآية (١٤) ٤٥١
قوله تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو .. ﴾ الآيات (١٨-١٩) وبيان عبارات السلف في معنى « شهد » ومراتب الشهادة ٤٥٢
معنى قيامه سبحانه وتعالى بالقسط ٤٥٧
تفصيل لمعاني الشهادة ودرجاتها ٤٦٣
فضل أهل العلم ٤٧٨
قوله تعالى: ﴿ إنّ الدين عند الله الإسلام .. ﴾ الآية (١٩) ٤٨٠
قوله تعالى: ﴿ قل اللهم مالك الملك .. ﴾ الآية (٢٦) وبيان معنى « اللهم » وأقوال اللغويين ٤٨٣
فصل نفيس في مناسبة الحروف للمعاني ٤٨٧
أقسام الدعاء ٤٩٣

قوله تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء .. ﴾ الآية (٢٨) ٤٩٧
قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ..﴾ الآية (٣١) ٤٩٧
قوله تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك .. ﴾ الآية (٤٣) ٤٩٨
قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك .. ﴾ الآية (٤٤) ٤٩٩
قوله تعالى : ﴿ إن الله يبشرك بكلمة منه .. ﴾ الآية (٤٥) ٤٩٩
قوله تعالى : ﴿ إني متوفيك ورافعك إليَّ .. ﴾ الآية (٥٥) ٥٠٠
قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم .. ﴾ الآية(٥٩) ٥٠٠
قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله .. ﴾ الآيات (٧٠ - ٧١) ٥٠٠
قوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم ..﴾ الآية(٨٦) ٥٠٠
قوله تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلًّا لبني إسرائيل .. ﴾ الآيات (٩٣ - ٩٥) وبيان كذب اليهود في بطلان النسخ ٥٠١
قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت .. ﴾ الآية (٩٧) وبيان معنى الاستطاعة ٥٠٢
صفات البيت الحرام ٥٠٦
قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا .. ﴾ الآية (١٠٣) ٥٠٦
قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير .. ﴾ الآية (١٠٤) ٥٠٨
قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ... ﴾ الآية (١١٠) ٥٠٨
قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ... ﴾ الآية (١١١) ٥٠٩
قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ... ﴾ الآيات (١١٦ - ١١٧) ٥٠٩
قوله تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ... ﴾ من الآية (١٢١) إلى (١٧٤) وبيان الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد ، وهي نفائس قلما سطرها قلم . ٥١٠
بيان الأرجح في معنى « الغم » ٥١٧
بيان معنى الظن السيء بالله سبحانه ورده ، وهو باب نفيس ٥١٨

قوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم...﴾ الآيات (١٣٣-١٣٦) ٥٣٠
قوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ... ﴾ الآية (١٣٧) ٥٣٠
قوله تعالى: ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ..﴾ الآيات (١٣٩-١٤٤)
وبيان حكمة إدالة الكفار على المؤمنين يوم أحد ٥٣١
قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ... ﴾ الآية (١٤٢) ٥٣٢
قوله تعالى : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ... ﴾ الآية (١٥٢) ٥٣٢
قوله تعالى : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ... ﴾ الآية (١٥٩) ٥٣٢
قوله تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ... ﴾ الآية (١٦٠)
وبيان معنى الخذلان ٥٣٣
قوله تعالى: ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ...﴾ الآية (١٦٥) ٥٣٥
قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ... ﴾ الآية (١٧٥) ٥٣٥
قوله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ... ﴾ الآية (١٧٩) ٥٣٦
قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ... ﴾ الآية (١٨٨) ٥٣٧
قول الله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض ... ﴾ الآيات (١٩٠-١٩١) ٥٣٧
قوله تعالى : ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادي للإيمان ... ﴾ الآيات (١٩٣-١٩٤) ٥٣٩
قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ...﴾ الآية (٢٠٠) ٥٤٠
الفهرس ٥٤٥

* * *

تحت الطبع . بمعونة الله تعالى

تفسير القرآن العظيم

للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير

رحمه الله تعالى

« ٧٠١ - ٧٧٤ هـ »

تحقيق

أبي إسحق الحويني

دار ابن الجوزي

تحت الطبع بمعونة الله تعالى

فتح القدير

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

تأليف

الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني

« المتوفى سنة ١٢٥٥ هـ »

تحقيق

أبي إسحق الحويني

دار ابن الجوزي

تحت الطبع بمعونة الله تعالى

الفقيه والمتفقه

للإمام أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي
« ٣٩٢ - ٤٦٢ هـ »
رحمه الله تعالى

تحقيق
عادل بن يوسف العزازي

دار ابن الجوزي

تحت الطبع . بمعونة الله تعالى

جامع بيان العلم وفضله

وما ينبغي في روايته وحمله

تأليف

أبي عمر / يوسف بن عبد البر

المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

تحقيق

أبي الأشبال الزهيري

دار ابن الجوزي

طبع بإشراف
دار الصحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ٥٠٠٦/١٣ شوران
بيروت - لبنان

١٦٥٨